سمير عطا الله

جنرالات الشرق

دور العسكريين الأجانب في العالم العربي بين الحربين

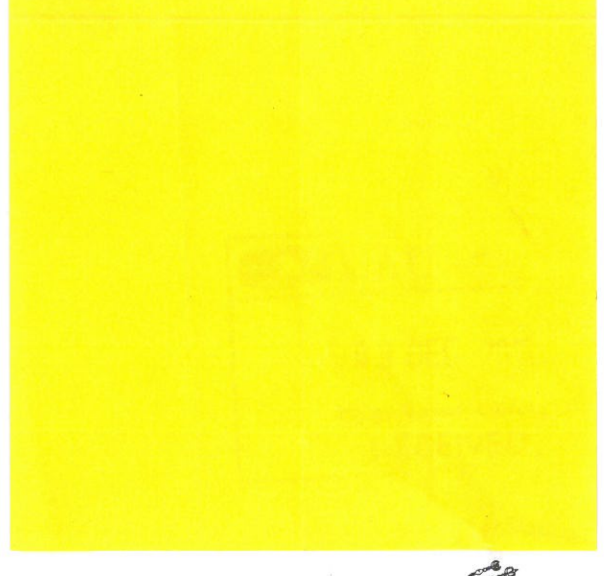


دار الساقي

سمير عطا الله

جنرالات الشرق

دور العسكريين الأجانب في العالم العربي بين الحربين





دار الساقي

صورة الغلاف: الماريشال فوش والجنرال ويغان (إلى اليمين)

الطبعة الأولى ١٩٩٥

ISBN 1 85516 594 5

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

إلى

رجا الصيداوي،

أخًا وصديقًا

المقدمة
شرق يبهر الغربيين

«الشرق الاوسط» ليس تعبيراً عربياً ولا اطلقه العرب على هذه المنطقة التي يعيشون فيها منذ التاريخ المعروف، او المدّون. الا انه نعت استخدمه الغربيون في توجههم شرقاً حتى الصين، وما لبث ان تحول بعد اندلاع الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى صفة سياسية شبه ثابتة تحدد اطاراً جغرافياً معيناً، يقصد به الاطار الذي يضم الدول المعنية مباشرة بهذا الصراع، وعلى وجه التحديد العالم العربي واسرائيل.

وقد تغيرت التسميات للمنطقة العربية مع تغير الظروف السياسية، فيها وفي الخارج معاً. وطوال قرون اشار علماء الجغرافيا الغربيون وسياسيوها الى الشرق العربي على انه «الشرق الادنى»، وذلك طبعاً قياساً الى مواقع بلدانهم، خصوصا الواقعة على حدود الاطلسي وغرب المتوسط، مثل بريطانيا واسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا والامارات الايطالية السابقة التي كانت على علاقة تجارية واسعة مع الشرق الادنى. على ان هذا التعبير التجاري والسياسي والجغرافي تبنته قوى اخرى، او بالاحرى القوى الرئيسية في تلك المرحلة: روسيا والنمسا والمانيا، خصوصا انها كانت تتجه نحو الشرق الادنى للاسباب نفسها.

لكن فيما كانت تحلم قوى ذلك العصر بالنفوذ التجاري او السياسي او كلاهما، جاء العثمانيون وبسطوا سلطة كاملة على هذه البقعة الهائلة. وحين بلغت امبراطوريتهم اوجها في القرن السادس عشر كان «الشرق الادنى» في حجم الولايات المتحدة الاميركية اليوم، يمتد الى جنوب اوروبا وغرب آسيا وشمال افريقيا ويربط المحيط الهندي بالمحيط الاطلسي ومنه الى المحيط الهادي! انها الامبراطورية التي كانت تشمل اجزاء من النمسا وهنغاريا ودول البلقان الخمس ومعظم الخليج والجزيرة والدول العربية المشرقية واجزاء من ايران وست من الدول السوفياتية السابقة وجميع الدول الافريقية العربية على ساحل المتوسط، وجميع

جزر المتوسط باستثناء مالطا وجميع الممرات البحرية المؤدية من المتوسط الى المحيط الاطلسي والمحيط الهندي.

حتى تفكك الامبراطورية العثمانية، الذي انتهى في اعقاب الحرب العالمية الاولى الى قيام الدولة التركية، استغرق اكثر من قرن ونصف القرن، ومع كل تفكك كانت تنشأ قضايا ومضاعفات بين الدول الاوروبية القادمة وبين الاتراك الراحلين، سميت القضايا الشرقية او المسائل الشرقية، وعرفها العرب بالمسألة الشرقية، للاختصار.

خلال المرحلة التي بدأت فيها دول البلقان في العثور على استقلالها او هوياتها، سحبت شبه جزيرة البلقان من تعبير «الشرق الادنى» واخذت تعرف بـ «جنوب شرق اوروبا». وفي هذه الاثناء ايضا بدأ الاوروبيون يستخدمون تعبير «الشرق الاوسط» في الاشارة الى المنطقة الواقعة بين الشرق الادنى العثماني وبين الشرق الاقصى، والتي كانت تضم بالتالي دولا غير متوسطية مثل ايران والهند وافغانستان.

الاميركيون ايضا استخدموا التعبيرين او التسميتين بطرق ودلالات مختلفة اذ يحدد ا.اي. سبايزر في كتابه «اميركا والشرق الادنى» (١٩٤٧) الشرق الادنى بأنه المنطقة التي تضم الدول الاعضاء في الجامعة العربية وفلسطين واسرائيل ولا تشمل حتى تركيا. وبالنسبة الى الجمعية الاميركية الشرقية فان الشرق الاوسط ليس سوى ايران والعراق. وفي مفهوم قسم الابحاث في وزارة الخارجية الاميركية بعد الحرب مباشرة كانت منطقة «الشرق الادنى وافريقيا» تعني افريقيا (فيما عدا الجزائر واتحاد جنوب افريقيا) واليونان وتركيا والعالم العربي وايران وافغانستان وبورما وباكستان والهند وسيلان (سري لانكا الان). وحين صدرت (١٩٤٦) ذي ميدل ايست جورنال في واشنطن قالت في افتتاحيتها الاولى إن «اهتمامنا سوف يركز على قلب المنطقة: تركيا، ايران، العراق، سورية، لبنان، فلسطين، شرق الاردن شبه الجزيرة العربية ومصر، ولكن ليس من دون العناية ايضا بالمناطق المتاخمة مثل مداخل المتوسط، في شمال وشرق افريقيا، بالاضافة الى بلاد القفقاس وافغانستان والهند وتركستان».

خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤١ - ١٩٤٦) كان «المركز المشترك للتموين في الشرق الاوسط»، التابع للاميركيين والروس والبريطانيين، يضم في عملياته: في آسيا، سورية، لبنان، فلسطين، الاردن، العراق، السعودية ، الامارات (آنذاك) المتصالحة، عدن، ايران، وتركيا. في افريقيا: مصر، السودان، اثيوبيا، اريتريا، الصومال، ولاية طرابلس وولاية برقة (ليبيا الآن). وفي المتوسط قبرص ومالطا. ولم يكن يضم تركيا بسبب (آنذاك) وقوفها على الحياد.

في العام ١٩٤٨ حاولت احدى اللجان الفرعية التابعة للامم المتحدة ان تحدد الدول المشمولة بتسمية «الشرق الاوسط» وتوصلت الى اللائحة التالية: اليونان، تركيا، ايران، افغانستان، الدول السبع الاعضاء في الجامعة العربية واثيوبيا. وقد انشئت من اجل هذه المنطقة لجنة دولية لمساعدتها في حقول التنمية. وبعد الاعلان عنها تقدمت باكستان بطلب للانضمام فقبلت، فيما رفض طلب مماثل تقدم به الاتحاد السوفياتي.

تبنى الاميركيون تعبير «الشرق الاوسط» الذي كان البريطانيون اول من استخدمه، ويبدو ان الفرنسيين وبقية الاوروبيين فعلوا الشيء نفسه تدريجيا. وفي العام ١٩٥٠ ابلغ رئيس الوزراء البريطاني اشلي مجلس العموم انه «قد اصبحت ممارسة مقبولة استخدام تعبير الشرق الاوسط بحيث يشمل العالم العربي وبعض البلدان المجاورة. وتبدو هذه الممارسة مريحة ولا ارى سببا لتغييرها». وحلت جامعة كولومبيا المسألة على طريقتها حين قال معهد الشرق الاوسط فيها بأنه من الافضل استخدام «الشرق الادنى والاوسط» في الاشارة الى كل المنطقة المعنية وتشمل اليونان وتركيا وايران وافغانستان والعالم العربي بما فيه المغرب واسرائيل، كما ضمت اليها باكستان بسبب اكثريتها الاسلامية وعلاقتها الدينية مع العرب.

***

ربما لم تعرف منطقة اخرى في العالم ما عرفه الشرق الاوسط من تقلبات وحروب وامبراطوريات وشعوب. لكن الثابت الوحيد عبر العصور ظل الشيء الوحيد الذي لا يتغير على الارض: الجغرافيا، ولذلك اطلق عليها ذلك الاستراتيجي الكثير التجارب، المسيو بونابرت، لقب «ام السياسات» . ولست اذكر على وجه الضبط ان كان قد قال هذا الكلام قبل ان تهزمه جغرافيا الشرق الاوسط ام بعدها.

التاريخ هو ايضا جغرافيا متحركة، ولا ادري إن كان هذا القول للمسيو بونابرت ام لغيره، وقد لعبت الجغرافيا الدور الاساسي في تاريخ الشرق الاوسط لسبب بسيط جدا: انها المنطقة الواقعة في قلب او في وسط العالم، حيث تلتقي ثلاث قارات وتتلاصق في البحر الوسيط هو ايضا، الذي سمي طبعا المتوسط!

حول هذا البحر، او من اجل الوصول اليه، تداخلت تواريخ المنطقة بعضها ببعض منذ حروب طروادة حتى منتصف هذا القرن! وحول وسط الارض والبحر المتوسط تجمعت شعوب منطقة الشرق الاوسط لكي ترد الهجمات القادمة من الشرق والغرب، او تقاتلت فيما بينها من اجل السيطرة على السيادة في هذه البقعة النادرة الجغرافيا، الوحيدة التاريخ. وفي تعبيره الاشمل يشكل الشرق الاوسط مستطيلا بين البحر الادرياتيكي ونهر الاندوس (Indus)، وبين البحر الاسود والمحيط الهندي. وتشمل سواحله ثلاث شبه جزر (اليونانية - البلقانية، العربية، والتركية) وثلاثة مضائق تربط ثلاثة بحار متقاربة: الادرياتيكي، الاسود،

والاحمر، بالاضافة طبعا الى المتوسط الذي يفتح او يسد المخارج الى المحيطات الثلاث. وفي هذه القارات الثلاث تجري الانهار التي قامت حولها حضارات المنطقة وارزاقها منذ العصور: النيل، الفرات – دجلة، والدانوب.

هذه الحقائق الجغرافية، القائمة منذ التاريخ، هي التي ادت منذ الجغرافيا والتاريخ، الى كل هذه الصراعات على المياه واليابسة والسلطة والسيادة والخيرات وطرق البهارات والحرير! لذلك قال بونابرت ما قاله بطرس الاكبر من ان الذي يحكم القسطنطينية يحكم العالم. لذلك ايضا ، كلاهما حاول ان يحقق ذلك واخفق. وحاول هتلر فيما بعد الوصول الى المتوسط واختراق قناة السويس لكن دبابات المارشال رومل احترقت في اكبر معركة عسكرية جرت على ارض المنطقة خلال الحرب العالمية الثانية (راجع الفصل المتعلق بمعركة العلمين).

الاباطرة الجدد تطلعوا الى الشرق الاوسط واكتشفوا الحقائق نفسها. وفي العام ١٩٤٧ سوف يقول الجنرال دوايت ايزنهاور إنه اذا اغلق المتوسط في وجه اميركا فسوف تذهب الى الحرب. وقبل سبع سنوات من هذا البيان كانت الحكومة الاميركية قد اعلنت ان استقلال دول الشرق الاوسط «ضروري بالنسبة الى امنها». ذلك ان الاختراعات الحديثة قد طورت وسائل النقل والاتصال بحيث ان الشرق الذي كان وسط العالم القديم اصبح في العام ١٩٤٠ «مركز الثقل في العالم الجديد»! وقائل هذا الكلام هو المستر فرانكلين ديلانو روزفلت! ذلك ان المتوسط، الذي يصل بين الاطلسي والهادي قد اصبح بالنسبة الى الولايات المتحدة في أهمية قناة باناما والبحر الكاريبي. وسوف يعود دوايت ايزنهاور الى القول في العام ١٩٥١ إنه «ليست هناك منطقة اكثر أهمية استراتيجية في العالم من الشرق الاوسط».

يصف الاستراتيجي البريطاني، السير هالفورد ماكيندر، الشرق الاوسط بأنه «قلب اليابسة في الجزيرة الاوروبية الآسيوية الافريقية».

في صيف العام ١٩٥٧ عقدت كلية «العلوم الدولية المتقدمة» في جامعة «جونز هوبكنز» في واشنطن حلقة دراسية خاصة حول «التوتر في الشرق الاوسط» كان بين خطبائها المستر روبرت شتراوس – هوبيه، مدير معهد الابحاث للسياسة الخارجية في جامعة بنسلفانيا، الذي قال ان تعبير «الشرق الاوسط» في السياسة الخارجية الاميركية يعني «مجموعة معقدة من المشاكل المتداخلة في الاستراتيجية والديبلوماسية والاقتصاديات الدولية اكثر مما يعني منطقة جغرافية». ويقول إنه «في غابر الزمان عندما ربضت بريطانيا بين السويس وممر خيبر، كان الشرق الاوسط يعني المشرق الى الغرب والهند الى الشرق وبحر قزوين الى الشمال وبحر العرب الى الجنوب. ومع ان مثل هذا «الشرق الاوسط» كان وهما جغرافيا فإنه كان

يؤمن تضمين عدد من المصالح الاقليمية للسياسة البريطانية، تماما كما ان «الشرق الادنى» كان يعني شبه جزيرة البلقان وتركيا والمشرق، ويتضمن مجموعة اخرى من المشاكل البريطانية».

بالنسبة الى الولايات المتحدة، يقول شتراوس – هوبيه، إن الشرق الاوسط يمتد من اثينا الى طهران ومن انقرة الى القاهرة.

«وقد اصبح التعبير اليوم عمليا اكثر من اي وقت مضى، فالشرق الاوسط هو الجهة الجنوبية المواجهة للحلف الاطلسي، وهو عالم القومية العربية، واكبر مخزونات النفط التي يعتمد عليها الغرب، والرابط الواهي للتحالفات التي تقيمها اميركا في جنوب شرق آسيا. ان الشرق الاوسط اليوم هو تلك الخريطة الجغرافية التي نتجت من انهيار الامبراطوريات الاوروبية وقيام القوة الاميركية والروسية.

بكلام آخر كان تحديد الشرق الاوسط في السياسة الخارجية الاميركية يعتمد الى حد بعيد على هواجسها السوفياتية. وقد عبر الدكتور شارل مالك، احد المنظرين الرئيسيين للرأي الغربي، عن هذا الواقع بالقول إن «ثمة تحالفا عضويا في المنطقة بين الشيوعية والقومية». وعلى الرغم من العداء التاريخي بين الشيوعية والقوميات، وهو ما بدا واضحا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في معظم جمهورياته السابقة، فإن السياسة السوفياتية استطاعت ان تضايق السياسة الاميركية في الشرق الاوسط اكثر من اي منطقة اخرى، فتحولت طوال عقود الى سياسة رد فعل بدلا من ان تكون سياسة فاعلة كما في مناطق اخرى. وخرج كل رئيس اميركي من البيت الابيض تقريبا وقد ترك خلفه المبدأ المعروف باسمه. وقد تأكدت اهمية المنطقة الاستراتيجية بالنسبة الى واشنطن في مبدأي ترومان وايزنهاور اللذين اتبعا الخط الامبراطوري البريطاني في القرن التاسع عشر: وراثة الامبراطورية العثمانية وابعاد روسيا عن الخليج، وهو امر لم يتغير مع التقدم التكنولوجي الطاغي الذي ظهر مع القوة الاميركية خلال الحرب العالمية الثانية.

في القرن التاسع عشر كان الهاجس البريطاني الاساسي هو الهند والخوف على الهند. وقد بدأ التغلغل البريطاني في الشرق الاوسط في مراحله الاولى كمجرد وسيلة لحماية الطريق الى الهند ثم تحول الى غاية في حد ذاته خصوصا بعدما تحولت قناة السويس الى جوهرة اخرى في التاج. وهكذا بدأت اهمية الشرق الاوسط بالنسبة الى الاميركيين على انه مجرد قاعدة في القوس الآسيوي الذي يصل حتى الصين والهند واليابان. لكن مع تعاظم الحاجة الى النفط تحول ايضا الى غاية في حد ذاته، خصوصا حين اشتدت التجاذبات بين الغرب والشرق قبيل قيام اسرائيل وبعدها وتغير ملامح المنطقة جذريا مرة اخرى. «الشرق الاوسط، مثل كل الساحات المتنازع عليها، يقول شتراوس– هوبيه، هو تربة

خصبة للنزاع». وهذه التربة الخصبة حولت الولايات المتحدة من متردد في بداية القرن الى متأن الى مندفع الى طرف. وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي بدا انه لم تعد هناك مهمة ولا عاد هناك عمل لوزير الخارجية الاميركية سوى النزاع – او الحل – في الشرق الاوسط.

خلافا لما كان الحال أيام الامبراطورية البريطانية، رأت السياسة الاميركية نفسها امام أربعة عناصر مختلفة ومتناقضة في الشرق الاوسط: الاول، الخوف من السيطرة السوفياتية والامتداد الشيوعي ، الثاني الصراع العربي التقليدي من اجل الزعامة، الثالث التصارع الغربي نفسه حول بقايا النفوذ التقليدي، والاخير الصراع العربي – الاسرائيلي الذي كانت اميركا فيه، مثل غيره، طرفا رئيسيا.

لقد عجّلت اميركا، كما عجّل المد القومي من ناحيته، في خروج الوجود العسكري البريطاني والفرنسي من المنطقة خصوصا بسبب الموقف الذي اتخذه ايزنهاور في السويس.

وكان الوجود العسكري الاوروبي سينتهي بالتأكيد باميركا او من دونها، لكن السياسة الاميركية كانت عنصرا في التعجيل، خصوصا بسبب مخاوفها من تقدم السوفيات الذين تخطوا بمسافات احلام بطرس الاكبر في المياه الدافئة!

في تلك الحلقة الدراسية في «جونز هوبكنز» تحدث ايضا نائب الاميرال روفنفن ليبي (R. Libby)، نائب رئيس العمليات البحرية، وربما كانت المطالعة التي ادلى بها تلقي بعض الضوء على الاهمية العسكرية للشرق الاوسط في الاستراتيجيا الاميركية، وقد بدأ الرجل حديثه بالقول «اعتقد اننا جميعا نتفق على اهمية الشرق الاوسط الاستراتيجية الكبرى بالنسبة الى العالم الحر». ويرد الاميرال ليبي اهمية المنطقة اولا الى انها صراع مستديم منذ بدء التاريخ البشري، والى انها كانت دائما عرضة لغزو الجيوش الاجنبية، لم تقع تحت حكم واحد الا ابان المرحلة العثمانية الطويلة. على ان هذه المنطقة تحولت الى نقطة ارتكاز وتجاذب عالمي او كوني في الحرب الاولى ثم عشية الحرب الثانية حين بدأ الحوار بين ستالين وهتلر على ان تظل المنطقة «الواقعة جنوب باطوم وباكو في اتجاه الخليج الفارسي، معترف بها على انها مركز طموحات الاتحاد السوفياتي».

ويقول ليبي إنه لو قدر لهتلر ان يدرك اكثر معنى القوة البحرية ولو انه كان اكثر اصغاء لنداءات رومل، لكان اتفق مع اليابانيين على عملية التفاف في محيط الهند وكان سير الحرب العالمية الثانية كله قد تغير.

تروي النقوش الحجرية فوق تلال انقرة قصة الشرق الاوسط من أيام الحثيين القدماء (١٥٥٠ ق.م) الى خطاب الامبراطور اغسطس الى رعايا روما المنقوش قرب انقرة في العام الرابع عشر م. الاسماء هناك: مصر، آشوريا، بابل، فارس، روا، وبعدها بيزنطيا

والامبراطورية العثمانية. وفي الطريق الضيق عبر جبل طوروس المغطى بالثلوج تروي النقوشات اليونانية والحجارة الرومانية كل وفقا لرؤيتها، حكاية الاباطرة الذين عبروا الممر: زينون والاسكندر الكبير، ومن بعدهما مارك انطوني، صديق القيصر، والامبراطور الروماني جوليان.

وفي لبنان تحكي النقوش والآثار حكايات لا نهايات لها عن القادة الذين جاءوا الى الشرق الاوسط خلف احلامهم وامانيهم التي عاش بعضها فترة ما وارتطم البعض الاخر في الصخور او انطفأ على السواحل. وقد جاءت اكثرية القادمين عبر اشهر ممرين مائيين في التاريخ: الدردنيل وقناة السويس. الاولى، طبعا ، هي الاكثر قدما وربما الاكثر اهمية. فقد ادى اغلاق قناة السويس بعد العام ١٩٦٧ في وجه الملاحة الدولية الى ان العالم اخذ يبحث عن بدائل لحركة النقل، خصوصا في حقل النفط، اما مضائق الدردنيل فلا يستطيع المرء ان يتصورها مغلقة من دون ان يحدث ذلك ازمة عالمية كبرى في السلم او في الحرب.

وبسبب التنافس الفرنسي – البريطاني – الروسي في الشرق الاوسط طوال قرنين على الاقل، توصل البريطانيون والفرنسيون الى قناعة بترك هذا الممر الدولي المائي في ظل الحماية التركية، ولكن من خلال اتفاقات ومعاهدات دولية (مؤتمر مونترو، سويسرا، العام ١٩٣٦). وقد انضم الاميركيون الى الموقف الاوروبي بعد الحرب العالمية الثانية، ودافعت تركيا عن حقها في السيطرة على الدردنيل منذ العام ١٣٥٦ وخاضت من اجل ذلك عشر حروب في قرن واحد. كما خاضت حربين بريتين ضد جيوش زاحفة من مصر في الجنوب: نابوليون في العام ١٧٩٩ ومحمد علي في العام ١٨٣٣ الذي وقف في بورسا على مقربة من المضائق. وخاضت تركيا خمس حروب ضد روسيا في الاعوام ١٨٠٦، ١٨٢٨، ١٨٥٣، ١٨٧٧ و١٩١٤. وخاضت تركيا حربين ضد قوى بحرية قادمة من المتوسط: ايطاليا في العام ١٩١١ والبحرية البريطانية – الفرنسية في الحرب العالمية الاولى. وتحالفت تركيا ٤ مرات مع بريطانيا وفرنسا ضد الخطر البري القادم من البلقان، كما تحالفت مرتين مع روسيا ضد الخطر البري القادم من مصر.

انتهى العمل في قناة السويس في العام ١٨٦٩ إلاّ ان تاريخها يعود الى اربعة آلاف عام. فقد امر الفراعنة بحفر قناة بين النيل وخليج السويس سميت «قناة الفراعنة» ثم اطلق عليها بعد ذلك اسم «قناة داريوس»، وفي النهاية سميت «قناة امير المؤمنين». وعندما سدت الامبراطورية العثمانية الطرق البحرية في وجه الآخرين، راح الاستراتيجيون الاسبان والبرتغاليون يبحثون عن طرق بديلة الى الشرق الاقصى، وهكذا اكتشفوا اميركا بطريق الصدفة.

في البداية كانت الحرب من اجل الشرق الاوسط تدور عادة حول الممرات المائية، الا انها تحولت فيما بعد الى التنافس على الطرق البرية ثم الخطوط الحديدية. وقد خطط العثمانيون مثلا للخط الحديدي بين الآستانة وبغداد من اجل ربط ارجاء الامبراطورية بالعاصمة الادارية ولاسباب استراتيجية ايضا. الا ان المشروع اثار حفيظة القوى السياسية المتطلعة الى المنطقة بلا استثناء. ولم تتطلع العواصم الاخرى الى هذا الطريق الثابت على انه مجرد مشروع زراعي او مبنى بلدي ضخم، بل رأت فيه طريقا للنفوذ السياسي والتوسع السياسي، بل طريقا الى الغزوات المقبلة والى احتلال المزيد من المواقع الاستراتيجية.

هذا الخط الحديدي، الذي يرسم في تصميمه خطا بيانيا للصراعات السياسية في اوروبا آنذاك، سماه البعض ايضا خط برلين - بغداد! ولذلك طبعا اسباب اخرى. فقد برز المشروع أول مرة حين تبناه البنك الالماني (دويتش بنك) في العام ١٨٨٨، حين التزم من الحكومة العثمانية اقامة الخط الحديدي للاناضول، بين اسطنبول وكونيا. وقد بلغ الخط انقرة في العام ١٨٩٢ وكونيا في العام ١٨٩٦. وفي العام ١٨٩٩ تمت الموافقة على مده حتى بغداد، لكن حتى العام ١٩٠٨ لم يكن قد وصل الا الى ايغرلي، وعند ذلك بدأ التفكير فيه كمشروع اوروبي مشترك (الماني - فرنسي - بريطاني) لتطوير الشرق الادنى. لكن سرعان ما تحول هذا المشروع الاقتصادي الى قضية سياسية بين القوى الاوروبية المتطلعة الى امكانات الشرق الادنى الاستراتيجية والطبيعية، فقد حاربه الروس على اساس انه يخدم «عدوهم التقليدي» الاتراك. وايده البريطانيون ثم حاربوه. وكذلك اختلف الموقف الفرنسي منه غير مرة.

ثمة ظاهرة ثابتة تقريبا في التاريخ وهي ان القوى القادرة على استخدام الطرق البحرية كانت غالبا تنتصر على الدول التي لا تملك سوى الطرق البرية. وبعض الامثلة على هذه القاعدة العامة: اليونانيون في طرواده، وهزيمة فارس (ايران) امام اليونانيين في معركة سالاميس وانتصار روما على قرطاجة. وقد انتصرت بريطانيا على اعدائها الاوروبيين وفرنسا النابوليونية بسبب سيطرتها او امتلاكها الطرق البحرية. وفي الحرب العالمية الثانية ظلت هذه القاعدة على حالها حين انتصر الحلفاء في المغرب العربي بسبب الدعم البحري، وحين اقامت اميركا «جسر الانتصار» بين المحيط الهادي والشرق الاوسط.

لقد اخفق وليم الثاني وفرنسيس جوزف في الحرب العالمية الاولى كما اخفق هتلر وموسوليني في الحرب العالمية الثانية لأنهم لم يملكوا في بداية هذه الصراعات الكبرى طرقا بحرية كبرى! لقد تكررت هزيمة هينسبك ونابوليون مرة اخرى. فقد هزم الاثنان على الرغم من كل الانتصارات في المتوسط من قبل اعداء يملكون التفوق في هذا البحر الرائع. ولم تكف هذه القاعدة عن تكرار نفسها في الشرق الاوسط على الدوام: مثل اليونانيين؛

الفرس؛ الاسبان؛ البرتغاليين؛ جنوى والبندقية في مواجهة العثمانيين. مثل الروس؛ الفرنسيين والبريطانيين في القرن التاسع عشر.

هذا القرن شهد بداية عصر الطيران الذي لا يخضع للامواج العاتية وحالة الطقس. لكن الطيران لم يقلل من أهمية الشرق الاوسط الاستراتيجية بل على العكس زاد فيها كثيرا. وفي مرحلة ما كانت القواعد الجوية البريطانية والاميركية تملأ المنطقة من المتوسط الى الاطلسي. وقد بدأ عصر الطيران مع عصر النفط والطاقة واعتماد الغرب على حقول المنطقة في حياته اليومية. وباكرا او مبكرا في العام ١٩٤٥ قال الملك عبد العزيز للرئيس الاميركي فرانكلين روزفلت حين التقيا على متن بارجة اميركية في السويس إن «الذي يملك الطريق الى حقول النفط الراكدة في الشرق الاوسط سوف يملك المقدرة على صنع الحرب او السلام». وقد وصف الجيولوجيون الاميركيون الشرق الاوسط بأنه «مركز وقلب انتاج النفط العالمي»، وقالوا إن فيه «اضخم احتياطي من النفط العالمي بما لا يستطيع احد تخيله» وأن البحث عن النفط هناك «هو اكبر مشروع اميركي للبحث عن الثروات الطبيعية في التاريخ».

كان جورج كليمنصو قد تطلع الى النفط من وجهة نظره ومن مصلحة فرنسا، ولذلك قال هو ايضا إن النفط هو «الكلمة الاخيرة في قضايا الحرب والسلام». وبسبب هذه الثروة اندفعت هذه المرة الشركات الغربية نحو المنطقة وليس الاساطيل. وفاز الاميركيون بحقول السعودية فيما تقاسموا مع بريطانيا حقول ايران. وفي العراق كانت هناك حصة اضافية للفرنسيين والهولنديين. ولايزال النفط، على الرغم من دخول العالم العصر الذري، هو العصب الاساسي للطيران والبحرية واي سلاح بري. كلما بدا ان اهمية الشرق الاوسط قد تنخفض كلما تبين انها اضافت الى نفسها اهمية اخرى.

***

منذ ان وعيت على القراءة وانا اقرأ او اسمع عن شيء اسمه «المسألة الشرقية» وحين كبرت قرأت كثيرا لكي استطيع ان احدد لنفسي ما هو معنى «المسألة الشرقية»، او «المسألة الشرق اوسطية» كما ذهب بعض الكتاب الاميركيين. وفي نهاية الامر توصلت الى قناعة، ازدادت او ترسخت مع حرب البوسنة في بداية هذا العقد، بأن المسألة الشرقية هي مسألة الاقليات المسيحية في الشرق الاسلامي والاقليات المسلمة في الغرب المسيحي. ومع ان بعض المؤرخين يفضل ان يرد المسألة الشرقية الى ما قبل الامبراطورية العثمانية فالواقع إنها مرتبطة بالترتيب والتراتب الجغرافي والتاريخي الذي رافق قيام الامبراطورية العثمانية ثم رافق تفككها منذ نهايات القرن الماضي، وها نحن نشهد في نهاية هذا القرن، كيف ان ترسبات الحقبة العثمانية تتفجر من جديد في بلاد البلقان والقفقاس على السواء.

يعنى «جنرالات الشرق» بالمرحلة الواقعة بين الحربين، اي المرحلة التي تكوّن خلالها سياسيا وجغرافيا، «الشرق الاوسط» في مفهومه ومنظوره الحالي. وبالتالي فإن «المسألة الشرقية» هنا هي ما يصفه الاميركي وليم ل. لانغر «بالترتيبات التي ظهرت في القرن العشرين ونشأت عن الحرب العالمية الاولى». ذلك ان الاحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في سورية وبلاد ما بين النهرين (العراق) احدثت تغييرا اساسيا في المفهوم الجغرافي والمعنوي «للمسألة الشرق اوسطية» كما تعارف عليها الغرب. وحين ظهرت القضية الفلسطينية كمأساة عربية وتحول ديموغرافي تسارعت الدول الكبرى الى الاعتراف به، وصار «للمسألة الشرق اوسطية» بعد اخر مختلف تماما. وبين قيام اسرائيل وتوقيع اتفاق ١٣ ايلول/سبتمبر ١٩٩٣ في حديقة البيت الابيض، كانت اي اشارة الى «قضية الشرق الاوسط» تعني بالضرورة القضية الفلسطينية والحروب التي خاضها العرب اولا من اجلها، ثم من اجل استعادة الاراضي العربية التي احتلت في العام ١٩٦٧.

على ان المسألة الشرقية في بداية القرن قامت يوم استطاعت بريطانيا، بمساعدة قوات كبرى من الهند واوستراليا ونيوزيلندة (تدعمها فرنسا الى حد ما) ان تهزم تركيا وحليفتها الاوروبية التقليدية، المانيا، ونتيجة هذه الهزيمة توقف فجأة الاندفاع الالماني نحو الشرق، او ما سماه الالمان (Drang Nach Osten) أي «البحث عن الشرق» ، كما تراجعت الامبراطورية العثمانية نحو بلاد الاناضول. ومع ذهاب تركيا العثمانية قامت او ظهرت أول مرة حركة القومية العربية، التي لقيت بادئ الامر تشجيعا من بريطانيا لكنها عادت فدخلت معها في صدام دموي خلال معارك الاستقلال. وقد ساهم العرب في الزحف البريطاني على فلسطين لكنهم اكتشفوا فيما بعد ان القوى الحليفة (١٩١٦) اي بريطانيا؛ روسيا؛ فرنسا؛ وايطاليا كانت قد عقدت اتفاقات سرية فيما بينها على تقاسم مناطق النفوذ بعد الانتصار على العثمانيين. وبموجب هذه الاتفاقات ينال البريطانيون العراق والفرنسيون سورية ولبنان ولا يكون الحكم العربي هناك اكثر من مظهر رمزي. لكن الفرنسيين والبريطانيين ما لبثوا ان تنازعوا فيما بينهم توزيع السلطة وانتهى الامر الى انتداب بريطاني في العراق وفلسطين وانتداب فرنسي في سورية ولبنان، ومن بين الانتدابات الاربع تحول انتداب فلسطين الى ما عرف بـ «وعد بلفور» في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، الذي ادى في نهاية المطاف الى قيام اسرائيل، لأن «الوطن القومي» الوارد في بيان بلفور اغفل عمدا الاشارة الى العرب كما اغفل تماما تحديد «الوطن القومي» وامتداداته.

اتفق المؤرخون الغربيون على القول إن «الشرق الاوسط ولد في النزاع». و«الشرق الاوسط» الذي نعرفه اليوم، اي الذي ولد من الحرب العالمية الاولى، كلف الغرب نحو ربع مليون قتيل من اجل الانتصار النهائي على الاتراك. ومع ذلك فإن الغرب ، الذي هو اوروبا آنذاك، اعتبر ان الجائزة تستحق هذا الثمن الباهظ في المال والارواح. لقد توسعت

الامبراطورية البريطانية في كل الاتجاهات وعلى كل الطرق المؤدية الى الهند، «جوهرة التاج»، كما انبسطت السلطة الفرنسية عبر المشرق وخلف احلام بونابرت. واذ طرح وودرو ولسون في واشنطن مبدأ تحرير الشعوب، لم تدخل لندن وباريس معه في مواجهة حول الأمر، بل كان من السهل تصوير الدورين البريطاني والفرنسي على انه سعي الى مساعدة العرب واليهود واليونانيين والارمن.

ولم يكن هذا استعمارا بل «انتدابا» مطابقا لكل شروط ومبادئ مؤتمر السلام. اي ان الدول العربية لن تكون «محميات» لدى الدولتين الكبريين وانما هي تحت «الوصاية» كما يمكن ان يحدث لأي عائلة في بيت واحد، الا ان العرب طبعا اخذوا الوعد بالاستقلال على انه وعد بالاستقلال، لا اقل ولا اكثر. وهكذا شهدت العقود التالية في الثلاثينات والاربعينات بداية الصراع العربي من اجل الحرية مقابل المحاولات البريطانية والفرنسية للمحافظة على هذه المواقع الاستراتيجية النادرة التي استثمرت فيها ارواح الرجال واموالهم.

هنا، في الشرق الاوسط، سوف يتعلم الغربيون مواجهة الحاجة الطارئة ليس الى الغزو بل الى الجلاء، اجلاء العسكر والرعايا على السواء. فالغزو عملية مبسطة واضحة لها قواعدها وقوانينها، اما الجلاء فهو معضلة لم تكن الدول التوسعية تحسب لها حسابا في السابق. بالاضافة الى هذه الامثولة التي ستتبع في كل مناطق العالم ومن قبل جميع الدول الكبرى فيما بعد، تعلمت لندن وباريس ايضا، او ازدادتا قناعة بأنه لا يمكن ترك شرق المتوسط من دون الحصول على ضمانات حاسمة للمنشآت النفطية والعسكرية على السواء، ذلك ان تحالفات الحرب الاولى بدأت تتغير تلقائيا. وها هم الايطاليون يغازلون الالمان الآن. وها هي روسيا السوفياتية تحاول ان تطرق بوابة المتوسط بيد من حديد تماما مثل روسيا القيصرية التي حلمت بالمياه الدافئة منذ بطرس الاكبر.

ولم يقتصر الصراع والتململ والقلق والمواجهة على العرب واهل الانتداب بل شهدت سورية واحدا من اسوأ الصراعات التاريخية بين بريطانيا وفرنسا ايضا.

ليس هناك احصاء حقيقي لعدد المعاهدات والاتفاقات والقرارات والعقود الدولية التي تداخلت في حياة الشرق الاوسط وتاريخه. لكن كما دار تاريخ النصف الاخير من القرن العشرين في الجدل حول تفسيرات قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (١٩٦٧) ومعانيه ومضامينه وبنوده، هكذا دار النصف الاول من هذا القرن حول معاهدة سايكس - بيكو ووعد بلفور، ولم يكن اقل منهما شهرة الجدل حول معاني «مؤتمر السلام» في باريس ومعاهدة سيفر ومعاهدة سان ريمو.

انعقد «مؤتمر السلام»، كما هو واضح من اسمه، بعد نهاية الحرب العالمية الاولى التي كانت الاختبار التمهيدي لعملية الدمار الكوني التي سوف تبدأ بعد ذلك بعقدين تماما. وقد

تنادى الى حضور مؤتمر السلام كل من استطاع الحضور! ديبلوماسيون وجنرالات وصحافيون ورجال دولة ومحترفو تطبيقات وسواهم. ولم يكن الشرق الاوسط القضية الاولى في التجمع الباريسي، لكنه كان حتما احدى الاولويات الرئيسية، كما كان الى حد بعيد «ضحية» القرارات الأخرى حول المانيا واوروبا الوسطى والقضايا التي كانت تشغل القارة آنذاك.

كان كل فريق يريد من مؤتمر باريس ما.. يريد! وقد اعلن لويد جورج في العاصمة الفرنسية ان كل ما يريده هو خير شعوب الشرق الاوسط وازدهارها، لكن الواضح انه كان يريد ايضا خير الامبراطورية وازدهارها. وقد بدا واضحا الآن ان جوائز الامبراطورية هي مصر والعراق وبعض الجزيرة العربية وفلسطين وايران وقبرص! اي معظم الشرق الاوسط باستثناء سورية ولبنان! اما جورج كليمنصو فقد كان يأمل بالسيطرة على مضائق الدردنيل، بالاضافة الى سورية ولبنان و«جنوب بلاد الاناضول»، كما كان يحلم بوضع «مستشار» فرنسي على كتف السلطان التركي شبيه «بالمستشار» البريطاني في مصر! اما الضيف الجديد والاكثر اثارة للاهتمام في المؤتمر فكان بالتأكيد الرئيس الاميركي وودرو ولسون الذي عبر الاطلسي على ظهر الباخرة «جورج واشنطن».

كان الرجال الثلاثة يحملون ثقل القرار الدولي، على الرغم من ان الولايات المتحدة لم تكن قد دخلت او وصلت الى الشرق الاوسط بعد! وبين الحاضرين ايضا كان الشريف فيصل الذي جاء الى المؤتمر يسائل البريطانيين عن وعدهم بالدولة العربية المستقلة. وتمثل الارمن بثلاثة وفود مختلفة. وجاء رئيس وزراء اليونان فينزيلوس يبحث عن «اليونان الكبرى» واستعادة الامبراطورية اليونانية بحيث تشمل الجزء الغربي من آسيا الوسطى واسطنبول ومضائق البوسفور. وحضر رئيس الوزراء الايطالي السنيور اورلاندو وفي ذهنه ان يعطى بين امور اخرى، جنوب غرب آسيا الصغرى ومنطقة ازمير! وبالاضافة الى كل هؤلاء السادة واحلامهم فإن هناك رهط من رجال المصارف واهل العلاقات العامة ومصدّري السندات وبائعيها! وفي القاعات المليئة بدخان السجائر الفاخرة والقصور القريبة من باريس تم بحث «مستقبل» الشرق الاوسط! الجميع كانوا هناك الا الاتراك الذين تحدث باسمهم الداماد فريد باشا مرة واحدة امام المجلس الاعلى للمؤتمر.

لم يأت الارمن وحدهم مختلفين الى باريس بل اليهود ايضا! فقد جاء حاييم وايزمان ومعه وفد من دعاة الفكرة الصهيونية للدفاع عن وعد بلفور وادراجه في البيان النهائي حول الشرق الاوسط، في حين وقف في وجههم وفد يهودي من اشهر اعضائه ادوين مونتاغو؛ كلود مونتيفيوري؛ جاكوبي شيف ولويس مارشال! وكان بين هؤلاء ايضا هنري مورغنتاو، السفير الاميركي السابق لدى الباب العالي وامين اللجنة الوطنية للحزب الديموقراطي، الذي

عارض الفكرة على اساس ان الصهيونية تعيق انصهار اليهود في المجتمعات الغربية. كما كان مورغنتاو يقول إن اقامة دولة صهيونية في فلسطين سوف يطرح مسألة الازدواجية الوطنية. وهكذا وقع مع ٢٩٩ يهوديا اميركيا اخر التماسا الى الرئيس الاميركي ولسون يناشده فيها عدم دعم قيام دولة يهودية.

لكن مؤيدي الفكرة الصهيونية هم الذين ربحوا عطف ولسون بالاضافة طبعا الى لويد جورج، الذي كان يخيفه ان يرى الاراضي المقدسة تحت «سلطة فرنسا الملحدة العلمانية»! وكان في ذهن السياسي البريطاني طبعا الابقاء على فلسطين كقلعة لحماية السويس والمصالح البريطانية الاخرى. وقد لعبت الحركة الصهيونية على الوتر الحساس اذ اخذت تتعهد علنا بابقاء الوطن القومي اليهودي ضمن الكومنولث البريطاني. وهكذا ضمنت بنود وعد بلفور معاهدات السلام واقرتها عصبة الامم.

كان مؤتمر باريس بداية الاطلالة الاميركية العلنية على المنطقة التي ستبعد منها النفوذ البريطاني والفرنسي. وبناء على اقتراح من المستر بليس، رئيس الجامعة الاميركية في بيروت، اقترح الرئيس الاميركي على المجلس الاعلى للمؤتمر تشكيل لجنة من ممثلين عن اميركا؛ فرنسا؛ بريطانيا؛ وايطاليا تذهب الى سورية؛ لبنان؛ فلسطين؛ والعراق وارمينيا للتحقيق في اوضاع هذه البلدان ، وتضع تقريرا يمهد للحكم الذاتي فيها. ووافق الايطاليون والفرنسيون والبريطانيون على الفكرة بادئ الامر لكنهم عادوا فغيروا موقفهم، فما كان من اميركا الا ان ارسلت مندوبيها في اللجنة وحدهما، وكانا المستر هنري كنغ، رئيس كلية اوبرلين والصناعي تشارلز كرين، وقد عرفت هذه بلجنة كنغ -كرين، وقامت في ربيع ١٩١٩ بجولة في سورية وفلسطين وتركيا ثم رفعت تقريرها في خريف ذلك العام وسط ترحيب عربي بمضامينه. غير ان فرنسا وبريطانيا وقفت في وجهه ثم اصيب وودرو ولسون بمرض شغله عن المسألة تماما.

لم يتوصل مؤتمر باريس الى قرارات نهائية حول الشرق الاوسط، وبدت «معاهدة السلام» الموعودة بعيدة التحقيق اكثر من اي وقت مضى. ومع اشتداد وطأة المرض على ولسون لم تعد واشنطن متحمسة للمشاركة في اي انتداب او وصاية خارجية. وكانت روسيا خارج الصورة. والمانيا والنمسا كانتا في مناخ الانكسار. وايطاليا كانت غارقة - كالعادة - في الانقسامات الداخلية واليأس! وهكذا بقيت مسألة الشرق الاوسط تلقائيا، في هذه المرحلة، بين يدي فرنسا وبريطانيا، مع ان الوضع سيتغير جذريا كلما اقترب العالم فيما بعد من طموحات اهل الحرب العالمية الثانية، في روما وبرلين وفيينا!

لكن الآن تحتل جيوش بريطانيا وفرنسا المنطقة برمتها، ومع انتشار قوات الجنرال اللنبي في مصر وفلسطين وسورية بدا واضحا ان لندن سوف تعتبر ضمنا أن الشرق الاوسط جزءا

نهائيا من امبراطوريتها، مع ان عددا كبيرا جدا من العسكريين الذين جندوا خلال الحرب كانوا يحلمون بالعودة الى الحياة المدنية، الأمر الذي ادى الى حركة تنقلات وتسريح واسعة في صفوف القوات البريطانية. وفي الاشهر الاخيرة من العام ١٩١٩ انسحبت الفرق البريطانية عن الساحل اللبناني وحلت محلها فرق فرنسية، الأمر الذي اكد المخاوف العربية بأن تقسيمات سايكس – بيكو قد وضعت لكي تطبق.

كانت الخلافات الفرنسية – البريطانية في حد ذاتها كثيرة الا ان الصراع الاكثر علانية تركز حول نفط الموصل. وكانت شركة النفط التركية (٧٥ بالمئة بريطانية ، ٢٥ بالمئة المانية) قد حصلت قبل اندلاع الحرب باسابيع في العام ١٩١٤ على امتياز للتنقيب عن النفط في الموصل، الا ان اتفاقات سايكس – بيكو جعلت الموصل تحت رعاية فرنسية. ومنذ العام ١٩١٨ بدأ البريطانيون محاولة تغيير الوضع القائم، بأن عرضوا اقتسام النفط مع فرنسا في المستعمرات الاخرى، لقاء ابقاء الموصل ضمن العراق. ومن اجل الاتفاق على التفاصيل سافر مفاوضو البلدين الى مدينة سان ريمو على الريفييرا الايطالية حيث ستسوي المعاهدة التي ستحمل اسم المدينة الجميلة اوضاع النفط والانابيب وما اليهما.

فتحت معاهدة سان ريمو الباب امام تسوية اوسع نطاقا مع الامبراطورية العثمانية، فكانت معاهدة سيفر في آب/اغسطس ١٩٢٠ التي بموجبها اقر الباب العالي بخروج سورية؛ لبنان؛ مصر؛ والعراق والجزيرة العربية من دائرة الامبراطورية العثمانية.

غير ان معاهدة سيفر انتهت قبل ان تبدأ، بل انها لم تقر تماما، ولذا كان لا بد «للترتيبات» النهائية في الشرق الاوسط من ان تنتظر معاهدة لوزان العام ١٩٢٣.

***

«لقد ولد»، هذا الشرق الاوسط، اذن، «في النزاع». وحين حلت بدايات القرن العشرين كانت آثار القرون الماضية لا تزال واضحة كالندوب على وجه المنطقة الجغرافي من اناضوليا، او بلاد الاناضول كما سماها العرب، الى البحر الاحمر، إذ قبل سبعة قرون تقريبا كانت موجات الغزو المغولي واوبئة الطاعون قد دمرت المدن وابادت الشعوب واجدبت الغابات وجففت قنوات الري، وحين جاء العثمانيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يفعلوا شيئا، او هم فعلوا القليل من اجل تغيير هذه الصورة المحزنة. وخلال خمسة قرون من الحكم العثماني لم تقم تلك الادارة المركزية التي تستطيع احياء قنوات الري ونشر الزراعة وحفر الآبار الضرورية. وباستثناء «الهلال الخصيب» الشرقي ودلتا النيل ظل العالم العربي جافا اجرد لا يزرع من ارضه اكثر من ٥ بالمئة، وظلت مواشيه وقفا على الغنم والماعز القادرة على العيش على اي نوع من العشب.

وقد انتعشت الآمال في ارض الامبراطورية مرحلة قصيرة مع قيام حركة «تركيا الفتاة» بين ١٩٠٩ و١٩١١، الا ان النتائج لم تكن بحجم التوقعات. ثم ما لبثت الامبراطورية نفسها ان انهارت واطل الغربيون من كل البوابات: فرق المشاة البريطانية – الهندية تدخل بغداد في اواخر العام ١٩١٧ وفرقة الخيالة البريطانية تدخل فلسطين في العام ١٩١٨ ورجال المارينز الفرنسيون ينزلون في بيروت في الاسابيع الاخيرة التي سبقت توقيع الهدنة! انه الغرب يرث «رجل اوروبا المريض».

لكن قبل ان يصلوا الى الارض نفسها كان الفرنسي جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس قد وقّعا اتفاقاً في شباط/فبراير ١٩١٦ على اقتسام المنطقة كمن يقتسم قطعة من الحلوى: سورية ولبنان لفرنسا، العراق وشرق الاردن لبريطانيا. ومن اجل منع اي «تعد» في المستقبل اقر هذا الاتفاق في مؤتمر سان ريمو الايطالية (قرب الساحل الجنوبي الفرنسي) في نيسان/ابريل ١٩٢٠ ثم اقرته عصبة الامم في جنيف في ايلول/سبتمبر ١٩٢٢. وقد عكس التعديل الوحيد الذي ادخل على اتفاقات سايكس – بيكو التفوق البريطاني العسكري في المنطقة حين اعطي الانتداب على فلسطين الى لندن بدلا من ان يعطى الى مجموعة من «الدول الحليفة».

كان «الانتداب»، بدلا من «الحماية»، اقرارا بالمساعدة التي قدمها العرب في ظل الشريف حسين، في حملة الجنرال اللنبي على القدس (راجع الفصل المتعلق به). لكن عندما حاول الملك فيصل ان يقيم مملكته في دمشق في العام ١٩٢٠، لجأ الفرنسيون الى تفسيرهم الخاص لبنود الانتداب فاقدموا على هدم نظامه ونفيه الى الخارج، فيما قمع البريطانيون في خريف ذلك العام حركة مماثلة في العراق.

«الانتداب» لم يكن انتدابا على الاطلاق. لقد كان حكما مباشرا مارسه البريطانيون والفرنسيون على السواء عبر نظام «المفوض السامي» الذي حل محل المتصرف العثماني، لكن الى جانب المفوض السامي سمحت «الاصلاحات» الاوروبية باقامة انظمة ادارية في بيروت؛ دمشق؛ القدس؛ عمان وبغداد تدير شؤون الأمن الداخلي (في الحالات العادية) والعدل والصحة وغيرها.

وبين العشرينات واواخر الثلاثينات كانت خريطة المنطقة قد تغيرت كما تغيّر شيء من مظهرها العام كذلك. اذ مع حلول العام ١٩٣٩ قامت شبكة من الخطوط الحديدية التي امتدت من البصرة الى بغداد ومن هناك الى انقرة كما شملت دمشق ويافا والقاهرة. واقيمت في الوقت نفسه شبكة من الطرقات وانشئت المستشفيات الحديثة وفتحت مئات المدارس الابتدائية والثانوية التي اعتمدت المنهج الاوروبي في الغالب.

وكان الفرنسيون، بسبب الحلم النابوليوني القديم، اكثر بذخا واكثر انخراطا في شؤون

التعليم، وحتى قبل حلول القرن العشرين كانت الحكومة الفرنسية تقدم الى ارسالياتها الدينية في سورية نحو ٨٠٠ الف فرنك في العام. وفي سنة ١٩١٤ كان نحو ١٢٠ الف تلميذ من اولاد المنطقة قد انخرطوا في المدارس الفرنسية. كذلك كانت الاموال الفرنسية التي صرفت في حقول اخرى تفوق في حجمها مصروفات بريطانيا المقابلة. اذ حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى كان الفرنسيون قد صرفوا نحو ٢٠٠ مليون فرنك على الطرقات والمنشآت العامة في سورية ولبنان. وبالتالي فان اتفاق «مؤتمر السلام» على جعل فرنسا دولة الانتداب فيهما كان امرا شبه طبيعي.

طبعا لم يكن لبنان الحالي قائما آنذاك. وبالتالي فان خريطة الانتداب الفرنسي على سورية كانت تغطي منطقة شاسعة مساحتها ٧٦ الف ميل مربع وتمتد من تركيا في الشمال الى فلسطين في الجنوب. وكان غرب سورية ومعه لبنان يضم اجمل قطعة على المتوسط وسلسلة من الجبال الشاهقة والانهر والاراضي الخصبة. اما سكان منطقة الانتداب الفرنسي الذين كان يبلغ عددهم ٣ ملايين نسمة في العام ١٩٢٠ فقد كانوا خليطا من الشعوب التاريخية كالعموريين والآراميين والحثيين والاكراد واليونانيين واليهود والاتراك والارمن والمصريين.

في هذه المرحلة مدت خطوط الهاتف والتلغراف بين المدن الرئيسية وطورت الحركة الزراعية في اراضي سورية الشديدة الخصب ووسع مرفأ بيروت بحيث اصبح احد اهم مرافئ الشرق واقيمت معاهد التنقيب عن الآثار. لكن في الوقت نفسه حاول الفرنسيون ان ينقلوا مدن فرنسا، بكل عاداتها، الى قلب المشرق العربي، وبلغ النفوذ الفرنسي (حيال العالم والعرب) اوجه في العام ١٩٢٠ حين اطيح بالقوة العسكرية في تموز/يوليو من ذلك العام بمملكة فيصل الاول التي لم تعش طويلا في دمشق ونفي الملك نفسه الى غير عودة. واذ عززت فرنسا قوتها العسكرية في سورية الى اقصى ما تستطيع، لم يكن هاجسها الحركة الوطنية فحسب بل كان هاجسها في الدرجة الاولى الخوف من ان يبعدها البريطانيون خارجا، وبذلك خالفت ايضا قوانين وبنود الانتداب الذي يفترض ان يكون موقتا.

اقام الفرنسيون في المشرق حكما متشددا لم يترك للوطنيين شيئا من السلطة سوى في ادنى مستوياتها. وقد نقلوا الى المشرق بذلك النظام الذي اقامه الماريشال لويس لايوتيه في المغرب. ومعظم الضباط الفرنسيين الكبار الذين حكموا في المشرق كانوا قد عملوا من قبل تحت امرة لايوتيه في المغرب ولعل اشهر هؤلاء كان الجنرال هنري غورو، اول مفوض سام في سورية ولبنان، والذي كان قد خلف لايوتيه في المغرب. كذلك كان الجنرال دولامونت الذي انتدبه غورو على مقاطعة حلب، قد جاء من منصب مماثل في مدينة مراكش. وبين

المسؤولين الآخرين الذين انتقلوا من مناصب في المغرب الى مناصب مشرقية، الكولونيل ادوار برومون والصحافي السابق روبير دولي الذي صار سكرتيرا مدنيا عاما.

كان النظام الانتدابي موسعا ومكلفا على صورة النظام القائم في باريس: ولا بأس ان نسهب قليلا في وصف هذه المرحلة، بسبب ما تعنيه لطبيعة الكتاب وفترته الزمنية. لقد كان المفوض السامي في الواقع بمثابة رئيس الدولة في التركيبة الفرنسية: هو المسؤول الاول في شؤون الدفاع والخارجية وهو الذي يقر او ينقض جميع القوانين الداخلية. وكانت مختلف قطاعات الحكم الاداري توضع تحت اشراف «السكرتير العام» المكلف تصريف الشؤون اليومية.

وقد سعت فرنسا الانتدابية بالدرجة الاولى الى تدمير او تفكيك ما اعتبرته «اسطورة» الامة السورية، فقسمت سورية الى دول اتحادية، في حلب وجبل الدروز ولواء الاسكندرون واللاذقية. الا ان النظام الاتحادي ما لبث ان اثبت فشله واعادت باريس العمل بالدولة المركزية في سورية في العام ١٩٢٤ لكنها ابقت جبل الدروز خارجها. كذلك ابقت «مستشارا» فرنسيا لكل مسؤول وطني في سورية ولبنان، واستمر القضاة الفرنسيون في ترؤس المحاكم كما استمر الضباط في ترؤس جيشي البلدين. وحتى اواخر الثلاثينات لم تكن سورية ولبنان فعليا سوى محميتين فرنسيتين.

كان البريطانيون في الذهن الفرنسي دائماً (وكذلك كان الفرنسيون دائما في الذهن البريطاني) ولذلك صرفت فرنسا من الاموال من اجل الجاه السياسي ما يفوق بكثير فائدتها الاقتصادية التي هي عادة قاعدة العمل الاستعماري. وعلى سبيل المثال كان حجم التجارة الفرنسية مع المشرق في العام ١٩٣٨ نحو ٣٠٠ مليون فرنك مع ان الانتداب كان قد كلف باريس ٥ مليارات فرنك ذهب اكثرها طبعا على التكاليف العسكرية (اربعة اخماس). وقد وصف موريس باريس مناخ الامبريالية الفرنسية في العشرينات بقوله: «من اجل ان نكون متفوقين في عالم المثل. من اجل ان نسيطر على عقولهم ونفوسهم، هذا هو هدفنا. ان الآخرين قد يتفوقون علينا في حقل المال او الحرب. لكن كل ما نطلبه هو الترحيب الذي يأتي من القلب»! لقد خسرت فرنسا معاركها العسكرية في اوروبا وها هي في المشرق تطلب «الترحيب» البديل، الذي يؤكد لها ان هزيمتها العسكرية لا تعني هزيمتها الحضارية ايضا.

لكن بالاضافة الى شاعرية موريس باريس، فإن فرنسا كانت ترمي من خلال وجودها في المشرق الى تحقيق مجموعة من الاهداف السياسية والاستراتيجية: المحافظة على وضعها كقوة متوسطية، حماية خطوطها البحرية والجوية الى الشرق الاقصى، والدفاع عن خط انابيب النفط الممتد من كركوك الى طرابلس الذي كانت كميات الوقود المتدفقة منه تزود

قواتها المسلحة. وفوق ذلك كله «كان من الاهمية القصوى بالنسبة الى فرنسا ان تحتل سورية فعليا، باعتبارها العصب المركزي للرأي العام السياسي العربي ومدى ما له من تأثير على الامبراطورية الفرنسية في شمال افريقيا»، كما يقول كتاب «اوروبا تغادر الشرق الاوسط».

بكلام آخر، كانت حكومات باريس المتعاقبة، في كل قرار تتخذه في سورية، تأخذ في الاعتبار رد الفعل في المغرب العربي، وبالتحديد في المغرب وتونس والجزائر، إذ من ناحية كان قمع الحركات الوطنية في سورية ولبنان يمكن ان يؤدي الى التململ في بلاد المغرب لكن من ناحية اخرى فإن تشجيع المطالب الوطنية في المشرق كان يمكن ان يؤدي ايضا الى مطالب مماثلة في المغرب.

على ان هذه الادارة المركزية المتشددة من ناحية، والاعمارية من ناحية اخرى، لم تحل دون انتفاض الحركة الوطنية في سورية. وفي ربيع وصيف ١٩٢٠ برزت موجة من الاعتراض القومي الذي بدأ في تحويل خط التاريخ السوري. وغالبا ما كانت الاخطاء السياسية الفرنسية تغطي الانجازات الادارية. وسرعان ما بدا انفصام هائل في «المهمة التمدينية» (Mission civilisatrice) التي رفعها الفرنسيون كشعار، إذ ملأ الجنود السنغاليون شوارع المدن السورية واللبنانية بالبنادق والهراوات. ونشرت مجلة «الصياد» يومها صورة كاريكاتورية لاتزال تفاخر بها وتعيد نشرها في مناسباتها الرئيسية، يبدو فيها رجل سنغالي يقف فوق صدر احد المواطنين ومعه حربة ويخاطبه بلغة فرنسية مكسرة قائلا: «لقد جئت لكي امدنك».

حاول الفرنسيون باساليب وطرق كثيرة، من الرقابة الى النفي الى العزل، الحد من تصاعد الحركة الوطنية التي تحولت الى ثورة عارمة في جبل الدروز في العام ١٩٢٥. ثم لجأت باريس الى اسلوب المراضاة حين اعطت لبنان في العام ١٩٢٦ دستورا جديدا والمزيد من الحكم الذاتي. وفي اعقاب الثورة السورية اوفدت الى المشرق مفوضا ساميا مدنيا هو هنري بونسو ومعه تعليمات بفتح باب التعاون مع المواطنين. وقد وضع بونسو صيغة الجمهورية اللبنانية الجديدة، لكن مشاريعه اخفقت في سورية التي اصرت على بقاء اللاذقية وجبل الدروز جزءا لا يتجزأ من وحدتها وعلى جلاء القوات الفرنسية فورا.

في العام ١٩٣٠ اصدر بونسو بيانا يعلن فيه قيام «الجمهورية» السورية وابقيت لفرنسا السلطة على الشؤون الخارجية والدفاع وامن الاقليات، وفي العام ١٩٣٢ انتخب اول برلمان سوري. لكن حركة الاعتراض استمرت بكل الطرق والوسائل طلبا للاستقلال الكامل، وقامت احزاب وتكتلات سياسية كثيرة تعارض الانتداب. وحين توفي رئيس حزب الكتلة الوطنية ابراهيم هنانو في كانون الاول/ديسمبر ١٩٣٥ تحول اضراب عام في دمشق الى

شبه ثورة امتدت الى جميع المدن الاخرى. وفقد الانتداب اعصابه امام الحدث وامر المفوض السامي الكونت دو مارتل باعتقال الزعماء الوطنيين وفرض الاحكام العرفية على كل البلاد.

الا ان ذلك ايضا لم يؤد الى حل. وفي هذه المرحلة كانت فرنسا قد بدأت تواجه الخطر النازي في اوروبا (سنعرض للدور الالماني في الشرق لاحقا) ولم يعد في بإمكانها ابقاء عدد كبير من الجنود في المشرق. وفي شباط/فبراير طلب الكونت دو مارتل من السياسي عطا الايوبي ترؤس الحكومة السورية. وكان الايوبي رجل اعتدال مقبولا من الحركة الوطنية. كذلك رتب دو مارتل، الذي كان مفاوضا قديرا، لتجديد المفاوضات حول المعاهدة السورية – الفرنسية ونظم رحلة الى فرنسا شارك فيها اربعة من رجال الكتلة الوطنية.

الا ان المفاوضات بدأت فاشلة من الاساس، إذ اصر الفرنسيون على ابقاء عدد كبير من قواتهم في البلاد وعلى فصل جبل الدروز عن سورية، وهي شروط رفضها الوفد السوري المفاوض بلا حساب مهددا بقطع الحوار، فما كان من دو مارتل الا ان طار الى باريس بنفسه في محاولة لتهدئة الاجواء. وفي حزيران/يونيو ١٩٣٦ وصلت الى السلطة في فرنسا حكومة الجبهة الشعبية التي كان وزير خارجيتها ايف ديلبو ونائبه بيار فينو، فكان كلاهما معروف بعدائه للفكرة الاستعمارية، فتجددت المفاوضات مع سورية ونجحت هذه المرة ووقعت المعاهدة السورية – الفرنسية بالاحرف الاولى في ايلول/سبتمبر من ذلك العام.

نصت المعاهدة على قيام شراكة تعاقدية بين دولتين مستقلتين مكان النظام الانتدابي. وكانت المعاهدة تشبه الى حد بعيد المعاهدة بين العراق وبريطانيا، ومصر وبريطانيا وتنص على «التشاور» في الشؤون الخارجية والمالية وحالة الحرب، حيث تعهد الوفد السوري بوضع كل الامكانات في تصرف فرنسا. كذلك اعطيت فرنسا بموجب المعاهدة الحق بقاعدتين جويتين وبابقاء جيوش فرنسية على الاراضي السورية مدة ثماني سنوات اخرى. وتحولت المعاهدة التي اقرها البرلمان السوري في ٢٧ كانون الاول/ديسمبر ١٩٣٦ الى اسس للتفاوض بين لبنان وفرنسا ايضا. مع ان الاتفاق الفرنسي – اللبناني تضمن مفارقات كثيرة بينها مدته (٢٥ عاما قابلة تلقائيا للتجديد ٢٥ عاما اخرى) ولم يحدد امكنة انتشار القوات الفرنسية.

ادى الاتفاقان بلا شك، لكن الى حين، الى استقرار النفوذ الفرنسي في المشرق، وارتاحت الى ذلك احزاب اليسار الوسط في باريس. وخلال توقيع الاتفاق السوري – الفرنسي تحدث بيار فينو عن مستقبل العلاقات مع سورية ولبنان قائلا إن الاتفاقين ضمنا كرامة واستقلال البلدين كما ضمن استمرار التعاون الفرنسي مع شعوب المشرق. انه التوازن الذي سيضمن الوجود الفرنسي لكن فقط لسنوات قليلة مقبلة.

كيف يمكن العثور على التوازن الصعب بين سلطة انتدابية وقبول شعبي في منطقة تغلي، منذ ذهاب العثمانيين، او بالاحرى في المراحل الاخيرة من وجودهم، بالتيارات والحركات الاستقلالية والوطنية؟ السؤال كان يطرحه البريطانيون على انفسهم كما كان يطرحه الفرنسيون. على ان البريطانيين حاولوا ان يطبقوا في العراق، قبل الفرنسيين في سورية ولبنان، ما اعتبروه التوازن المثالي. والعراق، مثل سورية ولبنان، او حتى اكثر منهما بقليل، كان يضم مجموعة من الاقليات والانتماءات المختلفة من اكراد واتراك ويهود وايرانيين وآشوريين وكلدان وغيرهم. وكان البريطانيون قد استكملوا احتلال العراق في نهاية الحرب العالمية الاولى وجعلوا الحكم في بغداد تابعا لادارة التاج في نيودلهي على اساس ان العراق اقليم هندي.

الا ان هذا الاسلوب الاستعماري المباشر كلف بريطانيا الكثير. وفي العام ١٩٢٠ قامت في ارجاء العراق ثورة عارمة فاقت الثورة السورية الامر الذي حمل لندن على ارسال تعزيزات قوامها ٢٥ الف رجل لتقمع التمرد الوطني. غير ان البريطانيين تعلموا في بغداد درسا سوف يطبقونه ما استطاعوا. وفي «مؤتمر القاهرة» الذي عقده في العام ١٩٢١ كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين لاعادة تقييم السياسة البريطانية في الشرق الاوسط قرر خبراء الشؤون العربية انه من الافضل تجنب الدور القمعي الذي لجأ اليه الفرنسيون. وبدلا من التسلح «بالحق الانتدابي» قرروا اتخاذ «مبادرة طيبة» بعرض الاتفاق او المعاهدة على العراقيين. ولم تكن هذه «المغامرة» خطيرة كما بدا للامبريالية بادئ الامر. فالعراق لم يكن مهما او حيويا بقدر ما كانت مصر بالنسبة الى خط الدفاع البريطاني الامبريالي. وفوق ذلك فإن تحميل النفقات العسكرية والادارية للعراق نفسه جاء في وقت كانت فيه لندن تعاني ضائقة اقتصادية داخل المملكة المتحدة. وهكذا وقعت المعاهدة في العام ١٩٢٢ واقرت بعد ذلك بعامين، وقد نصت على السماح بوجود عسكري اكثره جوي، وفي المقابل وافقت بغداد على العمل «بالنصيحة» البريطانية التي يقدمها المفوض السامي وادارته في العلاقات الخارجية والشؤون المالية الداخلية وحماية الأقليات.

كانت التجربة حسنة بالنسبة الى بريطانيا. وقد قبلت عصبة الامم علاقة المعاهدة على انها موازية للانتداب. وما لبث عدد الخبراء البريطانيين ان تزايد في اضطراد، فانضموا الى اولئك الذين بقوا هناك بعد انتهاء الحرب وراحوا يقيمون شبكة واسعة من الطرق والمواصلات، كما انشأوا عددا من المستشفيات واسسوا الشرطة وعملوا على تطوير الزراعة. وكان الاسلوب البريطاني في التعاطي مع المواطنين اكثر ليونة من الاسلوب الفرنسي. ومقابل مدرسة لايوتيه الصارمة في المغرب تعلم البريطانيون امثولاتهم في السودان ومصر، وعلى الرغم من ان الانجازات الفرنسية في المشرق فاقت بكثير المشاريع الاعمارية البريطانية، فإن العلاقة بين لندن وبغداد كانت اكثر سهولة.

على ان الملك فيصل الذي انتقل من سورية الى عرش العراق لم يكف عن مطالبة الانكليز بالاستقلال التام واعادة النظر في المعاهدة. وبالفعل وعد البريطانيون في العام ١٩٢٧ بدعم عضوية العراق في عصبة الامم مع حلول العام ١٩٣٢ «اذا بقي معدل التقدم على ما هو عليه». الا ان هذا الحافز لم يغر الشعب العراقي كثيرا. وازداد ايضا التذمر من تحمل المسؤوليات المالية عن المنشآت العسكرية البريطانية والالتزام بتكاليف اسراب السلاح الجوي البريطاني في الداخل، كما بدأ الجيل العراقي الصاعد يتذمر من وجود الخبراء البريطانيين وكثرتهم.

كانت التغيرات السياسية في باريس تنعكس على سياسة فرنسا في سورية ولبنان، وكانت التغيرات السياسية في لندن تنعكس على سياسات بريطانيا في العراق ومصر. وهكذا حين جاءت الحكومة العمالية برئاسة رمزي ماكدونالد في العام ١٩٢٩ قطعت وعدا بدعم طلب العراق لعضوية عصبة الامم في العام ١٩٣٢، والوعد لم يكن هذه المرة مرتبطا «بمعدل التقدم الحالي».

ومع ان الانتداب لم ينته بالسرعة المطلوبة الا ان عملية انتقال السلطة الى المواطنين سارت في نمط جيد. وبدا للمرة الاولى ان للحكومة الوطنية يدا شبه مطلقة في صرف المستشارين البريطانيين، الا ان حركة التظاهرات والاعتراض على السلطة الانتدابية لم تتوقف في اي حال، الامر الذي اقنع البريطانيين بضرورة عقد الاتفاق بعد مفاوضات صعبة انتهت في ربيع العام ١٩٣٠.

وكان ينص على السماح للبريطانيين بالعمل العسكري على ارض العراق في «حال الحرب او الحرب الوشيكة»، كما يسمح لهم، كما ذكرنا سابقاً، باستخدام الارض العراقية للعبور الدفاعي، وبقاء الضباط البريطانيين لاغراض التدريب. الا ان بغداد نفسها لم تعرف الكثير من الاستقرار السياسي في هذه المرحلة، إذ بين ١٩٣٢ و١٩٤٨ شهدتِ الحكومات ٤٥ تعديلا وزاريا، في حين ان البريطانيين لم يخسروا شيئا من المنافع الاستراتيجية. ومع توازن التجربة في العراق قررت لندن ان تنقل النموذج الى مصر.

اذا كانت مصر هبة النيل، كما قال هيرودوتس اول المؤرخين، فانها كانت ايضا الجوهرة الاخرى في التاج البريطاني بعد الهند: هنا ارض خصبة تمتد على مساحة ٣٨٣ الف ميل ولا يفوقها مساحة سوى المملكة العربية السعودية من جهة والسودان من جهة اخرى. لكن من حيث تعداد السكان فقد كانت مصر الدولة العربية الاكبر بلا منازع، إذ قارب سكانها ١٥ مليون نسمة في العام ١٩١٤. غير ان ١٣ الف ميل مربع فقط كانت قابلة للزراعة في عرض مصر كلها، فيما ابتلعت الصحراء مساحات هائلة من هذه الدولة

الواقعة بين المتوسط والبحر الاحمر على طرف افريقيا وفي الحد بين مشرق العالم العربي ومغربه.

وكان التنوع الاجتماعي في مصر شبيها بالتنوع في سورية والعراق. غير ان اكثرية السكان كانت من الفلاحين في عالم من الباشاوات و«العزب» او المزارع. وقد انتشر الفقر والأوبئة في الوسط الفلاحي، من البلهارسيا الى التراخوما خصوصا في وادي النيل. وسوف ننقل هنا ايضا من كتاب «اوروبا تغادر الشرق الاوسط» الذي يقول عن تلك المرحلة إن «من بين جميع الشعوب المستغلة والمتخلفة في الشرق الاوسط لم يكن هناك ما هو غارق في الاسى مثل المصريين».

اتخذت مصر هويتها وطبعها من ممرين مائيين لا مثيل لهما في العالم: النيل وقناة السويس! وكان النيل، الذي يبدأ مسيرة الاربعة آلاف ميل في وسط افريقيا، مصدر الحياة الاقتصادية في مصر منذ البداية. ومنذ التاريخ كان ثلثا سكان مصر دائما يعيشون ضمن هذا المستطيل الطبيعي الذي يشكل النيل والقناة (فيما بعد) البالغ طوله مئة ميل وميل واحد، وكما لعب النيل دورا في حياة المصريين لعبت القناة ايضاً دورها. وثمة نظريات تقول إن التكاليف الباهظة التي تكبدها الخديوي اسماعيل في اواخر القرن التاسع عشر في شق القناة هي التي ساهمت الى حد بعيد في افلاس نظامه، وحمله على تسليم آلية الضرائب والجباية الى المراقبين الانكليز والفرنسيين.

وفي العام ١٨٨٢ حين اقدم غلادستون على ارسال تعزيزات بريطانية لقمع الحركة الثورية التي قامت في الجيش المصري «وجد القنصل البريطاني العام السير افلين بيرينغ نفسه بين ليلة وضحاها الرجل الفرد الاكثر نفوذا في كل مصر». وقد اعطي بيرينغ (الذي اصبح فيما بعد اللورد كرومر) كل الصلاحيات «الاستشارية» من اجل «توجيه» اعمال الحكومة المصرية! لقد كانت تلك العلاقة «الاستشارية» بداية الحكم البريطاني المباشر.

بين العام ١٨٨٣ و١٩٠٧، العام الذي ذهب فيه الى التقاعد، استحدث كرومر، عبر «النصائح»، بعض اصلاحات مصر الادارية المدنية. والواقع ان الخزينة المصرية في ايامه عادت الى وضعها الطبيعي بسبب الضرائب التي فرضها والخفض في المصروفات. وفي هذه المرحلة ايضا تضاعفت مواسم السكر والقطن ثلاث مرات. واقدمت مصر باشراف كرومر على توسيع نظام الري الذي بدأه محمد علي وتم في العام ١٩٠٢ بناء اول سد في اسوان، فبدأ مالكو الاراضي المصريون الاستفادة من مياه النيل خلال الصيف أول مرة. وطرأت تحسينات اخرى على مستوى المعيشة في مصر مع ان المستفيدين منها كانوا قلة.

على ان احتلال السودان، الذي كان جزءا من مصر منذ العام ١٨٢٢، تم بصورة

مختلفة. فقد استخدم البريطانيون المواجهة المسلحة ضد ثورة المهدي ثم عادوا فاستخدموا القوة في العام ١٨٩٨ بقيادة الجنرال هوراشيو هيربرت كيتشنر. ومن اجل ان تمنع اي تسلل فرنسي في المستقبل الى السودان ومصر عقدت بريطانيا اتفاقا اصبح السودان بموجبه دولة ذات حكم ذاتي تعتمد على مصر وبريطانيا معا، لكن ذلك لم يكن سوى غطاء للحكم البريطاني المباشر.

في غضون ذلك استمرت لندن في توسيع حكمها ونفوذها في مصر. ومن خلال قناة السويس استطاع البريطانيون ان يخفضوا كلفة طرقهم البحرية الى الشرق الاقصى بنحو الثلثين وكذلك الوقت. وسرعان ما تحول هذا الممر المائي الى شريان حيوي في ارتباط بريطانيا بالهند التي كانت قد اصبحت في العام ١٩١٣ سوق بريطانيا الاولى، وفي النصف الاول من القرن العشرين كان نصف الجيش البريطاني يتمركز في الهند، كما ان معظم ضباط الجيش الهندي الكبار كانوا من البريطانيين: لقد اصبحت قناة السويس بلا شك بوابة شبه القارة الهندية.

إذن، ما كان قد بدأ محاولة احتلال لحماية الاستثمارات والمكاسب الاوروبية في مصر تحول الى احتلال استعماري هدفه ضمان امن بريطانيا البحري! بل إن مصر كانت خلال الحرب العالمية الاولى تشكل الفارق بين الخسارة والربح. فقد مر عبر القناة ٧٥٠ الف جندي من القوات الامبراطورية (بريطانيون، هنود، اوستراليون، نيوزيلنديون) في طريقهم الى الجبهات الاوروبية والعثمانية خلال ٤ سنوات ونصف السنة من القتال. ولم تؤد الحملات التركية على القناة في العامين ١٩١٥ و١٩١٦ الا الى تأكيد اهميتها الاستراتيجية لدى البريطانيين. ولذا ما ان اندلعت الحرب حتى الغت بريطانيا كل غموض في علاقتها مع مصر واعلنتها محمية لها.

كانت بريطانيا تهدف من خلال ذلك الى انهاء العلاقة العثمانية بمصر. غير انه في هذا الوقت كانت الحركة الوطنية تتململ داخل البلاد. ولم تكن هذه الحركة مقتصرة على الطبقة العاملة بل هي انتشرت خصوصا في صفوف الصناعيين والاغنياء الذين رأوا - كما يقول جان لاكوتور - إن بريطانيا لن تسمح لهم بالتوسع في اعمالهم التجارية بسبب مصالحها في هذا المجال.

قامت حركات استقلالية كثيرة قبل الحرب العالمية الاولى ايضا وقد واجهتها بريطانيا ببعض «التنازلات» الادارية كمثل الجمعية التشريعية التي قامت في ظل كيتشنر لكنها عُلّقت خلال الحرب، كما اغلقت الصحف وسجن السياسيون او ابعدوا الى المنفى. «وبعدما انتهت الحرب عمت النقمة الشعبية الراكدة مصر وأعرب الناس عن الثأر الكامن منذ وقت

طويل، وكل ذلك في بلد معروف سابقا بأن شعبه هو الاكثر لطفاً ووداً في الشرق الاوسط».

عثرت الحركة الوطنية على زعيمها خلال الحرب: سعد زغلول باشا! كان سعد زغلول باشا محامياً عادياً من ابوين فلاحين، وسيماً، طويل القامة، والمع خطيب في حياة مصر آنذاك. وكان قد تزوج من ابنة مصطفى فهمي باشا، رئيس الوزراء في ظل كرومر، كما عمل فترة طويلة وزيرا للتربية ايام كرومر واصبح بعدها وزيرا للعدل ونائبا لرئيس المجلس. ولذلك نظر الكثيرون الى سعد زغلول بادئ الامر على انه متعاون مع البريطانيين. لكنه ما لبث ان برز كزعيم وطني فريد تسير خلفه مصر الطامحة الى الاستقلال. واكثر ما اثار سعد زغلول ورفاقه ان تكون لفيصل الاول حكومته في سورية وان تبقى مصر، التي انضمت الى الحلفاء منذ اندلاع الحرب، مجرد محمية بريطانية.

حين انتهت الحرب طلب سعد زغلول من السير ريجينالد وينغيت، المفوض السامي البريطاني، الحق بأن يذهب الى لندن لطرح قضية مصر، فوافق وينغيت ورفضت لندن. فقامت في إثر ذلك حركة اعتراض واسعة النطاق نفى البريطانيون سعد زغلول ورفاقه الى مالطا. لكن التظاهرات لم تتوقف في القاهرة والاسكندرية الامر الذي حمل البريطانيين على ارسال تعزيزات لقمعها. وفي العام ١٩١٩ اعدمت السلطات البريطانية بالرصاص نحو ٣٠ وطنيا اتهموا بنسف المنشآت. ومع ان نفي سعد زغلول لم يطل الا ان الاحتجاجات استمرت بعد الافراج عنه وعن رفاقه، وفي نهاية الامر ارسلت لندن الى القاهرة «لجنة تحقيق» برئاسة اللورد ميلنر كان يعتقد انها سترفع توصية بجعل مصر «دولة ذات حكم ذاتي تحت الحماية البريطانية» لكنها بدلا من ذلك اوصت بالاستقلال الفوري.

لكن الاستقلال سيكون مربوطا، او مشروطا، بالتأكيد، بمعاهدة تحالف تنص على ان «توجه» بريطانيا سياسة مصر الخارجية وان تحتفظ بوجود عسكري دائم لحماية الطرق ووسائل المواصلات الامبراطورية وان يكون لها الحق في حماية بعض الاجانب القاطنين في البلاد! هذه الصيغة التي تمت في العراق، عرضت ايضا على الحكومات المصرية المتعاقبة بين العامين ١٩٢٠ و١٩٣٦.

إلاّ أن الاقتراح البريطاني لم يلق الترحيب المطلوب في القاهرة. وسافر سعد زغلول الى لندن هذه المرة ليبلغ السلطات ان اقصى ما يمكن ان تقبل به الحركة الوطنية هو ان تبقى القوات البريطانية في منطقة القناة وحدها، كما اصر على ان جميع الاجانب يجب ان يكونوا خاضعين للقوانين المصرية، وطالب بأن تشارك الحكومة المصرية في ادارة شؤون السودان. غير ان لندن المزهوة بالانتصار في الحرب رفضت مطالب الزعيم المصري،

خصوصا في ما يتعلق بالسودان، لأن عقلها كان على النيل الذي لم ترد ان يقع تحت السلطة المصرية وحدها.

كانت قضية استخدام مياه النيل قد اثيرت أول مرة في العام ١٩١٣ عندما شرعت حكومة الخرطوم في بناء سد للمياه عبر النيل الازرق. وقد اثار ذلك فزع مصر من ان تمنع السودان تدفق النهر العظيم وتتركه يخصب في اراضيها وحدها! لقد كان القطن وكانت مواسم القطن هي كل شيء بالنسبة الى مصر آنذاك. وعشية الحرب الاولى كان القطن، يشكل ٩٤ بالمئة من مجموع الصادرات المصرية كلها. ويبدو ان اللورد ميلنر (وزير المستعمرات) لم يغفل هموم مصر، اذ اقترح في الملحق الذي وضعه عن تحقيقاته، انشاء لجنة مصرية – سودانية «تضمن حصول البلدين على الكميات الكافية والمضمونة من المياه». لكن الانذار المبطن كان واضحا ايضا: لا بد من احترام كرامة السودان كدولة منفصلة.

ظل البريطانيون والمصريون منقسمين حول موضوع السودان بقدر انقسامهم حول استقلال مصر. وشعر ميلنر عن قرب بمدى تغير الازمان حين اجتمع الى الجنرال اللنبي، الذي اصبح مفوضا ساميا في مصر، واقرا معا بأن كلمة «محمية» اصبحت عبئاً ثقيلاً جدا في زمن «الانتداب» و«المعاهدات». فاذا لم يكن سعد زغلول مستعدا للقبول بعد الان بالشروط البريطانية، لا بد لميلز واللنبي اذن من انهاء وضع «المحمية» من جانب واحد، وقد فعلت لندن ذلك حقا في شباط/فبراير ١٩٢٢ اذ اعلنت مصر دولة مستقلة لكن البريطانيين احتفظوا لانفسهم ب(١) المحافظة على سلامة الاتصالات الامبراطورية و(٢) الدفاع عن مصر ضد كل عدوان خارجي و(٣) حماية المصالح الاجنبية والاقليات في مصر و(٤) الابقاء على الوضع الخاص للسودان.

قبلت الحكومة المصرية الاعلان البريطاني على اساس النوايا الحسنة وانصرفت على الفور الى وضع دستور وطني. وفي اذار/مارس ١٩٢٣ اعلن السلطان فؤاد ملكا على مصر (والسودان) . وبعد اشهر صدر قرار ملكي بالدعوة الى انتخابات عامة! خلال الفترة الانتقالية هذه انتقد سعد زغلول التدخل البريطاني المباشر في شؤون مصر لكنه قبل قضية الدعوة الى انتخابات عامة متزعما حزب الوفد في المعركة، وبالفعل فاز الوفديون في انتخابات ١٩٢٤ باكثرية ساحقة واصبح سعد زغلول رئيسا للوزراء في كانون الثاني/يناير من ذلك العام، غير انه لم يكف عن معارضة السلطة البريطانية في مصر والسودان معا.

توفي سعد زغلول باشا في العام ١٩٢٧ وترأس حزب الوفد مصطفى النحاس باشا، اقرب مساعديه. وفي ايامه وقّع البريطانيون مع السودان ومصر اهم الاتفاقات (١٩٢٩) حول اقتسام مياه النيل بين الدولتين. كذلك راح الملك فؤاد يطيح بالحكومات الوفدية. وانصرف المصريون الى حين عن الصراع مع بريطانيا التي راحت تتفرج على الصراع بين القصر والوفد.

لم يكن الساسة المصريون في تلك المرحلة يعتقدون ان بريطانيا يمكن ان تجلو عن القناة، اما مصر نفسها فان جميع السياسيين طالبوا بريطانيا بالجلاء عنها. بشكل أو بآخر. فاذا كان النيل رئة مصر فان القناة كانت رئة الكومنولث. وكانت اهمية القناة كشريان تجاري تزداد مع السنين وليس العكس. وفي العام ١٩٣٥ بلغ معدل السفن التي تعبرها نحو ستة آلاف ناقلة حمولة ٣٢ مليون طن نصفها تماما، اي نصف السفن ونصف البضائع بريطاني. وبالاضافة الى الاهمية التجارية، كانت القناة تؤمّن للبحرية الملكية سرعة الوصول الى جميع المستعمرات وبالتالي تربط فيما بينها وتضمن ولاءها. كما كانت القوات المتمركزة في القناة تدعم النفوذ البريطاني في حوض المتوسط برمته وتعززه.

وكانت بريطانيا قد استثمرت حتى العام ١٩٣٥ نحو ٤٠٠ مليون جنيه نصفها في مصر وحدها، في البنوك والقطن والشركات العقارية وغيرها. وكانت «الطريقة المثلى» لحماية هذه المصالح، الوجود البريطاني العسكري على ضفتي القناة وفي الموانئ الاخرى، وهكذا شكّلت القناة عنوانا دوليا هائلا بالنسبة الى بريطانيا كدولة تجارية ودولة عسكرية معا.

لقد علق في اذهاننا جميعا ان الدول «الاوسطية» في اوروبا كانت بريطانيا وفرنسا، لكن الواقع ان الدول التي حاولت الوصول الى الشرق والبقاء فيه لم تكن اقل اهمية، ولعل الخوف من مطامع موسوليني، الذي احتل اثيوبيا وارتكب فيها فظاعات لا تنسى، هو الذي دفع حكومة الوفد في مصر او اقنعها بالابقاء على علاقات «عادية» مع بريطانيا. فقد شعرت مصر بعد وصول الدوتشي وقواته الى اديس ابابا ان طموحاته لن تتوقف هناك. كذلك كانت القاهرة تدرك ان ثلاثة من الانهر الرئيسية التي تصب في النيل (النيل الازرق، اتابارا ، سوبات) تنبع ايضا من اثيوبيا.

كانت بريطانيا تخشى بدورها احلام موسوليني التوسعية ليس فقط في افريقيا بل في كل مكان. الا ان اتفاقها مع مصر كان يمنعها من نقل المزيد من الدفاعات والاسراب الى الاراضي المصرية الا في حالة الحرب، كما انها اصبحت اكثر حرصا الان على الا تحرك التململ في اوساط الشعب المصري. وهكذا بدا البحث عن اتفاق او معاهدة جديدة في مصلحة الفريقين. لكن قبل ان تبدأ المفاوضات المتفق عليها في العام ١٩٣٦ توفي الملك فؤاد وخلفه ابنه، الملك فاروق، فاجريت انتخابات جديدة نال فيها الوفد ايضا الاكثرية الساحقة، وكلف مصطفى النحاس باشا تشكيل الحكومة الجديدة.

من غرائب المصادفات التاريخية انه حين بدأت المفاوضات مع حكومة النحاس في لندن كان وزير خارجية بريطانيا انذاك السير انطوني ايدن «الذي اظهر الكثير من التفهم والتآلف». وبعد عشرين عاما تماما سوف يقود ايدن الحملة على مصر في حرب السويس. لكن هذه المرحلة لا تعني المقدمة ولا الكتاب في اي حال.

في ٢٦ آب/اغسطس ١٩٣٦ وقّعت مصر وبريطانيا معاهدة التحالف وكان اهم بند فيها بالتأكيد ان الاحتلال البريطاني لمصر انتهى. فقد اعترفت لندن رسميا الان بسيادة واستقلال مملكة مصر كما تبنت طلب مصر للانضمام الى عضوية عصبة الامم. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد بريطانيا تمثل في القاهرة بمفوض سام بل بسفير. واحتراما لسيادة مصر وافق البريطانيون على سحب قواتهم من التجمعات السكانية، خصوصا من القاهرة والاسكندرية.

مقابل هذه «التنازلات» حصلت لندن على مكاسب لا تقل اهمية على الاطلاق، منها السماح للسلاح الجوي البريطاني باستخدام الاجواء المصرية متى شاء في حالات الحرب والسلم. كذلك منحت اسراب وسفن السلاح الجوي الملكي في المتوسط حرية غير محدودة باستخدام ميناء الاسكندرية. وحتى في زمن السلم سمح لنحو عشرة آلاف عسكري باتخاذ مواقع على ضفتي القناة، كما سمح للطائرات البريطانية باستخدام مدرجات للهبوط في المنطقة. وتعد المعاهدة بالدعم المصري الكامل وحرية استخدام الاراضي والمياه المصرية وجميع الموانئ والطرق «في حال الحرب او خطر الحرب». وتجنبت المعاهدة بصورة عامة الاشارة الى موضوع السودان، الا ان التنازل الذي اعطي لحساب مصر هو النص القائل بأنه يتعين على بريطانيا تسمية موظفين مصريين او بريطانيين في السودان، في حال عدم توافر الكفاية في موظفين سودانيين لمناصب ادارية معينة. كذلك رفعت قيود الهجرة المصرية الى السودان.

كانت هناك مسألة اكثر اهمية بالنسبة الى كرامة المصريين هي مسألة الامتيازات المعطاة للاجانب منذ ايام الحكم العثماني. وبموجب هذه الامتيازات كانت هناك حقوق قضائية ومالية خاصة للاوروبيين. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان الالوف من اليونانيين والايطاليين والفرنسيين والبريطانيين يشكلون دولة ضمن الدولة في مصر، اذ سيطروا على التجارة والاقتصاد دون ان يكونوا مسؤولين تجاه المحاكم المصرية. وفي اواخر القرن الماضي انشئت محاكم مشتركة من الاوروبيين والمصريين لكن السيطرة الاوروبية لم تتغير. وحتى حين الغت تركيا مصطفى كمال سياسة الامتيازات في مؤتمر السلام الذي عقد في لوزان في العام ١٩٢٣ ظل معمولا بها في مصر! المعاهدة المصرية – البريطانية الجديدة وضعت الخاتمة لهذا الفصل من السياسة الاستعمارية وبدأت الاستعدادات لالغاء المحاكم المشتركة. اما مدة المعاهدة فكانت ٢٠ عاما.

تم الاحتفال بتوقيع المعاهدة في ١٠ داوننغ ستريت بحضور مندوبين عن الاحزاب المصرية الثلاثة عشر. ومن دفاتر التاريخ ايضا ان انطوني ايدن القى يومها كلمة جاء فيها «ان مناسبة توقيع هذه المعاهدة هي المرة الوحيدة التي ظهرت فيها صورتي على مجموعة من الطوابع البريدية وكانت هذه طوابع مصرية». وفي تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام اقر البرلمان في البلدين المعاهدة باكثرية ساحقة، لقد انتهى بذلك ٥٤ عاما من الاحتلال

البريطاني لكن استقلال مصر الكامل كان لايزال مسألة مؤجلة.

***

ثمة دولة عربية ثالثة كانت مرتعا للانتداب البريطاني، لكن هذه المرة لن تكون هناك معاهدات ولا حلول. هنا سوف يخرج الانتداب وتخرج معه، الى زمن طويل، الدولة التي كانت في عهدته: فلسطين!

تكرارا، يعنينا في هذه المقدمة، من الموضوع الفلسطيني كما من غيره، مرحلة ما بين الحربين، اي المرحلة التي ادت في نهاية المطاف الى تكوين الشرق الاوسط بصورته الحديثة وشكله الحالي! من حيث المساحة او الجغرافيا كانت فلسطين اصغر دول الانتداب العربية! من حيث الحقيقة، كانت اكثر مشاكل العالم تعقيدا خلال نصفي القرن العشرين. انها القضية التي ستظل مطروحة بين العرب والغرب، بشكل أو بآخر، حتى نهايات القرن.

كان الالتزام «الادبي» البريطاني الاساسي بعد الحرب العالمية الاولى مساعدة اليهود في اقامة «الوطن القومي»، وقد اعطى هذا الالتزام بالوعد الذي اطلقه وزير الخارجية بلفور الى الحركة الصهيونية في العام ١٩١٧، وهو بيان ضُمِّن تقريبا بنصه الحرفي في الانتداب الذي اعطته الدول الكبرى لبريطانيا في مؤتمر سان ريمو في العام ١٩٢٠ والذي كررته عصبة الامم في مؤتمر جنيف العام ١٩٢٢.

نتيجة التوافق الدولي على الوقوف الى جانب مشروع الحركة الصهيونية الاساسي، تعدلت ايضا الاتفاقات التي كانت قائمة بين بريطانيا وفرنسا خلال الحرب، واستطاعت الاولى ان تبسط نفوذها على رقعة اكثر اتساعاً. فقد نجحت حكومة لويد جورج، ليس فقط في ابعاد الفرنسيين عن شبه جزيرة سيناء، بل ايضا في تعبئة الدعم اليهودي داخل الولايات المتحدة من اجل اقامة محمية بريطانية في فلسطين.

لكن الخطأ الكبير الذي وقعت فيه بريطانيا انها حين وضعت «وعد بلفور» لم تقدر الى اي مدى سيكون موقفها متناقضا بين دعمها للحركة الصهيونية ووجودها في الوقت نفسه في العالم العربي. في البداية أيّد الامير فيصل اعطاء اليهود وطنا قوميا في اقصى الطرف الغربي من العالم العربي، بل اظهر الحماس له، معربا عن امله بأن العرب واليهود سوف يقفون معا في مواجهة «المشاريع الاستعمارية الفرنسية». على ان الدولة الانتدابية لم يكن حجمها يزيد في فلسطين الان على عشرة آلاف كيلومتر مربع – اي حجم لبنان – لكن الفارق ان ٦٥ بالمئة من التربة لم تكن صالحة للزراعة كما قال الجيولوجيون البريطانيون كما ان مصادر المياه كانت شحيحة وامكانات الري قليلة جدا. والاهمال الذي لقيته فلسطين ايام العثمانيين كان جزءا من انهيار الامبراطورية الذي بلغ ذروته حين هزمت امام حملة

الجنرال اللنبي (راجع الفصل الخاص) في العام ١٩١٧. وقد اقام البريطانيون بعد مجيئهم حكما مركزيا وقسموا البلد الى مقاطعات على رأسها مسؤولين بريطانيين مدنيين، فيما اعطيت المسؤوليات الاقل اهمية الى عرب او يهود. كذلك خطط الحكم الانتدابي لاقامة مجالس مشتركة تتعاون مع المفوض السامي لكن العرب رفضوا الفكرة حتى لو كان اليهود الاعضاء اقلية في المجلس. وهكذا بقي المفوض السامي خلال العشرينات والثلاثينات هو الحاكم المطلق في كل شيء ، وهو نموذج من السلطة لم يمارسه البريطانيون الا في افريقيا والمناطق النائية في الشرق الاقصى. غير ان الانتداب اقام، كما في معظم المستعمرات الاخرى، شبكة متطورة من الطرقات وقوة شرطة محلية وعددا من الجسور وغير ذلك من المنشآت. وفي غضون ذلك كان تدفق المهاجرين اليهود يرتفع بنسب كبرى. اذ كان عددهم في العام ١٩١٩ نحو ٥٥ الفا لكنه تضاعف خلال عقد واحد ثم بلغ في العام ١٩٢٩ نحو ١٦٠ الفا. وفي المقابل ارتفع عدد سكان فلسطين بنسبة عالية ايضا اذ كان نحو ٥٠٠ الف في العام ١٩١٩ واصبح ٨٣٩ ألفا في احصاء عام ١٩٣١. ومنذ البداية سعى اليهود الى العيش ضمن اطار من الحكم الذاتي عبر مؤسساتهم الخاصة، كما اعترفت السلطة الانتدابية بـ «المنظمة الصهيونية» على انها السلطة الرسمية ليس فقط للجالية اليهودية في الداخل بل للحركة الصهيونية في العالم اجمع. وقد وسعت عضوية المنظمة واصبحت تعرف بـ «الوكالة اليهودية» التي تولت التفاوض مع الحكومة البريطانية وعصبة الامم حول «الوطن القومي». وتصرفت الوكالة كحكومة مستقلة في الزراعة والهجرة والمستوطنات وفي الدفاع والشؤون العسكرية.

وجمعت الحركة الصهيونية حول العالم مبالغ طائلة من المال من اجل شراء الاراضي العربية خصوصا من المهاجرين الغائبين انذاك عن ديارهم. الا ان اكثرية اليهود ظلت تسكن المدن فارتفع عدد سكان تل ابيب من الف نسمة في العام ١٩١٩ الى ١٦٠ الفا في العام ١٩٣٩، وفي حيفا الى ٦٠ الفا في العام ١٩٣٩ وفي القدس من ٢٨ الفا الى ٩٠ الفا في الفترة نفسها.

***

في الوقت الذي كانت الهجرة اليهودية تلقى كل الدعم المالي والتقني الممكن من الجاليات والدول في العالم كان الفلسطينيون يتخبطون في الفقر والنزاعات السياسية. وفيما انتشرت المستوطنات الحديثة المزودة بالآلات، كان معظم الفلسطينيين من الفلاحين الذين يعتمدون على الوسائل البدائية. وفيما اتكل اليهود على «الوكالة اليهودية» في الصراع على فلسطين، وجد الفلسطينيون انفسهم في قلب الخلافات العربية والمحلية على السواء، ومن دون اي معين دولي، فيما كان العالم اجمع يتجه الى الحرب العالمية الثانية التي لم تكن،

خصوصا في الشرق الاوسط، سوى امتداد او تصفية للحرب الكونية الاولى.

بمثل هذا الانقسام، وفي ظل الانتداب، واجه العرب اكبر وحدة من نوعها في التاريخ اليهودي. ولم يكن صوت النخبة العربية التي ادركت ما يحدث، مسموعا في اي مكان، تماما كما كان الحال قبل وبعد، ولم يغب عن بال الزعماء القوميين في ذلك الحين انه سيكون من الاسهل مقاومة المد الصهيوني المحدود انذاك، من مقاومة القوى الفرنسية او البريطانية. وكانت عائلات فلسطينية كثيرة تتنافس، بكل صدق ولكن بكل تعثر، على مواجهة المد الجديد. وفي الطليعة كانت عائلتا الحسيني والنشاشيبي. وغالبا ما انتمى محافظ القدس او حيفا الى واحدة من العائلتين. وفي العام ١٩٢١ سمح البريطانيون بانشاء المجلس الاسلامي الاعلى من اجل ادارة شؤون المسلمين الدينية في فلسطين، وفي العام ١٩٢٣ عيّن المفتي الحاج امين الحسيني رئيسا للمجلس مدى الحياة.

اختار المندوب السامي هيربرت صامويل الحاج امين بسبب «طباعه الهادئة وعينيه الزرقاوين (كالغربيين) لكن الانطباع كان مخادعا تماما»، اذ تحول الحاج امين الى واحد من كبار محاربي السلطة الانتدابية وانتهى به الامر حليفا للالمان، زعماء دول «المحور»، كما انه قضى ردحا من الزمن في قلب برلين. وفي العام ١٩٢٨حاول المقدسيون الاخرون، انهاء زعامة الحاج امين والمجيء براغب بك النشاشيبي، لكن المحاولة اخفقت. وفي ذلك الحين اندلعت اول اعمال المقاومة المسلحة ضد المستوطنات على نحو فاجأ المسؤولين البريطانيين الذين فاتهم ان يدركوا ان المد القومي القائم في سورية سوف ينتقل الى فلسطين. وشُكّلت في لندن لجنتان للتحقيق في الاحداث، وبعد ذلك كثرت الاحداث وكثرت اللجان ايضا وبرأت احدى اللجنتين، التي عرفت باسم رئيسها السير والتر شو، المفتي من مسؤولية اشعال الاضطرابات، واوصت باعادة النظر في سياسة الهجرة القائمة. اما اللجنة الاخرى، برئاسة السير جون هوب سمبسون فقد ذهبت الى ابعد من ذلك واستنكرت كل مراحل النشاط الصهيوني في فلسطين، كما استنكرت سياسة «الصندوق القومي اليهودي»، ودعت الى خفض جذري للهجرة اليهودية وتملك الاراضي من قبل المهاجرين اليهود على السواء.

وقد فاجأ تقريرا اللجنتين الحركة الصهيونية في العالم. ثم اصبح وزيرا للمستعمرات انذاك الاشتراكي الشهير سيدني ويب (فيما بعد اللورد باسفيلد) فزاد على التقريرين اتهامه للصهيونية «بأنها حركة استغلالية تسعى الى السيطرة». وفي العام ١٩٣٠ اصدر كتابا ابيض اعاد فيه تفسير وعد بلفور بشكل جذري، ودعا الى وقف بيع الاراضي الزراعية للمهاجرين! وكان رد فعل حاييم وايزمان، رئيس الوكالة اليهودية، انه استقال من منصبه. واغرق اليهود وحلفاؤهم ضمن دول الكومنولث الحكومة البريطانية بموجة من الاحتجاجات. ولم تستطع الحكومة العمالية التي كانت تعتمد الى حد بعيد على دعم

مؤيدي الصهيونية، ان تصمد طويلا. وبعد عام وجد رئيسها رمزي ماكدونالد نفسه مرغما على الكتابة الى وايزمان، مؤكدا له ان الحكومة لا تنوي ادخال اي تعديل على موقفها الوارد في وعد بلفور وان الهجرة اليهودية المضطردة الى فلسطين لن تتأثر بالاعتبارات «السياسية»، اي مواقف البريطانيين المؤيدين للعرب ضمن الدولة! وفي اختصار كانت رسالة ماكدونالد رفضا واضحا «للورقة البيضاء» التي عرفت فيما بعد بـ «ورقة باسفيلد» واعتذارا علنيا واضحا من النفوذ اليهودي في بريطانيا على النفوذ البريطاني في فلسطين.

الا ان الجدل الذي قام نبّه الوكالة اليهودية الى سرعة العطب التي تحيط بالمشروع ككل. وحتى قبل وصول النازيين الى الحكم في المانيا، كان قادة الصهيونية قد ادركوا الحاجة الى تعزيز مواقعهم في فلسطين والى زيادة اعدادهم في مواجهة الكثرة العربية. وهكذا جددت الوكالة اليهودية بين العامين ١٩٣٢ و ١٩٣٦، في ظل مفوض سام متعاطف يدعى ارثر وانشوب، المحاولات الرامية لرفع مستوى الهجرة وتحسين اوضاع المناطق اليهودية وتطويرها، وخلال هذه السنوات الست ايضا زادت نسبة الهجرة اليهودية بنحو مائتي الف نسمة.

في غضون ذلك انتقلت الحركة الوطنية العربية من نكسة الى اخرى. وفي ١٤ كانون الاول/ديسمبر في العام ١٩٣١ دعا المفتي الى «المؤتمر الاسلامي العام» في القدس، غير ان عددا قليلا جدا من الزعماء المسلمين حول العالم ابدوا اهتماما حقيقيا بالامر. وفي الوقت نفسه ازدادت حدة الصراع بين النشاشيبي والحسيني. وفي العام ١٩٣٤ فقد الفلسطينيون موسى كاظم الحسيني، احد دعائم الوحدة الوطنية، فتوسعت من بعده شقة الخلاف ولما حان موعد المؤتمر العربي الثامن في صيف ١٩٣٥ اخفق في الانعقاد. ووسط هذه الصورة من الخلافات والنزاعات شعر البريطانيون انه اصبح بإمكانهم مواجهة الازمة الاقتصادية التي يعانون منها في لندن عن طريق خفض قوتهم العسكرية في فلسطين والاردن، الا ان ذلك الهدوء كان المقدمة لاعنف عاصفة سوف تضرب العالم العربي فيما بعد، وتظل تضرب، وتظل تضرب.

بشكل أو بآخر، ارتبط مصير الشرق العربي منذ قرون بالاحداث والمصائر الاوروبية. وما هو الشرق سوى قطعة من المياه واليابسة ملاصقة للقارة الاوروبية في الحرب وفي السلام. وبعد نهاية المرحلة الاستعمارية في اوائل الستينات القى شارل ديغول نظرة اخرى على هذا الشرق الذي تركه خلفه فاقترح، عبر وزير اعلامه جورج غورس في اعقاب حرب ١٩٦٧، ان يقوم نوع من الوحدة او الاتحاد مع العالم العربي، تتجمع فيه ثروات العرب وتقنيات الاوروبيين من اجل شعوب حوض المتوسط.

***

ها نحن، اذن، في الثلاثينات، في منتصف الثلاثينات. وفيما كان الانتداب البريطاني يبسط نفسه على دول العمق العربي والانتداب الفرنسي يتعثر في المشرق، برز في اوروبا تطور جديد تماما: لقد ظهرت النازية مع ادولف هتلر الذي تجاهل عقود ومعاهدات مؤتمرات السلام، خصوصا مؤتمر فرساي، ومع حلول العام ١٩٣٦ كان الجيش النازي قد اعاد احتلال الراين ثم ضم النمسا بعد ذلك بعامين ثم اقليم السوديت ومعه كل تشيكوسلوفاكيا. ومع تصاعد القوة الاقتصادية الالمانية بدأت دول البلقان تتطلع الى برلين. وبدأت برلين تتطلع الى مساحات السيطرة العسكرية التي حققها البريطانيون والفرنسيون خلال الحرب العالمية الاولى. واذ تطلعت ايطاليا حولها ورأت ان «مؤتمر السلام» لم يترك لها شيئا، رأت في الامر «خيانة» كبرى وبدأت الفاشية تنمو والطريق تمهد لمجيء الدوتشي، اما الدوتشي فما ان وصل الى الحكم حتى بدأ يتطلع الى الخارج من اجل ان يصحح الوضع الاقتصادي في ايطاليا التي لها من السكان ما لفرنسا ولها من الارض نصف المساحة الفرنسية. الا ان البريطانيين والفرنسيين كانوا قد اخذوا كل شيء ووقفت اساطيلهم على اطراف المتوسط في وجه الايطاليين. وعلى الرغم من كل المحاولات التوسعية التي بذلتها روما فانها لم تكن قد استعمرت مع نهاية القرن التاسع عشر سوى الاراضي القفر في الصومال واريتريا. وباءت بالفشل محاولة توسعية اخرى في افريقيا في العام ١٨٩٦. ثم مرت ١٥ سنة اخرى قبل ان تقوم بتجربة ثانية، هذه المرة ضد الاتراك في ليبيا! الا ان المستعمرة الجديدة «لم تثبت انها ينبوع فوري للثروة الاقتصادية» كما قال المؤرخ الايطالي فرانشيسكو كارمايا «مع انها حل لاستمراريتنا في افريقيا.... اراض ساحلية تجعلنا خلف مالطا التي، بسبب كونها في يد لندن ابقت على المتوسط بحيرة بريطانية».

إذن، من أجل «أن تتنفس ايطاليا بحرّية» قامت ايطاليا بالحملة على ليبيا ونقلت اليها ١٣ الف مستوطن تكفلت بدفع كل مصاريفهم. ومعظم الاسماء التي برزت في «مجمع الخالدين» الفاشي مرّ اصحابها في ليبيا (فولبي، بالبو، دي بونو). والواقع ان حلم الدوتشي الاساسي لم يكن البقاء ضمن حدود اثيوبيا بل الخروج منها الى بناء امبراطورية متوسطية تمتد الى البحر الاحمر (الرجاء مراجعة كتاب «قافلة البحر» والفصل المتعلق بالصراع الايطالي ـ البريطاني حول عدن). وقد كانت تكاليف الحملة على اثيوبيا في العام ١٩٣٥ باهظة في كل شيء على روما: المال والرجال وصورتها امام العالم وضمن اطار العلاقات الدولية! اما من حيث المناخ الامبريالي السائد في المرحلة فقد جنت ايطاليا فوائد كثيرة: انها الان قوة متوسطية يحسب لها حساب.

من قاعدته على الساحل الافريقي اصبح بإمكان موسوليني ان يتطلع شرقا نحو مصر والمشرق، حيث كانت بالامس تبحر اساطيل البندقية وجنوى وتريستا قبل ان يوحدها غاريبالدي في ظل علم ايطالي واحد. وبالتالي فان الدافع وراء الطموحات الايطالية في

شرق المتوسط لم يكن استراتيجيا فقط بل تجاريا بصورة خاصة. اذ من الشرق الاوسط كان يجيء اكثر من نصف النفط الذي تستهلكه ايطاليا وخمس القطن والحديد. وكانت تصدر في المقابل الاقمشة الى مصر لكن في كميات تؤمن التوازن بين صادراتها ووارداتها الى المنطقة. ومن اجل تطوير هذه العلاقة نشرت ايطاليا الملحقين التجاريين واقامت الغرف التجارية المشتركة وكانت تعتز كل عام باقامة «معرض المشرق» في مدينة باري، في كعب الحذاء الايطالي. وكان المعرض اشبه بعرض للسياسات الفاشية وزهو الدوتشي بنفسه، ذلك ان باري كانت مركز الجامعة التي درس فيها موسوليني، كما كانت مركز محطة الاذاعة الدعائية التي كانت تبث برامجها الى العالم العربي وافريقيا.

وكان اسطول ايطاليا التجاري والسياحي يملأ جميع موانئ المنطقة، مع خط مباشر من برينديزي الى حيفا. وكانت السفن الايطالية تفوق عددا جميع السفن الاخرى في كل موانئ المشرق. وفي العام ١٩٣٥ كان ٣٠ بالمئة من مجموع السفن في الموانئ التركية يرفع العلم الايطالي المثلث الالوان. وكانت روما تطمح الى زيادة هذا الدور على حساب المنافستين الكبريين: بريطانيا وفرنسا.

إذن، كانت مطامح موسوليني تجارية واستراتيجية؟ لا! لا. لقد كان الدوتشي سليل روما وكان يشعر بحق شرعي في اعادة امجاد الامبراطورية وخطوطها. ومن اجل ذلك كان يريد الاعتماد، بين عناصر اخرى، على الجاليات الايطالية المنتشرة على شواطئ المتوسط، وخصوصا نحو ١٠٠ الف في تونس ونحو ٦٠ الفا في ايطاليا. وسرعان ما بدأ موسوليني في تعبئة الشعور القومي في اوساط هؤلاء، الذين كانت اكثريتهم من العمال والفقراء، لكنه راح يبني لهم المدارس الخاصة والمستشفيات والنوادي من تونس الى بيروت «فكان ان تحول اطفاله المشردون الى صبيان كشافة مرتبي الهندام»، كما تقول اليزابيث مونرو التي تضيف إنه «كان يقدم العطلات المجانية، للمهاجرين في بلادهم الام ويعدّ لهم رحلات طلابية عبر السويس لكي يستطيع الابناء رؤية البواخر الايطالية المبحرة والاعتزاز بها». ومع ان التكاليف التي تكبدتها الموازنة الوطنية كانت باهظة الا ان مردودها الوطني في شرق المتوسط كان هائلا.

لم تتوقف احلام الدوتشي ولا طموحاته عند هذا الحد على الاطلاق. فقد حاول ان يساير المسلمين في ليبيا كما فعل نابوليون في مصر. وخلال زيارة قام بها في العام ١٩٣٧ اعلن نفسه «حاميا للاسلام». وزاد في قلق بريطانيا وفرنسا ان الدوتشي اعلن المتوسط (MARE NOSTRUM) اي «بحرنا». واخذ يدعم الاسطول البحري الايطالي بسفن صغيرة لكنها هائلة السرعة، فاق عددها حجم الاسطول الفرنسي، فيما تفوق السلاح الجوي الفاشي على السلاح الجوي البريطاني.

بهذه القوة البحرية الضخمة استطاع موسوليني ان يتحدى سيطرة الحلفاء على حوض المتوسط. واذ اشتم رائحة تأييد غير معلن بعد من برلين، راح يحمل على احتكار بريطانيا للقناة. ومن اجل ان يؤكد تذمره من النفوذ البريطاني في مصر، اوفد حاكم ليبيا المارشال بالبو في مهمة «ودية» الى الملك فاروق في ايار/مايو من العام ١٩٣٩. غير ان الهدف التحذيري من الزيارة لم يخف على البريطانيين والفرنسيين: لقد اصبحت ايطاليا في موقع يمكّنها من ان تلعب دورا حاسما في المنطقة. فهي تحتل موضعا استراتيجيا على طرفي المتوسط. وبإمكانها، من خلال قواعدها في البر الايطالي او في البانيا وليبيا ان تهدد خطوط الاتصال الحليفة في منطقة الادرياتيكي وعلى الخط التجاري من اوروبا الى الشرق! بعد اقل من عقدين من الصراع القاتل بين الحلفاء والعثمانيين، وجد البريطانيون والفرنسيون انفسهم فجأة امام منافس جديد للسيطرة على الشرق الاوسط: ايطاليا.

لم تكن ايطاليا وحدها الان. فالاحلام الالمانية الماضية بالاندفاع نحو «غرب آسيا» بدأت تنبعث من جديد مع قيام «السياسة الواقعية» الجديدة التي ستعرف في القاموس الدولي بـ (Realpolitik) وكان القيصر يحلم، قبل اندلاع الحرب الكونية الاولى، بأن يمد النفوذ الالماني في ارجاء الامبراطورية العثمانية كلها وصولا الى شواطئ الخليج العربي حيث كان فيلهلم الثاني يحلم سرا بأن يحول تركيا العثمانية الى «سكندا المانية»، بحيث يطوق شريان بريطانيا البحري عبر المتوسط. غير ان سياسة المانيا في «البحث عن الشرق» (Drang nach osten) سقطت خلال الحرب العالمية الاولى على ارض اوروبا وآسيا. على ان عددا من المفكرين العسكريين والمدنيين ظلوا يطرحون، خلال جمهورية فايمار والمرحلة النازية، فكرة ان يكون الشرق الاوسط هو منطلق التوسع الالماني. ومع ذلك بقي الاهتمام الالماني بالمنطقة اقل حماسا من الاهتمام الايطالي، ربما ايضا، لشعور المانيا انه يجب ترك المنطقة دائرة نفوذ وطموحات لحليفتها الفاشية!

هكذا قررت المانيا على ما يبدو ان تظل التجارة سلاحها الرئيسي. وفي الاعوام ١٩٣٤ و١٩٣٥ و١٩٣٦ ارتفعت واردات المانيا من المنطقة بنسبة ١٤ بالمئة. وفي العام ١٩٣٤ كانت صادراتها تشكل ٣٨،٨ بالمئة من تجارة تركيا الخارجية فارتفعت في العام ١٩٣٨ الى ٥٠ بالمئة. وفي العام ١٩٣٣ كانت تشكل ٨ بالمئة من حجم التجارة الخارجية الايرانية فارتفعت الى ٦٠ بالمئة في العام ١٩٣٩. ولم يكن هذا الارتفاع النسبي مذهلا فحسب من حيث الحجم بل ان المهندسين والتقنيين والبنائين الالمان صاروا ايضا يشكلون اكبر قوة نافذة في الاقتصاد الايراني. وخلال الحرب الاولى تذمر رئيس البعثة الالمانية الى تركيا الجنرال فون ساندرز من النقص في خبراء الشرق الاوسط في مقره العسكري. ولم يشأ النازيون ان يكرروا الخطأ نفسه عشية الحرب العالمية الثانية فانشأوا مع حلول العام ١٩٣٥ سبعة معاهد مختصة في دراسات الشرق الاوسط، بالاضافة الى سلسلة من المطبوعات والجمعيات

المخصصة للقضايا الاسلامية. وطبعت او اعيد طبع القواميس التركية والعربية عن اللغة الالمانية. وفي العام ١٩٣٦ كانت الجامعات الالمانية تعطي ٣٤١ فصلاً مختلفاً في الشؤون المتعلقة في الشرق الاوسط. وكل هذه المعاهد والدروس والجمعيات كانت خاضعة للمكتب الدعائي النازي باشراف الفرد روزنبرغ. وقد تلقى المكتب في العام ١٩٣٤ منحة حكومية مقدارها ٢٠ مليون مارك، وهي موازنة كانت ترفع عاما بعد اخر. كذلك خصصت موازنات اخرى لنشر الصحف باللغات الشرق اوسطية ودعم الاذاعات التي تبث الى المنطقة ودعم الملحقات الثقافية في العالم الاسلامي. وحاول الالمان نشر افلامهم في كل العواصم بعد دبلجتها باللغة العربية واستطاعوا استقطاب مجموعة من الصحافيين المناهضين للغرب. وفي العام ١٩٣٨ أنشئت اذاعة كبرى في ضاحية سيسن على بعد ١٩ ميلا من برلين تبث البرامج الخاصة الى العالم العربي وتركيا وايران، وكان من ابرز وجوهها المذيع العراقي يونس بحري الذي اشتهر بمقدمته «هنا برلين، حي العرب». وبين اذاعة برلين واذاعة باري واذاعة اشبيليا في اسبانيا استقطبت دول المحور عددا كبيرا من المستمعين في المنطقة.

ارفقت برلين ذلك كله بنشاط واسع عبر الارساليات والبعثات الديبلوماسية. وقد ارسلت الى انقرة في العام ١٩٣٩ المستشار السابق فرانز فون بابن وعينت في بيروت فرانز سيلر، احد كبار خبرائها في شؤون المنطقة، قنصلا عاما. اما اكبر مبعوثيها واشهرهم فكان الوزير المفوض في بغداد الدكتور فرانز كونراد فون كروبا. وكان الهر فون كروبا من النشاط والحركة والذكاء بحيث اثار غضب السفير البريطاني في العاصمة العراقية في العام ١٩٣٩ الذي رفع تقريرا الى حكومته يقول فيه: «لقد جعل الدكتور كروبا (وزوجته) شغله الشاغل ان يكون بريطانياً اكثر من البريطانيين في كل النشاطات التي تقوم بها الجالية الاجنبية. وخلال احتفال بذكرى الحرب العالمية الاولى لم يقبل الا ان يجلس الى جانبي. ولعل الاسوأ في رأيي من نشاطات الهر الدكتور تلك النشاطات التي تقوم بها زوجته لأنها لا تلاحظ كثيرا. ان السيدة كروبا التي تعرج الى كل بيت بريطاني وتزور كل مريض بريطاني في المستشفيات قد جعلت مهمتها الاولى جمع ونشر الاشاعات المتعلقة بالجالية البريطانية بعد ان تكون قد رشّت عليها ما يكفي من الملح والبهار بحيث تناسب الدوائر العراقية».

وقام المان بارزون كثيرون بزيارات متعددة الى عواصم المنطقة. وفي العام ١٩٣٨ كان جوزف غوبلز، احد اشهر وزراء هتلر، قد استعد للقيام بزيارة الى القاهرة الا انه عاد فالغاها ليقوم بالزيارة في شباط/فبراير ١٩٣٩ حيث التقطت له صورة يعتلي جملا قرب الاهرام.

في اذار/مارس ١٩٣٩، رفع احد مسؤولي الخارجية في برلين الهر اوتو ابنز تقريرا عن لقائه في باريس مع السناتور الفرنسي جورج هنري - هاي، قال فيه إن هاي قد اعترض

على قيام ناد عربي في دمشق موال للالمان ويهدف الى تحريض السوريين ضد سلطات الانتداب. ويقول ابتز في تقريره إنه نفى التهمة، ومع ذلك طالب وزارة الخارجية باجراء تحقيق في الامر، خوفا من ان تثير مثل هذه النشاطات العداء لالمانيا في الاوساط البرلمانية الفرنسية! لقد أرادت ألمانيا ان تبني لنفسها ما تستطيع من النفوذ، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد ان تزعزع وضعها او حساباتها المقبلة في اوروبا. وكانت هذه الحيرة الالمانية اكثر وضوحا في ساحة اخرى، اذ كانت برلين تؤيد وتدعم من جهة الحركة القومية في فلسطين ومن جهة اخرى تدعم وتشجع وتساند الهجرة اليهودية الالمانية اليها. وقد عقدت برلين اتفاقا خاصا مع الوكالة اليهودية يسمح بموجبه لليهود الالمان بأن يحملوا معهم الى فلسطين جزءا من مدخراتهم على أنها منتوجات المانية، وأنشئت دائرة خاصة لهذا الغرض اطلق عليها الاسم العبري «هافارا» او النقل الامر الذي ادى الى ارتفاع حجم الصادرات الالمانية الى فلسطين من ١١،٤ مليون مارك في العام ١٩٣٢ الى ٣٢،٤ مليون مارك في العام ١٩٣٥.

بالطبع كان الالمان يعدون مشروعهم المعادي لليهود لاغراض المانية وينفذونه ولم يكونوا يتعمدون ان يزيدوا في زعزعة المنطقة. وغالبا ما اختلفت وزارة الخارجية، التي كانت تدرك ابعاد الهجرة عربيا، مع الدوائر الحاكمة الاخرى، وخصوصا مع قيادة الصاعقة والايديولوجيين النازيين الذين كانوا يعملون لجعل المانيا «خالية من اليهود» (Judenrein) بصرف النظر عن اي اعتبار اخر. والواقع ان برلين لم تبدأ في النظر بشكل عميق الى ما يجري في فلسطين الا بعد نشر «تقرير بيل» في لندن العام ١٩٣٧، اي قرار «تقسيم الارض المقدسة» الى دولتين، عربية ويهودية. وفي اول حزيران/يونيو ١٩٣٧ بعث وزير الخارجية قسطنطين فون نويرات بمذكرة خاصة الى المفوضيات الالمانية في الشرق الاوسط وجميع السفراء الالمان في الخارج. جاء فيها:

«إن اقامة دولة يهودية، او كيان سياسي بزعامة يهودية في ظل الانتداب البريطاني ليس في مصلحة المانيا، لأن مثل هذه الدولة في فلسطين لن تستوعب اليهودية العالمية، وسوف تقيم موقع قوة اضافيا لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة الى الكثلكة او موسكو بالنسبة الى الكومنترن... ان اليهودية الدولية ستكون بالضرورة العدو الايديولوجي والسياسي للجمهورية الالمانية الاشتراكية... ولذلك فان لالمانيا مصلحة في دعم العالم العربي كمركز ثقل ضد هذا التزايد المحتمل في القوة اليهودية العالمية».

وصدرت الاوامر الى البعثات الالمانية باتخاذ مواقف اكثر تأييدا للعرب، ومع ذلك لم تتخذ برلين، حتى العام ١٩٣٨، اي خطوة للحد من الهجرة او من انتقال الرساميل اليهودية الى فلسطين. وبعد نشر تقرير لجنة بيل ارتفعت في الاوساط القومية العربية اصوات

كثيرة تدعو الى التحالف مع الالمان. واعربت الهيئة العربية العليا صراحة عن مشاعرها حين اصدرت بيانا امتدحت فيه الدكتور كروبا، كما هاجمت بشدة «مشروع بيل» (Peel plan) وفي تموز/يوليو ١٩٣٧ قام الحاج امين الحسيني بنفسه بزيارة الى القنصل الالماني المحلي في القدس، لكي يعلن تأييده للدولة الالمانية الجديدة معربا عن امله بأن برلين ستقابل التأييد العربي بالدعم. واكثر المفتي من حواراته المباشرة مع الالمان وناشد حكومة برلين ذات مرة التدخل مع النظام العسكري في بولونيا لاقناعه بوقف التأييد لمشروع التقسيم (كانت حكومة سيمغلي – ريدز في فرصوفيا تؤيد هي الاخرى اي مشروع يبعد عن اراضيها الجالية اليهودية). وفي بيروت، التقى القنصل الالماني سيلر وفدا من القوميين العرب القادمين من سورية الذين طالبوه بشحن الاسلحة الى ثوار فلسطين. كما قام وفد دمشقي في صيف ذلك العام بزيارة الى برلين ليطالبها بكل انواع الدعم الممكن للحاج امين.

لكن المانيا كانت حتى ذلك الوقت لا تزال تواجه هذه المطالب بالتحفظ بسبب وضعها السياسي في اوروبا. ولا تريد الدخول في مواجهة مع القوى البحرية الاوروبية في المتوسط. واكثر من ذلك فإن طموحات هتلر الأهم آنذاك كانت التوسع في قلب اوروبا، او بالاحرى في شرقها. كما كانت برلين تشكك في ان تكون الحكومات العربية نفسها على استعداد حقا للوقوف الى جانب دول المحور. فالمصريون كانوا يخشون فعلا المطامع الايطالية. وحكومة لبنان كانت تؤيد فرنسا. والاردن كان يؤيد البريطانيين. ولم تتخل برلين عن سياسة «الانضباط» في الشرق الاوسط الا في العام ١٩٣٨ حين بدأت الحرب الكبرى تطل برأسها من النوافذ، فراحت الصحف الالمانية تعلن تأييدها للقضية الفلسطينية، وبدأ البريطانيون يتحدثون في مجلس العموم عن سلاح الماني وايطالي في ايدي العرب. وظهرت في صحف باريس ايضا تلميحات الى الدور الالماني. وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٣٨ قال مفتي القدس لمراسل مجلة «ماريان» الفرنسية في القدس إن الثوار العرب يتلقون بالفعل اسلحة المانية وايطالية «لكن بكميات محدودة».

في ضوء هذا الواقع الجديد بدأت بريطانيا تبحث عن السبل الكفيلة بالمحافظة على المكاسب الامبراطورية. واحتارت لندن لفترة بين المواجهة والاسترخاء او بين الاثنين معا. وبدا رئيس حكومة المحافظين نيفيل تشامبرلين مصمما على عقد معاهدة تفاهم مع الايطاليين بأي ثمن كان. ومن اجل ذلك قبل في شباط/فبراير ١٩٣٨ استقالة وزير خارجيته انطوني ايدن (الذي كان بدوره يعارض اي مهادنة مع دول المحور بأي ثمن) وهي الاستقالة التي مهدت لعقد الاتفاق الايطالي – البريطاني في ١٦ ابريل/نيسان ١٩٣٨ الذي ينص على ان يحترم البلدان «مصالح» كل منهما.. وعلى تبادل المعلومات حول القوات المسلحة لدى كل منهما في البحر المتوسط والبحر الاحمر وخليج عدن ومصر والسودان.

وقد اغاظ البند الاخير مصر واثارها بعد فترة من التفاهم التي اعقبت معاهدة ١٩٣٦. وكانت مصر قبل اشهر من الاتفاق الايطالي – البريطاني قد وافقت على فكرة «الاتحاد» مع بريطانيا التي انضم اليها ايضاً حزب الوفد. لكن ها هي لندن «تضحي بمصالح مصر وتعقد مع ايطاليا صفقة من خلف ظهرها» كما قال النحاس باشا معترضا. او كما قال المؤرخ المصري امين يوسف بكل مرارة «من الصحيح طبعا انه لا يستطيع اي بلد ان يعتبر استقلاله مضمونا في حين يتمركز جيش اجنبي على اراضيه وعلى بعد اميال من عاصمته».

لم يكن الفرق الشاسع بين الضمانات التعاقدية وبين الوقائع السياسية واضحا الان في مصر وحدها بل ايضا في سورية ولبنان. اذ فيما سعى المسؤولون الاداريون الى تطبيق بنود ١٩٣٦ باعطاء المزيد من الصلاحيات والمناصب لأهل البلاد، اعترضت باريس على هذه الخطوات واعتبرتها سابقة لاوانها. واذ كانت فرنسا قد خسرت حقول النفط في الموصل فانها كانت الان تأمل بأن يكون الجيولوجيون على حق ويتم العثور على النفط في شمال شرق سورية.

وكان الحكم في باريس قد تغير في اي حال، اذ جاءت مكان حكومة ليون بلوم، التي عقدت المعاهدتين مع سورية ولبنان، حكومة يمينية مليئة بالداعين الى المحافظة على مكاسب فرنسا. ونظر الرأي العام الفرنسي الى المعاهدتين على انهما دليل ضعف واخذ يترحم على المبالغ الطائلة التي تكبدتها باريس في سنوات الانتداب. واعتبر معارضو الاستقلال ان الانسحاب سوف يشرع ابواب المشرق امام اعداء فرنسا، اي الايطاليين والاتراك الذين راحوا يضغطون لضم لواء الاسكندرون، وطبعا البريطانيين الذين لم تنس باريس لحظة واحدة انهم يريدون اخراجها من المنطقة برمتها، والاسوأ من ذلك كله (بالنسبة الى باريس) ان الخروج من المشرق سيشكل سابقة للخروج من المغرب، حيث كان الايطاليون، والى حد بعيد الالمان، ايضا في الانتظار.

حين مضت سنة او اكثر على المعاهدة من دون ان تبرم في الجمعية الوطنية حمل رئيس وزراء سورية جميل مردم بك نفسه وطار الى باريس في اب/اغسطس ١٩٣٨، وامضى فترة طويلة يحاول اقناع البرلمانيين بحسنات الاتفاق الذي اضيفت اليه حماية الاقليات وضمان المصالح الاقتصادية الفرنسية والثقافية. غير ان الاتفاق الجديد لقي اعتراضا شعبيا في دمشق وباريس على السواء. وقامت في العاصمة السورية تظاهرات تتهم جميل مردم «بالخيانة». وفي باريس قررت اللجان البرلمانية في مجلسي الشيوخ والنواب تأجيل اقرار المعاهدتين مع لبنان وسورية. وبعدما كان وزير الخارجية بونيه قد اصدر «بيانا مشتركا» مع جميل مردم بك قبل شهر عاد فتراجع عنه في ١٤ كانون الاول/ديسمبر معلنا ان فرنسا لا تريد ان تغير وضعها في المشرق «في الوقت الراهن». طبعا كان الرد عنيفا في سورية

ولبنان. لكن الامور هدأت قليلا مع وصول المفوض الفرنسي الجديد غابريل بيو (Gabriel Puaux) الذي تسلم مهامه في كانون الثاني/يناير ١٩٣٩. وكان بيو ديبلوماسيا محترفا في اوائل العقد السادس ومن عائلة بروتستانتية (اقلية في فرنسا) معروفة بتقشفها، وقد اعلن لدى وصوله انه لن يكون متهاونا في العمل الفرنسي وحذر بأن سورية «تشكل الضمانة الفعالة الوحيدة لسيادة سورية واستقلالها. انني سأحكم على السوريين من خلال افعالهم لا اقوالهم»! ومن اجل ان يثبت القول بالفعل، او العكس، اصدر اوامره على الفور بارسال تعزيزات من الجنود السنغاليين وامر باعتقال عدد من الشخصيات السورية البارزة وفرض قوانين رقابة صارمة على الصحافة.

وعلى الرغم من هذه الاجراءات التعسفية ظل بيو يأمل في قرارة نفسه بابرام معاهدة ١٩٣٦. وفي نيسان/ابريل ١٩٣٩ سافر الى باريس لاجراء مشاورات مع حكومة دالادييه ثم عاد بعد ٣ اسابيع الى بيروت ليعلن من الاذاعة ان «فرنسا لاتزال امينة لالتزامها باستقلال سورية، كدولة صديقة ومرتبطة بفرنسا». لكن بيو (وحكومة دالادييه) كان اكثر تشددا من غيره ضد استقلال سورية الفعلي ولم يسع الى تطبيق شيء من بنود المعاهدة، واكثر ما اثار غضب السوريين ومرارتهم موقف فرنسا من لواء الاسكندرون تحت ضغط تركيا، فكان ان اوفدت عصبة الامم لجنة خاصة للبحث في الامر. وبعد مفاوضات مباشرة بين تركيا وفرنسا توصل البلدان في العام ١٩٣٧ الى اتفاق يقضي بمنح لواء الاسكندرون حكما ذاتيا كاملا في الشؤون الداخلية، على ان تظل اللغة التركية احدى اللغات الرسمية في اللواء في حين تكون علاقاته الخارجية في يد دمشق وحدها.

طبعا هذه التركيبة المعقدة كانت محكومة بالفشل سلفا. وبدأت تركيا فورا تحرّض الجالية التركية على الشغب. وفي هذه المرحلة كانت فرنسا قد بدأت تدرك اهمية الموقف التركي مع تزايد طموحات دول المحور في البلقان والمتوسط. وهكذا وافقت في حزيران/يونيو ١٩٣٨ على دخول وحدات من القوات التركية الى «سنجق الاسكندرون» للمحافظة «على الامن» هناك بالتنسيق مع السلطات الانتدابية في بيروت. وبدا واضحا آنذاك ان تركيا ربحت معركة ضم الاسكندرون بالقوة «وفرض الامر الواقع». وفي «الانتخابات» التي جرت فازت اكثرية تركية فاطلقت الحكومة الجديدة على اللواء فورا اسم «هاتاي». وفي ربيع ١٩٣٩ اتخذت انقرة الخطوة الثالثة والاخيرة فضمت هاتاي رسميا الى تركيا الدولة.

قبل الفرنسيون الامر من دون اعتراض يذكر، فثمن الاسكندرون لم يكن باهظا مقابل معاهدة المساعدة المشتركة التي وُقعت بين فرنسا وبريطانيا وتركيا. وقد وصف احد مسؤولي الانتداب، أ. فابر – لوس (كتاب حداد في المشرق ١٩٥٠) المسألة كلها بقوله انه لم يترك لفرنسا في الاسكندرون سوى الحق «في ان تستمر في رفع العلم المثلث فوق مقبرة

الاسكندرون حيث يمكن لموتانا ان يندموا على تضحياتهم التي ذهبت عبثا». اما سورية، صاحبة الارض، فلم يترك لها اي شيء.

***

لقد كان «الفجر» الذي اطل على الشرق الاوسط بين العامين ١٩٣٢ و١٩٣٦ فجرا مخادعا، ولم تؤد محاولات الائتلاف بين الغرب والعرب الى شيء، ولذا عادت دول الانتداب الى التشدد فعاد العرب الى الثورة. والواقع ان الحلقة كانت مفرغة حقا، فقد كانت الثورة العربية، الى حد ما، مسؤولة عن اعادة النظر الغربية في فكرة الانسحاب في الوقت الذي كانت فيه دول المحور تحاول التسلل الى المدار الانتدابي، وحتى في العراق، اول دولة عربية تحصل على سيادة «الامر الواقع»، لم تكن الانتفاضة العربية اقل حماسا، فقد كان المد القومي العربي ينعكس في كل العواصم، في كل الافكار . وقد ظن البريطانيون لوهلة انهم عزلوا العراق عن بقية العالم العربي لكنهم ما لبثوا ان رأوا العراقيين يتقدمون العرب الاخرين الى مؤتمر بلودان (١٩٣٧) في شأن فلسطين. الا ان الحركة القومية في العراق عانت من الانقسامات فيما بينها او بين القوى السياسية المتخاصمة وبينها الجيش الذي حاول غير مرة الاستيلاء على السلطة. والواقع انه منذ العام ١٩٣٣، عام وفاة الملك فيصل، ظل العراق من دون قيادة سياسية قوية، الامر الذي اغرق بغداد في حالة من التجاذبات وعدم الاستقرار. وقد خلفه ابنه الملك غازي الذي كانت اهتماماته خارج الحكم والسياسة اكثر بكثير من همومه في اطارهما. وقد قتل غازي بحادث سيارة في العام ١٩٣٩ تاركا خلفه طفلا رضيعا فكان ان عين ابن عمه الامير عبد الإله وصيا على العرش وهو بعد في السادسة والعشرين من العمر. وفيما كان عشرات الالوف من العراقيين يمشون في جنازة الملك الراحل وقع امر كانت له دلالة كبرى على مدى هشاشة الوضع البريطاني في العراق. فقد بثت اذاعة المانيا خبرا يقول ان الجهاز السري البريطاني هو الذي «دبر» مقتل الملك الهاشمي، وما لبث النبأ ان انتشر فقامت التظاهرات واقدمت الناس في مدينة الموصل على رجم القنصل البريطاني مونك - ماسون بالحجارة حتى الموت.

في مصر كان وضع بريطانيا اكثر دقة وسرعة عطب. وقد فضل الانتداب التعامل مع طبقة معينة من الاجانب والمصريين كانت تمتلك معظم الاراضي والتجارة فابعده ذلك عن بقية الناس. وغرقت الحكومة المصرية نفسها في بحر من البيروقراطية فكان لديها في نهاية الثلاثينات نحو ١٨٠ الف موظف يستهلكون ٣٠ بالمئة من موازنتها العامة على الاقل. وكانت الحكومات تستقيل قبل اوانها والبرلمانات لا تكمل مدتها القانونية. وبعد توقيع المعاهدة مع بريطانيا حتى حزب الوفد خسر ذلك البريق الذي اتى به، فحاول النحاس باشا استرداد شئ منه عبر معارضة الملك، غير ان فاروق كان لا يزال يتمتع بشعبية واسعة، لم

يستطع حزب الوفد اختراقها بادئ الامر، خصوصا ان الحزب، على الرغم من مواقفه الوطنية، كان يتجاهل الكثير من حاجات المصريين على صعيد القضايا الداخلية ومعاناتهم العيشية. ولعل اعمق تصوير لتلك المرحلة جاء في رواية نجيب محفوظ الشهيرة «بين القصرين».

لم يكن الغضب المصري ضد سياسيين فحسب بل كان هناك منه ما يكفي للتوزيع ضد الوجود البريطاني. خصوصا الوجود العسكري حول المدن. ولم تكن حالة اليأس في سورية اقل وضوحا، ففي سورية في اي حال نشأ المد القومي الجديد. وتعددت الاحزاب والتجمعات لكن شعاراتها كانت واحدة تقريبا. وكان زعماء «الكتلة الوطنية» مثل جميل مردم وهاشم الاتاسي وفارس الخوري من القادة الذين عملوا لاستقلال سورية خلال المرحلة العثمانية. الا ان الصوت الاكثر ارتفاعا وربما الاكثر بلاغة كان صوت الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي عمل وزيرا للخارجية في حكومة فيصل في العام ١٩٢٠ والذي لعب دورا مهما في الثورة السورية في العامين ١٩٢٥ - ١٩٢٦. وقد حكمه الفرنسيون انذاك بالاعدام ففر الى مصر الى ان صدر عفو عام عن المنفيين السياسيين في العام ١٩٢٧. ومع عودته الى دمشق راح يشن حملات شعواء على رجال الكتلة الوطنية متهما جميل مردم بك باعطاء الفرنسيين تنازلات غير مقبولة وبالاخفاق في الدفاع عن حق سورية في الاسكندرون. وتجمع عدد كبير من المؤيدين ضد الشهبندر فكان ان اعتقلته سلطة الانتداب مع رفاقه في العام ١٩٣٨. غير ان جميل مردم صعّد هو ايضا في اعتراضه على الوجود الانتدابي. وفي شباط/فبراير ١٩٣٩ ابلغ المندوب الفرنسي غابرييل بيو ان الحكومة السورية قررت بسط سيادتها على كل البلاد وان جميع مراسيم الانتداب وقراراته لم تعد سارية المفعول في سورية. وفي الازمة التي تلت ارغم بيو حكومة جميل مردم على الاستقالة ثم حل البرلمان وعلق الدستور وعين مجلساً ادارياً للحكم. ومع انهيار الحكم الذاتي في سورية لم تبق في المشرق (باستثناء لبنان) حكومة دستورية واحدة! لقد تحولت السلطات الانتدابية من «المشورة» التي نص عليها قرار عصبة الامم الى الديكتاتورية المطلقة.

قبل ان تنتهي الحرب العالمية الاولى بوقت طويل كان البريطانيون والفرنسيون قد شعروا بثقة تامة بأن «رجل اوروبا المريض» (اي الامبراطورية العثمانية التي اطلق عليها القيصر الروسي هذا اللقب في نهايات القرن الماضي) قد دخل طور النزع الاخير. لذلك، كانت الحاجة ماسة الى اتفاق مسبق على الارث. وزاد في ثقة الاوروبيين بالانتصار ان اسطنبول كانت تتهاوى امام الانتصارات الروسية من جهة وامام المؤامرات الداخلية للاستيلاء على السلطة من جهة اخرى. وبين تلك المؤامرات او بين اشهرها، تلك التي شجع فيها الروس الجنرال جمال باشا، الذي عرف في سورية ولبنان بجمال باشا السفاح، على الانقلاب

العسكري في اسطنبول وذلك عن طريق طبيب ارمني يدعى زخاريبف. وقد وعد جمال باشا الحلفاء بأن يقود الثورة على السلطة ويعلن نفسه سلطانا على تركيا اذا مدّه الحلفاء بالسلاح الكافي. وعرض جمال باشا على زفرييف ان يتخلى حتى عن السيادة على مضائق الدردنيل شرط ان يقبل الحلفاء باقامة دول ذات حكم ذاتي في سورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وارمينيا وكليكيا وكردستان. وقبل الروس العرض. وقبله الايطاليون، لكن الفرنسيين والبريطانيين كانت لديهم خطط اخرى وافكار اخرى حول الشرق الاوسط ولذا اجهض رفضهم مفاوضات جمال باشا على الفور.

واقترحت لندن على باريس الشروع في محادثات هي، بكل بساطة، حول اقتسام الشرق الاوسط. ووافقت الحكومة الفرنسية على العرض من دون تردد وارسلت فورا مندوبها الى ضفاف التيمس: المسيو شارل فرنسوا جورج – بيكو، القنصل الفرنسي العام السابق في بيروت والمستشار الحالي للكي دورسيه حول شؤون الشرق الادنى.

وكان يفترض بادئ الامر ان يكون المندوب البريطاني الى المحادثات، وكيل وزارة الخارجية الدائم السير ارثر نيكولسون الذي عقد بالفعل جلستي عمل مع جورج – بيكو. لكن الرجلين اصطدما منذ اللحظة الاولى فقررت الحكومة استبدال نيكولسون بالسير مارك سايكس وهو خيار بدا مفاجئا اول الامر. اذ على الرغم من تحدره من عائلة كاثوليكية ذات سمعة اجتماعية في يوركشاير، فان سايكس لم يكن ديبلوماسيا محترفا بل «هاويا» ترك دراسته في كمبريدج لكي يقوم برحلات عدة الى الشرق الاوسط حيث وضع مجموعة انطباعات متقطعة عن المنطقة. وكان سايكس يتحدث العربية بطلاقة وحين انتخب نائبا عن المحافظين في العام ١٩١١ اعتبره الحزب خبيره في شؤون الاسلام والشرق الاوسط. وبين الوظائف التي شغلها منصب مستشار للورد كتشنر في القاهرة. من هذا المنصب جيء به للتفاوض مع جورج – بيكو!

هل كانت الحكومة البريطانية تعرف ام كانت لا تعرف ان مارك سايكس، الكاثوليكي، المحب للحضارة الفرنسية، سوف يتجاوب مع مصالح فرنسا في المنطقة؟ في اي حال، كانت هناك خطوط عامة واطار عام للمفاوضات في التقرير الذي رفعته الى «الوايت هول» اللجنة الخاصة المعروفة بلجنة «دوبنسن». وكان السياسيون في اللجنة قد اقترحوا تقسيم تركيا نفسها لكن العسكريين خافوا اثارة روسيا واقترحوا الاكتفاء بتقسيم الامبراطورية نفسها! خلال اسبوع او اقل كان سايكس ونده الفرنسي قد توصلا الى اتفاق شبه تام حول التقسيم الذي سيحمل اسمهما في كل تاريخ المنطقة. ومع ان سايكس كان متعاطفا مع المشاعر الفرنسية فقد رأى جورج – بيكو ان البريطانيين قد حددوا مصالحهم بطريقة غير قابلة للنقاش: تأخذ بريطانيا «منطقة حمراء» تضم شمال الخليج ومنطقة الهلال الخصيب

وصولا الى بغداد ومنطقة كركوك النفطية. كذلك تأخذ بريطانيا (بالدرجة الثانية كمنطقة نفوذ غير مباشر) جنوب غرب العراق واكثر شرق الاردن وجنوب فلسطين حتى سيناء بحيث تجمع المتوسط والبحر الاحمر. وفي هذه المنطقة تعطى لندن الاولوية في حق اعطاء «المشورة بناء لطلب الدولة العربية او اتحاد الدول العربية». وكانت منطقة السيطرة غير المباشرة هذه تشبه الاتفاق الذي عقدته بريطانيا مع روسيا حول ايران في العام ١٩٠٧، مع الفارق الهائل في المدى الجغرافي الذي يضمن لبريطانيا حماية الطريق الى الهند بين المتوسط والخليج العربي.

المصالح الفرنسية، مثل المصالح البريطانية، كانت هي ايضا محددة قبل اجتماعات سايكس – بيكو بزمن طويل. وبعض هذه «المصالح» كان يبحث عن جذوره في الحروب الصليبية، من فلسطين ولبنان وسورية الى قبرص واطراف تركيا، وكانت اثار الوجود الفرنسي لا تزال واضحة في «الامتيازات» التي كان يتمتع بها المواطنون الفرنسيون في الامبراطورية العثمانية، اذ كانوا معفيين من الضرائب والتعرفات وحتى من المثول امام المحاكم العثمانية، وكان سفراء فرنسا وقناصلها يعتبرون حماة الطوائف الكاثوليكية، كما كان للسفن والسفراء الفرنسيين تمييز على غيرهم من سفراء اوروبا. باختصار كانت فرنسا تتميز على كل من عداها في الامبراطورية التركية.

الا ان هذا النفوذ انخفض بشكل واضح خلال القرن التاسع عشر حين تبنت باريس قضيتي محمد علي في مصر والموارنة في لبنان. ومع ذلك ظلت الغرف التجارية الفرنسية (ليون، مارسيليا) تحث حكومتها على الا تقبل «بأقل من سورية ولبنان وفلسطين». وقالت غرفة تجارة ليون في رسالة الى وزير الخارجية المسيو دوكلاسيه في العام ١٩١٥ ان «مرافئ حيفا ويافا وبيروت لا تكفي ابدا لتطوير تجارتنا البحرية». وفي ذلك الصيف حددت احدى لجان مجلس الشيوخ في «تقرير فلوندان» حدود الوجود الفرنسي: في الشمال، مقاطعات حلب واورفه وكيليكيا، في الشرق الصحراء، في الجنوب، خط يمتد من العقبة على البحر الاحمر الى رفح على المتوسط، في الغرب المنطقة الساحلية كلها.

كان الهاجس الاول في التحديد، عسكريا بالطبع. اذ حين تسيطر البحرية الفرنسية على الساحل السوري تسيطر على شرق المتوسط، او كما قال فلوندان في تقريره إن زيادة القوة الفرنسية في المشرق «سوف تكمل دفاعات طولون، التي تحمينا في الشمال، ودفاعات بنزرت (تونس) في الجنوب». وكان السياسي جورج ليغيس اكثر دقة حين قال امام الجمعية الوطنية في ١٠ ايار/مايو ١٩١٥: «إن محور السياسة الفرنسية هو المتوسط: قطبه الاول في الغرب عبر الجزائر وتونس والمغرب. ومن الضروري ان يكون قطبه الثاني في العراق عبر سورية ولبنان وفلسطين». وقد اضيفت قبرص الى اللائحة فيما بعد.

كانت احلام فرنسا وبريطانيا في المنطقة متضاربة طبعا، ولذلك تصادمت مفاوضات سايكس وجورج - بيكو. وكان البريطانيون يعدون، مع الشريف حسين، لقيام «الدولة العربية المستقلة» ولذا قبل جورج - بيكو في النهاية ان «تضحي» فرنسا بحلب وحمص وحماة ودمشق لكي تبقى ضمن الدولة العربية وفقا للوعد. وظل لفرنسا بقية الساحل السوري بما في ذلك كيليكيا والاسكندرون، بالاضافة الى لبنان وشمال الجليل، وعرفت هذه «بالمنطقة الزرقاء». كما انشئت دولة عربية خاضعة «لحماية» فرنسية اقل مباشرة في مساحة عرفت «بالمنطقة أ» وتضم الموصل والجزء الاوسط من خط بغداد الحديدي والداخل السوري حتى شمال اليرموك. ونص الاتفاق ايضا على اتفاق جمركي بين المنطقتين الحمراء والزرقاء وبين المنطقتين الف وباء، وبقيت جميع الامتيازات من دون تعديل، وتعهدت فرنسا وبريطانيا بتسديد الديون المترتبة على تركيا بمساهمة من الدول العربية.

لم تكن فرنسا الامبراطورية تعتقد ان «حقوقها» في المشرق وقف على سورية ولبنان فقط. فاذا كانت ثمة حقوق «وقائية» في سورية فلماذا ليس في فلسطين ايضا؟ وقد طرح تقرير فلوندان السؤال ببلاغة فائقة: «لماذا فلسطين» واجاب عنه بنفسه ايضا. «لأنها تشكل، مع بقية المنطقة، وحدة لا تتجزأ... ان فلسطين في الحقيقة ليست سوى جنوب سورية... ولا يمكن فصل فلسطين عن سورية، لا من الناحية الجغرافية، ولا من الوجهة الاثنية». لكن ثمة عوائق وقفت في وجه التبسيط الفرنسي طبقا للمفهوم الغربي. ففلسطين هي «الاراضي المقدسة»، اي مركز اكبر المنازعات في تاريخ المسيحية. ولهذا السبب بدأت روسيا الارثوذكسية في كانون الثاني/يناير ١٩١٥ تعيد النظر في مسألة التخلي عن موقع اليد الفوقية لفرنسا الكاثوليكية. وفي نهاية اذار/مارس حذر وزير خارجية روسيا سازانوف باريس من ان سانت بطرسبرغ لن تقبل في اي ظرف من الظروف ان تكون الاماكن المقدسة في حماية فرنسا وحدها، معلنا ان ما في الامر ليس مصير القدس وحدها بل المصالح الارثوذكسية في كل الاراضي المقدسة وصولا الى الجليل وطبرية ونهر الاردن! وما ان تحركت روسيا حتى بدا ان بريطانيا ليست اقل صلابة من سانت بطرسبرغ، مع ان دوافعها كانت عسكرية اكثر منها دينية. فقد رأت لندن انه لا يمكن في اي حال التخلي عن منطقة قريبة الى هذا الحد من السويس. لكن وزير الخارجية البريطانية غراي كان اذكى من ان يطالب بجعل فلسطين تحت سلطة الوايت هول وحدها، وبدلا من ذلك طالب رفاقه في اجتماع حكومي في ١٤ اذار/مارس ١٩١٥ بأن يساندوه في المطالبة بتدويل فلسطين. في تموز/يوليو تبنت الحكومة الاقتراح. واذ اكتشفت باريس ان حليفتيها الروسية والبريطانية تقفان ضدها، شعرت انه لا بد من القبول بنوع من التدويل. وهكذا اتفق المستر سايكس والمسيو جورج - بيكو على تسوية تقام بموجبها «منطقة بنية» تضم وسط فلسطين، وهي منطقة يلفها خط واحد من عكا الى بحر الجليل ومن نهر الاردن والبحر الميت الى غزة.

وبموجب هذا الاتفاق لا تتخلى فرنسا او بريطانيا عن مصالحها الخاصة في فلسطين! بل بموجب التخطيط تسيطر بريطانيا على خليج عكا وحيفا، مع الحق في استخدام الاراضي السورية اذا اضطرها الامر. وبالاضافة الى ذلك فان المنطقة البريطانية باتت تضم شرق الاردن وجنوب فلسطين. وبالتالي تضمن افضلية النفوذ البريطاني في النقب والعقبة والبحر الاحمر! في المقابل اعطيت فرنسا الحق في استخدام الخط الحديدي البريطاني للاتصال بميناء حيفا وضم شمال غرب فلسطين بما في ذلك الجليل الاعلى بسهوله وينابيعه الى منطقة النفوذ الفرنسية.

بعد توقيع الاتفاق اعترض غراي قائلا ان «المصالح البريطانية قد ضحي بها» ووافقه على ذلك مارك سايكس. وقال اللورد بيرتي: «مسكين مارك سايكس. لقد اعتبرته حكومة الحرب خبيرا لا ينازع في شؤون الشرق الاوسط، لكن ديبلوماسيا فرنسيا يدعى بيكو قد خدعه». الا ان الفرنسيين لم يروا الامر كذلك. اذ من وجهة نظرهم فان سورية قد جزئت ووسط فلسطين قد اخذ منهم، مع انهم اعطوا منطقة «النفوذ الالماني» بين الاسكندرون والموصل. اما بريطانيا فقد «نالت» بغداد ومنطقة كركوك واعالي العراق، كما سمح لها ببناء الخط الحديدي بين حيفا وبغداد الذي عارضه الفرنسيون والالمان العام ١٩١٤. والاهم من ذلك كله ان بريطانيا اعطيت حصة الاسد في تقرير مصير فلسطين، كما انه لم يطلب منها الان، كما طلب منها في العام ١٩١٢ عدم التدخل في شؤون المشرق.

وقعت معاهدة سايكس - بيكو في ٤ شباط/فبراير ١٩١٦ في باريس وفي لندن بعد ذلك بأربعة ايام.

***

قالت جدتي وهي تؤرخ ولادتي بأنها وقعت يوم ضربوا القنبلة على المفوض السامي»!

ولم يخطر لي مرة واحدة ان اعرف من هو ذلك «المفوض السامي» الذي ضرب قصره يوم ولدت. فقد عاشت جدتي في ظل الاستعمار التركي ثم في ظل الانتداب الفرنسي وكانت تؤرخ الاشياء بهما، اما نحن، فما ان اعطينا نعمة الحياة، حتى كان الاستقلال يطل هو ايضا، نعمة دنيوية تخالطها عبوديات اخرى، بعضها من صنع الوطن، وبعضها الآخر استمرار لقرون طويلة من المؤامرات الاجنبية.

لم يخطر في بالي مرة واحدة من هو ذلك «المفوض السامي» ولا ان اسأل من الذي قصف قصره بحيث اخاف الامر جدتي خوفا ظل يلاحقها طوال اعوامها التسعين، لكنني سأكتشف فيما بعد ان كل همها، رحمها الله، من قنبلة المفوض السامي كان انها وقعت على مقربة من «المستشفى الفرنسي» حيث ولدت، فدب الرعب على المواليد الجدد.

بعد عشرين عاما تماما اصل الى باريس ومعي حقيبة جلدية عتيقة. ويطلع علي فجر المدينة ومعه الف حلم والف فجر، لم تكن باريس حلمي وحدي. كانت حلما قديما يتقاسمه الشبان في كل الازمنة وفي كل مكان. وخلت نفسي وانا انطلق الى رحابة الشانزليزيه، وقد ضاعت المدينة في اوائل الربيع بين الرمادي التاريخي وبين النفحات الآتية غامضة من الفصل - خلت نفسي اطأ الهواء لا الارصفة.

هذه، اذن، هي باريس!

وعدوت اقطف ، نظرا، كل ما حولي، واتسلق باجفاني اعالي المباني، واتطلع بعيدا في الافق عبر الضفة اليسرى فتبدو باريس اكثر جمالا من الكتب واكثر حقيقة من رسائل بودلير واكثر حقا بذلك اللقب الذي اعطاها اياه ارنست همنغواي: «مهرجان متحرك».

غير انني ما لبثت ان شعرت بأن شيئا من الخوف يلف المدينة. وعندما غابت غشاوة الانبهار اخذت اتبين حافلات الجيش متوقفة الى جوانب الطريق والساحات. وكان الجنود لايزالون يرخون فوق اكتافهم معاطف نصفية كحلية، زجاج محطم من باب صالة «الستروين» العالية السقوف واقتربت من احد الجنود وسألته ببساطة، ماذا في الامر، فرفع يده بالتحية قائلا: الخوف من الجنرالات!

اي جنرالات؟

كان ذلك في العام ١٩٦١. الجنرالات المتقاعدون في الجزائر يقومون بالمحاولات اليائسة الاخيرة في وجه جنرال اخر يدعى شارل ديغول، وثمة من يلقي القنابل البلاستيكية في شوارع باريس لكي يدعم الحكم الامبراطوري العتيق بأن «الجزائر فرنسية».

تخطر لي جدتي والقنبلة على المفوض السامي: الم يلقها رجال ديغول ايضا حين زحفوا في العام ١٩٤١ على قوات «فيشي» لكي يرغموا «دنتز» على الاستسلام؟

ها هو ديغول يبدأ ما سوف يكون فيما بعد آخر صراع مع جنرالات الشرق! عشرات منهم حملوا اوسمتهم وخيولهم وتلك النجوم المرصعة واتجهوا الى الشرق. لم يكن هناك جنرال كامل من دون الشرق. هو الشرق، كان النجمة الخامسة على كتف اي منهم، والعسكري الذي لم يتدثر بها ويشعر بلمعانها تحت ذقنه ظل ناقص التاج، منقبض الصدر.

كلهم لبوا نداء الشرق، او نداء الصحراء: فرنسيون والمان وانكليز وايطاليون واسبان، وفي نهاية الامر، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، جنرالات اميركيون ايضا. وفي معاطف ايزنهاور وباتون شحنات كثيرة من غبار المغرب، لقد ترك الشرق على قادة الغرب، بين العام ١٩١٤ والعام ١٩٤٥ آثارا لا تنسى، وتركوا هم بصماتهم في الرمال والبساتين والجسور والساحات.

ديغول واللنبي ورومل وويفل ومود وساراي وكاترو وغورو. وبين الحربين تحول السادة

العسكريون الى سياسيين يتقاتلون ويتآمرون في لندن وباريس... ويحكمون في مصر وسورية ولبنان. وعندما سيبدأ العسكريون العرب بالوصول الى الحكم في زمن الاستقلال، سوف تتحدث صحف اوروبا عن الحكم العسكري في المنطقة: الحكم العسكري في المنطقة؟ انها موضة اطلقها نابوليون بونابرت، الجندي الذي صار امبراطورا، او لعله ذلك الالباني اليتيم الذي سيصير اسطورة تدعى محمد علي.

لكن في اي حال، كانت انتفاضة «جنرالات الجزائر» هي الفصل الاخير في التاريخ الفعلي الذي لعبه جنرالات الغرب في سياسة الشرق العربي.. والمغرب ايضا، ومع استقلال الجزائر سوف تتغير ملامح كثيرة في الوجه العربي وسوف يؤدي ذلك الى استقلال عدن، ويحمل بريطانيا فيما بعد على انهاء وجودها الاستعماري «شرق السويس».

اجل، هكذا كان العالم مقسما ذات يوم: غرب السويس، وشرق السويس. اي حتى العام ١٩٦٧ سوف يظل ذلك المنفذ البحري الى الشرق هو البوصلة التي يقيس فيها الغرب انتشاره ومداه السياسي والاستراتيجي.

لكن، فلنعد قليلا الى باريس.

الى الجنرالات..

جئت الى باريس بحثا عن باريس، لكن ها هي باريس تخشى الظهور، وتذكرت ان صاحب الفندق الصغير دقق طويلا في جواز سفري قبل ان يمنحني «غرفة مع الفطور». ودقق ايضا في ملامحي، ثم رفع قلنسوته الكحلية الى الخلف وقال وهو يمضغ لفافة «الجيتان» الصفراء: حسنا.

كان الرجل عصبيا. وكان ركاب «المترو» في حالة عصبية ايضا. وكانت باريس تخاف ولا تطيق ان يقول احد لها اي شيء الا همسا وقد كادوا ينسفون فندق «اللوتيسيا» الضخم امس لأن منديس فرانس تحدث هناك عن «ضرورة وقف الحرب».

طبعا حرب المستوطنين! ... بالتأكيد.. كان منديس فرانس يتحدث وتحت لسانه مرارة «الهند الصينية»، اي تلك التي ستصبح خلال سنوات قليلة فيتنام الاميركيين، فالرجل يعرف جيدا كيف تنتهي الدول الكبرى في معركة كبرى مثل «ديان - بيان دفو». انه هو الذي اعطى الامر بالانسحاب مع الهزيمة، وسوف يظل ريتشارد نيكسون يبحث عبثا في تلك الرمال المتحركة عن «الانسحاب المشرف» غير ان العسكريين يعرفون ان ثمة نوعا واحدا من الانسحابات.

لم تكن فرنسا خائفة فحسب بل كانت تجرجر خلفها ايضا ظلال الانشقاق الطويل وخيالات الهزيمة: السويس وديان بيان دفو في عقد واحد. ثم مراكش وتونس. ثم يمنح

ديغول، طوعا، صكوك الاستقلال لعدد من المستعمرات الافريقية. فهذا العقد، الستينات، تميز منذ لحظاته الاولى برفع الاعلام الوطنية فوق مناجم الفضة والنحاس. والهولنديون والالمان والفرنسيون والبلجيكيون والايطاليون يرفعون القبعات احتراما في ردهات الامم المتحدة للقادمين الجدد الى النادي الدولي الاول: مستعمريهم بالأمس.

لقد نزل الاستقلال مرة واحدة على القارة السمراء مثل ينابيع النيل وبقيت العقلية الاستعمارية لدى الاوروبيين معلقة فقط على رفوف القدامى الذين استحال ايقاظهم من غيبوبة التاريخ والعصور الغابرة: سالازار في البرتغال، فرانكو في اسبانيا. وهذا الحلم الفرنسي العتيق بضم كروم عنابة الى وادي اللوار وضفاف الدوردون.

لكن ها هي باريس تستفيق اولا من غيبوبة الجزائر. واذ تسمع جنون الجنرالات الاربعة وخطتهم للنزول فوق العاصمة بالمظلات – اي الهبوط بالحرب الاهلية من فوق – يوحد في ما بينها الخوف. وتنادى الباريسيون الى الاضراب كحل وحيد فتقف عجلة الحياة وتغلق كل الابواب... الا طبعا ابواب المقاهي حيث يزدحم الباريسيون، مسلحين بصحف الظهيرة وشمس الربيع... ويأخذون – كالعادة – يتجادلون بلا نهاية فيصبحون ايد تتشابك في الهواء.

ماذا تقول المقاهي؟

المقاهي تجمع على ان الجنرالات الاربعة ليسوا مجانين فحسب. انهم خونة! وهم لم يكتفوا بالعصيان الفاشل الذي اعلنوه في الجزائر نفسها بل ها هم يهددون الان بهذا الانقلاب الجديد. ماذا تعني كلمة انقلاب؟ حسنا. انها احدى المرات النادرة التي تلجأ فيها فرنسا طوعا الى تعبير انكليزي يصف الحالة حقا. ولذا فالجميع صحفا ومقاه، لا يستخدمون كلمة (Coup D'etat) بل كلمة (Putsch). ان فرنسا تتأمرك ببطء في اي حال. والسندويتشات هنا اخذوا يسمونها (Les Quicks) والمقابلات الصحافية تسمى (Interviews) وحتى الفتيات، اجل الفتيات في بلاد العطر يسميهن موريس شفاليبه الان بطريقة فضائحية ضاحكة (Les Girls) لكنه لا ينسى طبعا ان يشكر السماء من اجلهن.

بدأ كل شيء ليلة الجمعة الماضية. فقد ذهب الجنرال ديغول الى «الاوبرا» لحضور احدى مسرحيات راسين. وكان معه طبعا طابور كبير من الوزراء والرسميين، وبين هؤلاء رجل اخر أبيض الشعر وانما مربوع القامة، هو المسيو لويس جوكس – اي وزير شؤون الجزائر الذي كان يفترض ان يكون ساهرا في مكتبه وعلى رؤوس اصابعه واعصابه...

عاد الجميع تلك الليلة وقد فرحوا بمشاهدة «بريتانيكوس»! لكن ما ان دقت الثانية ليلا حتى جاء من يوقظ شارل ديغول من النوم: ان اربعة من رفاقه واصدقائه السابقين هم الذين

يقودون الان حركة التمرد الثالثة في الجزائر من اجل اخضاع باريس. وكان التمرد الاول في ١٣ ايار/مايو ١٩٥٨ قد ادى الى سقوط الجمهورية الرابعة ومجيء ديغول بالذات. وكان الجنرال راوول سالان اول من رفع الصوت مطالبا بعودة ديغول فكان ان كافأه بتعيينه قائدا اعلى للجيش في الجزائر. وهذا المنصب عاد فاحتله الجنرال موريس شال، وهو ايضا من رفاق ديغول في المقاومة لكنه ما لبث ان ابعد عن المنصب بعد حركة «تمرد الحواجز» في كانون الثاني/يناير ١٩٦٠. كذلك كان الجنرال ادمون جوهو، وهو من مواليد الجزائر، بطلا من ابطال المقاومة في الحرب ولذا اصبح رئيس اركان القوات الجوية الديغولية في الجزائر لكنه ما لبث ان اعلن انه سوف يقف ضد ديغول في الاستفتاء على استقلال الجزائر. اما الجنرال الرابع والأقل اهمية فكان اندريه زيللر وهو ضابط صف من ضباط الحرب العالمية الاولى.

منذ ان افاق ديغول في الثانية صباحا لم تعرف باريس النوم. اما الجزائر فكانت ساهرة في اي حال! وكان معروفا ان الجنرال سوف يتحدث بين لحظة واخرى. هذه طريقته، قبل وبعد، في مواجهة اللحظات الحاسمة: ايها الفرنسيات، ايها الفرنسيون!

وفي المساء انتشر القول بأن الجنرال ديغول سوف يخاطب الامة «وفرنسا عبر البحار». وهذا تعبير جديد تلغي فيه باريس الصفة الاستعمارية عن بعض سياستها الخارجية. ألم تخترع هي ايضا لقب «الانتداب» . لكن صحافيا فرنسيا سوف يقول في باريس للسفير الكاتب اميل خوري عندما يحتد النقاش بينهما: اياك ان تخدع نفسك انت ايضا. فنحن اخترعنا تعبير «الانتداب» لكي نرضي انفسنا لا لكي نرضي حضراتكم!

في الثامنة مساء فرغت باريس حتى بدت مدينة مهجورة. وما ان تلألأت انوار الجسور على صفحة السين وخف عدد المارة حتى صاروا اشباحا في الظلام، لقد تسمر الجميع امام شاشات التلفزيون، ثم اطل ديغول من دون مقدمات كأنه آت من صمت عميق: ايتها الفرنسيات، ايها الفرنسيون.

كان ذلك اعظم اداء خطابي في حياته، وكانت واضحة في صوته بحة الرجل الذي طعن في قلبه وفي كبريائه. ولم يكن، هذا العسكري الشاعر، يعدم التعابير اللازمة للمناسبة فراح يدق باطراف الصوت رؤوس اولئك «الاستقلاليين المتعصبين الذين لا حدود لأهوائهم. انهم لا ينظرون الى الامة والى العالم الا من خلال نشوة جنونهم».

ثم اين منه ابطال راسين واشخاص بريتانيكوس التي كان يحضرها قبل يومين عندما توقف يهتف بيديه ونصفه الاعلى وقبعته المستطيلة ثلاث مرات: HELAS , HELAS , HELAS.

كان هذا ، كما ستصفه جانيت فلانير فيما بعد، «صوت البطل في تراجيديا فرنسية لكنه صوت اكثر تأثيرا بسبب قربه من الحقيقة». وبالكثير من الحزن سوف يضيف هذا الصوت ان «الدولة مهانة والامة امام التحدي» وفيما طلب من الفرنسيين مساعدته وهو ينهض، كان نشيد المارسيلييز يعزف خلفه نداء «الى السلاح ايها المواطنون».

كأنما لم يكف الرعب الذي زرعه ديغول بجمع الفرنسيين حوله، فجاء رئيس وزرائه، ميشال دوبريه، لكي يضيف الى مأساوية الموقف مأساة اخرى، اذ قبل منتصف الليل بقليل تحدث دوبريه، بلهجة مسرحية مفصلة، عن «شيء ما سوف يحدث، خصوصا في المنطقة الباريسية». وقال تكرارا إن هناك «محاولة مجنونة» لانزال المظليين في بعض المطارات ومن ثم السعي الى السيطرة على السلطة: اذهبوا وقاتلوهم.

وحبست باريس انفاسها طويلا. وعندما طلع الفجر من دون ان ينزل المظليون اخذ بعض الفرنسيين بميلهم الطبيعي الى الشك، يقولون إنه لم يكن هناك مظليون ولا من يحزنون وان المسألة كلها خدعة وضعها المسيو دوبريه لتجييش الفرنسيين وراء رئيسه.

لقد كان المسيو دوبريه حقا في حاجة الى مثل هذا الدعم، فالقوة الحقيقية، القوة العسكرية والفرقة الاجنبية ذات الرماح الشهيرة ونصف المليون عسكري... كانوا جميعا في الجزائر. لكن الجنرالات فقدوا عنصر المفاجأة منذ ليلة السبت وهكذا اخذت حركتهم تنهار شيئا فشيئا، وهربوا الواحد بعد الاخر الى ان اعتقلوا وسيقوا الى المحاكمة. وكان راوول سالان يبدو خائفا «وكأن الحكم بالموت قد نفذ فيه فعلا».

لم يعط ديغول الاستقلال للجزائر. الجزائر اخذت الاستقلال، وهو لم يعط لبنان من قبل الاستقلال كما أعلن، بل جملة قضايا محلية ودولية ادت الى الاستقلال. بل إن ديغول كان ذات مرحلة بين اولئك الذين نادوا «بالجزائر فرنسية»، غير ان اهمية ديغول الحقيقية هي في انه عرف دائما كيف يقرأ في مستقبل التاريخ وليس فقط في ماضيه. وقد اختلطت حياة ديغول السياسية والعسكرية بقدر الشرق العربي والمغرب العربي في ثلاث محطات تاريخية على الاقل : الحرب العالمية الثانية، حرب الجزائر. ثم في حرب ١٩٦٧ عندما حققت اسرائيل ربحا عسكريا بطائرات الميراج الفرنسية لكنها خسرت فرنسا.

لن تظل فرنسا هي فرنسا غي موليه، تذهب الى الاعتداءات المشتركة مع اسرائيل، بل سوف يفرض ديغول حظرا على شحن الاسلحة اليها، وهكذا تدخل اميركا أول مرة مصدراً وحيداً للدعم العسكري الاسرائيلي، بينما يجد العرب في فرنسا مصدّرا جديدا للسلاح واحيانا للدعم السياسي.

لم يكن هناك جنرال لعب الشرق دورا في حياته السياسية والعسكرية كالدور الذي لعبه

في حياة ديغول... لكن قبل ان نبدأ في المراحل التي عاشها الرجل في المنطقة – او معها – لا بد دائما من تلك المحاولة التي جربها الوف الكتاب والمؤرخين والصحافيين والسياسيين، لا بد من الاجابة عن ذلك السؤال الذي يحمل السحر والغموض والف جواب: لماذا الشرق؟

لا ادري. ولو لم يكن هذا الكتاب محصورا بالجنرالات لكان هناك اغراء حقيقي باللجوء الى عنوان مثل «نداء الشرق» على طريقة «نداء الغابات» او «نداء القطب» او «نداء الصحراء»، اي ذلك الجاذب الغامض الذي يدعو الرجال من اقاصي الارض الى اماكن اخرى هي خليط من الواقع والاساطير! لقد عاملت اوروبا الشرق العربي كأنه قطعة منها. وفيما كانت تمنى بريطانيا الحرب العالمية بأفظع هزائمها في دانكرك كان ونستون تشرشل يأمر بارسال فرقتين الى ... السويس، تاركا بريطانيا كلها تحت رحمة فرقتين اخريين فقط. فالمنطقة التي كانت ذات يوم «شرق روما» اصبحت الان «شرق السويس» وابطال «السوم» والالزاس و«المارن» يخوضون المعارك الان بكل اوسمتهم فوق رمال الصحراء، وبريطانيا التي لم تستطع الانتقام من هتلر في اجواء لندن المليئة برائحة الركام، تلاحقه الى هنا، الى «العلمين» حيث يتناطح ثعلبا القرن العشرين بالرمال والحديد: روميل ومونتغمري. بل إن تشرشل يتذكر الان جيدا ان نابوليون بونابرت وجه اكبر ضربة قاتلة الى بريطانيا بالانزال العسكري في مصر في العام ١٧٨٩ وليس في «كنت».

تكرارا، لا حصر ولا عد للجنرالات الغربيين الذين كانت لهم علاقة ما، بالشرق او معه. وقد كان المتوسط، كانت هذه العلاقة المتناقضة علاقة الحب والكراهية بين المشرق واوروبا، وحتى بعدما اكتشف فاسكو دي غاما (١٤٦٩ – ١٥٢٤) رأس الرجال الصالح واخذ يحمل التوابل والبهارات والافاويه عن تلك الطريق ظل التداخل الاوروبي – المشرقي قائما وكذلك الصراع على الشرق بين اهل اوروبا انفسهم. وظلت كذلك الفتوحات والغزوات مثل المد والجزر، وفي حين ترى اليوم شارعا او جسرا في مدينة عربية يحمل اسما اجنبيا فانك تمر في اسبانيا وفرنسا وصقلية بمدن عربية كاملة، ويصعقك كم تداخلت الدماء بعضها ببعض عبر العصور، وكم تطلع مشرق الشمس الى مغربها وكم تطلعت مغاربها الى مشارقها، فكان هذا ينتصر مرة وذاك اخرى حتى كانت هذه الخريطة التي نعرفها الان، اي منذ نهاية الحرب الكونية الثانية الى الآن.

غير ان هذه المحاولة في دراسة جنرالات الشرق، تحصر نفسها بين الفترة التي تبدأ مع العام ١٩١٤ وتنتهي في العام ١٩٤٥، اي بدايات الحرب الاولى ونهايات الثانية. والا صعب او استحال على اي كان ان يحصر بين دفتي كتاب – او اكثر – هذه الطوابير الضخمة من الجنرالات.

اذن، اولا خوفا من الضياع في متاهات الرفوف التاريخية، وثانيا لأنه، على كثرة المفارق والمفترقات التاريخية فوق ارض الشرق، فان العام ١٩١٤ كان عام التحولات الأهم في تاريخ المنطقة.. يومها كانت الامبراطورية التركية قد بدأت بالانهيار حقا، او بالاحرى كان انهيارها قد وصل الى المنطقة، ويومها ايضا كانت اوروبا تتسابق، كما لم تفعل من قبل، الى المياه الدافئة في المتوسط... وعبر مضائق الدردنيل التي هزلت دفاعاتها. وكان ثمة عنصر آخر قد أخذ بالظهور بوضوح في سماء المشرق: اذ من خلال الغبار الذي اثاره تسابق الالمان والانكليز والفرنسيين بدا فجأة ان الولايات المتحدة التي كانت الى الان قابعة خلف امواج الاطلسي انما تحلم بأن تجعل كل هذا المحيط ... خلفها.

اللنبي : أحب العصافير واحتل القدس

«... على الجنرال ان يكون مراقباً، دؤوباً، لماحاً، لطيفاً وقاسياً، بسيطاً ومتحذلقاً، حارساً ولصاً، فرحاً وحزينا، كريما وبخيلا، مندفعا ومحافظا!».

هذه الكلمات ليست لرجل عسكري. انها كلمات قديمة لسقراط، لكن الجنرال السير ارشيبالد ويفل اختار هذه التعابير لكي يقدم بها السيرة التي كتبها عن ادموند اللنبي، مارشال القوات الانكليزية في مصر وفلسطين، والرجل الذي سيلعب واحدا من اهم الادوار السياسية والعسكرية في تاريخ المنطقة. والجنرال ويفل ايضا لعب ادوارا كثيرة وظل اسمه يعلو الشوارع والقواعد في ليبيا حتى الثورة. لكن اللنبي لم يؤرخ نفسه ولم يترك خلفه مذكرات او اي شيء من هذا القبيل. فكان ان تولى المهمة، الى جانب عدد كبير من الكتاب، ارشيبالد ويفل نفسه الذي تولى فيما بعد رئاسة اركان الجيوش البريطانية في المنطقة.

إن تاريخ اللنبي هو تاريخ الصراع على المنطقة لا تاريخ العرب... فقد كان على العرب في تلك المرحلة ان يختاروا بين «الانتداب»، اي الشكل الجديد للاستعمار وبين الاستعمار التركي. الحرية لم تكن خيارا، الحرية قدر سوف يحل فيما بعد. لكن لن يذهب الاستعمار المعلن الا وقد ترك خلفه الكيان الصهيوني، الدولة العبرية التي كانت تهيأ في الاروقة .

لقد جاء ادموند اللنبي الى المنطقة وهو يحمل اطنانا من الاوسمة. فقد كانت خلفه عشرات المعارك الكبرى التي اداها لصاحب الجلالة خصوصا في جنوب افريقيا وبلاد الزولو. وعندما اشتعلت الحرب الكونية الاولى كان الجنرال الذي ولد في العام ١٨٦١ قد اصبح المفتش العام لقوات الفرسان في جيش الامبراطورية. وقد قاد هذه القوات الى خطوط الدفاع في فرنسا ثم سجل لنفسه بطولة فريدة في معركة «اراس» الشهيرة.

غير ان ابرز ما في حياة اللنبي بالنسبة الى العالم العربي كونه عرف بقائد الحملة على القدس. الحملة طبعا، ضد الاتراك. وقبل ان نعطي اي تفسيرات عن تلك الحملة، لا بد ان نتذكر ان لويد جورج قال لقائد «الجيش الثالث» السابق وهو يوكل اليه المهمة الجديدة: إن «القدس يجب ان تكون هدية الميلاد للامة البريطانية».

من اجل ذلك، اي من اجل القدس، قال لويد جورج للجنرال اللنبي: «اطلب التعزيزات التي تشاء اننا نريدها بأي ثمن».

لم يكن هناك هاجس اخر او مجد اكبر عندما غادر قطار اللنبي محطة «تشيرنغ كروس» ذات الحجارة الحمراء الواقعة في قلب لندن، في ١٢ حزيران/يونيو ١٩١٧، في طريقه الى الجبهة المصرية – الفلسطينية. وفي ذلك النهار بالذات كان الزعيم التركي انور باشا يعقد في مدينة حلب اجتماعا طارئا لقادة الجبهات التركية في بلاد القفقاز وفلسطين وما بين النهرين للبحث في الخطط المقبلة على «المسرح الشرقي» حسب تعبير ويفل. وكانت الخطة التركية آنذاك تقضي باعادة احتلال بغداد التي كان احتلها الجنرال مود في شهر اذار/مارس السابق. ودب الخلاف في لقاء حلب. واصر المتصرف جمال باشا (الجزار) على تدعيم جبهة فلسطين قبل اي شيء.

اكمل اللنبي الطريق الى مصر يرافقه مساعدان والميجور جنرال ج. اس . شيا. ولن يدخل شيا التاريخ غير ان مجيئه الى مصر كان يعطي فكرة ما عن طباع اللنبي. فالرجل كان من ضباطه في معركة «اراس». وكان يكثر من الاسئلة والاعتراض على الاوامر الامر الذي اضطر اللنبي الى ابعاده الى بريطانيا. غير انه عندما استعد للسفر الى مصر سأله اللورد ديربي، وزير الحربية، اذا كان لا يمانع في اخذ شيا معه. ولم يتردد في الموافقة.

سافر الرجال اولا الى باريس فروما ومنها الى برينديزي على الساحل الايطالي ومن هناك ركبوا الطراد البريطاني «بريستول» فوصلوا الى الاسكندرية بعد يومين، في ٢٢ حزيران/يونيو. وبعد ذلك بخمسة ايام تولى اللنبي قيادة «قوات الحملة المصرية» متخذا لنفسه نزلا في ضاحية «الجزيرة»، وكان اول ما فعله هو البحث عن طاه فرنسي، وقد عثر عليه في شخص رجل كان هاربا من الخدمة العسكرية ويملك مقهى في الاسكندرية.

وبعد اسبوع من الاستقرار في القاهرة كان شيء من القلق قد دب في الجبهة وكثير من الرعب في ضباط اللنبي انفسهم. لن تعود الحياة سهلة او مسترخية بعد الان: الياقات يجب ان تكون منشاة والقبعات حادة والاكتاف الحمراء حمراء حقا! وترك الضباط خلفه واتجه الى الجبهة على نحو ٣٠٠ ميل من القاهرة عند الحدود الجنوبية لفلسطين حيث يرابط معظم القوة البريطانية قبالة غزة. المكان الذي هزمت فيه مرتين، كما رابطت قوات اخرى عند بئر السبع، المدخل الصحراوي الى فلسطين.

لقد كانت المهمة الاساسية «لقوة الحملة المصرية» هي تأمين القناة، لكن كما يقول التعبير العسكري، من اجل ان يكون لهذه القوة حرية المناورة «مسافة كوع» كانت القوة الاخرى المعروفة «بطابور الصحراء» – وهي تتألف من الخيالة والجمالة وكتيبتي مشاة – قد توسعت عبر سيناء في شتاء ١٩١٦ مبعدة الاتراك امامها وتاركة خلفها خطا حديديا وآخر للانابيب، كانت ، كما يقول ويفل: «حملة صغيرة حسنة التنظيم انتهت بهزيمة مؤسفة في معركة غزة الاولى في العام ١٩١٧».

وقد ابرق ارشيبالد موراي، قائد الحملة الى حكومته يقول إن الانتصار سوف يكون في المرة المقبلة. غير ان الاتراك كانوا قد دعموا مواقعهم فكانت هزيمته التالية في غزة ثم القرار بنقله وتعيين اللنبي خلفا له.

اطلق اللنبي اسم «قوة الشرق» على الفرق السبع التي تقوم بحملة فلسطين (مشاة وخيالة وجمالة) وراح يحاول بناء معنوياتها من جديد بعد الهزائم التي منيت بها، وقد نجح في ذلك فورا كما تقول الوثائق الرسمية الاوسترالية:

«لقد مر عبر المعسكرات الحارة المليئة بالغبار مثل ريح منعشة قوية» وكتب احد ضباط الفرقة يقول: «نادرا ما يحدث ان يكون لقائد عسكري مثل هذا التأثير في جنوده».

هنا ايضا، كما في ثلاثة ارباع العالم تقريبا، كانت بريطانيا تسيطر على البحر. والسيطرة على البحر كانت تعني تلقائيا التقدم بحرا في فلسطين: انها الطريق الاكثر امانا في اي حال، والاكثر استقامة، وعليها يمكن تقبل الدعم من البوارج، كما كان الحصول على المياه قربها، سهلا تقريبا.

غير ان غزة التي كانت تسد الطريق الساحلية، اصبحت قلعة حصينة لا بد ان يكون حصارها مكلفا وبطيئا. لذا لا بد من تعزيزات يطلبها اللنبي من لندن. لكن خلال تفقده الجبهة وعلى الرغم من انهماكه في استطلاعات لا حصر لها، لم ينس اللنبي حبه الذي يفوق عشقه للعسكرية: النبات والعصافير و... الناس في ارض جديدة. وقد كتب الى الليدي اللنبي وهو في طريق عودته بالقطار: «من العصافير هناك القبرة والابلق والصرد والنحل والصقور والكواسر، وتأتي طيور الالباتروس ايضا الى رؤوس الوديان. وتملأ المكان تغاريد العصافير الهازجة، وهي طيور ودية واليفة تشبه شحرورا كبير الحجم ولها طباع ابي الحناء. وقد رأيت واحدا منها اليوم يهاجم جرادة في مثل حجمه. وهناك ايضا ثعالب وزواحف وخنافس. والارض جرداء الان غير انها في الربيع تمتلئ بالخضرة وتكثر حقول الشعير والاعشاب والزهور من كل نوع. وفي الواحات وقرب القرى يعلو شجر النخيل والتين واللوز والمشمش. وهناك حقول شاسعة من البطيخ الصغير الحجم (...) وقد ذهلت

اليوم وانا ارى الابل ترعى ورق الصبير، اذ كنت اعتقد ان الصبير الشائك يستحيل على اي حيوان له حلق ولسان».

غير ان ذلك لا يخبر الليدي اللنبي بشيء. لا كلام عن خططه العسكرية. ان حبه الحقيقي هو للعصافير لا للجندية. ولا هو كان يجيد كتابة الرسائل او المحادثات الطويلة في المجتمعات. بل كان يعتبر ان اولئك المتحذلقين هم في النهاية اناس فارغون يعرفون من كل واد عصا من دون ان يعرفوا شيئا بعمق، وهم يحترفون الحديث في المجالس ويجتذبون الاسماع مرة او مرتين ثم تروح النفايات تكرر نفسها. هو، كان يقول فقط الكلمة الضرورية، كتابة او كلاما. وغالبا ما كان كلامه عن الطيور او عن اكتشاف جديد في الطبيعة.

وخلال عودته من تلك الرحلة سوف يلتقي اللنبي ذلك الشهير الاخر او ذلك «الاخر المضاد» في حملات فلسطين، «لورانس العرب» ويكتشف هذا الرجل التحتي الازرق العينين ان اللنبي «الجنرال الهائل العريض المنكبين» قد حار في امره فيروي الواقعة في كتابه «اعمدة الحكمة السبعة» قائلا:

«لم يستطع اللنبي ان يقرر لنفسه ما اذا كنت محتالا او صادقا. وقد رأيت تلك الحيرة في عينيه وتركته غارقا بها».

من اجل ان يزيد في رفع معنويات جنوده قرر اللنبي ان ينقل القيادة العامة من القاهرة الى الجبهة، في الاسماعيلية ثم الى رفح، كما يروي احد اطباء العيون الذي استدعاه لاستشارته. ويضيف الطبيب في مذكراته: «دعاني الجنرال الى العشاء واعطاني مقعدا الى جانبه ثم راح يمطرني بالاسئلة: هل اعرف شيئا عن الاوبئة التي اصابت العيون في الحملات السابقة على مصر؟ واخبرته انني منكب على ترجمة اعمال الدكتور لاري، كبير اطباء العيون في حملة نابوليون الذي يتحدث عن وباء كارثي حدث انذاك وادى الى اصابة الكثيرين جدا من رجال نابوليون بالعمى ما بين العامين ١٧٩٨ و١٨٠١ وطلب مني ان ارسل اليه نسخة عن تلك الترجمة».

ثم يلقي ذلك الطبيب الضوء على جوانب اكثر اهمية في شخصية اللنبي عندما يتابع القول: «كان اهتمامه كبيرا بكل شيء يتعلق بمصر وسورية قد يؤثر في القوات او مسيرة الحملة. وقد استعار مني كتاب «فجر التاريخ» لمايرز وكتاب «الشرق القديم» لهوغارك ومجلدات من هيرودوتوس وتاريخ الحملات الصليبية وكتبا اخرى حملها الى الجبهة (...) لقد كان مقتنعا بأن التاريخ سوف يكرر نفسه في هذا الشرق غير المتغير، وقال منذ البداية إن المعركة الحاسمة سوف تخاض عند ممر مغيديو». (تعبير توراتي)

في الاسبوع الاخير من تموز/يوليو قام اللنبي بجولة استطلاعية اخرى على جبهة فلسطين. وحين عاد الى القاهرة في ٣١ تموز/يوليو وجد في انتظاره برقية من الليدي اللنبي تخبره فيها ان ابنه الوحيد، مايكل، قد قتل في فرنسا. لقد اصيب بشظية اخترقت خوذته الفولاذية فيما كان يتجه الى احد مواقع المدفعية. وقد عاش لخمس ساعات غير انه لم يستعد وعيه. وكان مايكل اللنبي ملازما في العشرين من العمر.

تلقى اللنبي الجنرال هذه الفاجعة برباطة جأش وترك للذين حوله فقط ان يعرفوا مدى عمقها. لكنه بعد ذلك حصل على اذن بأن تنضم اليه زوجته في فيللا هيللر، في ضاحية الجزيرة.

في منتصف آب/اغسطس كان قد اعد معظم ترتيبات الحملة وجعل مقره في «ام الكلاب» قرب رفح . وعلى الرغم من وعورة المقر وصعوبته كان اللنبي يتفقده باستمرار. وقامت في المنطقة ورشة هائلة فمدت خطوط حديدية موازية وشبكة انابيب اضافية ومخازن للذخيرة والمستشفيات والخنادق. وكان تفقده المستمر لكل شيء يثير الضباط الذين راحوا يوزعون فيما بينهم كلمة السر وفحواها: «الثور فالت». غير انه لم يكن يمضي يوما واحدا من دون ان يمتطي فرسه ويذهب بعيدا في الصحراء بحثا عن.. العصافير.

اعاد اللنبي تنظيم قواته في ثلاثة فيالق:

* فيلق خيالة الصحراء بقيادة الجنرال هنري شوفيل، وهو اوسترالي.
* الفيلق العشرون بقيادة الجنرال فيليب شتوود.
* والفيلق الحادي والعشرون بقيادة الجنرال ادوارد بافن!

اما الخطة نفسها فكانت بسيطة «كما هي جميع الخطط الناجحة في الحروب» كما يقول ويفل: تركيز قوة متفوقة ضد «العدو» من اليسار وايهامه بأن الهجوم سوف يتم من اليمين، وهكذا تقرر ان يقوم فيلق بالهاء الاتراك وابقاء اهتمامهم في غزة فيما يقوم فيلقان اخران بضربهما من اليسار.

لكن المسألة لم تكن طبعا في هذه البساطة.

وكانت الخطة تعاني من ثلاث مشاكل رئيسية: النقل والمياه والسرعة بالاضافة الى شبكة الانابيب. وسوف يشترك ٣٠ الف جمل في نقل المياه خلال الحملة لكن ايضا كان لايزال من المهم احتلال الموقع التركي في بئر السبع قبل اي شيء، وكان ذلك صعبا ولذا لا بد من «الثعلبة» الانكليزية الشهيرة. وهكذا رسمت خطة بأن يذهب ضابط الى الخطوط الامامية ومعه اوراق زوّرت بمهارة تثبت ان الهجوم سوف يتركز على غزة كالسابق. ثم

يتظاهر الضابط بأنه اصيب بجروح فيلقي كيس الاوراق ويهرب، كذلك تثبت هذه الاوراق ان الهجوم على بئر السبع... مزيف!

كان من الصعب تحديد موعد البدء في المعركة. فقد اراد اللنبي تحديده في ايلول/سبتمبر غير ان التأخير في وصول بعض المواد وفي تدريب القوات اكد ان الاستعدادات لن تكتمل قبل تشرين الاول/اكتوبر. الا ان التأجيل كانت له اخطاره ايضا. فالامطار الغزيرة التي تبدأ بالهبوط في تشرين الثاني/نوفمبر كانت تحول اراضي فلسطين الساحلية الى بحر من الوحول والطين. وكانت في الافق دلائل على ان الاتراك يحضرون التعزيزات من الشمال ويعدون لهجوم مضاد. لكن على الرغم من ذلك قرر اللنبي الانتظار الى حين انتهاء الاستعدادات.

وبدأت بالظهور ايضا مشاكل غير متوقعة. اذ عندما وصلت الكتيبة الايرلندية العاشرة من سالونيك في منتصف ايلول/سبتمبر كان اكثر افرادها يعانون الملاريا وقد نصح الاطباء اللنبي بأن هؤلاء بحاجة الى ثلاثة اشهر من الراحة قبل الدخول في اي قتال. غير ان الجنرال البريطاني ذهب الى قائد الفرقة الذي كان معه في فرنسا وسأله عن مدى اهلية جنوده. وقال القائد انهم اقوياء بما فيه الكفاية فأخذ اللنبي بكلامه.

لم يبن قراره على كلمة صديقه فحسب بل لأنه كان يخشى على معنويات الفرقة ان هو اشعر رجالها انهم غير صالحين.

في اوائل تشرين الاول/اكتوبر تجد تطورات سياسية مهمة. اذ حتى الان لم يكن اللنبي قد اعطي من قبل لندن اي هدف جغرافي، فقد كانت الاوامر لديه تقول فقط بوجوب انزال الهزيمة بالقوات التركية امامه من «اجل دعم القوة الموجودة ومعنويات هذا البلد» ولزيادة التذمر التركي من حلفائهم الالمان وازالة الخطر عن بغداد التي تهددها التعزيزات التركية في حلب، لكن ها هي وزارة الحربية الان تقول له انها تريد الغاء تركيا من الحرب مرة واحدة وان هذا الهدف قد يتحقق باحتلال خط يافا – القدس. وبالتالي فان له ما يريد من تعزيزات للوصول الى المدينتين. وقد خطر لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج نقل بعض القوات المقاتلة في اوروبا خلال الشتاء ثم اعادتها الى هناك في الربيع. لكن هذه المخيلة الاستراتيجية لم تتطابق كثيرا مع امكانات النقل والمواصلات وعامل الوقت. وقد حسم اللنبي الموضوع بأن طلب ١٣ فرقة اضافية. واتهم لويد جورج السير وليم روبرتسون بأنه وراء المبالغة في تقدير عدد الحاميات التركية. والحقيقة، كما يقول ويفل فيما بعد، ان الاستخبارات البريطانية كانت قد اعطت اللنبي فكرة خاطئة عن حجم الاتراك، او بالاحرى «معلومات غير كافية عن ضعفهم».

اخيرا تحدد بدء الهجوم على بئر السبع في ٣١ تشرين الاول/اكتوبر على ان يبدأ قصف

غزة بعد ذلك بأيام. وخلال ذلك قام رجال اللنبي بحملات استطلاعية عدة عبر المنطقة المحايدة كان الهدف منها اولا استكشاف الارض قبل الوصول الى خط الهجوم وثانيا خداع الاتراك بحيث عندما يبدأ الهجوم فعلا يخيل اليهم انهم امام حملة استطلاعية اخرى.

على الجانب التركي يقول لنا ويفل، كان هناك ضياع وانقسام. فقد كان الالمان يستعدون في ربيع ١٩١٧ لمساعدة اصدقائهم الاتراك في استعادة بغداد من احتلال الجنرال مود. وهكذا تم تجميع افضل القوات التركية حول حلب، وشكلت لهذه الغاية ايضا قوة المانية بقيادة فون فالكنهاين احد ابرز الجنرالات الالمان. وقد اعتز الاتراك بتلك القوة لدرجة انهم اطلقوا عليها اسم «يلديريم» او «العاصفة». وقد عرض على مصطفى كمال الذي سيصبح فيما بعد اول رئيس للجمهورية التركية ان يقود الجزء التركي من تلك القوة غير انه رفض الخدمة تحت امرة ضابط الماني.

ولم يكن تمركز القوات حول حلب بطيئا فحسب بل بدأت الشكوك ايضا حول جدواه. كذلك كان خطرا على الاتراك المضي في مغامرة بغداد ما لم تكن جبهة فلسطين مضمونة، ذلك ان انهيارها يعني تعريض حلب وخطوط الاتصال الى العراق للخطر.

وقام جدل حول هذه المسألة بين انور باشا في الاستانة وجمال باشا الجزار في سوريا والجنرال فون فالكنهاين في حلب. فقد كان انور باشا يصر على تنفيذ مغامرة بغداد من دون تأخير، اما جمال باشا فكان يطلب تعزيزات للقوات التركية المرابطة في جبهة فلسطين لكنه في الوقت نفسه لم يكن يريد مساعدة الالمان وتدخلهم. وبعد زيارة قام بها فون فالكنهاين الى جبهة فلسطين في ايلول/سبتمبر قرر انه يجب اعطاء الاولوية لسلامة هذه الجبهة، وقد اقترح نقل جيش «يلديريم» كله الى فلسطين لدحر الانكليز بضربة كبرى. غير انه كان قد تأخر كثيرا في الوصول الى هذه الفكرة ثم في اقناع الباشيين، انور وجمال بجدواها. وهكذا لم يستطع جيش «العاصفة» الوصول الى فلسطين في الوقت المناسب فقد سبقت الاتراك عاصفة اخرى الى بئر السبع.

سوف يطلق الانكليز رسميا على تلك العملية التي طردوا فيها الاتراك من مواقعهم عند حدود فلسطين الجنوبية «معركة غزة الثالثة»، غير ان الاسم مضلل كما يقول «ويفل» وكان الاحرى تسميتها «المعركة من اجل غزة وبئر السبع». وقد اقدم اللنبي بادئ الامر على قصف غزة من البحر والبر فجعل الاتراك يركزون اهتمامهم في ميمنتهم. وبعد ذلك بأربعة ايام جرت الحملة على بئر السبع، او الميسرة التركية. ثم بعد يومين اخرين قام الانكليز بهجوم على غزة واسقطوا الكثير من دفاعاتها تاركين الاتراك في حيرة من امرهم حول الضربة المقبلة التي سوف تضعفهم تماما اذ تأتيهم من الميسرة وتبعثر خططهم الدفاعية كلها.

وفي هذا الكر والفر عاد الانكليز فنقلوا ثقل المعركة الى غزة وشددوا حملتهم في السهول الساحلية. ولم تكن تلك معركة تقليدية اذ كانت تفصل بين جناحي الجيش الانكليزي نحو ٢٠ ميلا، تربط بينهما فرقة واحدة فقط من الخيالة وبالتالي تجعل الوسط سريع العطب. لكن اللنبي تحمل المغامرة. كان يريد بئر السبع قبل اي شيء من اجل ابار المياه فيها. ولذا حشد للمعركة قوات اكبر بكثير مما توقع الاتراك، كما استطاع هذا الثعلب الانكليزي ان يخدع الى حد بعيد الجنرال كريس فون كريسنستاين القائد الالماني للجيش التركي الثامن.

وفي ليل ٣٠ - ٣١ تشرين الاول/اكتوبر تحركت قوة قوامها ٤٠ الف رجل من مختلف الاسلحة لاتخاذ مواقع للهجوم على بئر السبع صباح اليوم التالي. اما الحامية التركية فكانت مؤلفة من ٥ آلاف رجل. وبعد مسيرة ليلية طويلة استطاع مشاة «الفيلق العشرين» ان يحتلوا معظم المواقع دون خسائر تذكر مع حلول الظهيرة. لكن النجاح لم يكن كافيا. وكان اللنبي لا يزال قلقا حول قلب البلدة نفسها والابار التي تبعد نحو ٤ اميال. وفيما ينشغل الاتراك بالدفاعات الخارجية كانت الخطة تقضي بأن تهاجم قوة محمولة البلدة نفسها من الشرق. واصدر اللنبي الاوامر الى شوفيل بالهجوم على بئر السبع قبل حلول الظلام، لكن قبل ان يصله ذلك الامر كان شوفيل قد امر لواء الفرسان الاوسترالي بالتقدم نحو المدينة. وبالفعل، قبل حلول الظلام كانت بئر السبع تسقط ومعها... ابارها سالمة.

مر اليوم الاول من المعركة مثمرا: المياه مؤمنة، فرقة تركية كاملة دمرت والقوات البريطانية على مسافة قصيرة من موقع ضرب الميسرة التركية. وفي الاول من تشرين الثاني/نوفمبر قامت الحملة الرئيسية الثانية على جبهة طولها ثلاثة اميال، غير أن خسائر الانكليز هذه المرة كانت اكبر حجما بكثير. وقد تبين للبريطانيين آنذاك مدى صعوبة الاختراق على الخطوط الساحلية. في اي حال مر الفصل الثاني بهدوء نسبي وبدأ الاستعداد للفصل الثالث المجهول العواقب.

فقد تبين ان المياه الموجودة في بئر السبع ليست كافية لارواء القوة التي منع عليها حلاقة الذقون والاستحمام، وهاجت في هذا الوقت رياح الخماسين الحارة فزادت من الطلب على المياه، كذلك دارت رحى معارك ضارية فاشتدت الحاجة الى المياه اكثر فأكثر. وفي هذه الاثناء وصلت الى الاتراك التعزيزات الاولى من فرقة «العاصفة» فظن الانكليز ان الهدف هو استعادة بئر السبع في حين ان الاتراك كانوا في موقف دفاعي، يريدون الان الحؤول دون سقوط القدس.

حيال هذه التطورات قرر اللنبي تنفيذ الفصل الثالث في الرابع من ذلك الشهر غير ان الجنرال تشيتوود نصحه بتأجيله حتى السادس منه. وفي ذلك الموعد بالفعل بدأ الهجوم

وارغم الاتراك على التراجع بعد تحطيم ميسرتهم. وصباح السابع من تشرين الثاني/نوفمبر وصل الانكليز الى قلعة غزة فوجدوها مهجورة. لقد سقط الموقع الذي صد القوات البريطانية ثمانية اشهر واخذ الاتراك يتراجعون شمالا على الساحل.

«لقد كانت هذه الفرصة الذهبية امام الخيالة للقيام بمطاردة عاصفة». هكذا يقول «ويفل» في فرح.

للرجل العادي تبدو المطاردة اكثر اشكال الحرب سهولة! لكن الحقيقة غير ذلك اطلاقا، يحذّرنا «ويفل» ايضا. ان مطاردة عدو هارب وفاقد المعنويات يجب ان تكون سهلة من حيث المبدأ . غير ان المطاردات الناجحة كانت قليلة جدا عبر التاريخ في حين ان عدد الهروب من المعارك كان كثيرا جدا. فالجندي البريطاني مدلل نسبيا ومعدته اكبر اعدائه. في حين ان الجندي التركي كان قد اعتاد وعورة العيش والنوم على الطوى. وباستطاعة الجندي الهارب عادة ان يتزود ما يشاء من مستودعاته الا اذا دمرت. كما ان القوات الهاربة تستطيع ان تربح الوقت بأن تنسف خلفها الجسور والطرقات وتقيم العوائق. وفوق ذلك كله فان الجندي الفار اكثر سرعة من ذلك الذي يطارده. ومن هذا فان العزم الذي اظهره اللنبي في حملات العامين ١٩١٧ و١٩١٨ كان فائقا حقا.

ويروى انه رسم ذات يوم خطا معينا وسأل احد ضباط الاركان اذا كان من الممكن بلوغه وقال الضابط «ان ذلك محتمل ولكن...» ولم يدعه اللنبي يكمل. «كلمة لكن غير موجودة في قاموس الحروب. وفي المطاردة يجب استنزاف القدرة حتى نهايتها. ان القوات التي تلحق الهزيمة بالعدو يتملكها ميل الى الاستراحة. ولذا يجب ان يكون هدفها بلوغ ما يجب ان تبلغه.. لا ما تستطيع».

لكن الهدف الصعب سيظل صعبا. وسوف يتعين على الرجل المنتصر في بئر السبع الانتظار الى العام التالي لاستكمال حملته وحلمه في «تعطيل الاتراك كليا عن القتال». والان سوف يستبدل العزم بالصبر.

لقد لعبت المياه دورها مرة اخرى في المشرق الصحراوي، فقد فرق العطش والتعب فيلق الخيالة الذي كان يلاحق الاتراك، وهؤلاء بدورهم حاربوا ببسالة وهم يتراجعون فما عاد في استطاعة الخيالة اختراق صفوفهم. ودارت معارك طاحنة في ٧ و٨ تشرين الثاني/نوفمبر. ثم في التاسع منه شل العطش حركة الخيول والفرسان معا.

في غضون ذلك كان الفيلق الحادي والعشرون قد احتل غزة نفسها. اما في الجانب الاخر فقد وصل فون فالكنهاين (وقد اصبح مارشالا) مع اركانه الالمان الى القدس واخذوا يستعدون لاستعادة الزمام. وبدا له الوضع مناسبا للوهلة الاولى. فقد كانت هناك فرقة

انكليزية صغيرة نسبيا تلاحق الاتراك املا في الاجهاز على الجيش الثامن، في حين كان البريطانيون على مرمى من الجيش السابع. اما الاتراك انفسهم وقد وعوا اكثر من غيرهم مدى ضعفهم، فقد امروا بالتراجع من دون قتال الى ان يضطر البريطانيون الى التوقف بسبب الحاجة الى المؤن، وعندها يعيدون تعزيز خطوطهم عند حيفا والقدس.

غير ان المارشال الالماني اصر على القيام بهجوم مضاد. وفي ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ضبطت الاستخبارات البريطانية برقية تتحدث عن ذلك الهجوم، إلا ان اللنبي لم يعرها اهتماما كبيرا. وفي ١١ منه بدأت الحملة فعلا لكنها ما لبثت ان تلاشت تحت وطأة ضعفها.

في السادس عشر من ذلك الشهر وصلت قوات اللنبي الى حيفا وبذلك انتهت عملية المطاردة في سهول فلسطين. وانسحب الجيش التركي الثامن الى ما وراء نهر «العوجا» بينما التجأ الجيش السابع الى جبال الخليل. وقد تقدمت القوة الانكليزية الان بعد ١٠ ايام من البدء في عملية المطاردة، مسافة ٥٠ ميلا واسرت نحو ١٠ آلاف جندي واستولت على مئة مدفع.

لقد وصل اللنبي في الحملة الى اللحظات الحاسمة. وهو يعرف، لكثرة ما قرأ في كتب التاريخ، ان هذه التلال امامه عصت على الكثيرين من قبل، وان تلك الممرات الغريبة الوعرة، الضيقة الى القدس، ادت الى هزيمة الاشوريين والرومان والصليبيين. وبين الكتب التي كان يحملها اينما ذهب كتاب «الجغرافيا التاريخية للارض المقدسة» وفيه كتب جورج ادم سميث عن تلك التلال الحصينة.

«كل شيء يتضافر لاعطاء سكان المنطقة وسائل دفاعية سهلة ضد الجيوش الكبرى. انها ارض مليئة بالمكامن والعوائق والمفاجآت حيث لا تستطيع الجيوش الغفيرة ان تتحرك جيدا لكي تقاتل وحيث يستطيع المدافعون الاختباء».

بالاضافة الى ما رآه من صعوبة بنفسه تلقى اللنبي برقية من وزارة الحربية تحذره من تعريض هذه الاعداد الوافرة من الجنود الى الخطر. ومع ذلك اصدر في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر وبعد يوم واحد من الراحة، الامر بالتقدم عبر التلال. لكن كأنها تضيف تحذيرا الى تحذير، بدأت امطار الشتاء بالهطول لكي تذكره بمخاطر ما يفعل.

كان الجيشان التركيان منقسمين ومشتتين على بعد ٢٠ ميلا الواحد من الآخر: واحد على تلال فلسطين والاخر في سهولها. لكن ندرة الطرقات ومشكلات التموين لم تترك للجنرال البريطاني من القدرة على المناورة سوى اكثرها بساطة. وقد ترك اللنبي فرقة من الخيالة واخرى من المشاة فقط من اجل مواجهة الجيش الثامن عبر نهر «العوجا» ولحماية

خط المواصلات في السهول. اما باقي قواته المتوافرة، وهي فرقة من الخيالة وفرقتان من المشاة فقد اطلقها عبر التلال. وكانت هناك طريق معبدة واحدة من حيفا الى القدس «طريق الرومان» التي قرأ عنها اللنبي على الخريطة التي يحملها فلم تكن اكثر من «قادومية» للدواب. ومن حسن حظ الانكليز ان احد ضباط الاركان كان قد طلب من اللنبي في ايلول/سبتمبر الموافقة على انشاء فرقة نقل من الحمير والبغال تحسبا للشتاء القاسي في التلال، غير ان هذه الفرقة لم تصبح جاهزة الا في اوائل كانون الاول/ديسمبر. وفي غضون ذلك ظل الجمل، ذلك المخلوق العجيب، الآلة الرئيسية في الزحف على القدس.

كانت الخطة العامة تقضي بالوصول الى طريق نابلس – القدس من الشمال لقطع خط الامدادات الرئيسي على الاتراك وحملهم على ترك المدينة. وكان اللنبي ينوي تجنب اي قتال داخل القدس نفسها ولذا امر الفرقة الخامسة والسبعين التي اوكلت اليها طريق يافا – القدس ان تتوقف على بعد بضعة اميال من المدينة وان تتجه شمالا نحو «البيرة» فيما تتقدم فرقة اخرى عبر بيت عور التحتا وبيت عور الفوقا نحو رام الله على طريق نابلس على بعد نحو عشرة اميال من القدس. وكانت فرقة اخرى تتقدم في وادي عجلون نحو بيت لهيا لدعم الفرقتين.

واستطاعت الفرقة الخامسة والسبعون ان تتقدم عبر طريق باب الواد وفي مساء اليوم التالي اقتحمت قرية العناب على مرمى حجر من القدس. وبعد ذلك بيوم اتجهت شمالا واحتلت منطقة «النبي صاموئيل» وهي تلة تشرف على المدينة. اما الفرقة التي تولت مهمة قطع طريق نابلس فقد واجهت مقاومة تركية شرسة واضطرت الى التراجع امام الاتراك نحو بيت عور والتمركز هناك.

في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر كان قد تبين للبريطانيين ان العزم وحده لا يكفي، لا بد اذن من التوقف الى ان تصل التعزيزات. وفي هذا الوقت كان المارشال الالماني يترصد املا بهجوم مضاد جديد فلما توقف الانكليز قرر هو الاقتحام. غير ان محاولاته لم تنجح. واخذت فرق انكليزية جديدة في الوصول الى التلال والسهل. وبدأ العد العكسي بمحاولة ثانية في اتجاه القدس.

ومن غريب الصدف ان الفيلق العشرين (البريطاني) كان طليعة الهجوم في حين ان الفيلق العشرين التركي كان يتولى الدفاع عن مدينة المقدس. وتحدد موعد المحاولة الثانية في ٨ كانون الأول/ديسمبر. وهذه المرة قرر الجنرال تشيتوود، العقل المدبر للخطط، ان تتم الحملة على الطريق الرئيسية المتوافرة. وهكذا كان وتوزعت الفرق الانكليزية المهاجمة الادوار: اثنتان تتجهان عبر المشارف الغربية للمدينة، واحدة تتقدم عبر الخليل الى بيت لحم لحماية ميمنة الحملة ثم تتجه شرق المدينة وتقطع الطريق الى اريحا.

فجر اليوم التالي كانت المواقع التركية قد بدأت بالسقوط. واصبح الاتراك وكأنهم يقاتلون من دون حماستهم المعهودة. لكن المطر والضباب تدخلا الى جانبهم ذلك النهار فأوقف الزحف البريطاني، غير ان معالم المعركة من اجل القدس كانت قد اتضحت. لقد ضرب اليأس صفوف الاتراك، وعندما حاول البريطانيون التقدم في اليوم التالي وجدوا امامهم مواقع خالية. لقد سقطت المدينة المقدسة امام غاز اخر. وكانت «عادة تسقط في الخراب والدماء اما سقوطها هذه المرة فكانت له لمسة من الكوميديا» كما يقول «ويفل» الذي يروي الدخول الى المدينة قائلا «جاء رئيس البلدية رافعا علما ابيض وسلم مفاتيح المدينة العظيمة للبريطانيين (...) لقد اعطاها لبعض الجنود الذين لم يجدوا انفسهم في مستوى الحدث التاريخي واخيرا قبل الجنرال شيا قائد الفرقة الستين باسم اللنبي، استسلام المدينة. بعد ذلك بيومين وصل اللنبي رسميا الى القدس، فدخلها من بوابة حيفا على قدميه والى جانبه مندوبا ايطاليا وفرنسا. وكان في موكبه ايضا «لورانس العرب» الذي اصبح الآن برتبة مقدم. لقد استطاع اللنبي ان يكتب فيما بعد هذه العبارة التي حرم منها كثيرون: «لقد استسلمت القدس».

تخطى الدور الذي لعبه اللنبي دور اي جنرال آخر من جنرالات الشرق. ففي دوره المشرقي محطتان لا مثيل لهما: الدور العسكري في القدس، والدور العسكري والسياسي في مصر.. تلك «الجوهرة الاخرى» في التاج البريطاني المرصع بالهند وبقية المستعمرات.

وبالتالي فان الاحاطة بدور اللنبي كله في الشرق مسألة تتطلب المجلدات، لذا اخترنا الحملة على القدس كفصل واحد يمكن ان يلقي الضوء على حياة الرجل وابرز ادواره في الشرق.

لكن لا بد من التوقف قليلا هنا، عند المعاني السياسية للحملة بعدما تلهينا بالسرد العسكري كما يراه اللورد «ويفل» الذي سيكون هو ايضا واحدا من ابرز جنرالات الشرق فيما بعد اي عشية الحرب العالمية الثانية.

اذن، كان اللنبي مهووسا بالتاريخ. وكان يقرأ في كل ليلة في كتابين، احدهما الانجيل. وبالتالي كان ينظر الى اعماله كلها بشيء من الصليبية الحديثة. غير انها كانت صليبية غير مغلفة بالستار الديني هذه المرة وانما بستارها السياسي والاستراتيجي والعسكري المعلن. ولم يكن في امكان اللنبي ان يبعد صورة الماضي عن خياله.

انها الطريق التي سلكها كثيرون. انها المدينة التي تقاتل عليها الغزاة عبر التاريخ وقبل اللنبي حاول نابوليون بونابرت نفسه الوصول الى المدينة. ويقول الانكليز، الذين كانوا يلاحقون امبراطور فرنسا، انه ما ان ابحر من الاسكندرية حتى عرف البريطانيون ان وجهته سوف تكون ميناء عكا. وقطعت جيوش نابوليون برا الطريق نفسها التي سوف تعبرها

جيوش اللنبي من العريش الى خان يونس وغزة بل إن هذه الاسماء ستعود الى شهرتها في الحروب العربية - الاسرائيلية لكي تدل على مدى الارتباط بين مصر وفلسطين، وهو «امتداد وليس ترابطا» فقط كما كان يردد الاستاذ محمد حسنين هيكل.

لقد اراد نابوليون الوصول الى عكا لأنها «كانت المفتاح الى الشرق» ومنها كان يريد الوصول الى سورية ومن ثم التقدم اما الى الاستانة او الى دلهي. وكان الانكليز يومها يساعدون الاتراك لكن ها هم بقيادة اللنبي يدحرونهم «ويخرجونهم من الحرب».

فالذي لم نتحدث عنه هنا هو الدور العربي نفسه او بالاحرى تلك العلاقة بين اللنبي والامير فيصل. غير ان جورج انطونيوس يروي لنا كيفية وصول اللنبي في كتابه الشهير «يقظة العرب» بقوله:

«... وكان السير ارشيبالد مري قد قضى ما يقرب من عام وهو يدفع الترك ببطء الى التراجع عبر شبه جزيرة سيناء، وكان قد وصل عند بداية سنة ١٩١٧ حدود فلسطين، ثم قام في اذار/مارس ونيسان/ابريل بهجمتين على غزة باءتا بالاخفاق المريع، ولذلك عزل من منصبه وارسل السير ادموند اللنبي خلفا له، فوصل القاهرة حوالى نهاية حزيران/يونيو ليتسلم شؤون القيادة. وكان اول نبأ عسكري هام تلقاه هو نبأ سقوط العقبة، فكأنما كان ذلك النبأ تحية للقائد الجديد لدى وصوله.

وادرك اللنبي بسرعة اهمية الاستيلاء على العقبة والفائدة التي قد يجنيها من وجود جناح عربي سيار في هجومه المقبل، فصرح ان فيصل يستطيع ان يتكل عليه في المعونة ووفى بهذا الوعد وفاء جميلا، وحضر فيصل الى العقبة في آب/اغسطس فتحولت الضيعة الصغيرة حالا الى خلية عسكرية كبيرة متعددة المرافق مزودة بمحطات اللاسلكي وبمطار وارصفة لانزال المؤن. وتكونت فيها نواة جيش «نظامي» من الوحدات العربية التي تألفت في الوجه، واضيف اليها من بعد ستمائة جندي وهم «الفيلق العربي» الذي كون في مصر من المتطوعين في معسكرات اسرى الحرب. وبما ان العقبة خارج حدود الاراضي الاسلامية المقدسة فقد كان غير المسلمين قادرين على المجيء اليها دون تقييد، فحضر اليها عدد من الضباط البريطانيين والفرنسيين ليكونوا مستشارين لدى القيادة العربية، او ليكونوا رؤساء حاميات خاصة من العربات المصفحة او الطيارات او فرق الهجانة. اما في الحجاز نفسه فكان على اخوة فيصل ان يمضوا في عملياتهم الى جوار المدينة حتى نهاية الحرب باستثناء ما قام به الامير زيد وذلك هو تحركه في العام التالي شمالا الى الميدان السوري.

وخلال ستة اشهر بعد سقوط العقبة ظل فيصل منهمكا في ادارة مهمة مزدوجة هي وضع قواته في تنظيم حربي وتوسيع دائرة التحالف مع القبائل. وكان حينئذ على بعد ١٥٠ ميلا من مراكز اللنبي الامامية، وعلى صلة مكفولة جوا وبرا بمركز رئاسة القوات

المصرية الغازية، وكانت اكبر حشود العدو المواجهة له تتمركز في معان، فأصبحت هذه المدينة هدفه العسكري التالي. وعند نهاية العام كان قد انجز تهدئة الخواطر بين القبائل حتى تمكن من ان يضم اليه كل القبائل في منطقة معان. وتطور جيشه المدرب من نواة عددها اورطتان فاصبح قوة جيدة الاعداد تتألف من لواء من المشاة واورطتين من الركبان (على الجمال والبغال).

وفيما كان فيصل مستغرقا في الاستعدادات العسكرية والسياسية كان الشريف ناصر وعودة ولورنس يخرجون في حملات متعددة للإغارة على السكة الحديدية وتخريب الطرق والجسور والقناطر وايقاع ضربات مريعة بالعدو - وان كانت صغيرة وتخللت هذه الغارات فصل الخريف من قبل ان يبدأ اللنبي سيره شمالا نحو فلسطين في نهاية تشرين الاول/ اكتوبر، وفي واحدة من تلك الغارات قرب المدورة، نحو نهاية ايلول/سبتمبر نسفت جماعة يقودها لورنس قطارا من الجنود الاتراك وقتلت منهم سبعين جنديا. وبعد ثلاثة اسابيع استولت تلك الجماعة على كمية من المؤن كانت مرسلة هذه المرة ايضا الى ذلك الرجل التعيس الحظ ابن الرشيد. وقام الشريف ناصر في الايام الاخيرة من كانون الاول/ديسمبر بهجوم جريء على جرف الدراويش فاخذ ما يزيد على مائتي اسير، ثم احتل الطفيلة وهي قرية هامة في منطقة زراعة القمح، وعندما حاول طابور تركي مكون من ٨٠٠ جندي استعادتها ردوا على اعقابهم مضطربين وخسروا ٣٠٠ قتيل و٢٠٠ اسير.

فاذا نظرنا الى المعاني العسكرية في احتلال العقبة وجدنا انه سبب حرجا بالغا للقيادة التركية - الالمانية بسورية في وقت كانوا يحتاجون فيه الى كل رجل وكل بندقية لمقاومة الزحف البريطاني نحو القدس. اما نتائجه السياسية فانها كانت اشد اضرارا وان خفيت عن الانظار في البداية، فقد اصبحت العقبة تجسيدا ملموسا للثورة وقاعدة لتقويض السلطة التركية في سورية سياسيا مثلما كانت قاعدة لتفكيك كيانهم العسكري هنالك».

ويفسر لنا «يقظة العرب» السبب في نجاح الحملة الانكليزية فيقول:

«في نهاية شهر تشرين الاول/اكتوبر شن الجنرال اللنبي هجوما ادى الى احتلال القدس في التاسع من كانون الاول/ديسمبر وكانت قد سقطت قبل ذلك مدن غزة والخليل ويافا وبيت لحم في حملة تميزت بالعناية التي صاحبت وضع خطتها، مثلما تميزت بالجرأة والبسالة التي نفذت بها تلك الخطة. ثم انجزت عمليات اخرى اصغر منها لتثبيت المكاسب، وفي نهاية سنة ١٩١٧ كانت القوات البريطانية قد احتلت احتلالا عمليا راسخا كل ذلك الجزء من سورية الذي يمثل ما يسمى «سنجق القدس».

ولصعوبة طبيعة الارض وحلول خريف قاس شاذ في ذلك العام كان تقدم الجيوش البريطانية شاقا عسيرا، فلم يكن يجد عونا الا في الموقف الودي لدى الاهالي، اذ كانوا

يحيون الجنود تحية حلفاء محررين، ويقدمون اليهم العون تلقائيا، وتحول الضباط والجند العرب في الجيش التركي الى صفوف البريطانيين وتطوعوا بنقل اخبار عن خطط الاعداء ومدى تنظيماتهم الحربية، وكلها اثبتت انها كانت قيمة. ولقي المنتصرون في القدس ترحيبا اصيلا - وان يكن مقهورا - من شعب فعل فيه الجوع والنفي والتغريب حتى قضى على نصفه. ومع ذلك فحين انشأت القيادة البريطانية مكتبا لتسجيل المتطوعين الذين يحبون العمل في جيش فيصل أبدت قوة الحماسة المحلية قلة الرجال الاصحاء القادرين. وقام شاب من احدى الاسر العربية الكبيرة (المفتي امين الحسيني) يجوب البلاد المحتلة، وخلق حركة من التطوع ولعب دورا فعالا في تنظيم فريق المتطوعين، حقا ان عدد المتطوعين كان صغيرا لم يتجاوز الفين، ولكن المدهش ان يتقدم للتطوع مثل هذا العدد في بلاد مثقلة بالنكبات».

ويجب طبعا الا ننسى شيئا مهما: ففي الوقت الذي كان ادموند اللنبي يغير الخريطة الجغرافية او العسكرية في العالم العربي، كان الغرب يضع اللمسات الاخيرة على التغيير السياسي والقومي. فالعام ١٩١٧، عام سقوط الاتراك والالمان هو ايضا عام وعد بلفور، الرجل الذي سوف ينشئ فوق انقاض فلسطين «وطنا قوميا لليهود».

كذلك لا بد من الاشارة الى انتهاء دور اللنبي العسكري لكي يلعب في مصر دورا سياسيا اساسيا. لقد كان بالنسبة الى الانكليز، العسكري الوحيد الذي لم يتعلم «السياسة» في الهند ومع ذلك عرف جيدا كيف يتحول الى اداري في خدمة صاحب الجلالة. آنذاك، الملك جورج الخامس.

هنري غورو :
الذراع المقطوعة على فرس أبيض

لكي نعرف من هم «جنرالات الشرق» لا بد ان نعرف تلك الطريق التي سلكوها الى الشرق او الى المشرق. والعسكريون يسلكون في زمن الحرب طريقا واحدة في اي حال: طريق الحرب!

غير ان جنرالات الشرق لم يكونوا جنرالات الحرب وحدها بل كانوا ايضا جنرالات السلام الضائع، وكانوا جنرالات تقسيم المنطقة واحتلالها واخضاعها زمنا والمساومة عليها وتنويع الانظمة فيها، بل إن الشرق لن يعرف، بين العام ١٩١٨ اي نهاية الامبراطورية التركية، وبين جلاء الجيوش الاجنبية عن المنطقة بين منتصف الاربعينات ومنتصف الخمسينات - لن يعرف اذن، سوى الجنرالات وحملة عصا الماريشالية، مع ان الصحراء ستكتشف لزمن طويل آثار خطى ضابط برتبة ملازم كان يدعى لورانس.

عندما توقف القتال في نهاية الحرب الكونية الاولى كانت ثماره تتساقط من شجرة السلام على رأس بريطانيا بلا حساب. اذ مع حلول كانون الاول/ديسمبر من ذلك العام كانت الراية البريطانية المضلعة ترتفع في فلسطين وسورية ولبنان والعراق فوق ساحة تشمل جميع الطرق البرية التاريخية بين المتوسط والمحيط الهندي.

لقد كان حلما استعماريا لا مثيل له. وها هي «المسألة الشرقية» تحل اذن بقوة السلاح البريطاني. وقد اثبت هذا السلاح وجوده، او حضوره، بأن بريطانيا تخطت معاهدة سايكس - بيكو نفسها فامتد الحكم البريطاني الى الداخل العراقي حيث كان يفترض ان يتمتع العرب باستقلال حقيقي. لكن ها هم الموظفون البريطانيون والهنود يملأون الارض وها هي الروبية الهندية تحل مكان «الرشادية» و«المجيدية» والمتليك!

لقد استأثر البريطانيون بالعراق كما استأثروا بمصر جوهرة اخرى من جواهر التاج، وكاد

ادموند اللنبي، الذي سيصبح احد ابرز جنرالات الشرق، يعلن سورية وفلسطين ولبنان كلها محمية بريطانية اخرى، لكنه عاد فقبل مرغما ان يقيم الفرنسيون ادارة مدنية على الساحل السوري (الارض العدوة المحتلة شمالا) كما كان يراها الانكليز. وادار الهاشميون شؤونهم السياسية في الداخل (الارض العدوة المحتلة شرقا) وحصر الانكليز منطقة احتلالهم الرئيسية في فلسطين (الارض العدوة المحتلة جنوبا) مع بعض الاستثناءات.

غير ان ضباط اللنبي كانوا الاوصياء على كل مدينة رئيسية في المشرق بما في ذلك بيروت: لقد كانت هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها في نهاية الحرب: ٢٠٠ الف جندي بريطاني يحتلون، بكل وضوح، كل نقطة استراتيجية في العالم العربي. وفي المقابل كان هناك جيش فرنسي رث المظهر نصفه من المجندين الارمن، ولا يزيد عدد افراده على ستة آلاف. انه جيش لن يخيف الانكليز و.. لا العرب. ولا كان يخيف لويد جورج في لندن: هو، كان يريد، امام هذا المشهد العسكري المفحم، اعادة النظر في اتفاقات سايكس - بيكو! وقد كتب لويد جورج في مذكراته فيما بعد يقول: «عندما جاء كليمنصو الى لندن في نهاية الحرب، ركبنا سيارة واحدة الى السفارة الفرنسية وسط هتاف الجماهير. وبعد وصولنا الى السفارة سألني ماذا نريد من الفرنسيين بالتحديد. واجبت على الفور اننا نريد ضم الموصل الى العراق وان تكون فلسطين تحت السيطرة البريطانية من دان الى بئر سبع. وقد وافق من دون تردد».

الحقيقة انه لم يكن لدى الزعيم الفرنسي اختيارات كثيرة وعندما دافع اندريه كارديو عن هذه التنازلات امام الجمعية الوطنية الفرنسية في صيف العام التالي اعاد الى اذهان السادة الزملاء «بأن المسألة كانت مسألة الوصول الى اتفاق مع انكلترا حول بعض النقاط. كان علينا ان نحصل منها ما كانت تمانع من اعطائه بأي ثمن: احتلال الضفة اليسرى من الراين، كان علينا الحصول على الفحم الحجري من بلاد السار واشياء اخرى. وانه في مثل هذه الظروف ذهب المسيو كليمنصو الى لندن».

في اي حال، كان لباريس ايضا «تعويضات» مشرقية! وقد تضمنت هذه التعويضات المنطقة المعروفة بكيليكيا الاكثر خصبا من فلسطين وميناءها المثالي: الاسكندرون، التي ستكون ايضا مصفاة لنفط الموصل. وقد وافق لويد جورج ايضا على ان يمنح فرنسا ٢٥ في المئة من اسهم شركة النفط التركية، وهو القسم الذي كان مخصصا في السابق لالمانيا.

لكن فرنسا كانت تريد اكثر من ذلك ولن تقبل بمجرد دور استشاري في الداخل السوري بل كانت باريس تريد ان تمد سيطرتها من الساحل الى سورية كلها، اي مسافة تبلغ ثلثي بريطانيا وسبعة اضعاف سويسرا، واذا كان البريطانيون يعاملون العراق بالطريقة

التي اختاروها فلماذا لا يكون للفرنسيين الحق نفسه في سورية؟ هكذا تساءل المسيو روبير دو كي من الخارجية الفرنسية.

في ٢٠ اذار/مارس من العام ١٩١٩ يلتقي لويد جورج برئيس الوزراء الفرنسي في باريس، وفيما تسلح كليمنصو بالصمت وراح يتطلع من النافذة عبر شارع «نتيو» كان وزير خارجيته المسيو بيشو يستفيض في شرح الروابط التاريخية بين سورية وفرنسا مبررا المطالبة بحق الانتداب. لكن لويد جورج ذكّر المسيو بيشو بأن ثمة عوائق كثيرة ليست فقط تلك الواردة في معاهدة سايكس - بيكو بل ايضا الوعود التي اعطيت للامير فيصل والعرب، ثم اضاف في شيء من الخطابة ان مليون جندي بريطاني خاضوا الحرب ضد تركيا وان مساعدة العرب لهم كانت جليلة في هذا الحقل! لا، انها اكثر من جليلة. هكذا تدخل الجنرال اللنبي ليصحح معلومات رئيسه!

لم يتراجع المسيو كليمنصو انه يريد سوريا. عقد اجتماع اخر في ايار/مايو. لقد خسرت بريطانيا ١٢٥ الف قتيل في الحملة على تركيا في حين ان المساهمة الفرنسية لا تذكر. هكذا اصر لويد جورج. «لكننا تخلينا لكم (!!) عن الموصل وفلسطين» هكذا اجاب كليمنصو الذي يريد وجودا كاملا في دمشق وحلب بصرف النظر عن اي شيء، بما في ذلك تلك المعاهدة الملعونة، سايكس - بيكو.

لا ، لا بد من سورية ولو طال السفر، او الجدل. لقد كانت باريس تريد مستعمرات في المشرق العربي كما هو الحال في مغربه، وكانت هناك جماعات كثيرة تضغط من اجل ذلك . ثم ان المستعمرات كانت امتدادا هائلا للامبراطورية وقد زودتها الى الان بـ ١،٩١٨،٠٠٠ جندي بينهم ٦٨٠ الفا حاربوا في قلب اوروبا، ومعظم هؤلاء الجنود مروا في البر الفرنسي خلال الحرب تاركين تأثيرا مهما في السكان المحليين. وقد كتب مراقب يدعى ستيفن روبرتس يومها:

... «عرب وبربر وتونسيون وزنوج ومغاربة وصوماليون وهوفاس وسلافيون وكريليون وناس من المحيط الهادي والمستعمرات القديمة كانوا هناك. لقد تحققت الامبراطورية في ضربة واحدة. وتلك الاحلام والخيالات تحولت الى حقائق من لحم ودم. لقد ارتعدت فرنسا طربا بهذا الشعور».

الواقع ان فرنسا حصلت من المستعمرات على اشياء اخرى غير الجند: نحو مليار فرنك من المال وما حجمه مليونان ونصف مليون طن من المنتجات بما فيها الحبوب والحنطة والزيوت. ولم تكن سورية تعدم هذه المصادر كما تعرف فرنسا عبر قرون من التبادل التجاري. انها بستان تاريخي وكروم شاسعة وحقول قطن فسيحة.

ايضا انقسم الانكليز في ما بينهم. البعض، وبينهم اللنبي، لا يريد لفرنسا شيئا على الاطلاق. البعض الاخر يريد التساهل. وراح اللنبي يحرض ضد الفرنسيين في الوقت الذي وصل الى بيروت المسيو جورج بيكو، كبير المستشارين السياسيين الفرنسيين، لكي يتفاوض مع الضباط الانكليز. وقد كانت لدى المسيو بيكو ثلاث شكاوى رئيسية: اولا الضباط الفرنسيون يوضعون دائما في الصفوف الخلفية خلال الاستعراضات ، ثانيا البنوك الفرنسية لم تعط رخصا للعمل في بيروت، ثالثا العملة الفرنسية ممنوعة من التداول ، وتذهب صحيفة «لوتون» التي ستصبح فيما بعد «لوموند» اليوم الى ابعد من ذلك لتقول في ١٩ تموز/يوليو ١٩١٩ «ثمة حقيقة فاضحة، ان عملاء بريطانيا يتبعون في المشرق سياسة تهدف الى ابعاد فرنسا».

لم يكن ذلك بعيدا عن الصحة. وكان البريطانيون يشيعون باستمرار ان فرنسا هي حامية الاقليات المسيحية تاريخيا في المنطقة، وهم لم يكونوا يهدفون من وراء ذلك الى اكبار فرنسا لدى المسيحيين بل بالطبع الى اضعافها لدى المسلمين. وسوف يؤيد هذه العلاقة الخاصة بين فرنسا والكاثوليك الشيخ بشارة الخوري الرئيس اللبناني الداهية الذي كان وزيرا لدى الفرنسيين وصار رئيسا ضدهم حين يقول في «حقائق لبنانية» إن رجال الاكليروس كانوا يصلون علنا للسلام... وضمنا لفرنسا».

لقد كانت لدى العرب مخاوف حقيقية من فرنسا. وفي ايار/مايو ١٩١٩ صارح فيصل الاول كليمنصو نفسه بالقول: «انك تعرف ان الكثيرين من الفرنسيين تداعبهم الامال بأن يجعلوا من سورية فرنسا جديدة. وقد ابلغني رجال اعمال فرنسيون القول في باريس: «اننا لا نستطيع الاعتراف باستقلال سورية لما لذلك من مضاعفات محتملة في الجزائر وتونس. انك ترى في وضوح الهوة التي تفصل بيننا. ولذا فانني احبذ مساعدتك لكنني لن اقبل العبودية مطلقا».

لقد كان فيصل بحاجة الى حلفاء. والانكليز مثل الفرنسيين بحاجة الى اصدقاء وفي هذه المرحلة يطل على الشرق للمرة الاولى بصورة جدية.. الاميركيون!

لم تكن للاميركيين عقد ذنب بعد في المنطقة. بل ان الرئيس ولسون اطل بمثالية رفيعة على «مؤتمر السلام» في باريس. لا معاهدات سرية تربطه ولا ضغوط. والبند الثاني عشر من البنود الاربعة عشر التي قدمها للمؤتمر في كانون الثاني/يناير ١٩١٨ يلمح بوضوح الى انه لن يلتزم باتفاقات سايكس - بيكو وعندما عقد «الاربعة الكبار» اول مؤتمر لهم حول «الشرق الاوسط» في باريس في شباط/فبراير ١٩١٩ اصر ولسون على ان يعرف رأي «المواطنين» في سورية والعراق بالانتداب. لكنه في الحقيقة كان يعرف جيدا ان ثمة ثورة عربية تبدأ في سورية. وها هو اللنبي يؤكد له ذلك. والضباط الانكليز الاخرون. وايضا، بل

خصوصا، المبشرون الاميركيون. البروتستانت الذين كانوا يعرفون ان السوريين يكرهون الفرنسيين. بقدر ما يريد لهم المبشرون او اكثر.

من هنا طالب ولسون في ذلك الاجتماع الشهير في شارع «نيتو» بارسال لجنة تحقيق مشتركة الى المنطقة. ولم يعجب الامر لا الفرنسيين ولا الانكليز بالطبع.

لكن فيصل الاول طار فرحا. ويروى انه مر بعربته امام فندق الكريون والماجستيك وامام الكي دورسيه وراح يرمي المساند. وقال لاصدقائه فيما بعد «لم اكن املك قنابل ارميها».

وفي غضون ذلك سمى ولسون العضوين الاميركيين في اللجنة، وهما هنري كينغ وهو قس بروتستانتي شهير وتشارلز كرين وهو صناعي من شيكاغو ما لبث ان اعلن حبه للعرب وكرهه للصهيونية. اما المرافقون للاثنين... فقد كانوا جميعا من جهاز الاستخبارات وبينهم البروفسور وليم ليباير وهو مستشرق معروف والقس جورج مونتغمري وهو ايضا مبشر بروتستانتي عاش في المنطقة والكابتن وليم بيل من شركة ستاندارد اويل.

كانت تلك بداية الطريق الاميركية ... الطويلة! اما الخلاف البريطاني - الفرنسي فقد ازداد حدة. واخذ لويد جورج اخيرا يسير في طريق التسوية ليس اكراما لفرنسا بل لأن متاعب بريطانيا اخذت تزداد في ايرلندا ومصر والعراق. فقد اصبح ثمن المحافظة على ٢٠٠ الف جندي في الشرق الاوسط اكبر من ان تتحمله بريطانيا، وهكذا اوفد وزيره اللورد كورزون الى باريس ومعه «المسألة الشرقية برمتها» . وهناك تقرر ان تنسحب بريطانيا من سورية تاركة الساحة للفرنسيين. وبقي ان يبلغ فيصل الاول بهذا القرار المرير.

اختار الانكليز.. طريقة الابراق. انها الاقل حرجا. سوف يبدأ اذن، الجنرالات الفرنسيون بالاطلالة على الشرق دون حساب. وكان اول الواصلين الكبار الجنرال غورو، جنرال الساعد المقطوع. ايضا لا بد من اللجوء الى مذكرات الشيخ بشارة الخوري لكي يصف لنا بالكثير من التحفظ وصول الرجل:

«... وبقي الحال على هذا المنوال الى ان وصل الى بيروت في اوائل تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩ الجنرال غورو قائد حملة الدردنيل وجيش الارغون اثناء الحرب الكبرى، والهدف من تعيينه مفوضا ساميا، الاستفادة من خبرته العسكرية التي قد تحتاجها حكومة باريس في معالجة وضع المنطقة الشرقية التي بقيت حتى ذلك الحين في غير قبضة الفرنسيين، اضف الى ذلك الهيبة التي ترافق الثوب العسكري عادة، خصوصا اذا كان من يرتديه من قادة الحرب الكبرى ومنتصريها.

نزل الجنرال غورو من مدرعة فرنسية في مرفأ بيروت وقد اعدت له السلطة استقبالا رائعا، فامتطى جوادا ابيض ومر في شوارع المدينة والعساكر مصطفون على جانبي الطريق

يؤدون التحية، والطائرات تحلق في السماء، حتى وصل موكبه الى ساحة البرج (ساحة الشهداء) فعرض القوى البرية والبحرية والمصفحات والفرسان «الصباحيين» ثم ركب سيارة مكشوفة يواكبه هؤلاء الفرسان الى المقر الذي اعد له في الحي الشرقي.

وفي المساء اقيمت في قصر الصنوبر حفلة استقبال وتعارف اطلقت اثناءها المدافع والاسهم النارية ولفظ المركيز جان دي فريج احد وجوه البيروتيين خطابا ترحيبيا عدد فيه مناقب المفوض السامي الجديد، من بطولة في الدردنيل ذهبت باحدى ذراعيه، ومن دراية في تسيير الامور، فبدت على وجه الجنرال دلائل السرور والبهجة ولاطف الاعيان الذين قدموا اليه وخرج الى الشرفة محييا الوفود الغفيرة التي انتشرت في الساحات والحدائق.

اراد الجنرال ان يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرسا وطنيا لمواكبته على الخيول العربية في تنقله في اسواق المدينة...».

سوف يلعب غورو دورا مهما في حياة الشرق. وهو الذي سيعلن ايضا «لبنان الكبير». كذلك سوف يلعب بشارة الخوري، او بالاحرى سوف يستمر في ان يلعب دورا رئيسيا الى ان يسقط على يد عسكري يدعى فؤاد شهاب. الم يلاحظ بشارة الخوري وهو يافع بعد ان ثمة هيبة ترافق الثوب العسكري»!

بعد وصول غورو بقليل يلحق به الى الشرق كاتبان فرنسيان شقيقان: جيروم وجان تارو. ثمة مهمة على عاتق الاخوين تارو: ان يصفا لنا «الطريق الى دمشق» ثم يصدران ذلك في كتاب «عرض على وزارة الداخلية في العام ١٩٢٣».

طالما سحر الغربيون بالمشرق، والدكتور البرت حوراني يقول لنا إن نابوليون بونابرت كان صادقا عندما اعتنق الاسلام في البداية ولم يكن يهادن اهل مصر. فهو في اي حال كان على خلاف شديد مع الكنيسة في فرنسا. غير ان كتابا اخرين، قدماء ومعاصرين، بينهم المفكر صادق النيهوم لا يرون في اشهار نابوليون لاسلامه اكثر من مخادعة.

لكن اول ما يطالعنا عند الاخوين تارو هو الانبهار: «اننا نلحظ في سورية بصورة اولى، منطقتين: الاولى هي الساحل ولبنان حيث سمح لنا (للفرنسيين) باقامة الادارة التي نرغب بها، والاخرى هي الداخل السوري بما في ذلك حلب ودمشق، التي وجب ان تشكل تحت حمايتنا دولة مستقلة نمدها بالمستشارين والموظفين. ان هذا الترتيب الغامض مع حلفائنا لم يترك لنا سوى القليل من النفوذ في سورية لكنه كان كافيا لأن يعطي فرنسا، المنشغلة انذاك باشياء اخرى، الشعور بأن حقوقها في المشرق لن تهضم.

اذن، هي مسألة «حقوق» لا مكاسب كما تفرض الدبلوماسية على المسيو كليمنصو ان يقول. والاخوان تارو، اللذان لا تلزمهما السياسة في الدبلوماسية بشيء بل فقط يلزمهما

حبهما للجنرال غورو، يعتبران ايضا «ان الترتيب الغامض في معاهدة سايكس - بيكو شيء تم على عجل وفيه غبن شديد لفرنسا، لكن الاخوين تارو لا يكفان عن الانبهار: «هذا الساحل السوري هو طريق الآلهة. من هنا انطلق الى العالمين، الاغريقي. واللاتيني، بعل وملكارت وعشتروت وجميع القدسيات الوثنية في سورية وبابل (....) ويرتفع خلف بيبلوس، تدريجيا حتى الثلوج، بلد الصخور والغابات الذي شهد ولادة ادونيس». ويتوقف الاخوان تارو عند نواعير حماة الشجية ثم عند زنوبيا ملكة تدمر وفجأة يتوقفان في دمشق «ملتقى جميع التيارات الاسلامية» حيث يأتي الحجاج من كل مكان ويتبادلون الافكار والتفسيرات والرؤى. ثم يتساءل جيروم وجان تارو: «هل هي هذه الثرثرة الخالدة؟ هل هي حدائقهم؟ هل هي جناتهم الفسيحة التي تخفي عن اعين الدمشقيين سحر مدينتهم».

لم يرافق غورو الكتّاب وحدهم فالمفوض السامي الجديد هو ايضا قائد... الجيش الرابع! الكتّاب مجرد شهود في الحملات العسكرية.

كان غورو يعرف، في قرارة نفسه، والان يعرف على الطبيعة ان ثمة عائقا اساسيا في وجه الفرنسيين هو فيصل الاول. واذا كان العرب قد ثاروا ضد المسلمين الاتراك فكيف بهم ضد «الاوروبيين الكفار»، وهكذا بدأت الثورة ضد الفرنسيين في شكل مكامن هنا وهناك في الجبال الوعرة. لكن العداء وصل الى ذروته في العام ١٩٢٠ عندما اعلن الامير فيصل فجأة انه لا يحق للجيش الفرنسي استخدام خط السكة الحديدية بين الرياق وحلب. لقد كان هذا القرار بمثابة اعلان حالة حصار على الكتائب الفرنسية المتمركزة في كليكيا وتعتمد في تموينها بصورة رئيسية على ذلك الخط. بالنسبة الى غورو، كان ذلك الاستفزاز الاخير. او الاستفزاز المطلوب!

وفي ١٤ تموز/يوليو ١٩٢٠ اي في ذكرى سقوط الباستيل، بعث المفوض السامي الى دمشق بتحذير «شديد اللهجة» يتهم فيه الحكومة بشن حملة من اعمال العنف والاخلال بالاتفاقات المعقودة بين فيصل وكليمنصو في كانون الاول/ ديسمبر ١٩١٩ وهي في الحقيقة اتفاقات لم تبرم ابدا. ويشدد غورو في رسالته على حق فرنسا «بتأمين السلام والامن في سورية» وفقا لمقررات مؤتمر باريس ويرافق ذلك بخمسة شروط مسكونية: حق فرنسا «المطلق» في استخدام خط حلب - رياق واحتلال مدينة حلب «كضمانة» والغاء الخدمة الاجبارية في «القطاع العربي». اعتراف دمشق الكامل بالانتداب الفرنسي، وقبول الفرنك كعملة رسمية في سورية.

لكن ما هو الانتداب حقا؟

مرة اخرى، لا بد من العودة الى بشارة الخوري:

«إن الانتداب لمن المخلوقات العجيبة في حقل القانون الدولي. وخير دليل على عجبه ذلك اللبس الظاهر في نص البند ٢٢ من ميثاق جمعية الامم. فهو يعلن بصورة عامة «ان رفاهية وتقدم الشعوب التي انسلخت عن الدول الحاكمة فيها سابقا، والتي لا تقوى ان تتولى قيادة نفسها بنفسها بسبب مصاعب العالم الحديث يستلزمان رسالة تمدين مقدسة، من الواجب ادخال ضمانات لها في هذا الميثاق».

هذا «التمدين» سوف يفسره سعيد فريحة في الاربعينات في رسم كاريكاتوري شهير يمثل جنديا سنغاليا يقول بلهجة فرنسية مكسرة لأحد اللبنانيين Moi. civiliser vous!.

عندما وصلت الرسالة الى دمشق عرف فيصل ان المواجهة مع فرنسا قد آن اوانها. وهز برأسه قليلا عندما ابلغه رئيس الاركان ياسين الهاشمي ان قواته لا تملك من الذخيرة سوى اليسر القليل.

ووافق الامير «مبدئيا» على شروط غورو لكن اذا كان الانكليز لم يحترموا وعودهم فالفرنسيون لن يحترموا اتفاقاتهم . وصباح ٢١ تموز/يوليو بدأت القوات الفرنسية بالزحف الى الداخل السوري!

واوفد فيصل الاول مبعوثا خاصا الى غورو لكي يعترض عنده على خرق الاتفاق ويذكره بالبرقية التي بعث بها الامير، غير ان غورو كان باردا كالثلج. وقد قال بكل برودة ان البرقية تأخرت نصف ساعة في الوصول. واستشاط ساطع الحصري غضبا. وطلب من غورو ان يصدر الاوامر بالانسحاب الان وقد ابلغ نوايا الاخير الحقيقية. «لقد فات الاوان»! هكذا جاء الرد البارد مكررا! ثم قرأ المفوض السامي ثمانية مطالب «بضمانات» يريدها من فيصل. وعندما عاد الحصري ومعه هذه المطالب ثار الامير كما ثارت سورية ودعا الى جلسة طارئة لحكومته، لكن كان واضحا سلفا انه لم يكن من الممكن القبول بالشروط من دون اشعال حرب اهلية.

في الثاني والعشرين من تموز/يوليو قرر غوابيه الاستمرار بالزحف، وقد عرف انه مقبل على مكمن، لكنه كان يعرف في الوقت نفسه انه ما لم يصل الى منابع المياه فسوف تموت جنوده عطشا. وفي المقابل كان يوسف العظمة قائد القوات العربية يرسم خططه. ولم يكن العظمة اقل حنكة او تدريبا من غوابيه. فهو من خريجي الكليات الحربية في المانيا وفي فرنسا نفسها ايضا وكان قد نال اعلى الرتب في الجيش العثماني خلال الحرب. وبالتالي كان العظمة يعرف، انه بما يملك من عتاد، لن يستطيع القضاء على الفرقة الثالثة في ذلك المخنق الاستراتيجي، وفيما اراد الفرنسيون اكمال طريقهم فتح العظمة النار من مدافع «الهاوتزر» والرشاشات. وخطر لغوابيه انذاك، وقد سقط المئات من جنوده، ان يتراجع قليلا ثم يأتي القوات العربية من خلف الجبال. وفي غضون ذلك حلقت اسراب من المقاتلات

الفرنسية وراحت تقصف رجال الشهيد العظمة فاوقعت بهم آلاف الضحايا وكان بين المستشهدين قائد المدافعين نفسه.

تلك كانت ميسلون.

جنرال آخر يدخل المسرح المشرقي: لم يصل «غوابيه» الى دمشق كمنتصر فحسب بل كطاغية ايضا. وكان اول ما فعله ان امر بحل الجيش السوري وتجريده من السلاح ثم ساق الوطنيين الى المحاكمة الواحد بعد الاخر. ومنع غوابيه رفع العلم العربي وانشأ حكومة صورية الى ان وصل الى دمشق غورو بنفسه واقام الحكم الفرنسي هناك بعدما كان الامير فيصل قد تركها قبل ذلك بسبعة ايام، اي في اول آب/اغسطس.

تضايق الانكليز ، تضايقوا، على الورق طبعا، اما في الساحة نفسها، لم يتغير شيء، وقد كتب تشرشل الى لويد جورج يقول:

«لقد قام بمعظم العمليات التي جرت جنود من الافارقة السود. وقد شعر الرأي العام البريطاني والضباط البريطانيون بالاسى – خصوصا اولئك الذين خدموا العرب – اذ رأوا بأن اولئك الذين كانوا حلفاءنا ورفاقنا والذين تطلعوا الينا للحماية ولتصحيح المظالم التي لحقت بهم. يوطأون ويسحقون ويأخذ الفرنسيون مدنهم خارقين بذلك كل معاهدة مكتوبة... لكن ماذا نستطيع ان نفعل ونحن تربطنا بالفرنسيين تلك العلاقات القوية ولم يكن بامكاننا ان نفعل اي شيء لمساعدة العرب. في هذه القضية...».

وفي غضون ذلك وصل الامير فيصل الى فلسطين، ثم الى القنطرة في مصر، حيث استقل قطارا اخر مثل اي مسافر عادي، وكان مشهدا مؤلما وقد وقف الزعيم العربي الى جانب حقائبه الملكية على رصيف المحطة.

لم تكن تلك نهاية الثورة العربية ولا كانت نهاية الاستعمار او الانتداب. ان هنري جوزف اوجين غورو الباريسي الذي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٦٧ – ١٩٤٦) والقادم من حروب افريقيا والدردنيل سوف يكون ايضا اول جنرال «اعلامي» في غزوات الشرق. فالشقيقان تاربو لم يكونا الاعلاميين الوحيدين اللذين قدما الى المنطقة من اجل التطبيل لصاحب الذراع المقطوعة. بل اخذ الفرنسيون، عبر رجالهم، يرسمون للرجل صورة ملونة لماعة. وانك لتقرأ نصا من نصوص تلك الحقبة يقول... «وكان ابوه الدكتور غورو عضوا في الجمعية الطبية وكان مشهورا بدماثة اخلاقه وعطفه على المرضى وتفانيه في خدمتهم وكان لفخامة الجنرال ثلاثة اخوة سقطوا كلهم في ساحات الشرف».

ولم يتوقف المديح على النثر بل تعداه الى الشعر ايضا:

اين العروش واين غليوم واين   مدافع وذخائر ورجال

ما صاح صائحكم «لتحيي فرنسة»   الا وطـــاب بمـــأزق تجـــوال

كم غارة شعواء غوروا غار في   عـمـراتـهـا وحـسـامـه نـصـال

وقال شاعر آخر (وكلاهما من دون هوية)

قف بالوقار وحيي القائد البطلا   وانهض من اليأس واستقبل به الاملا

لا يهم هناك دائما شعر جاهز:

غـورو تحـيـيك اطـفـال وارملـة   وبائسة كاد يدني بوسه الاجلا

وامه عشقت والعشق من قدم   شعبا تفانى لحب الغير واشتعلا

غير ان هذا الشعب «المتفاني في حب الغير» حتى الاشتعال، كان في الحقيقة واقفا بين ثلاثة انواع من الاستعمار، وكان يشتعل فقرا وحاجة، ليس الى الحرية وحدها، بل الى الخبز ايضا.

كان هم غورو استقطاب الناس، شعرا ام نثرا، وفيما رفع السيف في دمشق يبدو انه لم يكتف باعلان «لبنان الكبير» فحسب بل ذهب الى ابعد الحدود في مسايرة اللبنانيين. ويروي الوزير اللبناني الراحل يوسف سالم في مذكراته انه حين تخرج مهندسا من فرنسا وعاد الى لبنان حاول ان يطلب وظيفة فقيل له إن الوظائف الرفيعة وقف على الفرنسيين: «لكنني لم أيأس بل تابعت السعي حتى استطعت الوصول الى المفوض السامي نفسه وكان يومذاك الجنرال غورو. ولم يكن من السهل على كبار اعيان البلاد الوصول اليه فكيف بشاب مجهول مثلي. لذلك كانت فرحتي كبيرة عندما تلقيت دعوة لمقابلة المفوض السامي في مصيف عاليه (...) كان الجنرال غورو يقضي الصيف في قصر بسترس الكبير المختبئ بين الاشجار الملتفة في اعلى المصيف فوق الخط الحديدي. ولم يكن يخطر في بالي انني سأقابل القائد الكبير صاحب الذراع المقطوعة في معركة الدردنيل، ولكنه استقبلني واصغى الي (....) لكن على الرغم من تدخل المفوض السامي بنفسه ظلت ابواب الشركات مغلقة في وجهي».

ويضيف يوسف سالم:

«كنت في عداد اللبنانيين الذين رحبوا بانتداب فرنسا على لبنان بعد حكم العثمانيين ومآسيه . واعتبرت الانتداب صيغة جميلة للتعاون بيننا وبين فرنسا فاذا بي اكتشف انه قناع شفاف يختفي تحته وجه الاستعمار البشع».

غير ان كثيرين كانوا – انذاك منهمكين في ممالأة هذا الاستعمار. واننا نقرأ في كتاب «في سورية مع الجنرال غورو» لمؤلفه ا. فيرتيليه كيف وصل الكاتب الى بيروت وامضى

يومه الاول في الاصغاء الى خطابات الترحيب والتبجيل. ثم يجب ان نذهب الى ابعد من ذلك مع فيرتيليه لأنه يرسم لنا صورة بالغة التفاصيل عن تلك الحقبة الدقيقة.

وما اشبه اليوم بالبارحة!

انه تعبير كلاسيكي طبعا، لكن هل يملك المرء غيره وهو يقرأ ان عزيزنا فيرتيليه قد وصل الى لبنان بحرا... عن طريق لارنكا؟ يقول: «ابحرنا اليوم عبر ساحل قبرص. وفي الرابعة توقفنا على شاطئ لارنكا حيث افرغت السفينة (بيارلوتي) بعض البضائع. ونزل بعض المسافرين الى البر لكنهم ما لبثوا ان عادوا. فهذه المدينة الصغيرة لا شيء فيها يثير الاهتمام والمشهد من بعيد اكثر سحرا. ان جزيرة افروديت اقل جمالا عن قرب مما هي عن بعد.

«غدا صباحا، سوف نصل في النهاية الى غاية رحلتنا، الى سورية».

«انه البلد الرائع، مهد الحضارات القديمة، ارض بعل وادونيس وعشتروت... الارض الحمراء التي تجتذب الغزاة حيث رفع الحثيون علمهم وبنى الفينيقيون السفن التي نقلت ثروات آسيا الى اثينا وروما ومرسيليا، حيث جاء الفرس والمصريون والاشوريون والمسلمون والصليبيون.... الاسكندر وتيتوس وهارون الرشيد وبونابرت، حيث انشأ العباسيون والامويون هذه الحضارة الرائعة ونشروا هذا الادب المذهل الذي تخلد سحره عبر العصور».

في اليوم التالي يصل الاباتي فيرتيليه الى صوفر، او الى «عين صوفر» كما كانت معروفة انذاك ويكتب لنا في ذلك النهار من ايلول/سبتمبر: «لقد كان الحلم جميلا، والمشهد لا يفتقد الى العظمة المروعة. وجبال لبنان، باوديتها وقممها المفاجئة وقراها الانيقة التي تختبئ في الاودية وتشكل اطارا رائعا، غير ان بيروت، بسطوحها الناتئة ذات السقوف الحمراء، تبدو وكأنها مدينة غريبة. فهل جئنا الى الشرق بحثا عن «كان» اخرى؟!!.

يقابل صاحبنا في اليوم الاول بين من يقابل «السيد عمر الداعوق رئيس غرفة التجارة والمسيو هومغلو رئيس البورصة (...) ويقول لي احدهم إن لبنان بلد فقير يملك الكثير من المال» ثم يضيف كأنه يكتب اليوم بالضبط: «انها لفكرة عميقة حقا، ذلك ان المال هنا يستخدم في المضاربة لا في الانتاج!». وروى لي اخر انه قبل ثلاث سنوات لم تكن هناك سيارات في لبنان اما الان فهناك ٢٠٠٠».ثم يصعد الكاتب مثل يوسف سالم الى مقر غورو في عاليه. غير انه فيما كان سالم يبحث عن وظيفة كان فيرتيليه يسجل الانبهار الغربي التقليدي بلبنان «وهناك اكتشفنا متعة الجبل كلها فيما كنا نطل مباشرة على البحر الازرق».

هذا الجنرال غورو يقول فيرتيليه «سوف ينشىء قريبا لبنان الكبير بأن يعطي للدولة

الجديدة الساحل من طرابلس الى صور وسهول البقاع الغنية، غير انه بعد توسيع رقعة الارض اختل توازن الاجناس المتنافسة، وربما ترتبت خطورة كبرى جدا على هذا التوزيع في مراكز القوى اذا لم تسارع سلطة الانتداب الى تهدئة النفس».

مع فيرتيليه الى دمشق ايضا... بطريق ميسلون وسوف نرى هنا كيف كان الفرنسيون ينظرون الى هذا المفترق التاريخي في حياة العرب: «عبرت سياراتنا على عجل هذا الجرن من الغلال ثم السفوح الصحراوية لجبال لبنان. توقفنا في خان ميسلون ساحة المعركة المعذبة، حيث حققت قوات الجنرال غورو نصرا برّاقا وحاسما على قوات الامير فيصل صديق الانكليز، وقد وصف لنا الكولونيل غورو على الطبيعة تفاصيل هذه المعركة. وكانت الساحة لاتزال مليئة بفراغات الخرطوش (الرصاص) وقد حملت بعضها معي للذكرى.

«وقد جاءت سيارتان لاستقبالنا قبل ٢٠ كيلومترا من دمشق في ارض قاحلة. وكان في احداها الجنرال كاترو الحاكم الاداري للمنطقة. وبعد مراسم الاستقبال اكملت القافلة مسيرها. كانت الحرارة مرتفعة والطريق مليئة بالغبار، ثم فجأة، عند منحنى الطريق يتغير المشهد تماما. خضرة وزهور في كل مكان وهواء نقي يطلع من بردى، النهر النابع من الصخور. وهكذا نقترب من المدينة التي قارنها الشعراء العرب عن حق «بجوهرة منحوتة في زمردة». ثم تبدت لنا دمشق بمنازلها ذات الشرفات ومآذنها الـ ٢٥٠ وكثافة سكانها (٣٥٠ الفا)».

غير ان الاعجاب بدمشق يرافقه ذلك الحقد الفرنسي على الامير فيصل كما يرافقه دائما الحذر المبطن من الانكليز والكره المعلن لهم هذه هي اذن، الرواية الفرنسية شبه الرسمية لوصول غورو ومعركته مع فيصل، كما يقدمها لنا فيرتيليه:

«عندما نزل الجنرال غورو على الساحل اللبناني في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٩، قرر الانكليز ان على قواتهم ان تجلو عن سورية، واذ انسحبوا بسرعة شديدة (هل كان الامر مدبرا) نسوا ان يفرغوا مخازنهم من الذخيرة والسلاح. وهكذا استولى صديقهم الامير فيصل على هذه الكميات واستطاع بذلك ان يسلح انصاره. لقد حاولت انكلترا في الواقع غداة توقيع الهدنة ان تحقق الحلم الجريء الذي وضعه احد اشهر استعمارييها الكولونيل لورانس: خلق امبراطورية عربية تضم الحجاز وسورية والعراق وشرق الاردن.

«واذ تركت الفرق البريطانية الخمس المنطقة التي ارادت منها فرنسا ان تحرسها، وجد الجنرال غورو نفسه مضطرا للحلول محلها بقوته التي لا تتعدى ٨ آلاف رجل وفي الوقت نفسه كان عليه ان يساعد قواتنا في كيليكيا التي كانت تتعرض باستمرار لهجمات من الزمر التركية وحتى من قبل جيش مصطفى كمال النظامي.

«وكان من الضروري بأي ثمن المحافظة على اتصالاتنا مع هذه المواقع الموزعة في الجبال، ومن اجل ذلك كان لا غنى عن استخدام السكة الحديدية بين رياق وحلب، غير ان فيصل احتل هذا الخط ورفض وضعه في تصرف الجنرال غورو. وفوق ذلك فان الامير اعلن نفسه ملكا على سورية، الأمر الذي كان يعني بصورة غير مباشرة انفصاله الكلي عن وصايتنا.

وهكذا بعث الجنرال غورو، الذي تلقى تعزيزات ضئيلة من فرنسا (٩ فصائل مشاة وسرب طائرات ومدفعين ١٠٥) بانذار نهائي الى فيصل الذي تظاهر بقبوله اولا ثم رفضه بعنف وزحف بقواته غربا. وفي خان ميسلون وقعت المعركة وانتهت بانتصار فرنسي صاعق...».

لكل روايته. الانكليز لهم روايتهم ، الفرنسيون لهم روايتهم، الانكليز يقولون في وثائقهم الرسمية إن الفرنسيين طلبوا منهم اخلاء سورية ولبنان. والفرنسيون يقولون غدرونا ومشوا. وبين الروايتين او الحقيقتين كانت تعتصر بلاد باكملها ظنها بعض القادة والجنرالات ذات يوم انها مجرد حديقة من حدائقهم. بل ان الشرق كان لاوروبا «الحديقة الخلفية» كما يقول التعبير المعاصر في الحديث عن الاميركيتين.

جورج كاترو :
الحلم بتاج دمشق

هو الاخر جاء الى الشرق مرتين، وهو ايضا عبر المشرق والمغرب معا، وهو ايضا كان من جنرالات الحربين ، عسكري في الاولى، عسكري في الثانية، وسياسي بين المرحلتين.

بل مع بداية هذا القرن تماما، في العام ١٩٠٠ بالضبط كان هذا العسكري يتذوق أول مرة طعم الصحراء. لقد امضى الجنرال كاترو حياته العسكرية كلها تقريبا متنقلا بين المشرق والمغرب، في الصحراء، في الجزائر، في مراكش، في الاناضول ثم بين العام ١٩١٩ و١٩٢٢ رئيسا للبعثة الفرنسية في الجزيرة العربية ودول المشرق. ومن معارك المشرق الى معارك الهند الصينية حيث كانت فرنسا غارقة في القتال حتى اذنيها. لكنه في العام ١٩٤٠ انضم الى قوات الجنرال ديغول لكي يلعب في المشرق دورا سياسيا وعسكريا بارزا مرة اخرى.

وقد ترك الجنرال كاترو الكثير من الاثار والمذكرات التي تغطي تلك المراحل كلها، لكننا اخترنا العودة معه الى العام ١٩١٩ حين يقول لنا إن هذه المشاكل التي كلف التعاطي معها «مشكلة معقدة بصورة مقلقة اطلق عليها اسم الشرق الاوسط».

وفي العام ١٩٥٤ حين يعود الجنرال كاترو ٣٨ عاما الى الوراء، الى العام ١٩٢٢ ليضع كتابه الشهير «مهمتان في الشرق الاوسط» يتطلع الى الخلف متسائلا: «هل تغير شيء ما؟ لا شك في ان عناصر جديدة وكبيرة الاهمية قد دخلت على الساحة لكن الحقيقة ان المشكلة واحدة منذ ٣٨ عاما وصلبها واحد. والتساؤل الذي تطرحه لم يتغير: الى من تؤول السيطرة على هذا المفترق القاري وهذا الفيض من نفط الشرق الاوسط»؟

لقد كان كاترو عسكريا ممتازا وكانت له احيانا مواقف سياسية لينة كما حدث عشية استقلال لبنان، لكن يجب الا يغيب عن بالنا ان الرجل يطرح المسائل دائما من وجهة نظر

استعمارية وبالتالي، فهو يلقي اضواء كثيرة على النظرة الغربية الى المنطقة حين يمضي قائلا:

«تلك هي الحقيقة الجوهرية، استراتيجيا واقتصاديا التي تسيطر على تاريخ المنطقة».

ثم ينتقل كاترو فورا وبصورة عفوية الى وضع نفسه داخل النزاع الفرنسي – البريطاني فيقول إن «احدا لا يستطيع ان يتجاهل انه خلال تفكيك الامبراطورية العثمانية كان هاجس حكومة لندن الدائم هو ان تحفظ لبريطانيا وحدها النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية في جميع المقاطعات العربية المحررة. وهي سياسة جعلتها في صراع دائم، خفي أحياناً، معلن احيانا اخرى، مع فرنسا، وقد انتهى، الصراع اخيرا بابعاد فرنسا عن الشرق الاوسط في العام ١٩٤٥.

غير ان ابعاد هذا الصراع تخطت النفوذ البريطاني والنفوذ الفرنسي. الم يكن هو اي هذا الصراع السبب الاساسي في دخول النفوذ الاميركي؟ بلى، بل إنه ادى ايضا الى ظهور النفوذ السوفياتي من جديد كما يلاحظ الجنرال كاترو «.. الكل يعرف انه بعد هزيمة المانيا في العام ١٩٤٥ انقسم حلفاء الامس الى معسكرين متقاتلين، فاخذ المعسكر الغربي يحاول بكل قواه ان يمنع الاتحاد السوفياتي من الوصول الى الشرق الاوسط وان يحصر السيطرة في نفسه، وهنا ايضا نشأ نزاع جديد، الامر الذي يعني ان المشكلة لم تتغير في جوهرها ولكنها تغيرت في ابعادها».

لقد خابت احلام بريطانيا في احتكار الشرق الاوسط يقول لنا الجنرال كاترو. وهو لا يخفي غبطته حتى لو ان منافسها اصبح الاتحاد السوفياتي، وذلك «لأن الغرب يفتقر الى سياسة موحدة ومتجانسة».

هناك مرارة كبرى في نفس الجنرال. بعضها من ايام النزاع البريطاني – الفرنسي في اعقاب الحرب العالمية الاولى وبعضها الاخر من النزاع الذي قام بين «فرنسا الحرة» والانكليز في الحرب العالمية الثانية. وفي كل ما كتب نشعر ان كاترو يتمتع دائما بدور الرجل الثاني. اذ هناك الدور الذي لعبه الى جانب ديغول كساعد ايمن، وهناك دوره مع الجنرال لايوتيه في المغرب، وهناك دوره مع الجنرال غورو في بداية الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

لذلك يبدأ كاترو كتابه «مهمتان في الشرق الاوسط» بالدفاع عن الجنرال غورو بل هو يفتح الصفحة الاولى على جنازة غورو في العام ١٩٤٦ «بدا وكأن ستارة النسيان قد اسدلت على الذكرى المجيدة لهذا القائد العظيم الذي كان تفانيه في خدمة فرنسا اشبه بسيرة ملحمية. لقد ظلت ساحة الانفاليد شبه مهجورة وجماهير العاصمة لم تكن تتدافع، تلك الجماهير نفسها التي كانت تصفق بحماس لغورو واسطورة غورو حين كان حاكما عسكريا لباريس، يوم كان في احتفالات ١٤ تموز/يوليو يتقدم قواته وهو يحمل بيده الواحدة التي تركها له العدو سيفه المنتصر».

«لم يأت الباريسيون لالقاء التحية على غورو» يقول لنا كاترو مجددا وفي حزن. ذلك ان الزمن قد تغير، ومنذ العام ١٩٤٠ تحول الباريسيون عن الجنرالات لكي يكرموا زعماء اخرين. ثم يروح يعدد لنا معارك غورو مبتدئا بالتشاد حيث يبدو ان الفرنسيين لم ينقطعوا عن القتال حتى الان «ثم موريتانيا وبعدها ارتفاع العلم الوطني في الصحراء (...) وبعدها العام ١٩١٢ في فاس» حيث قمع غورو طبعا حركة وطنية اخرى، ثم الدردنيل ثم معركة شمبانيا في العام ١٩١٨ «هذا الزعيم الجنرال غورو، كان خادما كبيرا للوطن».

لكن ما هي الافكار التي كانت تدور في رأس غورو، وبالتالي في عقل فرنسا، في المراحل الاولى من الانتداب؟

يقول لنا كاترو إنه بعد احتلال دمشق «وبعد احتلال المدن الرئيسية الاخرى في سورية، اصبح لزاما علينا ان ننظم ادارة البلاد وان ننشئ النظام الانتدابي. وكان هناك تساؤل اولي يفرض نفسه: هل يتعين علينا ان نحترم الوحدة السورية كما جبلت زمن العثمانيين ضمن اطار الولايات السورية، على ان نقتطع منها القسم الساحلي في فلسطين الذي كان تحت الوصاية البريطانية، هل نعمد على العكس من ذلك، الى تقسيمها وفقا للمعطيات السكانية الاقليمية؟ ام هل من الافضل ان نتبنى صيغة وسطية تقضي بان نقسم سورية الى كيانات ادارية متميزة يراعى فيها احترام الاطار التاريخي، ثم نوحدها بموجب رابط فدرالي؟

لو كان الجنرال كاترو في سورية انذاك لكان وقف مع الحل الاخير، هكذا يبلغنا.. لكن للاسف فان الجنرال غورو واعوانه اختاروا الحل الثاني وراحوا يقسمون سورية الى دويلات كما اقتطعت من نظام الولاية صور وطرابلس و... معها سهل البقاع «من اجل اقامة لبنان الكبير».

لقد كانت مضاعفات هذا القرار «ثقيلة جدا لكنه كان يعكس ردة فعل اوساط المفوضية السامية ضد فكرة الوحدة السورية والفكرة القومية التي طرحها الملك فيصل». وكان اهل المفوضية يقول كاترو، يعملون من منطلق «فرق تسد» لاعتقادهم «ان تفكيك مملكة الامير فيصل الزائلة سوف تدمر التضامن القومي وفكرة الاستقلال التي يجسدها هذا الامير».

لكن النتيجة كانت عكس ذلك في رأي كاترو. «فالواقع ان تقطيع سورية الذي ازداد خطورة بضم بعض المناطق المسلمة والسورية الى لبنان الكبير ذي الاكثرية المسيحية، ادى الى تسمم علاقتنا مع سورية. لقد اثارت هذه الاعمال المشاعر القومية والحساسيات الدينية في وقت واحد واعطت للمواطنين الانطباع بأنه تحت ستار الانتداب سوف تسعى فرنسا الى اعطاء الافضلية للاسرة المسيحية التي كانت حاميتها التقليدية خلال الحكم العثماني، وذلك على حساب المسلمين . لقد كانت الثقة مفقودة اصلا في روح المساواة الفرنسية،

وهكذا ساد جو من الخيبة شعرت به فور تسلّمي مهام مندوب المفوض السامي لدولة دمشق».

يقول لنا الجنرال كاترو إنه حاول بشدة ان يقنع رئيسه وصديقه غورو باعادة توحيد سورية وان غورو اراد ذلك حقا لكنه ما لبث ان اكتشف صعوبة الامر.

هل كان غورو متعصبا للمسيحيين في الشرق، وخصوصا في لبنان؟ لا . يقول كاترو في الدفاع عن صديقه «لقد كان متدينا لا متعصبا» وكان يعتقد انه يخدم مصلحة فرنسا في اتباع السياسات التي اتبعها والتي ادت فيما ادت الى ضياع سنجق الاسكندرون فيما بعد.

في ضوء هذه الاجواء في اب/اغسطس ١٩٢٠ يصل كاترو الى دمشق قاطعا اجازة قصيرة في جبال الالب بعد قليل من عودته من مهمة الى الحجاز. فقد وصلته برقية عاجلة من غورو يدعوه فيها للذهاب الى بيروت على عجل لكي يتجه منها الى دمشق كمندوب للمفوض السامي. وهكذا سارع الى مرسيليا ليستقل اول باخرة الى لبنان وقبل ان ترسو «كان هناك زورق يحملني الى سيارة على المرفأ والسيارة تطير بي الى عاليه مقر الجنرال غورو. وقد حذرني مرافقي من انه بعد انتهاء مقابلتي للجنرال لا بد ان اتجه فورا الى دمشق حيث الامور تسير بشكل سيء. وهذا ما اكده لي غورو وبعد حين بكلمات قليلة.

«لقد روى لي الجنرال ان الامير فيصل قد حرض على الثورة في حوران. وهي مقاطعة تقع على ابواب دمشق وجنوبها. وقد انفجرت هذه الثورة لمناسبة رحلة كان يقوم بها ثلاثة من وزراء الحكومة السورية الجديدة الموالية للانتداب. وقد ذهب هؤلاء الى حوران لاجتذاب الناس الى جانب السلطة لكن اثنين منهما قتلا واختفى الثالث، وكان جبل الدروز هو ايضا على اهبة الانضمام الى الثورة، في حين ان دمشق حيث كان السلاح متوافرا بكثرة كانت تغلي وكان وجود جيش فيصل فيها يبعث على القلق.

«هذه هي الحالة، قال لي غورو، انك تعرف الان ماذا ينتظرك. ان عليك الان ان تتولى الشؤون الادارية والسياسية وانك تتلقى اوامرك مباشرة مني وليس من الجنرال غوابيه الذي يقود القوات هناك، اذهب واعمل بسرعة. واعتقد ان الامور ستحل» .

بعد دقائق كان كاترو يتجه بالسيارة الفخمة «ليس الى حدائق دمشق المعلقة» التي طالما سمع عنها وانما نحو «قدر يحمل في طيه الكثير من المغامرة». وهناك في دمشق، سوف يكتشف المندوب الجديد واقعا سياسيا جديدا: إن الانتداب محاط بثورة عدائية في جبل الدروز من ناحية ومن ناحية اخرى بشرق الاردن «الذي سوف يصبح قريبا معقل الامير عبد الله شقيق الامير فيصل – انه البلد الذي يقال منذ الان إنه سوف يكون ملجأ الوطنيين

السوريين المعارضين للانتداب الفرنسي ومركزا لانطلاق عملياتهم العسكرية ضد نظام الوصاية الفرنسية».

لقد كان الفرنسيون يخشون، اكثر من اي شيء اخر «ذلك العرق المقاتل – الدروز» ويخافون من الجبل على نظام دمشق «ولذا كان لا بد من التحرك بسرعة» بالتودد الى زعامة الجبل. فقد كان كاترو منذ البداية مع «حل سياسي» يأخذ في الاعتبار اوضاع الشرق. وقبل ان ينتهي عمله كمندوب للجنرال غورو كان قد اصبح قادرا على المفاخرة بأنه استطاع ان يقيم الهدنة مع ثلاثة من اعداء فرنسا التقليديين: الدروز، والبدو، والروم الارثوذكس الذين يأخذ عليهم كاترو انضواءهم في صفوف الامير فيصل» وقد توصل الى هذه المهادنة لأنه عرف كيف يفهم الشرق وكيف يقدم احيانا مصلحة فرنسا واحيانا اخرى «الكرامة العربية» التي يحرص عليها المشرقيون كثيرا.

ويقر كاترو بأن «تطبيق الانتداب كان في حد ذاته مسألة دقيقة، اولا لأنها كانت التجربة الاولى من نوعها وثانيا لأن محتوى الانتداب لم يعط تحديدا قانونيا». واذ يطلب منه غورو ان يضع دستورا قانونيا للانتداب يجد كاترو نفسه امام المعضلة: من جهة اعطاء سورية الاستقلال كما تنص توصيات هيئة الامم ومن جهة اخرى اخضاعها لوصاية اجنبية.

ما هي الافكار التي كانت تتنازع كاترو وهو يحاول الوصول الى حلول يقدمها لغورو؟ انه يستفيض في شرحها:

الشق الاول، يقول كاترو، كان يعني انه «لا يحق للموظفين الفرنسيين ان يمارسوا، في صورة مباشرة، ادارة الشؤون السورية الداخلية، بل هو يقضي، على العكس من ذلك، باقامة حكومة سورية وطنية وادارة حكومية سورية تتولى هذه المسؤولية. اما الشق الثاني فكان يفرض على مثل هذه الادارة الا تتصرف الا بمشورة ممثلي فرنسا. وبالتالي يحد من حريتها».

من هنا اشار كاترو على رئيسه بأن يكون الانتداب اقل ظهورا بقدر المستطاع واقل ثقلا على نفوس اهل سورية الجياشة بالمشاعر الوطنية. وقد كان يحتذى انذاك «بذلك المثال البارز الذي اعطاه لنا اللورد كرومر الذي بمساعدة جهاز من الموظفين الكبار وبلقب متواضع هو «وكيل صاحبة الجلالة» استطاع بكل هدوء وفاعلية ان يدير شؤون مصر». وهكذا اخذ كاترو يبتعد ما استطاع عن الواجهة السياسية حتى انه لم يكن يوقع المراسيم او القرارات الصادرة عن الحكومة. «وفي الاحتفالات الرسمية كنت ايضا اعطي الكرسي الاول رئيس الحكومة، وكان البعض يقول إن هذه المظاهر لا يمكن ان تخدع احدا حول حقيقة السلطة. ربما.. ولكن ذلك الذي يصدق المظاهر لا يعرف الشرق حقا».

ويذهب الجنرال كاترو الى ابعد من ذلك في وصف الخطوات التي اتخذها للتخفيف من وطأة الانتداب: «وهكذا بالنسبة الى قمة الحكم، لم تكن الالة الانتدابية تضم اكثر من ثمانية اشخاص هم مندوب المفوض السامي وسبعة مستشارين فنيين يأخذون رواتبهم من الخزينة الفرنسية لا السورية، اما في الاقاليم، وللاسباب نفسها فقد خفضت الى الحد الادنى عدد المستشارين الفنيين..» . لكن الجنرال لا يلبث ان يقر بأنه اقام في الوقت نفسه جهاز مباحث يطلعه على كل مجريات الامور.

كان غورو يحب كثيرا المجئ الى دمشق. كان يحب جوها التاريخي. وكانت الايحاءات الطالعة من حجارتها العتيقة توقظ فيه الرجل الرومانطيقي والعسكري معا. انها مدينة الامويين وتلك القلعة الحصينة التي تحدت هجمات الافرنج وعاصمة صلاح الدين ذلك الفارس المنتصر في حطين. انها المدينة التي تطلع فيها اصوات المؤذنين من ١٣٢ مئذنة داعية الى التوحيد.

بهذه الكلمات يصف كاترو بعض معالم دمشق، المدينة التي يبدو انه احبها ايضا مثل غورو: «... وتلك الشوارع التي تلتف مثل الانهر في السوق القديمة حيث يسير جنبا الى جنب بالبستهم المختلفة، الدمشقيون والبدو والدروز والسقاة وباعة الحلوى والجمّالون ومعهم جمالهم. ومن الخانات والدكاكين تتصاعد رائحة الشرق ومياه الورد».

لقد كان غورو يتذوق «عطر الشباب الخالد وعطر المخيلة الكبرى والروح الانسانية المهيمنة». في دمشق كما تذوقها من قبل في فاس «والايام التي كان يمضيها هناك كانت بالنسبة اليه استرخاء للنفس في جو عزيز عليه. كان يترك كل همومه خلفه ويروح يتصرف في منزلي على سجيته». ويروي لنا كاترو ان الرجل الذي دمر ميسلون هو ايضا ذلك الرجل الذي كان يقوم بدور الدليل السياحي لاقاربه واصدقائه كلما جاؤوا الى دمشق وبين هؤلاء شقيقته ماري تيريز غورو.

غير ان احدى هذه الجولات السياحية تحولت الى مأساة – والرواية دائما للجنرال كاترو – يوم حلت في دمشق شقيقة غورو واحدى بنات عمه. وسأل غورو صديقه كاترو الى اين يذهبون فاقترح عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق. فاكثرية اهل القنيطرة من الشراكسة. والشراكسة كانوا من المعروفين بودهم لفرنسا، لا محبة بها بل نكاية بالاخرين، وبالتالي كان من المستحيل الابقاء على الزيارة سرية «كما كنت امل وذلك لاسباب تتعلق بامن المفوض السامي نفسه، فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل اولئك الذين لجأوا الى مناطق الانتداب البريطاني. واقصد بذلك شرق الاردن. وقد كان الوطنيون السوريون بزعامة متطرف يدعى احمد مريود، يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله. والمعروف ان الطريق الواصلة بين دمشق والقنيطرة لم تكن بعيدة من مدينة اربد الاردنية

حيث كان يقطن مريود اكثر من ٦٠ كيلومترا. وفي ضوء ذلك كان يجب الحؤول دون مثل هذه المحاولة باقامة حراسة مشددة على تلك الطريق. وهكذا اصدرت الامر بان يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على احصنتهم، يكون كل واحد منهم على مرأى من الاخر». لكن جميع الاحتياطات التي اتخذها كاترو لم تكن كافية. وسوف يكون في امكان رجال مريود التسلل الى صفوف الدرك بشكل مذهل. كيف؟ وهل فعلوا ذلك بالتواطؤ مع الدرك، لا يقول لنا الجنرال. لكنه يروي في اي حال ان غورو اراد ان يصطحب شقيقته وابنة عمه في سيارته فنصحه بألا يفعل: «انك ياسيدي الجنرال تقوم برحلة رسمية في بلد مسلم حيث لا تعطي التقاليد للنساء اكثر من دور بعيد، ومطلوب منك اكثر من غيرك الا تتحدى مشاعر المواطنين، ولذا من الافضل ان تستقل السيدات سيارة اخرى من سيارات الموكب».

قبل غورو الاقتراح مترددا. وهكذا استقل سيارته المكشوفة ومعه فيها، الى جانب السائق، مترجمه عن العربية الكولونيل «بارنيت» وخلف السائق على كرسي صغير الجنرال كاترو وفي المقعد الخلفي جلس حقي بك العظم حاكم دولة دمشق والى يمينه غورو.

وخلف سيارة غورو كانت هناك سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الامين العام للمفوضية العليا، وفي نهاية الموكب كانت سيارة الانسة غورو وقريبتها المدام لونغمار.

«انطلق الموكب في سرعة تتقدمه سيارة الجنرال القوية . وكانت السماء مشعة. وفي الافق بدا جبل الشيخ طاغيا. وكان رجال الدرك كل في مكانه» لكن هناك ايضا كان الاخرون. وما ان تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل حتى بدا لكاترو اربعة من رجال الدرك «بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا الى المكان الذي يفترض انهم يحتلونه». او هكذا خيل لكاترو الذي فكر ايضا في معاقبتهم فيما بعد على نوعية اطقمهم. لكن ما ان تخطى الموكب المنعطف الجبلي «حتى فتح الفرسان الاربعة النار يدعمهم شريك خامس كان مختبئا وراء الصخور. وفي الطلقات الاولى اصيب الكولونيل بارنيت، الذي هب واقفا، اصابة قاتلة وسقط على الطريق. واصيب حقي بك العظم اصابة خفيفة، اما غورو نفسه فكانت حصته ثلاث رصاصات. وحين سمع الرصاص قال لي غورو بكل هدوء: انهم يطلقون النار علينا من فوق فهل معنا رشاش؟ وكنت بردة فعل عفوية قد التقطت رشاشا لكنني وجدته فارغا وكانت جيوبه في مكان ما من هذه السيارة التي لم آلفها كثيرا. وشعرت ان السرعة وحدها يمكن ان تنقذنا فصرخت في اذن السائق اسرع يابني اعطني الذخيرة فدلني اليها باشارة منه، لكننا كنا قد ابتعدنا عن مرمى الاغتياليين ووصلنا الى مركز درك حقيقي وهناك غيرنا عجلة السيارة وتفقدناها فوجدنا فيها

اثار ١٤ رصاصة فقال لي غورو «إنني مدين لك لأنك انقذت حياة شقيقتي التي كان لا بد ان تجلس هنا». فاجبت : سيدي الجنرال لقد انقذت الانسة غورو لكننا لا نعرف مصير بقية الموكب. والكولونيل بارنيت قتل. وانت نفسك نجوت باعجوبة، انني اتحمل المسؤولية لأنني مسؤول عن كل شيء على اراضي الانتداب ولذا ارجو ان تقبل استقالتي» لكن غورو اجاب: «انني ارفض استقالتك. لقد كنت مثلنا ضحية لسلسلة من الظروف المتلاحقة. انني اوليك كل ثقتي وعلينا جميعا بدءاً مني، ان نستخلص الامثولة من هذه الواقعة. لقد كان علينا الا نسبق السيارات الاخرى كل تلك المسافة بل ان نظل في الموكب».

يتوقف كاترو عند طباع صديقه غورو مرة اخرى: لقد حافظ على هدوئه تحت الرصاص وبعد ذلك لم يتفوه بكلمة واحدة.

كل ذلك وبقية سيارات الموكب لم تصل بعد. واخذنا نفكر بالخطوة التالية، ثم «ما لبثنا ان قررنا انه يجب ان نكمل الطريق الى القنيطرة لكي نرسل الفرسان الشركس في مطاردة الفاعلين وهو امر لم يحدث الا بعد نصف ساعة من الحادث. وبالفعل ما لبثت ان لحقت بنا السيارات الاخرى. باستثناء سيارة الانسة غورو التي اعيدت الى دمشق من قبيل الحذر». فقد رأى اعضاء الموكب جثة الكولونيل بارنيت على الطريق فعرفوا ان شيئا ما قد حصل. اما كاترو فقد اصدر اوامره بالهاتف لاقامة الحواجز والتفتيش عن الرجال «لكنني علمت في اليوم التالي انهم اختبأوا في احدى القرى ثم تسللوا في الليل الى شرق الاردن».

يعود غورو ذلك المساء من القنيطرة في موكب اكثر حراسة ليلقى استقبالا «عفويا» في دمشق. وفي اليوم التالي، في جنازة بارنيت يهدد بأن هذه الجريمة لن تظل «دون عقاب». غير ان «هذا الوعد لم يتحقق الا جزئيا» كما يقول لنا كاترو الذي يرى ظل الانكليز في كل شيء وكل مكان وكل حدث «ولم نستطع الوصول الا الى شركائهم القرويين السوريين الذين منحوهم المأوى».

وبالنسبة الى كاترو ليس هناك شك في ان «الذي دبر الاعتداء هو احمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرف الذي لجأ الى اربد. واقام على الحدود نفسها، وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة وقرر المحاولة. وكان يعتقد ان الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة الى اهل الاستقلال في المشرق وفي العالم. ومن اجل هذا العمل جند احمد مريود خمسة من الذين حصلوا على ثياب الدرك المستعملة وحلوا محل احد مراكز الحراسة ثم اطلقوا النار (...) لكن بعدما استطاعت سيارة غورو الفرار نزلوا الى الجثة الملقاة على الطريق ظنا او املا منهم بأن تكون جثة غورو. لكن عندما تبينوا خطأهم اخذوا معهم قبعة بارنيت كدليل على انهم ادوا مهمتهم.

«... وفيما كانت هذه الاحداث تأخذ مجراها كان احمد مريود في منزله في اربد يتحدث ضد فرنسا في حضور ضابط سياسي بريطاني سوف يعرف فيما بعد باسم اللورد رغلان. وكان احمد مريود يتطلع في ساعته كل لحظة. وحين دقت الساعة التاسعة نظر إلى الذين حوله وقال لهم: انني اعلن لكم حدثا هاما، وفي هذه اللحظة الجنرال غورو قد مات. ثم اخذ يشرح لهم ما حدث او ما اعتقد انه حدث».

وقد تسلحت الحكومة الفرنسيةبالكلام الذي قاله مريود لكي تطلب اعتقاله بتهمة التحريض على قتل غورو «ولم تكن تلك اول مذكرة احتجاج تقدم الى السلطات البريطانية ضد اللاجئين السياسيين الذين يعملون ضد فرنسا. فقد سبقتها احتجاجات كثيرة لكنها ظلت جميعا من دون جدوى.... لكن هذه المرة لم يعد باستطاعة السلطات البريطانية الاستمرار في التجاهل فابعدت احمد مريود عن اراضي الانتداب».

جرت محاولة اغتيال غورو في الوقت الذي قامت ايضا التظاهرات الوطنية في دمشق بقيادة الدكتور شهبندر. وقد اظهر الحدثان «مدى عدم شعبية الانتداب الفرنسي» بالنسبة الى عصبة الامم المتحدة في جنيف. وهكذا ارسلت المنظمة الدولية من يحقق في امور الانتداب. وفي ضوء هذه التطورات «تعمقت لدى الجنرال غورو قناعة سابقة بوجوب وضع حد لتفتيت سورية واعادة تركيبها ضمن اطارها الوطني في ظل نظام اتحادي يلتف حول دمشق، العاصمة التاريخية. وهكذا تسرعت الحركة الاصلاحية التي كان قد فكر بها وطبق في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر النظام الجديد الذي اعلن في حلب في ٢٢ آب/ اغسطس وعين اول رئيس للاتحاد السوري صبحي بك بركات وهو شخصية من الشمال واحد ابطال الحركة الوطنية الذين قاتلونا بالايدي خلال اشهر طويلة».

ولا يخفي كاترو ان الغرض من تعيين صبحي بركات كان تهدئة الخواطر في الداخل و... عصبة الامم في الخارج. وفي هذه الفترة ايضا ودع غورو دمشق، وبعدها سوف يودع المشرق كله. لقد قدم استقالته لخلاف مع حكومته حول الموازنة التي تخصصها لادارة شؤون الانتداب.

لكن ما هي اهمية المنصب الذي كان يشغله غورو؟ ماذا كان يعني بالنسبة الى الفرنسيين؟ لقد استقال غورو، يقول لنا كاترو، «بكل بساطة ومن دون مرارة من منصب هو احد ارفع المناصب في الجمهورية ومن موقع كان فيه بمثابة نائب الملك!».

ونائب الملك هو اللقب الذي كان يعطيه الانكليز لحاكم الهند «جوهرة التاج» وبالتالي فان سورية ولبنان كانتا بالنسبة الى فرنسا ما كانت الهند بالنسبة الى بريطانيا ايام الاستعمار.

لكن مع غورو «الذي ذهب الى الظل قرر ايضا ان يستقيل اللفتنانت كولونيل كاترو «اليس هذا افضل تكريم نستطيع ان نقدمه له؟».

لكن قرار كاترو سوف يفاجئ الكثيرين «لأن شيئا لا يدعوني للعودة الى فرنسا وواجبي العسكري لم يكن يحتم علي بعد التخلي عن مهامي السياسية. بل على العكس من ذلك، كان كل شيء يدعوني للبقاء في دمشق: اهمية المنصب الذي احتله، مكانتي في الاوساط السورية، العمل الذي قمت به واهمية الاعمال التي تنتظرني. ولذلك تساءل الكثيرون عن الدافع الذي يجعلني اتخلى عن هذا المنصب المهم، منصب «ملك دمشق» كما وصفه الجنرال الانكليزي كونغريف الذي الحق هذا اللقب بقوله «لكنك لا تزال يافعا على الملك»- الى مركز مبهم في افريقيا او اوروبا.

«وعندما طرحت علي هذه الاسئلة كنت اجيب انني اتضامن مع الجنرال غورو وانني جئت معه الى دمشق واتركها معها . انني مدين بكل شيء لثقته بي. لقد كان صديقا وراعيا في الايام الصعبة والايام السهلة. لقد تبنى المبادرات التي اتخذتها ودافع عن افكاري وسامح اخطائي واقر اسلوبي في العمل»... «ولقد اختلط قدره في سورية بقدري ولذا لا يسعني الا ان الحق به وهو يتبعد.

... لقد تركنا في وقت عادت الامور فيه الى طبيعتها واستطعنا تخطي الصعاب في علاقتنا مع السوريين. وان اقامة الاتحاد حديثا سوف تضع حدا للمشاكل وتكون بداية علاقات سورية – فرنسية جديدة».

«هذه الاجوبة اعطيتها ايضا الى الجنرال غورو عندما طلب مني البقاء في دمشق من اجل مصلحة فرنسا».

لكن بعد ايام كان غورو وكاترو يغادران على متن السفينة «الكسار» وبقي غورو في اوروبا، اما كاترو فعاد في العام ١٩٤٠ لكي يخوض كأحد قواد الحلفاء ما اسماه فيما بعد «معركة المتوسط» ويلعب دورا سياسيا مهما في مسألة استقلال سورية ولبنان لكنه لن يقطن «قصر الصنوبر» في بيروت، قصر الاحلام الذي تحدث عنه في حزن «عندما تركه الجنرال غورو لكي يسكن شقة متواضعة في السان جرمان».

ادوارد سبيرس :
العباءة التي هرّبت ديغول!

«تعتقلون راشد المقدم، نعتقل كميل شمعون». هكذا قال الفرنسيون للانكليز! هكذا قال الجنرال السير ادوارد سبيرس في مذكراته.

«انها لعبة انكليزية» هكذا كان يقول الجنرال ساراي! اما ديغول فيقول لنا من عليائه، إنه خلال «المساومات في يالطا استطاع تشرشل اخيرا، ان يقنع روزفلت وستالين بأن يطلقا يده في دمشق وبيروت».

إنها حرب تاريخية لن تضع لنفسها نهاية او حدا. ولا يزال الانكليز والفرنسيون يخوضونها دامية هذه الايام ولكن بالاغاني او بالصور الكاريكاتورية، واكثرية الشعب البريطاني ظلت ترفض مد النفق عبر المانش لكي لا تربط فرنسا ببريطانيا برا انتقاما لموقف ديغول من دخول بريطانيا الى السوق في الستينات. وفي الستينات رفض ديغول دخول بريطانيا انتقاما من واترلو. انه العداء الابعد زمنا في تاريخ اوروبا. والذين يعتقدون ان العداء الالماني – الفرنسي هو الاكثر قدما انما عرفوا شيئا وغابت عنهم اشياء: من وليم الفاتح في انكلترا وريتشارد قلب الاسد في فرنسا، من ملوك البلانتاجينه ومعركة ايانغور، من تلك المنافسة الشهيرة ايام الصليبيين، من دوق مالبورو وحملاته ضد لويس السابع عشر، من معارك وولف ضد مونتكالم في اعالي كيبك الباردة، من نابوليون وولنغتون وولسون، الى الامس القريب .

فالعداء الالماني – الفرنسي عداء عسكري حديث نسبيا، اما المسألة بين لندن وباريس فهي حكاية عداء وتنافس حول العالم وعبر التاريخ: من الشرق الاقصى الى الشرق الاوسط مرورا طبعا باميركا وشبه القارة الهندية. لقد كان بالمرستون القائل إنه ليس لانكلترا صداقات دائمة ولا عداءات دائمة. غير ان اكثر من عمل بهذا القول هم الفرنسيون.

ولقد عملوا به ضد اصدقائهم الالداء عبر القناة!

ولعل ابرز نتاج لهذا الصراع كان تلك العلاقة العصبية بين السير ادوارد سبيرس وبين الجنرال ديغول! لقد عاش سبيرس في فرنسا وهناك اجاد اللغة واحب الشعب والشمس واشجار الجوز في الجنوب، بل إن شارل ديغول هرب الى بريطانيا تحت عباءة سبيرس لكي يعلن من لندن «فرنسا الحرة» لكن لم تلبث هذه العلاقة ان تحولت الى علقم متبادل، ولم يلبث سبيرس ان اصبح مثال الانكليزي الذي يكره كل ما هو فرنسي، بما في ذلك زوجة الحاكم الفرنسي في لبنان، المسيو جان هللو!

تعاطى سبيرس مع زملائه الفرنسيين بالكثير من الاقنعة والكثير من القفازات: تعال متبادل وكره متبادل وانعدام ثقة هائل. وبين الاثنين، اي بين الانكليز والفرنسيين، دار اللبنانيون دورتهم السياسية التي تتسارع حركتها مع تغير الدول. ويذهب البعض الى القول إن سبيرس هو الذي جاء الى لبنان بهدية اسمها الاستقلال نكاية بالفرنسيين لكن شارل ديغول يقول لنا انه هو الذي فعل ذلك. وينقسم اللبنانيون – كالعادة – حول تقييم حقيقة الدور الذي لعبه الجنرال سبيرس: منهم من يمتدحه ومنهم من ينتقد . لكن كما انه في انكلترا ليست هناك عداوات ولا صداقات دائمة فهكذا الامر في لبنان، حيث نرى الشيخ بشارة الخوري وزيرا وسياسيا بارزا في بدايات الانتداب ثم رئيسا حين يشتد النفوذ البريطاني. ثم نرى الرئيس كميل شمعون مؤيدا للخوري رفيقه في الحزب الدستوري وبعد ذلك نرى الاثنين على طرفي نقيض. لكن ليس من شك في اي حال في مدى انقسام اللبنانيين خلال الانتداب، بحيث يروي لنا سبيرس انه بينما كان نائما ذات ليلة خريفية وقد فتح نافذته، سمع صوت جسم كبير يسقط في الحديقة فوق «الشبكة المضادة للبرغش. ثم عرفت فورا وجه الرجل الذي سقط في الشبكة. لقد كان خليل. الابن الاكبر للرئيس، شاب بدين، وكان وجهه مغطى بالدماء، وابلغني قوله: لقد قال لي والدي اذهب الى الجنرال سبيرس واخبره، ثم روى لي ان الجنود اقتحموا منزلهم ودخلوا الى غرفة نوم والدته المريضة (...) وسعى هو (خليل) لأن يطلب طبيبا غير ان الجنود ارتموا فوقه وضربوه باعقاب البنادق ثم دفعوه على الدرج وهم يصرخون يا ابن ... يا ابن الانكليز...».

ثم يتابع سبيرس ليقول لنا من كان في الجانب الاخر من الصراع: «لقد كانت الساعة نحو السابعة وقد اتصلت بـ «كايسي» في القاهرة واخبرته بما حدث فلم يصدق، وقال إن الفرنسيين مجانين وانه يجب ان نفعل شيئا ما على الفور. وفيما كنا نتحدث على الهاتف جاءنا صوت «هللو» في الراديو، يعلن بكل خشونة انه علق الدستور وحل الحكومة وعين اميل اده رئيسا للحكومة الجديدة».

لا بد من ملاحظة: فالجنرال سبيرس الذي توفي في العام ١٩٧٤ عن ٨٧ عاما، ظل

رافضا ان يضع مذكراته حتى الاشهر الاخيرة من حياته «لانها تضر باشخاص كثيرين» وكان يقصد بالطبع ديغول في الدرجة الاولى. فهو لم ينس انه كان الرجل الذي امسك ديغول من ذراعه في مطار «بوردو» ودفعه الى الطائرة التي اقلته بعيدا عن القوى المستسلمة في فرنسا، لكننا سنكتشف ان التعالي المتبادل بين اهل الجزيرة واهل القارة يتخطى بكثير معاتبة الوفاء ونكران الجميل بين جنرالين احدهما ظل في حجم محلي والاخر اتخذ العالم اجمع حجما له.

هذا لا يعني طبعا ان سبيرس كان ضئيلا. انه «رفيق تشرشل» منذ العام ١٩١٥، وذات يوم يقدم اليه ديغول صورته وقد كتب عليها «الى الجنرال سبيرس، شاهدا وصديقا وحليفا». غير ان احد الصديقين سيظل مفوضا ساميا بينما يصل الاخر الى حكم فرنسا. ربما ايضا ليس هناك الكثير من الدقة في تعبير «المفوض السامي». فالرجل الذي لعب اهم ادواره في الشرق بين العامين ١٩٤١ و١٩٤٤ اصبح «رئيس البعثة البريطانية» في سورية ولبنان، بالاضافة الى كونه كان «رئيس الفرنسيين الاحرار في المشرق».

بعد وصول سبيرس الى بيروت باسابيع يلقي ونستون تشرشل في مجلس العموم خطابا حول سياسة لندن تجاه «دول المشرق» يقول فيه:

«ليست لدينا مطامع في سورية، اننا لا نسعى الى الحلول مكان فرنسا، او استبدال المصالح الفرنسية بمصالح بريطانية في اي جزء من سورية، اننا في سورية فقط لكي نكسب الحرب.. لكننا من جهة اخرى نعترف بأنه من بين جميع دول اوروبا فان لفرنسا في سورية وضعا مميزا. واذا كانت لأي دولة اوروبية اخرى مواقع مميزة في سورية فيجب ان يظل موقع فرنسا هو المهيمن. اننا لم نذهب الى هناك لكي نجرد فرنسا من موقعها التاريخي في سورية، الا حيث يبدو ذلك ضروريا للوفاء بالتزاماتنا وتعهداتنا تجاه السكان في سورية».

كان تشرشل يتحدث في اعقاب انتهاء «الحملة السورية»، اي سقوط قوات فيشي امام الانكليز و«الفرنسيين الاحرار» ومن معهم من «قوات خاصة» اي مجندين سوريين ولبنانيين، كذلك كان يتحدث بعد لقاء مطول في القاهرة بين ديغول، زعيم «فرنسا الحرة» غير المقيم في فرنسا، وبين وزير الدولة البريطاني اوليفر ليتلتون تم خلاله تنظيم العلاقة بين فرنسا وبريطانيا في المشرق! انها علاقة لن تنظم ابدا.

وسوف ينسب الجنرال سبيرس الى نفسه والى بلده، بصورة غير مباشرة، تفكيك الانتداب: «عندما غادرت الشرق الاوسط العام ١٩٤٤ في نهاية مهمتي كانت سورية ولبنان قد اصبحا بلدين مستقلين يتمتعان باعتراف جميع الدول الكبرى وجميع الدول العربية المستقلة وعدد كبير من الامم الاخرى».

هناك وجهان للمستر سبيرس، مثله مثل جميع العسكريين الذين تركوا ارض القتال في الحرب الكونية لكي يغرقوا في ليالي السياسة واوحالها. هناك العسكري الصارم وهناك الليالي الملاح في بيروت وفلانة قالت وفلانة لم تقل، ومن سهر عند من، كيف ولماذا.

عندما فقدت الملكة فيكتوريا زوجها قالت لقد فقدت «الرجل الوحيد في العالم الذي كان يستطيع ان يناديني فيكتوريا». وها هو ادوارد سبيرس الرجل الوحيد الذي يستطيع القول في معرض الحديث عن ديغول: «انا الذي احضرته الى انكلترا في حزيران/يونيو ١٩٤٠».

لكن هذا الذي يقول «انا احضرت ديغول» يدخل ايضا في عالم من الاشياء الصغيرة ويروي لنا في مذكراته حكاية ليلة دعا فيها المسيو هللو وزوجته الى العشاء في بيروت على شرف ملك يوغوسلافيا: «جلست المدام هللو الى جانبي في عشاء الملك اليوغوسلافي. وقد لاحظت كم هي وسيمة بعكس زوجها التعس. لكنني اذ تفحصتها اكثر عن قرب شعرت انني انظر الى مخلوق اصطناعي تماما جليد متجمد ووجه من الطلاء مثل منحوتة من منحوتات «ليموج» تشعر وكأن اي نسمة ستحولها الى حطام متناثر. وبدا جلدها مثل محرمة ورقية تعوم فوق مياه صافية. ورحت اضرع الا يتعثر احد الخدم ويصطدم بكرسيها فيحطم هذا العمل الفني الجميل».

هناك الكثير من الثرثرة البيروتية المسلية في حياة سبيرس:

«كنا نحضر زوجتي وانا، حفل استقبال اقامه المسيو هللو وزوجته وقد وقفا كلاهما يستقبل المدعوين. ومن بعيد رأيت سيدتين فرنسيتين بالغتي الجمال تصلان الى الحفل. وكنت اعرف ان كلتاهما اكثر شعبية لدى الرجال الفرنسيين مما هما لدى بنات جنسهما. وبدا واضحا على الفور ان المسيو هللو هو الذي دعاهما وليس زوجته وقد عرفت لحظتها ان مقصلة ستسقط . لم تقل السيدتان كلمة واحدة. لم تأتيا بحركة واحدة فقط وقفتا هناك تحت سطوة نظرة المدام هللو التي تبعث على الشلل ثم استدارتا وذهبتا على اعقابهما».

لم يوفر سبيرس احدا من اسلوبه اللاذع حتى ضيفه، ملك يوغوسلافيا «ليلة عودة هللو الى بيروت اقمت للاسف، حفل عشاء لملك يوغوسلافيا. وكان الملك صبيا، صبيا صغيرا في ذوقه وفي حجمه تسحره الاشياء التي تتحرك بسرعة (...) وقد ظل الملك عندنا تلك الليلة اكثر مما كنت احب».

غداة تلك الحفلة، اي صباح ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٣ سوف يعيش لبنان فصلا مهما من تاريخه، نسمع رواية الجنرال سبيرس بحرفيتها: «بعثت الى وزارة الخارجية هذا الصباح بالبرقية الآتية:

«في الرابعة من فجر اليوم اعتقل رجال الامن العام رئيس الجمهورية ووزراءه جميعا، باستثناء ثلاثة لم يتم العثور عليهم، واقتيدوا جميعا الى السجن برفقة رجال البحرية والجنود السنغاليين.

«ولقد اعتقل الرئيس بالكثير من الوحشية في حضور زوجته المريضة. وضرب ابنه باعقاب البنادق وحبس في القبو وسط صرخات يا ابن الـ... يا ابن الانكليز.

«كذلك اقتحم منزل رئيس الوزراء المسلم ونقل عنوة من فراشه الزوجي. ان هذا وحده كاف لاثارة جميع السكان المسلمين.

«لقد اقدم هللو على حل المجلس بموجب مرسوم لم تتسن لي قراءته حتى الان.

«إن المدينة طبعا في حالة غليان وثمة اضراب عام متوقع مع انني اسعى بالتأكيد الى الهدوء، وانني نصحت الحكومة السورية بعدم القيام بأي خطوة بانتظار ان اسمع منكم. لقد ابلغت وزير الدولة البريطاني ودعوته الى ان يدرس فكرة فرض الاحكام العرفية البريطانية.

ان هذا في رأيي يشكل الوسيلة الوحيدة للحؤول دون تظاهرات خطرة في هذا المنعطف العسكري الدقيق. لقد اظهر الفرنسيون انهم متهورون تماما.

«اتصلت بعد ذلك بـ «كايسي» في القاهرة وطلبت منه ان يجمع ما استطاع من الصحافيين بحيث يملأ طائرة كاملة منهم تكون في بيروت ظهر ذلك اليوم. لقد كنت اعرف ان الفرنسيين سوف يتظاهرون بأن شيئا لم يحدث وان كل ما في الامر انهم اعادوا الامن الى نصابه بفضل استخدامهم القوة.

«... وعندما سمعت ان الجنرال دو لافالاد موجود في القاهرة عرفت ان المسألة معدة منذ زمن. والا كيف يمكن لضابط فرنسي رفيع الرتبة، كجنرال، ان يظهر فجأة في القاهرة، وان يعلن بكل تلك السلطة التي يتمتع بها، ان ما حدث ليس بذي شأن في حين ان رئيس لبنان وحكومته في السجن؟ كيف لا يكون الامر خطيرا والبرلمان قد حل والطائرات الفرنسية تحلق فوق بيروت ملامسة السطوح!

«عندما دخلت الى بهو منزلي وجدته مليئا بالناس. جاء اولا المطران مبارك راعي ابرشية بيروت المارونية. كان يرتجف حنقاً وغضباً . انه لأمر عجيب حقا؟ الموارنة يقفون الان خلف رئيس الحكومة المسلم. ان البريطانيين هم الذين ضمنوا استقلال لبنان فماذا تراهم فاعلين الان؟ انه تحد للانكليز واهانة للبنان».

«وما كاد ينتهي بسبب ضيق انفاسه، لا لأنه فرغ من الكلام، حتى كان مفتي الجمهورية يصل وكان المفتي (صاحب السماحة محمد خالد) اكثر هدوءا من المطران لكنه اعرب عن غضبه بالكلمات نفسها: من المستحيل الان رد الناس التي ستهاجم الفرنسيين بلا شك، واضاف: بل إنهم بدأوا ذلك فعلا وهناك بضعة سيارات فرنسية اشعلت فيها النار والناس ترفع الحواجز على الطرقات:

«وبعد ذلك دخلت بخطى رشيقة السيدة الحسناء (زلفاء) شمعون، حنطية مثل سنبلة قمح تلمع في الشمس، وقد توهجت عيناها الزرقاوان الجميلتان. لقد اعتقل زوجها الوزير (المزعوم مؤيدا للبريطانيين) خلال الليل على ايدي بعض السنغاليين ونقل الى مكان تجهله. ثم تدفق زوار اخرون الى ان تبين لي ان جميع اعضاء الحكومة، باستثناء اثنين، اعتقلوا كما اعتقل عدد من النواب.

«وفي غضون ذلك اخذت شاحنات ملأى بالسنغاليين تجوب الشوارع، وبدا ان هؤلاء يستمتعون بما يجري اذ كانوا يضحكون ويطلقون النار عشوائيا على المارة. وقد وقعت اصابات كما ان جنديا فرنسيا اطلق النار على صبي كان يمزق احدى ملصقات ديغول فارداه قتيلا.

«وقد اخبرني ايضا ان شوارع بيروت بدأت تمتلئ فجأة بملصقات لديغول. ورأيت هذه الملصقات بنفسي والى جانبها ملصقات اخرى تحمل صور ستالين. وكان لنا ان نستنتج ان روسيا السوفياتية تؤيد ديغول.

«... ثم وصلت انباء تقول إن عبد الحميد كرامي، الرجل الواسع الشعبية، قد اعتقل في طرابلس فابلغت لندن والقاهرة فورا ان هذا الامر سوف يثير سورية الشمالية».

هنا ينتهي النص الحرفي من كلام سبيرس. لكن لا بد من وقفة او اكثر، هل حقا كانت «روسيا السوفياتية» تدعم شارل ديغول؟ اننا بعد ثلاثين عاما سوف نرى الاعلام الاميركي يلجأ الى التهمة نفسها لكي يطعن في استقلالية ديغول وسوف تصوره الكتب الدعائية عميلا في الكي. جي. بي من دون اي تردد. لقد امضى ديغول حياته في مواجهة الحلفاء كما سنجد في فصل اخر.

لكن نعود الى صالون سبيرس. والى اللبنانيين الذين تدفقوا عليه لكي يطلبوا دعم الانكليز! هؤلاء اللبنانيون ماذا قالوا لديغول؟ فلنعد الى النصوص بحرفيتها اذن. يقول لنا ديغول في مذكراته الاتي:

«خلال الوقت الذي امضيته في بيروت اجريت اتصالات عدة كما هي التقاليد في الشرق الاوسط حيث يعتبر من القسوة وقلة اللياقة اتخاذ القرارات من غير طلب المشورة والقيام بالزيارات اللازمة. وفي قصر الصنوبر حيث كنت اقطن، استقبلت عددا من الزائرين

وقد ابلغني عدد منهم رغبتهم في ان تتخلى الدولة عن التزاماتها في بلدهم. غير ان كلا من هؤلاء عين نفسه راعيا لهذه او تلك من المصالح الخاصة. وقد اكد لي الجميع قناعتي بانه بعد بلوغهما الاستقلال فان لسورية ولبنان ما يربحانه من الوجود الفرنسي ولن يخسرا شيئا من ذلك.

«... وفي المكاتب الكثيرة التي زرتها وفي احواض السفن وورش البناء اكد الجميع انه لا بد من المحافظة عليها (العلاقات الخاصة) بصرف النظر عن النظام الذي قد يقوم في المستقبل لمعالجة العلاقة السياسية بين باريس ودمشق وبيروت».

ايضا نظل في النصوص لنأخذ من ديغول، رواية مقابلة لرواية سبيرس حول حل المجلس النيابي واعتقال حكومة بشارة الخوري يقول: «... لكن للاسباب نفسها وجدنا انفسنا مرغمين على المحافظة على التزامات معينة في المشرق نتيجة لحالة الحرب. ومن خلال نظرة شمولية الى النزاع العالمي توصلنا الى قرار بأنه بإمكان حكومتي بيروت ودمشق الانتظار قليلا قبل تسوية الشكليات الاخيرة التي لاتزال تحد من سيادة بلديهما. ولم يكن هناك شك بأنهما كانتا ستقبلان بذلك لو ان لندن لم تشجع مطالبهما وتعرض مساعدة القوات البريطانية في فرض هذه المطالب.

«وفيما كان هللو في الجزائر اقدم المجلس اللبناني على تعديل الدستور حاذفا منه جميع الفقرات التي تشير الى الانتداب، وكأنه لم يكن موجودا، واثناء عودته بطريق القاهرة ابرق من هناك الى حكومة بيروت يبلغها انه يحمل تعليمات من حكومته بفتح باب المفاوضات ويطلب تأجيل تعديل الدستور. غير ان اللبنانيين تجاهلوا رسالته. وحين عاد هللو الى بيروت، وامام هذا الاستفزاز استخدم الفيتو الرسمي في وجه القرار في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر وعلق الدستور وامر بسجن رئيس الدولة اللبنانية ورئيس المجلس وعدد من الوزراء، فيما اصبح السيد اميل اده رئيسا موقتا للجمهورية.

«... لذلك قررنا في اليوم التالي، وبعدما ابلغنا بما حدث في بيروت قررنا ان نرسل الجنرال كاترو الى هناك لكي يعيد الوضع الدستوري الى طبيعته ويكف يد هللو، وكان هذا يعني ان على كاترو، بعد اجراء مفاوضات ان يطلق سراح الخوري والصلح ووزرائهما ويعيد الخوري الى منصبه . وبعدها يعاد تشكيل الحكومة والمجلس. وبما انه لن يعود هناك مبرر لوجود مفوضنا في المشرق بعد وصول كاترو فقد استدعيناه الى الجزائر ولكن متأخرا بضعة ايام.

«غير ان البريطانيين لم يستطيعوا القبول بالمصالحة. وقد اظهرت الاحداث التي تلت ان لندن عازمة على صب الزيت على النار بحيث يبدو ما اتخذناه من خطوات في لبنان وكأنه فرض علينا من قبل الانكليز..».

نتوقف مرة اخرى.

لا لكي نقرأ في مذكرات سبيرس او في مذكرات ديغول بل في مذكرات الشيخ بشارة الخوري، وفي الجزء الثاني من «حقائق لبنانية» التي قدم لها ذلك الديبلوماسي العريق فيليب تقلا، يؤكد لنا الرئيس اللبناني الراحل ما رواه سبيرس عن ذلك العشاء مع المسيو هللو. ثم يؤكد لنا ان المطران مبارك ذهب الى سبيرس لكي يعترض على اعتقال رجال الاستقلال ولا يحدثنا عن ذهاب ابنه، الشيخ خليل، الى الوزير المفوض البريطاني لكنه يروي ان زوجة سبيرس اتصلت بزوجته تلك الليلة ودعتها الى المبيت في المفوضية البريطانية خوفا من السنغاليين! وهكذا حصل.

سوف تكون تلك الليلة، اي ليلة ١٢/١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٣ فاصل المجد في حياة بشارة الخوري ورياض الصلح. انها بالنسبة الى الاثنين، ليست مجرد فصل في مذكرات، انها الفصل الاساسي في حياة كاملة. ولذلك كان عنوان ذلك الفصل في مذكرات بشارة الخوري بكل بساطة: راشيا!

اذن يعتقل الرئيس وحكومته وبعض الوطنيين الاخرين وينقلون الى قلعة راشيا. وتوفد حكومة فرنسا الحرة الجنرال كاترو، الذي يكن له الخوري كل اعتبار لتسوية المسألة، فيطلب كاترو على وجه السرعة مقابلة سجينه. وتحت عنوان «السجان والسجين» نترك الكلام للشيخ بشارة:

«... وبعد لحظات دخل الجنرال كاترو وحيّاني بكل لياقة واحترام، واعتذر عن ازعاجي بزيارته في بيروت وعن تأخره الوجيز، ودعاني الى البهو الكبير واجلسني على «دشك» عال وجلس بجانبي، ثم قال:

«اسمح لي يافخامة الرئيس قبل كل شيء ان اعبر لك عن اسفي لما جرى، وعن سوء المعاملة التي لقيتها من المسيو هللو، ويسرني ان اخبرك ان المسيو هللو قد اقيل من وظيفته، وسيعود الى الجزائر في الوقت المناسب. والان اطلب منك ان تقص علي سلسلة الحوادث التي مرت على لبنان منذ تركي اياه في الصيف الماضي.

«قلت: تعلم ياحضرة الجنرال ان المسيو هللو قد تدخل في الانتخاب، مخالفاً وعدك الذي قطعته لي في فندق الشقيف (بحمدون) بالمقابلة الاخيرة التي جرت بيننا. وبدا تدخله سافراً مفضوحاً قاصداً اقصاء العناصر الوطنية وانا في رأسها عن المجلس ولكنه لم يفلح. وانتخبت للرئاسة كما تعرف ودعوت رياض الصلح لرئس الوزارة وكلانا يسعى الى خدمة بلاده لتحقيق امانيها بالاستقلال التام الناجز، وفقا للتعهدات التي قطعت لنا من جانب الحلفاء، ووفقا للبيان الذي اذعتموه حضرتكم بلسان لجنة التحرر الفرنسية يوم رجعتم الينا

في صيف ١٩٤١ تقودون قوى فرنسا الحرة. وقد تضمن البيان الوزاري عهدا صريحا بأن تتقدم الحكومة الى المجلس النيابي في اقرب وقت بمشروع تعديل للدستور يجعله منسجما مع مقتضيات ذلك الاستقلال..

«فقاطعني الجنرال كاترو سائلا: وما الذي جعلكم تستعجلون الامور وتستبقون رجوع المسيو هاللو من الجزائر وهو يحمل اليكم مقترحات جديدة بالقبول، وقد سبق له قبل سفره ان اجتمع اليكم والى رياض الصلح في شتورا واستمهلكم الى حين عودته فامهلتموه على ما اعلم.

«قلت: جرى ما تفضلتم به، انما امران جعلانا نشك بحسن نية المسيو هللو: كتاب صدر منه، بعد سفره، ينكر علينا حق تعديل الدستور وحدنا بمعزل عن فرنسا، وقد اجبنا عليه في حينه ولم نحرك ساكنا. اما الامر الثاني فهو صدور بيان لجنة التحرر الفرنسية في الجزائر في ٥ من تشرين الثاني/نوفمبر منكرة علينا، هي ايضا، حق التعديل انكارا باتا لا يقبل الجدل، وزاد في الموقف حرجا ان المندوبية الفرنسية اذاعت البيان على الصحف قبل ان تبعث به الى الحكومة والي، خلافا لكل عرف، الامر الذي اثبت لنا ان غايتكم هي وضع الحكومة اللبنانية امام الامر الواقع، وقطع السبل عليها، وشل عملها الدستوري. وهذا هو السبب الذي استعجل تقديم مشروع التعديل الدستوري. ان بيان لجنة التحرر قلب الامور ظهرا على عقب، وحلنا من انتظار المسيو هللو.

«قال الجنرال كاترو: اما وقد جرى ما جرى، افلا تظنون يافخامة الرئيس ان سيطرة النفوذ البريطاني اوصلتنا الى المأزق، فدفعتكم بريطانيا الى هذا الموقف واعتنقت وجهة نظركم، وهي تمطرنا كل يوم انذارات سياسية وعسكرية لاعادة الاوضاع اللبنانية الى نصابها؟ وها ان المستر كايسي وزير الدولة البريطاني المولج بشؤون الشرق قد حضر من القاهرة الى بيروت ليتولى تبليغي هذه الانذارات.

«قلت: لم تتدخل بريطانيا في طلب تعديل الدستور، ولا في اقرار هذا التعديل. فالعمل الذي قمنا به كان لبنانيا بحتا، وضمن نطاق صلاحيتنا الدستورية، دون اي تشويق من الخارج. واذا كنتم حضرتكم تلمحون الى ان رئيس الجمهورية وحكومته والمجلس يهدفون من وراء هذا كله الى اقصاء فرنسا واستبدال انتداب اخر بانتدابها. وبكلمة اصرح: انتداب انكليزي، فانتم على خطأ، نحن طلاب استقلال كامل، ولا نرضى بديلا عنه، ولا انتقاصا منه، على يد أي دولة.

«سكت الجنرال كاترو دقيقة، ثم قال: لنبحث الان امورا عملية. ان المهمة التي اوكلها اليّ الجنرال ديغول ولجنة التحرر تخولني حل الحالة الحاضرة حلا حاسما. لا انكر عليكم ان جميع اتصالاتي بالشخصيات التي اجتمعت اليها منذ وصولي الى لبنان، اثبتت الي اجماع

الناس على تقديركم واحترامكم، وعلى طلب عودتكم الى الرئاسة باقرب ما يمكن. وهذا امر مفروغ منه عندي. وقد ابلغت رأيي الى حكومة الجزائر. غير ان لي مطلبين من فخامة الرئيس: الاول يتعلق بالوزارة ، فان حكومتي ترى انه من الضروري اقالتها تعويضا من كرامتنا، والثاني يتعلق بالمجلس النيابي ونرى ايضا وجوب حله وانتخاب سواه، فهل لكم ما يقال بهذا الشأن؟

«قلت: ياحضرة الجنرال، اعلن بكل صراحة انه لا يسعني اجابة اي مطلب من المطلبين، ذلك انني رئيس دستوري. اضف الى هذا انني وافقت على كل سطر من سطور البيان الوزاري الذي نال رياض الصلح رئيس الوزارة ثقة المجلس النيابي على اساسه، والذي اقترحته على المجلس وفقا لسلطتي الرئاسية المستمدة من بنود الدستور. والمجلس عينه اقر المشروع المقترح مني برضا الحكومة ومعرفتها، فكيف يكون بوسعي، والحالة ما ذكر، ان اقيل الوزارة او احل المجلس، وانا متضامن معهما في جميع تلك التدابير؟ فخلاصة القول، ولن ازيد : اما ان نخرج جميعنا من قلعة راشيا كما ادخلناها واما ان ارجع الى الاعتقال مع رفقائي الى ان يمن الله علينا بالفرج!

«اطرق الجنرال كاترو، وفكر مليا قبل ان يستأنف الحديث ثم قال:

– اليس بامكان رياض الصلح رئيس الوزارة ان يوجه الي كتابا يبين فيه ان ما قام به من الاعمال لا يستهدف الاساءة الى فرنسا، فيكون هذا الكتاب بمثابة تلطيف لنا. وهل يصعب ان تتخذوا فخامتكم تدبيرا بارجاء دورة المجلس النيابي اربعة اشهر يخف اثناءها التوتر القائم في علائق البلدين فتمكننا هذه الفترة من تدبير الامور؟

«قلت: اما فيما يتعلق بالكتاب، فالرأي فيه لرئيس الوزارة نفسه. وفي نظري انه عمل غير مناسب، لأنه يفترض اساءة لم تخطر على بال احد منا. اما فيما يتعلق بارجاء دورة المجلس فلا اكتمك ان الامر مستحيل، فالدستور يمنح رئيس الجمهورية حق ارجاء افتتاح الدورة العادية للمجلس شهرا واحدا والدورة مفتوحة اليوم، فلا يجوز لي دستوريا تأخيرها بصورة من الصور.

رجع الجنرال الى التفكير والتأمل، ينظر الي تارة والى الارض طورا، ثم قال:

«–هل يزعجكم ان تعلموا رياض الصلح رغبتي بالاجتماع به هنا غدا مساء. فابحث معه قضية الكتاب المذكور وغيرها من الشؤون. وسأتخذ التدابير اللازمة لانتقاله من راشيا الى بيروت؟

«قلت: لا يسعني ذلك لأن «الاختلاط» ممنوع بيني وبين رياض الصلح وسائر المعتقلين فارجو ان توصل اليه الخبر بواسطة الضباط الذين رافقوني.

«فبدت على وجهه علامات التأثر وقال بحدة: ممنوع «الاختلاط»! ممنوع «الاختلاط»! ما معنى هذا التدبير الاعتباطي؟ هل انتم مجرمون! انا لا اقبل بذلك وسأعطي الاوامر القاطعة بالسماح لكم بمقابلة بعضكم بعضا، ابتداء من صباح غد الى ان يصدر الامر بالافراج عنكم جميعا.

وسكت لحظة ثم اردف: اظن ان الافراج سيقع حتما يوم الاحد في ٢١ من تشرين الثاني/نوفمبر ما لم يحدث ما ليس بالحسبان، وسأقابل فخامتكم اثر خروجكم من راشيا. ولا شك عندي في اننا سنصل الى تفاهم تام على جميع القضايا».

بالفعل تم التفاهم. لكنه تفاهم من النوع الارغامي، يربح منه لبنان الاستقلال ويخسر الفرنسيون انتدابا اساسيا بالنسبة اليهم في تلك الزرقة المتوسطية الرائعة ويحقق الانكليز فوزا.. بالنقاط على جيرانهم الالداء.

كان كاترو عسكريا وسياسيا، من النوع الممتاز كما يقول لنا الشيخ بشارة لكن سبيرس سوف يظل حائرا بين الجانب الصغير من السياسة والجانب الصغير من العسكريتاريا. ويبدو من مذكرات نقولا بسترس ان الرجل كان بين الذين عرفوا سبيرس عن قرب. ويروي لنا بسترس كيف ان الجنرال البريطاني جعله يجلس متخفيا وراء صخرة في منزله في عاليه لكي يتنصت الى ما سيقوله سبيرس من كلام لزائريه البارزين:

«وصلت الى منزل الشيخ بشارة الذي كان بانتظاري على احر من الجمر، ما ان وصلت حتى بادرني قائلا:

«لست ادري ماذا يحصل. الجنرال سبيرس يريدك باقصى سرعة. لقد اعطى تعليماته وسيدعونك تدخل.. اقرع على نافذته وسيرد عليك.

وبالفعل هذا ما حدث ففتح لي الجنرال سبيرس الباب، وهو في ثياب النوم.. واخبرني بتفاصيل الحديث مع جان هللو وقال لي إنه مصمم على استدعاء السيدين اميل اده وجورج تابت في اليوم التالي... ثم اضاف: «نقولا. اذهب واخبر الشيخ بشارة الخوري بكل هذا.. ثم عد الى هنا نهار غد حيث ستستمع الى وقائع حواري مع السيدين اده وتابت... الحديث بيننا سيدور على الشرفة وانت ستقبع خلف الصخرة. لا يمكن لأحد ان يراك في حين انك تتمكن من التقاط الحديث كلمة كلمة.

«وفي الواقع هناك صخرة جبارة امام شرفة فيللا مجيد ارسلان. وهي صخرة تحجب الرؤيا وتزعج في اوقات كثيرة. لكن هذه المرة، على الاقل، لن تزعجنا هذه الصخرة انما ستكون مفيدة.

«وفي الساعة الثامنة صباحا كنت احتل الموقع الذي حدده سبيرس خلف الصخرة

الشهيرة. الجنرال بضيافته المعهوده، طلب ان توضع امامي طاولة ومقعد ومجموعة صحف وابريق ليموناضة.. وجلست انتظر.. وما هي الا لحظات حتى وصل جورج تابت فقال له سبيرس:

«انت لم ترشح نفسك للانتخابات النيابية لن تصبح اذن نائبا، وبالتالي لا يحق لك التطلع الى رئاسة الجمهورية. انتهى الموضوع!

بعد دقائق اعلن عن وصول اميل اده. ومن دون اي تحفظ توجه اليه سفير بريطانيا العظمى قائلا:

«بالأمس جاءني السيد هللو واخبرني بتفاصيل حديثك معه. فاجبته بانني نظرا لكوني الشخص غير الصالح لتلقي هذه الاخبار، انصح بأن ينقل كلامك الى البطريرك الماروني. ما هي علاقتي بالموضوع؟ بالمقابل، وفي ما يخصني، انا اؤكد لك بأنني سأكسر الانتخابات والغيها اذا ما تم انتخابك رئيسا للجمهورية. هل هذا واضح؟ «وانتهت المقابلة بسرعة واستدعاني بعدها الجنرال سبيرس قائلا:

«تعال يا نقولا سنجلس هنا لنتحدث قليلا. «كنا جالسين قبالة البحر والرؤية تمتد مرتاحة من عاليه حتى بيروت. جلبوا لنا قهوة وليموناضة ... نرتشف وننظر الى البحر بصمت. كنا نشهد تحركات الموج مع البقع الزرقاء او الخضراء التي تنتج منها على صفحة الماء... بقع ملونة تتشابه وتندفع لتحيط ببقعة بيضاء صغيرة... قطع الجنرال سبيرس الصمت وقال:

«... سنستعيد شريط الاحداث والمرشحين. انظر امامك جيدا. تطلع الى البحر لترى تلك البقعة البيضاء الصغيرة المحيطة ببقع زرقاء او خضراء كبيرة.. هذا هو لبنان: البقعة الصغيرة اما البقع الاخرى فهي : فلسطين، الاردن ، العراق، مصر، سورية... في هذه الاماكن سيصبح نفوذنا كبيرا للغاية. انها البلدان الموضوعة تحت الرقابة البريطانية.. فاذا ما كنتم مصرين على البقاء تحت الوصاية الفرنسية مثل هذه البقعة الصغيرة.. فهذا هو شأنكم انتم ولا استطيع ان اؤثر فيكم في هذا الاختيار. ولكن ما اجد من واجبي ان اقوله هو انكم ستجدون انفسكم معزولين تماما اذا ما حصل اي نزاع عسكري بين انكلترا وفرنسا.

«صمت سبيرس قليلا ثم اضاف:

«حتى القمح فلن تحصلوا عليه لأن سورية ستتخذ موقفا متناسبا مع سياستنا . ستصبحون لوحدكم مقطوعين عن العالم.

«طبعا اذا ما كنا نريد ان نتخذ من الامواج مثالا، فان هذه العزلة كانت واضحة تماما... لم يترك لي محدثي مجال التفكير بل سارع يقول:

«لهذه الاسباب يا نقولا ارى من مصلحة لبنان ان يقف الى جانبنا، وانا اعرف ان بشارة الخوري مهيأ اكثر من غيره لهذا الاتجاه.

«صمت جديد لا يطول اذ يعاود سبيرس اطلاق احكامه القاطعة ويقول:

«لننظر الان، يا نقولا في لائحة اسماء المرشحين للرئاسة. لقد سمعت ما قلته الان لكل من جورج تابت واميل اده، لا حاجة للرجوع الى موضوعهما فترشيحهما اصبح غير ممكن. اما بالنسبة الى الفرد نقاش فانا اعتقد انه رجل جيد ولكنه واقع كثيرا تحت تأثير اليسوعيين. لذا ليس الفرد نقاش الرئيس المطلوب.

«ووقفة جديدة وجرعة ليموناضة واستكمال للتقويم:

«لنأخذ مثال ايوب تابت. فعندما اذهب الى السراي يقول لي: «اعط الاوامرللحراس ليصطفوا من اجل التحية لأنني «رجل ديموقراطي» ولكن هذا التصرف لا علاقة له بالديمقراطية . فالحراس لا يؤدون التحية لشخصي وانما للنجوم التي احملها على كتفي كجنرال. هذا واجب وهو امر معمول به في كل العالم. ثم عندما اتطرق مع ايوب تابت الى المسائل الهامة التي تتعلق بشؤون الدولة يسارع الى وضع يده على جبينه ويقول: رأسي يؤلمني!

«وانتقل سبيرس الى اسم اخر، وهو الذي يعرف مدى الصداقة القديمة التي تربطني بهذا المرشح فقال:

«بترو طراد صديقك ولكنني على الرغم من ذلك اصر على ان افهمك بأنه ساذج ! لا يعرف مثلا ان عيوننا مبثوثة في كل مكان. اذهب احيانا لزيارته لاعطيه بعض النصائح من اجل لبنان. وما ان أنهي الحديث واكون مازلت على الدرج حتى يسارع الى الاتصال بعملاء المكتب الثاني التابع للمندوب السامي ويستدعيهم لزيارته من اجل ان يخبرهم بما قلت حرفيا. قبل ان ازوره في كل مرة اعرف ان كلامي سيصل الى الفرنسيين ويؤكد لي عملائي ذلك. لهذه الاسباب لا ارى ان بترو طراد يستطيع ان يصبح رئيس دولة جادا...

انتقال جديد الى مرشح آخر واخير.

«اعرف ايضا يا نقولا انك تأتي لتدافع عن قضية الشيخ بشارة الخوري وتدعم ترشيحه، تتمنى ان تراه رئيسا للجمهورية وانا اشاطركم هذه الامنية. لكن هل يستطيع بشارة الخوري الصمود في وجه الفرنسيين؟ اخشى الا يتمكن من ذلك!

بالطبع اخذت ادافع عن الشيخ بشارة مؤكدا ان الفرنسيين لن يدعوه ابدا يقدم ما عنده، وانه رجل فريد يتمتع بحيوية فائقة وثبات نادر...

وقاطعني سبيرس ليقول:

– نعم انه سياسي ممتاز. انما عنده عائلة عديدة الافراد..!

فهمت الاشارة فاخذت اؤكد لسبيرس ان الشيخ بشارة لن يدع عائلته تؤثر فيه».

يقول لنا الشيخ بشارة في معرض التلميح الى الاخرين، وبكل اعتزاز انه براء من الدعم الفرنسي، ماليا وغيره، لكن لا شك في ان الشيخ قد نال بعض التأييد من مندوب صاحب الجلالة. اذ يقول لنا نقولا بسترس ببساطته وعلى سجيته البسترسية البيروتية المعروفة:

«وذهبت وكان الشيخ بشارة ينتظرني على نار متأججة فنقلت اليه كل الوقائع مما ادخل الى قلبه فرحا عظيما. وكان هذا الفرح يتأكد يوماً بعد يوم لاسيما وان الجنرال سبيرس كان يسخّر كل قدراته من اجل الايفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه بدعم الشيخ بشارة..

«اعرف الان ان كثيرين ممن عايشوا تلك الحقبة قد يقولون إن سبيرس لم يكن مستقرا نهائيا على دعم الشيخ بشارة. ويستندون في هذا الاعتقاد الى كلام قاله سبيرس لهللو جاء فيه: «اذا لم نتمكن من الاتفاق على ايصال بشارة الخوري الى الرئاسة فان مرشحي سيكون كميل شمعون. في الحقيقة، اقول ان سبيرس لم يكن يفكر في شمعون ابدا. كان مئة بالمئة مع الشيخ بشارة، لكنه طرح اسم شمعون للمناورة من اجل الوصول الى تأكيد وصول الشيخ بشارة، فسبيرس لا يجهل ابدا ان الفرنسيين لا يريدون ان يروا شمعون رئيسا للبلاد لأنه ينتهج بوضوح سياسة قريبة من لندن، وعندما لوح سبيرس باسم كميل شمعون انما فعل ذلك من اجل دفع الفرنسيين الى القبول بأهون المؤيدين الى بريطانيا!

قلة هم الذين ادركوا حقيقة المناورة يومها. حتى كبار الساسة فانهم انجرفوا مع التقديرات ومنهم هللو نفسه وهنري فرعون... الرئيس شمعون ايضا وايضا يجب ان يقول حتى الان «في العام ١٩٤٣ نمت ذات مساء وانا رئيس للجمهورية» بالنسبة اليّ استطيع ان اؤكد وبحزم، ان ادوارد سبيرس لم يكن ينوي ابدا التخلي عن دعم الشيخ بشارة. والدليل على ذلك ان التهديد البريطاني قد نجح فذهب الفرنسيون الى الشيخ بشارة الذي استقبلهم برفقة موسى مبارك. وفي هذا اللقاء اكد له الفرنسيون انه مرشحهم للرئاسة الاولى!

مصطفى كمال :
من حلب إلى الأناضول

كيف يمكن ان تكتب سيرة مصطفى كمال او كمال اتاتورك او الغازي كمال، او ، بكل بساطة ، «اتاتورك»، اب تركيا؟ ثمة مداخل كثيرة الى حياة الرجل الذي انقسم العرب حوله ولا يزالون، الرجل الذي انقسم حوله العالم ولايزال، والرجل الذي انقسمت حوله تركيا ولا تزال.

لكن في الشرق، بلاد الاقدار الكبيرة، تبدأ سيرة مصطفى كمال الحقيقية، وفي الشرق ايضا سوف يضع الرجل خاتمة الامبراطورية التركية ويقلص هذه المساحات العثمانية الشاسعة الى دولة عادية، نصفها في اوروبا ونصفها في آسيا. بل هي، تركيا، سوف تفقد كل شيء لكنها ستظل تملك ذلك النجاح التاريخي الذي لم يستطع ان يجردها منه احد: انها البوابة البحرية التي يمر تحت قناطرها الشرق والغرب معا.

لقد دخل مصطفى كمال، الرجل الذي سوف يصبح الاكثر اهمية بين «جنرالات الشرق»، دخل الجيش ضابطا صغيرا وهو يحلم بانتصار الامبراطورية، لكن ها هي الامبراطورية الهرمة تتكاثر عليها الحروب والثورات ويدب فيها الوهن الاقتصادي فتبدأ بالانهيار.

واذ اخذت الحرب العالمية الاولى تسير نحو ذروتها كانت تركيا تعتمد اكثر فاكثر على العامود الفقري في الامبراطورية، اي العالم العربي، من سواحل المتوسط السوري الى سواحل البحر الاحمر. لكن هنا ايضا، في قلب العالم العربي، سوف تكتب خاتمة الاستعمار التركي. وفيما الحرب العالمية تتأجج تلفت الاتراك حولهم فرأوا مكة المكرمة تشتعل والخيول العربية تصهل من دون استراحة. وفي العام ١٩١٧ فقد الاتراك بغداد فهب الزعيم التركي انور باشا يطلب المساعدة من حليفه الالماني الاول المارشال «ليمان فون

ساندرز». لكن فون ساندرز كان دقيق المعرفة باحوال المنطقة ووضع الجيش التركي، فحذر من القيام بهجوم معاكس لاستعادة بغداد. لكن القرار كان قد اتخذ. وسار الجنود الاتراك والالمان جنبا الى جنب نحو عاصمة العراق في كتائب عرفت «بجيش الصاعقة» بقيادة الجنرال فالكنهايم. وفي تلك الفترة استدعي مصطفى كمال من جبهة القفقاز وسلم قيادة احدى كتائب ذلك الجيش وكانت متمركزة قرب حلب.

ويشاء سوء حظ الاتراك والالمان معا ان تدب الفوضى بين الفريقين. فقد تذمر قائد البعثة الالمانية من المعاملة التي لقيها من الاتراك. اما مصطفى كمال الذي انشأ علاقة ممتازة مع ليمان فون ساندرز فانه سرعان ما تشاجر مع فالكنهايم، واذ زاد الخلاف بين القادة العسكريين عرف اتاتورك ان الجيش مقبل على كارثة، كما عرف شيئا آخر: انه الرجل الوحيد القادر على التمرد على هذا الوضع حتى لو ادى ذلك الى احالته الى المحاكمة العسكرية! وهكذا استقال من قيادة حلب ورفض المشاركة في «المغامرة». غير ان القيادة العليا لم تلجأ الى المحاكمة بل امرت بدلا من ذلك باعادته الى جبهة القفقاز. وحاول ضباطه اقناعه بالعدول عن موقفه العنيد لكن دون جدوى. وخشيت القيادة السياسية في اسطنبول ان تكون هناك مضاعفات كثيرة لما حدث فقررت ان تغلق المسألة باعطاء اتاتورك اجازة مرضية غير محدودة.

وهكذا وجد العسكري المتمرد نفسه في حلب من دون اي مال على الاطلاق. وصحيح انه كان يملك مجموعة من الخيول العربية الرائعة لكن من كانت لديه القدرة على شراء مثل هذه الخيول في تلك الايام. وراح مصطفى كمال، الفارغ الجيوب، المليء باليأس.. و.. الاحلام يفكر في حل ما. وفجأة هب الى مساعدته، لسبب ما، صديقه القديم جمال باشا فاعطاه مبلغ خمسة آلاف ليرة ثمنا لعشرة خيول! لقد اصبح باستطاعته الان ان يعود الى اسطنبول.

في المدينة القلقة لم يلق مصطفى كمال الاستقبال الذي كان يحلم به بل الاستقبال الذي كان يخشاه. ولعل اكثر الناس غضبا عليه كانت زبيدة هانم التي اساءها ان يتمرد ابنها على الجميع وان يحول كل رؤسائه الى اعداء وان يدمر حياته العسكرية. واستغلت زينب هانم المناسبة لكي تؤنبه كما كانت تفعل يوم كان طفلا. ولم يستطع طبعا ان يجيب ولا ان يدافع عن نفسه. فقد تمرد بادئ الامر على السلطان وها هو الان يتمرد على الهيئة الحربية العليا، لا. زبيدة هانم لا تتحمل هذا كله.

غير ان مصطفى كمال كان دائما اكثر سعادة حين يكون وحيدا. فقد كانت محيطات وبحار تفصله عن افكار امه. وعندما حاولت بقية العائلة ان تفرض عليه ارادتها ايضا خطر له انه لا بد من وضع حد لكل هذه الامور، فالرجل كان قد اتخذ قراره الكبير ولن يعود

عن الطريق التي رسمها لنفسه. وبما انه لم يكن يريد ان يؤذي شعور امه بمناقضتها فقد قرر ان الحل الافضل هو ان يترك البيت. وهكذا انتقل الى غرفة في احد الفنادق وراح يتأمل في مصيره... وفي مصير تركيا! وفي غضون ذلك حدث ما توقعه هو وليمان فون ساندرز اذ اخفقت الحملة لاستعادة بغداد: المناخ الصحراوي الصعب والاهمال الشديد لخطوط المواصلات وصعوبة وصول المؤن... هدمت كل شيء. ومرة اخرى سقطت ارواح كان في الامكان تجنب سقوطها ومرة اخرى تلقّى الاتراك وحلفاؤهم هزيمة كانوا في غنى عنها.

وفي خريف ١٩١٧ استعاد الانكليز المبادرة الهجومية في فلسطين. ودارت حول غزة معركة طاحنة انتهت بهزيمة الانكليز (راجع الفصل عن اللنبي) غير ان الانهيار خلف الجبهة التركية كان يزداد سوءاً: لقد انضمت فلسطين وسورية الى الثورة العربية.

حل ربيع ١٩١٨!

وفي اسطنبول صدرت الاوامر الى مصطفى كمال لكي ينضم الى حاشية وريث العرش الذي كان على وشك القيام بزيارة الى المقر الالماني الامبراطوري، وشعر مصطفى كمال بفرح داخلي شديد: انها الفرحة المثلى لكي يتعرف عن قرب الى السلطان المقبل! لكن اللقاء الاول بين الامير محمد وحيد الدين ومصطفى كمال لم يكن وديا تماما. غير انه ما ان قطع القطار مسافة قصيرة واصبحت اسطنبول بعيدة خلفهما حتى خلع الامير قناعه وتحول الرجل الناعس العابس الى رجل مليء بالحيوية. ولم تمض دقائق على المحادثة بين الرجلين حتى كان مصطفى كمال يكتشف انه امام واحد من اكثر الناس ذكاء. اما الامير نفسه فشعر ايضا انه امام رجل مقبل على دور كبير فراح يعامله بكل كياسة واحترام.

هل كان الاثنان يعرفان، وهما يجلسان في المقصورة وجها لوجه، انهما سوف يصبحان ذات يوم من الد الاعداء؟ هل كان الامير وحيد الدين يعرف ان مصطفى كمال نفسه سوف يطرده من بلاده ذات يوم متهما بالخيانة؟

كان مصطفى كمال في تلك المرحلة قد فقد كل امل بالنصر. وكان قد اقتنع انه لم يعد بامكان المانيا ان تقدم لتركيا اي مساعدة مجدية لأنها سوف تنهمك في حل مشاكلها الخاصة. وعندما وصل الموكب الى المقر الالماني في «سبا» كان الجو مكهربا منذ البداية. فالقيصر الالماني تذمر بوضوح من كثرة الاسئلة والشكوك التي طرحها الجنرال التركي مصطفى كمال وزاد من تضايقه شعوره بأن هذا الجنرال قد ترك تأثيرا كبيرا في ولي العهد وزرع في نفسه الشكوك ذاتها.

كان على مصطفى كمال ان يختار بين امرين: اما ان يواجه واقعا مريرا وهو ان الامبراطورية تحولت الى خرائب واما ... ان يتعامى عن الامر، لكنه لم يكن من النوع

الذي يستطيع ان يتجاهل ما يحدث حوله. وها هو يتيقن الان ان طموحات انور باشا السياسية قد افقدت تركيا كل شيء، بما في ذلك خيرة الرجال.

كان هناك امل واحد الان، وهو ان تحقق المانيا انتصارا كليا مطلقا على الجبهة الغربية. وكان انور باشا واثقا من امكانية مثل هذا الانتصار اما مصطفى كمال فلا. وهكذا راح يطرح على القيصر اسئلة دقيقة ومزعجة... لكنها بقيت دون جواب.. وشعر بالحاجة الى رجل يوحي بالثقة فوجد قربه المارشال هندنبورغ! وبعد العشاء في تلك الليلة نظر اتاتورك الى الماريشال وقال له «انك تستعد يا سيدي المارشال للقيام بهجوم جديد فهل تستطيع ان تقول لي ما هو الهدف الذي يمكن ان تحققه منه؟».

ونظر المارشال الى الجنرال الشاب نظرة قال فيها كل شيء لكن في الحقيقة من دون ان يتفوه بكلمة، بل بدلا من ذلك مد يده الى الطاولة المجاورة وقال «هل لك بسيجار ياصاحب السعادة ام انك تفضل السيجارة»؟

ومد مصطفى كمال يده الى علبة السجائر ثم صمت. لقد عرف انه لن يستطيع الحصول على المعلومات التي يريدها!

كان الارهاق العقلي قد بدأ يؤثر صحيا في مصطفى كمال وقد اصيب بعارض في الكلى دخل على اثره الى المستشفى في فيينا ثم ذهب لمزيد من المعالجة في كارلزباد.

كان ذلك في تموز/يوليو ١٩١٨

وفي هذه الفترة مات السلطان محمد الخامس واصبح وحيد الدين سيد الامبراطورية، وعمد السلطان الجديد فورا الى تقليص صلاحيات انور باشا. وسارع مصطفى كمال للعودة الى اسطنبول حيث قابل السلطان الجديد وحثه بكل حماس على اتباع سياسة جديدة. لكن الفارق كان كبيرا بين هدوء السلطان وثورية مصطفى كمال. هذا يريد تحقيق الاشياء بالوسائل الديبلوماسية وذاك يريد كل شيء ان يتحقق الان. وراح مصطفى كمال يتدخل في شؤون الوزارات كل بمفردها حتى ضاق به الجميع واتخذت اسطنبول قرارا جماعيا شبه سري بابعاده عن المدينة بأي ثمن.

ورأى انور باشا الفرصة سانحة مرة اخرى للتخلص من مصطفى كمال: اذن، يرسله الى جبهة فلسطين حيث تبدلت الامور هناك بصورة جذرية. فقد وصل الى المنطقة احد اشهر قادة الانكليز في ذلك الوقت، الجنرال اللنبي، واخذ يعد العدة للقيام بحملة ضخمة، بعدما وضع في تصرفه كل ما يريد من رجال وعتاد. اما الجبهة التركية فكانت هزيلة وقائمة على الورق فقط. فالحقيقة انها كانت تتألف فقط من فرق ضربها المرض والمجاعة ودب فيها اليأس والقنوط، لأن القوات التركية رمت بثقلها الحقيقي في بلاد القفقاز من

اجل احتلال تركستان وايران والهند وتجاهلت ان الانكليز كانوا يعدون العدة في جنوب فلسطين من اجل توجيه الضربة القاضية في الوقت المناسب.

وحتى في كانون الاول/ديسمبر من العام السابق، حين حصلت تلك اللحظة التاريخية وسقطت القدس في يد اللنبي لم يبد ان انور باشا اعار المسألة الكثير مما تستحق من اهتمام او حتى من حزن!

وكان حاكم سورية وفلسطين في ذلك الوقت صديق مصطفى كمال الاقرب، اي جمال باشا (الجزار) الذي كان يعيش في دمشق في قصر من الرخام ويعقد المجالس حوله مثل ملك وكان يتذمر كلما دعت الضرورة لأن يقوم برحلة الى «الجبهة». والواقع ان الزيارات الى الجبهة اخذت تصبح اكثر خطورة. وذات مرة توقف قطار جمال باشا فجأة في محطة صغيرة في قلب الصحراء ونزل جنوده فورا لكي يردوا الثوار العرب المهاجمين، لكن الجزار ايقن تماما انذاك مدى التدهور الحاصل على الارض.

واكثر من ذلك فان جمال باشا كان يعرف انه من المستحيل تحقيق اي انتصار بمثل هذا الجيش المريض والذي اصيب اكثر افراده بالسل. وهكذا الغى زيارته الى الجبهة وعاد الى دمشق . الى بلاطه!

في تلك المرحلة، كان مصطفى كمال في فيينا، لكن طيفه كان يؤرق انور باشا، نائب القائد العام. واراد انور باشا «التخلص» من غريمه الاخر ليمان فون ساندرز فعرض عليه قيادة الجبهة فرفض الجنرال الالماني. وعندها ابرق انور باشا الى القيصر يطلعه على الامر فارسل هذا بدوره امرا عسكريا الى فون ساندرز بقبول القيادة. عندها لم يسع الجنرال الا القبول وبدأ فورا الاعداد، ما استطاع، لمواجهة احدى اكبر الكوارث العسكرية في التاريخ.

كان العسكر الاتراك يفرون بالمئات. وكان من المستحيل احيانا كثيرة العثور على عتاد او مؤن. لكن على الرغم من كل شيء استطاع ليمان فون ساندرز ان يصد هجمات الانكليز الذين كانوا يفوقونه عددا بعشرة اضعاف بل وان يرغمهم ذات مرة على الانسحاب حتى القدس. وهكذا اضطر اللنبي الى ان يطلب من قيادته المزيد من الرجال والطائرات والدبابات والمصفحات وبدأ في ١٩ ايلول/سبتمبر الهجوم التالي.

ورأى ليمان فون ساندرز نفسه مرغما على الانتظار من دون حراك. وها هو انور باشا يخلف بوعده مرة اخرى فلا يرسل اليه مؤنا غذائية او عتادا او جنودا اضافيين او ادوية او اطباء. وقد عزلت القوات التركية في سورية تماما عن بقية العالم وتركت تدافع عن نفسها ما تستطيع ضد الجنود الانكليز والثوار العرب.

كانت ظروف القتال مرعبة بالنسبة الى الاتراك. اذ بالاضافة الى كل ما ذكرنا فقد كان

مستحيلا عليهم نقل الاوامر من فرقة الى اخرى بسبب معاداة المواطنين لهم. وكان حاملو الاوامر والعداؤون يختفون دون اثر في الكمائن التي ينصبها لهم العرب. وكانت خطوط الهاتف تقطع والجسور تدمر بعد ساعات من اصلاحها.

لذلك كان لا بد من قائد جديد للجيش السابع. وكان مصطفى كمال قد عاد انذاك لتوه الى اسطنبول وبدأ يثير اعصاب الوزراء. ووجد انور باشا الفرصة مناسبة فاصدر مرسوما بتعيين مصطفى كمال قائدا للجيش السابع يتلقى اوامره من السلطان مباشرة. وعندما دخل مصطفى كمال الى صالة الانتظار في مكتب السلطان رأى انور باشا يبتسم بسخرية فقال له «اهنئك يا صديقي. لقد رتبت كل شيء كما تشاء».

عندما وصل مصطفى كمال الى سورية ورأى حالة «الجيش» السابع اصيب باول انهيار عصبي في حياته! وراح، من فراشه، يصدر الاوامر الى هذه البقايا الانسانية التي كانت تشكل ذات يوم جيشا شجاعا. وساءت الامور اكثر عندما وصلت «التعزيزات» التي ارسلها انور من القفقاز وكانت عبارة عن صبية في الخامسة عشرة من العمر لا يفرقون بين الجندية واللهو.

وعشية الهجوم الكبير الذي كان اللنبي ينوي القيام به نهض مصطفى كمال من فراشه. لكن انور باشا سحب فورا «فرقة البنادق» التي كانت آخر فرقة يعتمد عليها ليمان فون ساندرز الذي كان انذاك في الناصرة يفاخر بأنه لايزال يملك قواه العقلية.

في ١٩ ايلول/سبتمبر ١٩١٨ كان وادي الاردن مسرحا لأكثر المعارك دموية وضحايا. فقد نزل الانكليز بكل قواهم على بقايا الجيش التركي، فيما فرت فرق بكاملها دون ان يدري احد متى والى اين. وانقطع الاتصال بين فون ساندرز وبين الاخرين، وكان العداؤون الاتراك الذين يحملون الاوامر السرية يسقطون الواحد بعد الاخر بايدي الثوار العرب.

حتى خطوط التراجع سدت كلها ولم يبق هناك سوى طريق واحدة عبر وادي الاسكندرون، فراحت القوات التركية تتدافع عبر صخوره وطرقاته الوعرة، تدفعها فكرة واحدة: الخروج من الجحيم والاعداد لمعركة دمشق.

غير ان اللنبي لم يكن يريد للجيش التركي في فلسطين اي شيء، حتى الفرار، وهكذا راح يقصف القوات المتعبة والمصابة من الجو. وسرعان ما تجمعت فوق الجنود المنسحبين اسراب من الطائرات التي راحت تئز وتقصف فتتكوم تحتها الدماء في الوادي الضيق. لم يكن هناك مفر من تلك المذبحة التي استمرت اربع ساعات. فقد كان كل سرب يفرغ حمولته من القنابل ثم يعود ليتزود بحمولة اخرى فيما سرب آخر يفرغ حمولته بدوره.

ويصف الكاتب الالماني هانز فيرومبغن ذلك المشهد بقوله: «... وشيئا فشيئا عاد الهدوء

يسيطر في الجو وعلى الارض، فقد اختفى الطيارون اخيرا لتحل محلهم النسور التي اخذت تحوم فوق الممر ثم تنقض على الجثث. لقد انجز رجال اللنبي مهمتهم! الانتقام الرهيب من مجزرة غاليبولي».

وفي غضون ذلك كان الكولونيل لورانس (لورانس العرب) ومن معه من الرجال يتفقد بقايا المعارك وهو يبتسم. لكنه لم يستطع الا ان يتوقف باحترام امام بقايا «فيلق آسيا» الالماني. وقد كتب في مذكراته بعد ذلك «لقد كانوا هناك، على بعد الفي ميل من وطنهم، ومن دون امل في ارض غريبة بعيدة وفي حالة تحطم اكثر الاعصاب قوة. وعلى الرغم من ذلك بقيت وحداتهم صامدة ثابتة تشق طريقها بهدوء وصمت عبر بحار من العرب والاتراك والجنود يرفعون رؤوسهم الى اعلى. وكانوا اذا ما هوجموا توقفوا واتخذوا مواقع لانفسهم وردوا على النار. لم يكن هناك استعجال. ولا صراخ ولا تردد. كانوا رائعين».

عند حدود سورية الشمالية، اوقف مصطفى كمال تراجع الزمر العسكرية المشتتة، واعاد تشكيلها في مواقع قرب حلب. واستطاع الرجل بقوته وحيويته ان يعيد الحياة والنظام الى الجيش المهزوم وركزه في موضع الدفاع عن المدينة.

لكن حلب نفسها كانت في حالة من الثورة والغليان ضد الاتراك ولذا كان عليه ان يسحب خطوط الجبهة اكثر الى الوراء فحددها عند سلسلة الجبال على حدود الاناضول. واصدر امرا يوميا قال فيها: ان العدو لن يتخطى هذا الخط.

غير انه في غضون ذلك وصلت اوامر عليا من اسطنبول تقول: ارموا السلاح! ذلك ان بلغاريا كانت قد استسلمت للحلفاء الغربيين. وكان الفرنسيون يتقدمون من مقدونيا نحو اسطنبول وقد اصبحوا على مسيرة ايام منها!

لكن هذا الامر لم يرق للبريطانيين كما يقول لنا فرومبغن: هل من الممكن للانكليز ان يتصوروا الفرنسيين وقد سيطروا على مضائق الدردنيل؟ واصدر الانكليز الاوامر الى اسطولهم قرب الجزر اليونانية بالاستعداد للابحار. اما انور باشا فقرر ان يضع كل اوراقه في سلة واحدة، وهكذا جمع ما تبقى من وحدات ووضعها في مقاومة الزحف الفرنسي. «لكنه فعل ذلك متأخرا فقد كانت الاصوات تتعالى من كل مكان في اسطنبول مطالبة بالاستسلام وبصورة مفاجئة ايضا خرج السلطان وحيد الدين عن تحفظه لكي يتسلم بنفسه زمام الامور. وكان اول ما فعله هو المباشرة في اعتقال كل من وقعت عليه يداه من رجال «تركيا الفتاة». وكان اول الهاربين انور باشا الذي نهبت سيارته الحمراء المكشوفة شوارع اسطنبول نهبا في الطريق الى ... المانيا! واقام السلطان محمد السادس وحيد الدين حكما ديكتاتوريا حديديا في البلاد.

وذات يوم تلقى السلطان برقية مطولة من الجنرال مصطفى كمال باشا، وفي البرقية اقتراحات كثيرة بينها اقتراح بتأليف حكومة جديدة يكون هو – مصطفى كمال باشا – وزيرا للحربية! وشعر وحيد الدين في قرارة نفسه انه ليس هناك من هو افضل من مصطفى كمال لمثل هذا المنصب لكن في الوقت نفسه كان يعرف ان مثل هذا القرار، في مثل هذا الوقت، لن يكون قرارا حكيما، فهو من ناحية يطلب من الانكليز المهادنة والسلام ومن ناحية اخرى يعرف انهم يكرهون مصطفى كمال مثل السم خصوصا ان اسمه مرتبط بهزيمتهم في غاليبولي.

لا. لن يعينه وزيرا للحربية. لكن في الوقت نفسه لن يقول له ذلك دفعة واحدة، بل سوف يستخدم السلطان كالعادة، حنكته في معالجة الموضوع، اذن، لا وزارة لكن ايضا لن يخرج مصطفى كمال خالي اليدين من لدن السلطان ولذا سوف يعينه قائدا لجيش سورية كله خلفا للمارشال ليمان فون ساندرز.

بعد ايام تمت عملية التسلم والتسليم في اخنة، في قلب الاناضول، وقال فون ساندرز وهو يؤدي التحية العسكرية «انني اجد عزاء واحدا في سوء حظي وهو انك الرجل الذي سيخلفني». ومضى القطار بطيئا بالقائد الالماني فيما ظل مصطفى كمال وحيدا مع نفسه يتساءل: ما هي الخطوة التالية؟

***

ذلك النهار سمعت اصوات الابواق الفرنسية والجنود يعبرون «القرن الذهبي» على ذلك الجسر الضيق بين اسطنبول «وغالاتا» و«بيرا». وكاد جسر «غالاتا» الشهير ينوء تحت حمل الكتائب الفرنسية الثقيلة. والحقيقة ان الانكليز تدبروا الامر بحيث لا يدخل الفرنسيون الى المدينة «كفاتحين» لكنهم دخلوها كمنتصرين في اي حال وقد خلع الفرنسيون بزاتهم الرثة خلفهم في مقدونيا وها هم يصلون الى مدينة العجائب في بزات زرقاء فاهية، يشعرون بالزهو فوق هذا الجسر الذي عبرت عليه الوف الناس والخلائق منذ زمن طويل. وكانت منطقة الجسر هي الوجه الشعبي للمدينة: هناك يتجمع التجار الصغار من ارمن واكراد واتراك ويونانيين وتزدحم العباءات النسائية السوداء وتعلو الطرابيش الرفيعة ويكثر قارئو البخت والحواة والدراويش!

لكن خلال الحرب كان لجسر غالاتا صورة اخرى، صورة السيارات المسرعة تحمل ضباط الحرب والمسؤولين، اما الان فالصورة القديمة اخذت تعود، مضافا اليها الضيوف الجدد: الجنود الفرنسيون! ولم ينس التجار ان هؤلاء امضوا اربع سنوات في القتال، بعيدين عن كل شيء.

واتجهت طوابير الفرنسيين نحو غالاتا وبيرا. وفجأة انتصبت امامها اقواس النصر وعلت الزينة جميع الشرفات وارتفعت هتافات تقول: فيف لافرانس. فلتحيا فرنسا.

وعند كل زاوية استقبل الفرنسيون بحماس وعطف. ولم يكن قائد الحملة الجنرال فرنشيه داسبراي يحلم بمثل هذا الاستقبال ربما حتى في باريس. لكن على الجانب الاخر من جسر غالاتا، كانت الشوارع فارغة والمخازن مغلقة. حتى النوافير في ساحات المساجد انضمت الى الصمت فجفت اسطنبول من دون مياه.

واختفى من امام المنازل الشرقية القديمة اولئك الحرفيون الماهرون ولم يبق اثر لصانعي الفخار وحائكي السجاد والخياطين الذين جعلوا من الشوارع طوال مئات السنين مخازن لهم. لم يكن هناك احد. لم يكونوا امام الجدران وورائها. حتى «البازار» ذلك السوق الكبير كان صامتا بمخازنه التي تزيد على ثلاثة الاف وشوارعه التي تزيد على الثلاثين وحيث في الايام العادية تموج مئات البشر ودخان النراجيل يغطي الاجواء.

كان كل شيء صامتا.

وفي صمت ايضا كان جامع ايا صوفيا يرتفع فوق رؤوس المنازل الممتدة حتى المياه، وفيما كانت «بيرا» تشع بالضوء سقطت اسطنبول في الظلمة، ومن وراء نوافذ القصور الفخمة كان يمكن رؤية ظلال الراقصين والراقصات احتفالا «بالمحررين» الجدد وكانت تسمع اخر الانغام الاتية من باريس. اما الميناء نفسها فكانت هادئة تعج بالسفن الانكليزية الراسية في البوسفور.

كان الجو جو مفاوضات. وعلى جسر «غالاتا» وقف جنديان تركيان يتحدثان وهما ينظران الى المياه تحتهما. وقال الاول: «هل سمعت شيئا حتى الان عن المفاوضات؟ عن السلام؟».

واجاب الاخر «ان لدى المنتصر الكثير من الوقت ياصديقي. وقبل اي شيء يجب ان يخنقوا المانيا وبعدها يأتي دورنا».

– ماذا حدث «لفيلق آسيا» الالماني؟ اين هو ليمان فون ساندرز؟»

* «انهم يطلبون استسلام الالمان»

– «تلك سوف تكون القشة الاخيرة».

* «فليفعلوا بنا ما يشاؤون لكن ليرفعوا ايديهم عن ضيوفنا ورفاقنا في السلاح. نحن لسنا اوغادا. لقد قيل لي إن المارشال ليمان في كاديكوي وان الوحدات الالمانية تتشكل هناك».

– «ترى هل ذهب كل شيء سدى؟ هل هكذا ذهبت كل هذه الدماء التي اهرقت»؟

* «ماذا حدث للرجال الذين أوصلونا الى هذه الحالة. الرجال الذين كنا نظن انهم عظماء».

– «لقد هربوا جميعا. وقد فر انور ورفعت الى المانيا وحوكما هناك وحكما بالاعدام ارضاء للانكليز».

* «واين هو مصطفى كمال ؟»

– انك اذا ذهبت الى بلدة شيشلي تجد هناك بيتا ريفيا صغيرا. وتلقى في استقبالك جنرال غير عامل، انسان عادي، فرد عادي لا يريده احد. ان مصطفى كمال من اولئك الرجال الذين نفضل ان نخبئهم لأنهم هزموا الانكليز. لا ياصديقي اسطنبول ليست افضل مكان للجندي».

* انهم بحاجة الى عسكر في جنوب روسيا. ان رانغلر ينوي القيام بحملة ضد البلاشفة!

– «هل تعني ان نبيع انفسنا كمرتزقة؟

* «طبعا لا. لكن لم يعد لنا مكان هنا. ان البلاد كلها مليئة بالاعداء».

– «هس. ان رغبة صاحب الجلالة هي ان نسمي الانكليز اصدقاءنا».

* «لم يعد هناك ما نستطيع ان نفعله. لقد انتهت الامبراطورية العثمانية ودمرت وقريبا سوف ينقرض العنصر العثماني من الجوع في جبال الاناضول».

على مسافة غير بعيدة من الجسر وفي احدى القاعات الفخمة من قصر «سيراغليو»، كان رجل طويل نحيل القامة يعتمر طربوشا داكنا، هو الداماد فريد صهر السلطان. وكان الداماد يتحدث والسلطان يتظاهر بأنه لا يسمع. واخيرا قال له فريد باشا: «وفي النهاية احب ان ابلغك ان جميع المرافئ في آسيا الصغرى وعلى البحر الاسود وفي المتوسط قد حاصرها الحلفاء واستولوا عليها. وبالاضافة الى ذلك فان محطات السكك الحديدية في الاناضول قد احتلت، وان صاحب السمو الوزير الكبير عزت باشا يرى في ذلك خرقا لشروط الهدنة».

ورشق السلطان الداماد بنظرة سامة وقال «ان عزت باشا سوف يستقيل. انه لم يعد يتمتع بثقتنا وانني آمل في تعيين صهري العزيز مكانه في وقت قريب».

وانحنى الداماد فريد طائعا ثم اكمل: «لكن هناك ايضا مسألة استسلام القوات الالمانية يا صاحب الجلالة».

وقفز السلطان من مقعده: «ليس هناك قوة على وجه الارض تستطيع ان تفرض علينا ان نخرق اصول الضيافة».

وقال الداماد «لكن المفوضين السامين يصرون على ذلك».

فعاد السلطان يقول : «اياك ان تتفوه بكلمة واحدة حول هذا الموضوع بعد الان».

ونظر وحيد الدين الى النقوش الذهبية حوله وفي المساند الدمشقية التي يتكئ عليها ثم قال للداماد: «ان العالم كله يتكسر والتيجان تتدحرج. وها نحن نفقد شبه الجزيرة العربية وسورية وهما اكبر من نصف الامبراطورية. الخزنات فارغة والديون تتراكم ونحن نواجه مستقبلا مجهولا. ان ثمة شيئا واحدا يمكن ان ينقذ تاج بني عثمان هو نوايا الانكليز الحسنة.

وبدا ان الداماد فريد قد شعر بالانتعاش لدى سماعه هذا الكلام.

«ان انكلترا ذات المقام السامي دولة ذات قلب كبير. واذا ما اظهرنا نوايا حسنة من جانبنا فان الانكليز سوف يحسنون معاملتنا. وهم يعرفون في لندن ان اللوم لا يقع علينا في المآسي الاخيرة». لكن السلطان كان اكثر حزما «لن تعلو ارادة فوق ارادتنا. واذا قدر لاسطنبول ان تصبح غابة من المشانق فليكن ذلك لأن اصدقاءنا الانكليز سيعرفون انذاك اننا جديون وسوف يكون من المستحسن ان ينضم خدمنا (ري يانا) الى جمعية اصدقاء انكلترا. اننا واقعون في ايدي المنتصرين. وان اي مواطن يستفزهم هو خائن ومتمرد وعدو للخليفة – السلطان.

ومضى السلطان يقول وهو يعد حبات سبحته «حافظوا على العرش. حافظوا على العرش».

***

... لكن كان هناك من بدأ يستعد للاستيلاء على ذلك العرش. وكان ثمة اربعة رجال يحيطون بمصطفى كمال مثل ظله: «الاول عقيد مرهوب الجانب يدعى عارف. والثاني العقيد «عزت» وكان معه في سورية، والرابع هو فوزي باشا رئيس الاركان واحد اشهر ضباط الجيش.

وكان الاربعة يجتمعون كل ليلة تقريبا في منزل مصطفى كمال في «شيشلي» حيث يتحدثون في كل شيء... ولا يسلم من السنتهم احد. وذات ليلة فيما هم يخرجون من منزل مصطفى كمال الى شوارع المدينة الخالية قال العقيد عارف – وهو ظل اتاتورك – للجنرال الذي كان يسير صامتا «انك تخبئ في نفسك شيئا ما. وانك تضع متعمدا قناعا من اللامبالاة لكننا جميعا نعرف ذلك ونحاول ان نحزر ماذا يدور في خلدك».

ان اصدقاء السلطان يقولون انك منهم، واعداؤه يقولون انك لهم. واولئك الذين يريدون الامن والسلام ينتظرون منك ان تتحرك لكي تستولي على السلطة، والاخرون الذين لم يعودوا يطيقون ذرعا من دون انقلاب يحلفون هم ايضا باسم مصطفى كمال. وانا اقول إنهم جميعا اغبياء لأن الحقيقة هي انك لا تنتمي الى احد منهم وليس هناك من يعرف حقيقة نواياك. لكن ثمة شيئا واضحا بالنسبة الي وهو انك لن تترك الامور على الحال التي هي فيها اليوم».

ورد مصطفى كمال قائلا: كيف هي عائشة هذه الايام؟

وتظاهر العقيد عارف بأنه لم يسمع ومضى يقول في صوت هادئ «الى متى ستستمر الامور على ما هي عليه. ان علينا القيام بعمل ما، ان لم يكن ضد الحكومة فضد الاجانب. وثمة كثيرون سوف يروق لهم ان يقطعوا حناجر جيش الاحتلال كله وان يشنقوا بعض اصدقائهم في قصر يلدز على ان يرموا خدم هؤلاء، وفقا للتقاليد، في غياهب البوسفور. ويجب ان نفعل شيئا ما. دعنا نشعر مرة اخرى اننا عسكريون. اننا يجب ان نستولي على السلطة ذات يوم، فهل يطيب لك ان يقال اننا تركنا الفرصة تمر».

قطع الاثنان مسافة قصيرة ثم عادا الى فيللا الجنرال. وفتح مصطفى كمال الباب وقال لعارف: «ادخل».. وما ان اصبحا في الردهة حتى راح مصطفى كمال يقول «إن اقامة امبراطورية تضم عدة دول لعمل عظيم، لكن لا يمكن لدولة ان تكون قوية حين تكون مؤلفة من عدة شعوب متضاربة المصالح».

بعدها سوف يكمل مصطفى كمال جديا تلك الطريق الطويلة الى ذروة السلطة: ليس فقط للقيام «بانقلاب» كما نصحه العقيد عارف بل من اجل تغيير وجه تركيا كله، ولعل قدر تركيا، او قدر الشرق، ان يأتي التغيير من الرياح التي حملها مصطفى كمال معه من سورية ومن سهول «رياق» في البقاع اللبناني.

كان مصطفى كمال، مثل الاسكندر الكبير، مقدونيا، لكنه بعكس الاسكندر يتحدر من عائلة متوسطة الحال، اذ كان والده موظفا في الجمارك التركية هناك. وقد ذهب الفتى الوسيم الى المدرسة العسكرية باكرا وهو في الثانية عشرة من العمر قائلا لأمه، التي سيكون لها تأثير كبير في تكوينه «لقد ولدت جنديا وسوف اموت كجندي»، مع انه مات كرجل دولة.

ومنذ ايام سالونيكا في الحقيقة بدأت مسيرة الرجل الى السلطة حين شكل هو ومجموعة من الضباط (بينهم انور باشا) لجنة عسكرية ارغمت السلطان عبد الحميد على اعادة العمل بالدستور الذي ظل معلقا نحو ثلاثين عاما.

– ها هو الان يؤلف، مع مجموعة اخرى من الضباط، الهيئة التي ستقاوم شروط الهدنة والخطط التي وضعها الحلفاء لاذلال تركيا وتقسيمها. ولم يكن هناك افضل من بلاد الاناضول مسرحا لهذه النواة، حيث اختمرت بدايات ريح التمرد.

لكن كيف يمكن لمصطفى كمال الوصول الى الاناضول؟

الحظ يلعب دوره مرة اخرى! فقد قرر الحلفاء المنتصرون انه من اجل اخماد شعلة التمرد في الاناضول لا بد من الاستعانة بضابط تركي. ولا بد لمثل هذا الضابط ان يكون شابا. ولا بد اذن ان يكون مصطفى كمال نفسه. وغادر مصطفى كمال اسطنبول الى الاناضول وهو يشعر «مثل عصفور فتحت ابواب قفصه» . وقبل ان يبحر بقليل ابلغ ان قوة يونانية قد احتلت منطقة «سميرنا» بناء لالحاح المجلس الاعلى المنبثق عن مؤتمر السلام الدولي في باريس. ساعد ذلك اكثر على اثارة حمية الاتراك. واخيرا رست سفينته في مدينة «سمسون» على ساحل البحر الاسود في ١٩ ايار/مايو ١٩١٩، وما ان وطأت قدماه الارض حتى كانت الثورة «الكمالية» تنطلق.

فقد وقع الكماليون «اعلان الاستقلال» في جبال اماسيا. وعقد مؤتمر وطني اخر في «اريزوم» عاصمة شرق تركيا حيث تم وضع ميثاق وطني يصر على الحفاظ على «حدود تركيا الامنية» الحالية ولو بالقوة. واعقب ذلك ايضا تأليف «لجنة تمثيلية» اصبحت في الواقع اول حكومة ثورية. اذ باسم هذه اللجنة اعلن مصطفى كمال قطع العلاقات مع حكومة السلطان التي ما لبثت ان استقالت بعد تردد وجيز. وادى ذلك الى انتخابات جديدة فاز خلالها الكماليون باكثرية المجلس، لكن هذا البرلمان لم يعش اكثر من شهرين حين اقتحمته قوات الحلفاء وامرت بحله. حينذاك اقام مصطفى كمال برلمانه الخاص فورا في انقرة، واسماه الجمعية الوطنية العليا التي اصبحت برئاسته مصدر السلطة السياسية العليا في تحرير تركيا.

ومرة اخرى لعبت «العسكرية» دورها في حياة تركيا. فقد شن السلطان بمعاونة جيش من اللانظاميين حربا اهلية ضد القوى الوطنية. ولكي لا يرغم الجيش على مقاتلة مواطنيه عمد مصطفى كمال وضباطه الى جمع عدد كبير من المقاتلين اللانظاميين ايضا لمواجهة قوات السلطان كما كانوا حريصين على ان تتحول هذه المجموعات الى قوة اكبر من الجيش.

لكن في غضون ذلك برزت مشكلة جديدة امام القوى الوطنية. فقد قرر المجلس الاعلى للقوى الحليفة ما سمي ببنود معاهدة «سيفر» والتي هي تنص في الواقع على تفكيك الامبراطورية العثمانية على ان تتحول تركيا الى مجرد دولة صغيرة تحيط بها مجموعة من الدول الصغيرة ومناطق النفوذ وعندما امر الحلفاء القوات اليونانية بالدخول الى «سميرنا»

بدأت «حرب التحرير» التركية حقا. وكان اليونانيون اكثر عددا وافضل عدة من شراذم الاتراك ولذا كانوا يأملون بتحقيق انتصار سريع، لكن مصطفى كمال كان من حيث المقدرة الاستراتيجية بمكان. وقد وصف ونستون تشرشل تلك الحملة بقوله «تقدمت الطوابير اليونانية عبر الطرقات الجبلية بامان فيما كان الاتراك يفرون بكل ذكاء الى المناطق الداخلية من الاناضول». وفي تراجع استراتيجي واقعي وشجاع، ضحى مصطفى كمال بادئ الامر بعاصمة بني عثمان السابقة، بورما، واستمرت قواته في التراجع حتى منطقة اسكيشهر حيث استعدت للقيام بحملة معاكسة في الخريف، وفي هذا الوقت خشي الفرنسيون والايطاليون ايضا من مغبات السيطرة اليونانية الكاملة على الاناضول فطلبوا من المجلس الاعلى اظهار بعض «ضبط النفس»، وبالتالي صدرت الاوامر الى اليونانيين بعدم التقدم اي خطوة اخرى.

واستفاد مصطفى كمال من تراجعه السريع ومن توقف اليونانيين لكي يضع حدا نهائيا لحركات التمرد التي كانت لا تزال قائمة ضده. وفي الوقت نفسه استغل تجمد اليونانيين في منطقة واسعة فالتقط انفاسه لكي يعيد تنظيم جيشه والقيام بهجوم يحمل فيه اليونانيين على التراجع نحو الساحل. ومن اجل الحصول على ذخيرة وعتاد ومؤن استخدم مقدرته الديبلوماسية هذه المرة واوفد بعثة خاصة الى روسيا السوفياتية. غير ان الروس طلبوا، لقاء هذه المساعدات، تنازلات مهمة على الحدود في مناطقهم الارمنية. الا ان مصطفى كمال رفض الطلب وامر قائد قواته في المنطقة الشرقية بالزحف على ارمينيا. وفي معركة خاطفة استطاع ان يستعيد «فارس» و«اردهان» الى حدود تركيا الشرقية السابقة. وقد فتح هذا الانتصار الطريق امام معاهدة موسكو للعام ١٩٢١ والتي بموجبها اتفق ستالين ومصطفى كمال على تسوية المسائل الحدودية بينهما. ونتيجة ذلك بدأ الذهب والمؤن السوفياتية بالتدفق على تركيا لمساعدة مصطفى كمال ورفيقه عصمت اينونو في تشكيل جيش حديث.

في هذا الوقت كان اليونانيون قد ضاقوا ذرعا بدعوة الحلفاء الى ضبط النفس واخذت قواتهم تستعد لتحقيق تقدم جديد عبر سهول الاناضول. وحاولوا بادئ الامر التقدم تحت شعار الاستطلاع عبر وادي «اينونو»، انطلاقا من مدينة «بورسا» لكنهم فوجئوا بمقاومة شديدة في الوادي، يقودها عصمت (الذي حمل اسم المعركة فيما بعد). وعلى الرغم من ان الاتراك كانوا اقل عددا فانهم كانوا اكثر تنظيما وبأسا واستطاعوا ان يردوا اليونانيين على اعقابهم: هنا سوف يتذوق اليونانيون طعم القوة التركية التي ستظل هاجسهم فيما بعد.

وفي الصيف استأنف اليونانيون بقيادة الملك قسطنطين – وهو اول ملك مسيحي يطأ ارض الاناضول منذ الصليبيين – الهجوم مجددا على الاتراك. وهذه المرة خططوا للاستيلاء

على اسكيشهر، ليس عبر هجوم مباشر من الغرب بل بهجوم جانبي من الجنوب بحيث يحاصرون المدينة ويقطعون اتصالاتها مع انقرة. وجاء مصطفى كمال من انقرة على عجل فأمر باخلاء المدينة فورا وبانسحاب عام. وقد اختصر تشرشل الوضع بقوله «لقد حقق اليونانيون نجاحا استراتيجيا وتكتيكيا. لقد استولوا على الخطوط الحديدية التي يمكن استخدامها في حملة جديدة لكنهم لم يدمروا الجيش التركي او اي جزء منه». فالواقع ان ذلك الجيش ظل يتراجع حتى تجمع على بعد ٥٠ ميلا من انقرة في منطقة نهر «ساكريا» حيث قرر مصطفى كمال التوقف.

واستصدر مصطفى كمال مرسوما خاصا من البرلمان راح بموجبه يجمع كل ما استطاع من ذخيرة وعتاد من اهل الاناضول. وامر الناس بأن يسلموا الى الجيش كل ما هو صالح للاستعمال في الاهداف العسكرية. وفي غضون ايام جمع نحو ٤٠ في المئة مما يحتاجه من الطعام والثياب والوقود. كذلك صادر ١٠ في المئة من عربات الخيول والثيران و٢٠ في المئة من البغال والخيل والحمير. واجرى احصاء فوريا لجميع مصانع الخناجر والسيوف والحراب كما اقام مصانع جديدة لهذا الغرض. كما اقام في الوقت نفسه مراكز لاصلاح الاسلحة. بكلام اخر، لقد رأى ان الحرب الشاملة قادمة، ومن اجل ذلك عمد الى تعبئة السكان جميعا بمن فيهم النساء. وراحت شحنات الاسلحة والذخيرة تصل اليه من جميع انحاء الاناضول مخبأة تحت التبن والعشب على عربات تجرها الثيران، قاطعة الجبال والوديان والسهول.

لقد كان امام الاتراك ثلاثة اسابيع فقط للاستعداد من اجل المعركة الحاسمة في «ساكريا»، وهي معركة استمرت ٢٢ ليلة ونهارا او هي الاطول في التاريخ بيوم واحد حسب تعبير مصطفى كمال. ولقد اختار ساحة للمعركة موقعا دفاعيا ممتازا على بعد ٤٠ ميلا من انقرة على مقربة من نهر كبير ويحيط به رافدان بحيث تغمر المياه كل الاراضي المحيطة. وتخلى اليونانيون عن خطتهم الاولية بالمهاجمة من الجنوب فأقاموا جسورا سريعة وعادوا الى الهجوم المباشر.. حيث كانت القوات التركية في انتظارهم! ويقال ان الاتراك حاربوا انذاك افضل مما حاربوا في اي وقت مضى.

امام هذا الواقع امرت اثينا قواتها بالانسحاب الكامل، تاركة خلفها كما يقول تشرشل، للمرة الاخيرة ذلك الامل الكبير بأن تقيم لنفسها امبراطورية في آسيا.

الجنرال ساراي:
استدعته باريس بسبب بكركي

لا يمكننا ان نقرأ في سيرة بول موريس عمانوئيل ساراي، من دون ان نقرأ في سيرة سلفيه: غورو وويغان، انه «فصل» من فصول كثيرة. فصل من حكاية مسلسلة، بدأت يوم تجمع اولئك العسكريون، بكل نجومهم واحلامهم، وبكل ما خلفهم في اوروبا من امجاد عسكرية وسياسية في منطقة واحدة من العالم: الشرق!

يومها، كان الغرب لا يزال يخوض معاركه بنفسه على ارض الشرق. وكما تداخلت فصول جنرالات فرنسا ايضا بعضها ببعض. وبالتالي فان الجنرال ساراي، لم يكن خلفا لغورو وويغان فحسب، بل كان نقيضا لهما ايضا. انه الجنرال الذي اخل «بالعلاقة الخاصة» بين فرنسا والموارنة منذ العام ١٨٤٠ بل منذ «القرن العاشر» كما قال له البطريرك يوسف الحويك في معرض التأنيب! انه ايضا الجنرال الذي سعى الى ارضاء المسلمين في سورية ولبنان وتعديل تلك الصورة الفرنسية التي رسمها ويغان، لكن ساراي الحريص على مشاعر المسلمين لن يلبث ان يرى زيارة اللورد بلفور الى دمشق «وسط مشاهد الحزن والاضرابات العامة». وساراي ايضا هو الذي سيحاول عبثا قهر جبل الدروز.

وصل بول ساراي الى ميناء بيروت في كانون الثاني/يناير ١٩٢٥، وكان بطل معركة «المارن» قد اعيد الى الخدمة العسكرية في جلسة خاصة في الجمعية الوطنية قبل اشهر قليلة. وقبل ان يستقل الباخرة من مرسيليا، وهي الطريق الرئيسية في تلك الايام، استدعاه رئيس الوزراء المسيو هريو وقال له، كما روي فيما بعد، ان «سلفيكم غورو وويغان اعارا اهتماما قليلا جدا لأي كان سوى الاقلية المسيحية اللاتينية. وقد حان الوقت اذا كان للجمهورية ان تتجنب مفاجآت غير سارة، ان نعير بعض الاهتمام للاكثرية المسلمة الضخمة».

لقد امضى ساراي فترة قلقه في المنطقة، فهو لم يكن يأمن جانب باريس التي بعثت به

من جهة، ومن جهة اخرى نجح في الفوز بعداء الجميع في سورية ولبنان، وكانت الحملات ضده في فرنسا تشن بلا هوادة، بحيث انه اصبح يمضي بقية العمر في الدفاع عن نفسه.

والحقيقة ان ساراي هو نتاج عهد يساري جاء الى منطقة غارقة يومها في اليمين. فالمسلمون كانوا في ذروة التدين المربوط ايضا بالشعور القومي. والمسيحيون كانوا في ذروة التحفظ وقد لقوا في ساراي الماسوني الراديكالي، انفتاحا على اليهودية واليسار معا.

كذلك كان ساراي عدوا للاكليركيين، كما يقول لنا يوسف سالم. ومنذ وصوله بدأ في اتخاذ خطوات مثيرة للفرقاء الاخرين، من اكليروس ومدنيين معا. وقد ناصب ساراي السياسيين السوريين واللبنانيين العداء بمن فيهم الرئيس اميل اده الذي كانت تربطه بفرنسا صداقات عميقة.

قال هريو لمندوبه السامي الجديد إن فرنسا متكلة عليه في «تطبيق روحية الانتداب» وفي تعديل اخطاء اسلافه. ولأن هريو ينتقد بالطبع اسلافه هو ايضا، رجال «الكتلة الوطنية» الحاكمة في فرنسا. فالجنرال غورو لم يتحدث، حين وصوله الى دمشق، الا عن ذكريات الحملة الصليبية، اما الجنرال ويغان فقد خاطب البطريرك الماروني بقوله:

«لقد بدأت مهمتي في هذه اللحظة، عندما نلت البركة من غبطتك».

لكن ساراي كان اكثر حنقا على غورو منه على ويغان الذي اعترف له ببعض الحسنات التنظيمية والعدلية. وفي اي حال ها هو ادوارد هريو يوصيه ايضا بخفض «الميزانيتين العسكرية والمدنية، لأننا ما لم نفعل ذلك فانه يأتي يوم يرفض فيه اليسار ان يصوت الى جانب اي اعتمادات على الاطلاق».

والمعروف ان الموازنة العسكرية لسورية ولبنان كانت في العام ١٩٢٠ نحو ٥٠٠ مليون فرنك والمدنية ١٨٠ مليونا، وفي العام ١٩٢٢ اصبحتا ٣٢٠ و١٨٠ مليونا، وفي العام ١٩٢٥ خفضت الى ١٧٠ مليونا وسبعة ملايين!

وفي وداع ساراي، في محطة القطار الباريسية، يقول ابنه عمانوئيل لصديقه الكاتب بول غوبلنتز: «هل سيكتبون في باريس اشياء سيئة عن والدي اثناء غيابه»؟ ثم يعطينا غوبلنتز صورة اخرى عن الصراع السياسي الفرنسي آنذاك اذ يقول إن رجال التحري حذروا ساراي في محطة القطار من ان «ثمة شخصا خطيرا يلاحقك» . وكان هذا يعني انه تحت مراقبة الامن العام.

قبل ان يصل ساراي الى بيروت «قبل ان تطأ قدمه الارض، كانت الحرب المقدسة التي شنها اليسوعيون ضده قد بدأت». يقول لنا غوبلنتز في مطالعة مطولة للدفاع عن صديقه. اما ساراي فيقول: «هم الذين بدأوا. لقد اعلن الحداد لدقيقة واحدة في جميع المدارس

الكاثوليكية في لبنان في اللحظة التي اعلن فيها نبأ تعييني. لقد هزني هذا الاطراء فعلا. اذ قبل الان لم يشبهني احد بالجندي المجهول! ولقد لقيت اهتماما جديا آخر من سلفي اذ عندما فتحت ادراج مكتبي وجدتها فارغة الا من نسخة من الانجيل، تركت هناك قصدا لتثقيفي».

هذا الصراع نابع في الاساس، وهو امر لا يشير اليه الجنرال، من كون ساراي عضو في «الماسونية» الدولية.

ذلك النهار، اي يوم وصول ساراي بالذات، يأتي اليه «الاب ريمي» راعي الابرشية اللاتينية وهو «ايضا بقال ومصرفي وطباع ومخرب». وكان الاب ريمي على ما يبدو محظيا لدى غورو (الجنرال الاعلامي) ولدى ويغان. و«كان هذا المخلوق الحبري يعرف جيدا كيف يمزج بين الشؤون الروحية والزمنية»، وقد اعطاه غورو مطبعة ثمنها نحو مليون فرنك حين لم يعد في امكان مطبعة المفوضية السامية اصدار جميع المنشورات المطلوبة.

وفيما كان ساراي يبحر المتوسط على ظهر «اللوتس» اقدم اعداؤه على تعيين الاب ريمي كاهنا للجيش الفرنسي في بيروت، وها هو في اليوم الاول لوصول الجنرال يدعوه الى «قداس» يقام على شرفه، وعرف ساراي ان ثمة فخا ينصب له فقبل الدعوة لكنه اناب عنه الوزير المفوض «ريفي» لحضور القداس. كان هذا خبيرا في اصول هذه الامور. ويعلق ساراي على ذلك في مذكراته «لو قبلت تلك الدعوة لكان عليّ ان اقبل ٢٢ دعوة من ٢٢ طائفة مختلفة». الا انه بالنسبة الى الاكليروس الماروني كانت تلك ذريعة لشن حملة واسعة النطاق على المفوض السامي الجديد كما يروي لنا يوسف سالم.

كذلك اصدر الاب ريمي بيانا يقول فيه إن ساراي اهان الكنيسة برفضه حضور القداس. وهكذا اضطر ساراي فيما بعد الى حضور القداديس الرسمية او المعروفة «بالقنصلية» في تلك الايام.

هكذا بدأت مشاكل ساراي مع الاكليروس منذ اليوم الاول. وسوف يتهم «تلك الانفس المسيحية الطاهرة نفسها بتسميم العلاقة بينه وبين البطريرك الماروني» . لقد اقنعوا الحويك بأن«الجنرال ساراي ينوي شن حملة اضطهاد ضد الكنيسة فاستثاروه فطلب رؤية الجنرال الذي طمأنه وانتهت المسألة عكس ما يشتهي الاخرون».

لكن «الاخرين» عادوا فاقنعوا البطريرك الحويك بأن ساراي لم يقدم الاحترام الكافي له، الا ان الجنرال «بدد من جديد حملة الاكاذيب» كما اعلن البطريرك نفسه بعدما قام ساراي بزيارة بكركي «التي تطل على بلدة جونيه الصغيرة التي يغلب عليها لون القرميد الزهري والحجر الابيض».

غير ان ساراي سوف يكتشف في بكركي ان «هذا الرجل الجليل اقل حرية في بكركي مما كان البابا بيوس السابع في افينيون». ويضع الجنرال اللوم كله على المطارنة الاخرين، وخصوصا على المطران عبد الله الخوري «الذي كانت عينه على الثوب القرمزي». والذي اتهمه ساراي بأنه كان يشن الحملات عليه في صحيفة «ايكو دو باري».

مشكلة اخرى اثارها مجيء ساراي. فالجنرال غورو كان قد وضع تنظيما سياسيا يشمل مجلسا تمثيليا وحاكما فرنسيا يعينه المفوض السامي – وهو امر مناف للنصوص الرسمية، وفور وصوله اعلن ساراي في محاولة لارضاء المواطنين، ان الحاكم الفرنسي سوف يستبدل بحاكم من اهل البلاد اسوة بالوضع في سورية. اما هدفه الحقيقي فلم يكن ارضاء المواطنين بل ابعاد الحاكم انذاك فاندنبرغ. لكن ساراي عين المسيو ليون كايلا حاكما موقتا على لبنان الكبير وقامت الاعتراضات عليه في الصحف. وقالت يومها صحيفة «الارز».

«لقد نجحت المؤامرة المرسومة ضد البلاد وتم تعيين حاكم فرنسي جديد لا هو يعرف البلاد ولا هي تعرفه، وقد اصبحت مقدرات لبنان الكبير الان بين يديه... اننا نعترض على اللهجة الديكتاتورية الواردة في بيان التعيين».

وقالت صحيفة «المعرض» لسان حال «الشبيبة اللبنانية»، إن ثلاثة من اعضاء المجلس التمثيلي هم ايوب ثابت وميشال بك التويني ووديع بك طربية ابلغوا اميل اده رئيس المجلس التمثيلي والمرشح لمنصب الحاكم انه ما لم يسحب ترشيحه وفي حال فوزه فان ساراي سوف يعمد الى حل المجلس! اما جبران التويني فكتب في «الاحرار» مقالا عنيفا يستنكر فيه تعيين كايلا. وقد اختصرت «لسان الحال» المسألة كلها بقولها: «لقد قسم الجنرال ساراي البلاد الى قسمين: واحد من الاكليروس والثاني ضده».

علق ساراي صحيفة «الاوريان» بتهمة الاساءة الى «العلاقات الدولية» وعلق كايلا صحيفتين اخريين. لكن ساراي سوف يكتب الى اصدقائه في باريس مدافعا عن القرار ثم عن قراره بالغاء ٥٠٠ الف فرنك كانت الدولة الفرنسية تصرفها لتأمين فوز مرشحيها: «وقد عاتبني احد النافذين الظرفاء قائلا: «الآن لم نعد نعرف لمن يجب ان نصوت. اما مع اسلافك فان اصدقاء فرنسا الحقيقيين كانوا يصوتون للمرشحين الذين تمولهم الحكومة».

كان ساراي يعتبر ان ما يقوم به خطوات «اصلاحية» غير ان هذه الاصلاحات لم تلق موافقة المسيو روبير دوكيه مندوب فرنسا لشؤون سورية لدى «عصبة الامم المتحدة» (كان سابقا السكرتير العام لدى غورو) ولا لقيت ترحيب السكرتير العام الجديد المسيو «دوريفي» الذي «فرضته الكي دورسيه على ساراي». ويتهم ساراي المسيو دوكيه، بأنه نشر «بتحريض من الكي دورسيه» عدة مقالات انتقادية للمسيو ساراي. اما وجهة نظر «هذا الرجل الذي

دمر الانتداب» اي دوكيه، فقد «كانت معروفة جيدا وهي ان سورية بلد متخلف يجب ان يحكم بشدة ويعامل كمستعمرة».

كان واضحا ان ساراي ليس على خلاف فقط مع الاكليروس الماروني في لبنان بل ايضا مع وزارة الخارجية في باريس. وها هي تبلغه برقيا انه يجب «ان يراعي الانظمة السابقة بالنسبة الى انتخابات المجلس التمثيلي» اما بالنسبة الى الخطوات المقبلة «فسوف يبلغك بها المسيو دو ريفي».

كان ذلك كثيرا على ساراي. ورد ببرقية فورية يطلب من الوزارة الفصل بينه و«بين هذا الزميل» . فالمسيو دو ريفي هو في اي حال الرجل الذي قال لويغان وهو يودعه: «لن يكون في وسعي ان اعمل مع مفوض سام من بعدك».

وسوف يكتب ساراي فيما بعد ان العذاب الذي لقيه من دوكيه ودو ريفي كان يفوق كل العذاب الذي لقيه من «اليسوعيين جميعا».

في اي حال جرت الانتخابات كما اشتهى «الاصلاحي» ساراي ولم تكلف الدولة «سوى ١٥ الف فرنك دفعت بموافقة الكي دورسيه، لدعم مرشح فقير كان رسولا حقيقيا للافكار الفرنسية في المشرق»!

لكن ساراي لن يكشف لنا هوية الرجل. كذلك نقرأ في كتابات ساراي مديحا لنائبه كايلا، الرجل الذي قال للبنانيين: «الكلاب تنبح والقافلة تسير»! عنه ايضا يقول ساراي: «ليس في استطاعة المرء ان يتوقع من الاخرين ان يكونوا صادقين مع انفسهم طوال الوقت. والحقيقة ان الذكرى الوحيدة التي احترمها عن علاقتي مع كايلا هي صراعنا معا ضد التعصب والظلم في لبنان...؟»

بدلا من الحديث عن سياسة ساراي خارج لبنان وسورية، اي في فلسطين، نقتطع حرفيا ما يلي، من كتاب «ساراي الصامت»:

«خلال ادارة ساراي سنحت لفرنسا الفرصة اكثر من مرة لأن تعطي برهانا عمليا للانكليز على انها في الشرق، كما في اي مكان اخر في العالم. تنوي ان تبقى امينة لذكرى الحرب والتحالف.

«وقد قدمنا الدليل للورد بلفور على ذلك بمناسبة رحلته الى فلسطين. لقد كان في طريق عودته من مهمة مظفرة الى القدس حيث مثل بلاده، «الحامية المجردة للاسرائيليين»، في حفل افتتاح الجامعة العبرية.

«وعلى الرغم من التحذيرات الرسمية التي تلقاها من السلطات الفرنسية فان اللورد

بلفور كان تواقا لأن يعود الى اوروبا بتاريخ سورية، وقد كتب اليّ (اي الى غوبلنتز) الجنرال ساراي في هذا الشأن يقول: «لقد قوبلت هذه الرحلة بالاعتراضات من المسلمين الذين انضمت اليهم عناصر مسيحية عن كونهم يحيون ماضيا مليئا بالعصبيات والصراعات بشكل لا يلائم مصالحهم، ولا مصالح سورية. وقد وزعت مناشير عشية وصول اللورد بلفور تقول ان «فلسطين للعرب وبلاد العرب للعرب» وهذا يدل على النوايا القائمة خلف الحملة المعادية لليهود في سورية (....) لقد اطلقت زيارة اللورد بلفور شرارة تظاهرات عدة غير ذات اهمية . الصحف صدرت مؤطرة بالسواد وثارت اشتباكات بين الطلاب، لكن فقط بعد الزيارة الى المسجد (الاموي) انتقلت المعارك الى الشوارع. وعندها اتخذت خطوات فورية لقمع تلك الاعمال من دون صعوبة في ذلك. غير ان هذه الاضطرابات غير المألوفة كانت حسنة ايضا اذ اظهرت ان انكلترا ستكون مخطئة جدا اذا خطر لها ان بإمكانها الحلول محل فرنسا، كما تدّعي بعض الصحف السورية. ولقد اظهرت ايضا اننا لن نتسامح تجاه اي حملات معادية لليهود. وفوق ذلك فانه رأى بعينه التفسيرات التي اراد الناس اعطاءها لوجوده في سورية، ولكي لا يعطي ذريعة للاضطرابات توجه سرا الى بيروت حيث ابحر فورا الى اوروبا. لقد ايقن ان فرنسا وانكلترا يمكن ان تربحا فقط بالتفاهم والتعاون في كل مجال».

ويروي السفير عادل اسماعيل في كتابه «السياسة الدولية في الشرق العربي» الجزء الخامس ان «ساراي» كان ذا نزعة جمهورية متطرفة، فحاول منذ وصوله الى بيروت في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٢٥ الظهور بمظهر التحرر، فاطلق حرية الصحافة واباح تشكيل الاحزاب، وكان علمانيا يكره الاكليريكيين، ولما شاء منعهم من التدخل في شؤون الدولة تألبوا عليه مع اركان المفوضية العليا من مدنيين وعسكريين، فالزمته حكومة باريس عندئذ على تبديل موقفه منهم والتقيد بسياسة فرنسا التقليدية في الشرق تجاه رجال الدين. وكتب له «هريو» في ١١ ايار/مايو يسأله ملحا ان «يتنشق بخور القداس القنصلي».

يروي عز الدين الحلبي في مذكراته من العام ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ان سياسة الانتداب الفرنسي ولدت حقدا تجاه الفرنسيين. فكثر التذمر، خصوصاً في جبل الدروز، من حاكمه الفرنسي المدعو «كاربيه»، وكان ساراي يدعم موقف مندوبه.

وفي ٥ نيسان/ابريل ١٩٢٥ ذهب وفد الى دمشق لمقابلة المندوب السامي ومطالبته بوجوب تطبيق بنود اتفاق ٤ آذار/مارس ١٩٢١ بين زعماء جبل الدروز وسلطات الانتداب.

لم يحسن ساراي «معاملة الوفد واعلن عدم التزامه بالاتفاق وانذار اعضاء الوفد بالخروج من دمشق خلال ساعتين».

وبالفعل خرج وفد جبل الدروز غاضبا لسوء المعاملة والقت السلطات القبض على احد اعضاء الوفد وهو «عقلة القطامي» احد زعماء المسيحيين في جبل الدروز وارسلته كما يروي لنا «محيي الدين السفرجلاني» في كتابه «تاريخ الثورة السورية» الى السجن في تدمر.

وبعد مرور شهر على الحدث، سافر «كاربيه» الى فرنسا لتمضية اجازته وخلفه الضابط «رينو» بالوكالة. وكانت عين الوكيل على حكم الجبل، فاعتمد سياسة لينة وشجع سكان الجبل على المطالبة به بدلا من «كاربيه»، ونجح «رينو» في تأليف وفد من ثلاثين عضوا يمثلون العائلات الدرزية ذهب الى دمشق للمطالبة بابعاد «كاربيه»، وعند وصول الوفد الى دمشق حاول لقاء مندوب المفوض السامي فرفض المندوب استقباله فما كان منه الا ان توجه افراده الى بيروت لمقابلة «ساراي» شخصيا . ولكن المندوب السامي رفض اعطاءهم موعدا في غياب «كاربيه» وهددهم بضرورة مغادرة بيروت حالا او تعرضوا للنفي. ولم تفلح الوساطات لتسهيل اللقاء فغادر زعماء الدروز الى حوران معتبرين في الامر اهانة معنوية.

وتكاتف زعماء المنطقة وبدأوا بارسال العرائض ضد كاربيه وعقدوا الاجتماعات ثم انتقلوا الى التظاهرات في ٢ تموز/يوليو ١٩٢٥ في السويداء. وعزل «رينو» وعيّن مكانه القومندان «توما مارتان» فعمل على تهدئة الخواطر بانتظار تحقيق مكيدة تقضي بالقاء القبض على زعماء البلاد. وكان موعد المكيدة عيد فرنسا الوطني في ١٤ تموز/يوليو. فدعي الزعماء شخصيا للمشاركة به. وتريث كبير زعماء الجبل سلطان باشا الاطرش بالذهاب في الموعد المحدد، فارسل اعوانه لاستطلاع الامر وصدق ظنه اذ عمدت السلطات الفرنسية الى القاء القبض على بعض من حضر الى الاحتفال في السويداء كما عملت بالمثل مع بعض من حضر الى احتفال دمشق.

وبسرعة عمد سلطان باشا الاطرش الى اعلان الثورة، فسار من قرية «رساس» الى قرى جنوب جبل الدروز فانضم اليه عدد من الثوار ثم مشى الى «صلخد» فهاجم سرايا الحكومة ومقر البعثة الفرنسية.

ويروي سلامة عبيد في كتابه «الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ – ١٩٢٧» على ضوء وثائق لم تنشر ان الفرنسيين ارسلوا حملة بقيادة القومندان «نورمان» للقضاء على الثورة فالتقى بقوات سلطان في ٢١ تموز/يوليو ١٩٢٥ في قرية «الكفر» بين صخد والسويداء، وباءت الحملة بالفشل وقتل قائدها والعدد الكبير من رجاله.

وارسل الفرنسيون حملة جديدة بقيادة الجنرال «ميشو» في مطلع شهر آب/أغسطس فتصدى لها الثوار في قرية «الدور» و«نبع قراصة» ولكنهم هزموا، فتراجعت معنويات الثوار

وارتد سلطان الاطرش الى قرية سليم لوضع خطة جديدة بينما ارتاح «ميشو» الى النصر السريع معتبرا ان الامر قد قضي. واذ كان جنوده يروون عطشهم في موقع المزرعة الذي تكثر فيه المياه هاجم الثوار مؤخرة الحملة وطوقوا الجنود اثناء الليل وجرت معارك بالسلاح الابيض وفقد سلاح المدفعية والطيران فاعليته وانكسر الفرنسيون شر كسرة واصيب الجنرال شخصيا.

وقد سطر الثوار ضروبا من البطولة النادرة بهجومهم على المدرعات باجسادهم وبعد مضي اسبوع على معركة المزرعة بدأت مفاوضات بين الجانبين اتفق فيها على تبادل الاسرى، وبشروط للصلح وارجاع الغنائم العسكرية.

ويروي كلا من عبد الرحمن الشهبندر في كتابه عن «الثورة السورية الوطنية» والسفرجلاني في المرجع المذكور آنفا ان الثقة بالفرنسيين كانت مفقودة وكان سلطان الاطرش يعلل النفس بتحويل الثورة الى مظاهرة وطنية تعم ارجاء سورية وتتجاوز جبل الدروز، وتشاء الظروف ان يتصل به زعماء حزب الشعب في دمشق مبدين استعدادهم لمساندة ثورته. فبادر سلطان باشا عندها الى قطع المفاوضات مع الفرنسيين ومتابعة الحرب على ان تثور دمشق وتكون القيادة لجبل حوران ويعملوا معا على طرد الفرنسيين.

وينقل لنا السفرجلاني نص البلاغ الذي اعلنه سلطان الاطرش ايذانا بالثورة العامة وقد جاء في بعض مقتطفاته: «يا احفاد العرب الامجاد.. فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الاجنبي عن سماء بلادنا... فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد ان سكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب...

ايها السوريون: لقد اثبتت التجارب ان الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف...»

وقد حدد الاطرش مطالبه بالاتي:

١ – وحدة البلاد السورية دولة عربية مستقلة

٢ – قيام حكومة شعبية

٣ – سحب القوى المحتلة

٤ – تأييد مبدأ الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والاخاء.

وتجند شباب حوران للسير الى دمشق في الوقت المحدد على امل ان يكون زعماء حزب الشعب قد هيّأوا الاجواء للثورة. ولكن عند وصولهم الى ابواب المدينة اغار عليهم طيران الفرنسيين في وقت لم تكن دمشق قد استعدت للثورة بسبب ضيق الوقت من جهة والقاء

الفرنسيين القبض على زعماء حزب الشعب بعد تسرب اخبار اتفاقهم مع سلطان على الثورة.

وبدأ الفرنسيون بجمع قواهم في سهل «المسيفرة» للانقضاض على الثوار في شهر ايلول/ سبتمبر. ولكن حماسة الثوار جعلتهم يقررون مهاجمة الفرنسيين قبل اكتمال استعدادهم. فهاجموا السهل من دون اخذ المنطق العسكري بعين الاعتبار. وعلى الرغم من الاستبسال تراجع الثوار مخلفين وراءهم خسارة جسيمة. واستغل الجنرال ساراي نتائج المعركة للمضي في خطته الآيلة الى انقاذ الحامية الفرنسية في السويداء واحتلال جبل الدروز. وقد توصلت قوات الفرنسيين الى رفع الحصار عن قلعة السويداء، وعلى الرغم من مقاومة الثوار. وما ان وصلت قوات الفرنسيين الى السويداء، حتى اندلعت الثورة في حماة في تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٢٥ بقيادة «فوزي القاوقجي» الذي يروي تفاصيل ذلك في مذكراته. وقد استطاع الفرنسيون اجهاض ثورة حماة بقصفهم المدينة بالطائرات. وانتقلت الثورة الى الغوطة فدمشق ومجددا عاد الفرنسيون لاستعمال الطائرات لاخماد ذلك.. وقد منيت دمشق بخسائر فادحة في تشرين الاول/اكتوبر من جراء قصف الطائرات، وقد جاء ذلك كردة فعل على محاولة الثوار خطف المندوب السامي الفرنسي الجنرال ساراي.

وكان لاوامر الجنرال «بقصف الاحياء المدنية في مدينة دمشق من غير انذار» اثره السيء في الجنرال في المحافل الدولية العالمية، لذلك اضطرت الحكومة الفرنسية الى سحب ساراي لتعين مكانه مفوضا ساميا مدنيا هو «دو جوفنيل».

وفي مذكراته «٥٠ سنة مع الناس» يروي الوزير يوسف سالم عن الجنرال ساراي الامور الاتية:

جرت الانتخابات النيابية في فرنسا العام ١٩٢٤ وفازت كتلة اليسار المؤلفة من الراديكاليين الاشتراكيين ومن الحزب الاشتراكي (ليون بلوم)، فدعى الى تأليف الوزارة الزعيم الراديكالي «ادوار هريو»، فاستعان باشخاص معادين للاكليروس. وكان من بينهم الجنرال ساراي المفوض السامي الجديد الذي جاء خليفة لويغان المتدين. وكان ساراي ذو نزعة يسارية.

فكان اول عمل قام به اثر وصوله الى بيروت ان دعا المجلس التمثيلي الى انتخاب حاكم على لبنان. ولم يكن قصد المفوض السامي الجديد ان يمارس النواب حقهم الطبيعي في انتخاب حاكم للبلاد بقدر انتقامه من الجنرال فاندنبرغ الذي شهد في الماضي ضده امام مجلس عسكري.

وعين في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٢٥ موعدا لأن ينتخب المجلس التمثيلي

حاكم لبنان. وفي الميدان مرشحان: اولهما معرف عن نفسه، هو اميل اده رئيس المجلس يومذاك، والاخر (سري) لم يذع اسمه ولا ترشيحه، وهو «ليون كايلا» ويؤيده ويريده الجنرال ساراي. وكان ترشيح اميل اده نفسه ضد رغبة المفوض السامي ، اكثر من جرأة، وقبيل افتتاح جلسة الانتخاب، اتفق موظفو الانتداب على تعطيل عملية الانتخاب بالشغب والبلبلة. فاصدر ساراي قراراً تلي في تلك الجلسة يقضي بتعطيل المجلس، ودعوة اللبنانيين الى انتخاب مجلس جديد بمهلة ستة اشهر اي في ١٢ تموز/يوليو ١٩٢٥. واصدر قرارا آخر بتعيين ليون كايلا حاكما على لبنان الكبير.

وكان المفوض السامي يتدخل في شؤون الانتخابات النيابية فيؤيد لائحة على لائحة وكان تحديه ضربا من الجنون لأنه كان يضغط على الناخبين لاختيار اللائحة المرضى عنها باكملها. ومن يجاهر بترشيح نفسه ضد اللوائح النيابية التي يوافق عليها المندوب السامي كان عمله يعتبر تحديا لارادة هذا المندوب.

ويتابع سالم كلامه قائلا:

كان الجنرال ساراي عنيفا في كلامه، فجاء في تصرفاته، لا يخفي كراهيته لرجال الدين فيهاجمهم في كل مناسبة. وانقسمت البلاد الى علمانيين يشجعهم المفوض السامي واكليريكيين يحاربهم. ونشطت المحافل الماسونية فتعددت اجتماعاتها وتوالى خطباؤها على المنابر. ومن طريف ما حدث في تلك الآونة ان مدارس الرهبان والاباء اليسوعيين، وكل معهد علمي او تربوي يديره او يشرف عليه اكليريكيون كانت تبدأ دروسها في الصباح بدقيقة صمت حدادا على وجود الجنرال ساراي ممثلا لفرنسا.

وقد يكون اطرف من ذلك كله الحوار العنيف بل المبارزة الكلامية التي حدثت علنا بين الجنرال ساراي والخوري لويس الخازن.

كتبت جريدة الارز في العدد ٤٢١ الاربعاء في ١٨ من اذار/مارس ١٩٢٥ الآتي: قبيل ظهر الثلاثاء في ١٧ من اذار ١٩٢٥ استقبل الجنرال ساراي في مكتبه بالسراي الكبيرة رجال الصحافة وقال لهم:

احببت ان اجتمع بكم مرة في كل شهر لأرى ما عندكم فتبدونه لي، وما تطلبون ايضاحه مني – فماذا عندكم؟»

وبدأ الصحافيون اسئلتهم، ووصل دور الاب انطون عقل صاحب «مجلة السلام» فسأله عن «صحة ما تتحدث به الناس عن عدم رد زيارة غبطة البطريرك الماروني» فقال الجنرال:

– اني اقول لك بصراحة امام الجمهور: اني وعدت غبطته ان ارد له الزيارة، وكنت عجلت في الامر لو لم تحدث في المجلس النيابي الفرنسي تلك الضوضاء المعروفة التي اثارها

ذوو المآرب. وعرفت الان ان العوائد لا تسمح برد الزيارة في ايام الصيام. فاذا كان غبطته يرغب في ان ارد له الزيارة الان ما عندي شرط الا الانتظار ريثما تنتهي المناقشة في مجلس الشيوخ الفرنسي.

وسأله الاب لويس الخازن (مدير الارز): هل لك يافخامة الجنرال ان تبين لنا ما هي علاقة رد زيارتك لغبطة البطريرك بالمناقشات التي اشرت اليها، سواء كان في مجلس النواب ام في مجلس الشيوخ؟

الجنرال ساراي: هناك مسائل لا استطيع التصريح بها لأي كان.

الاب الخازن: ليس هذا مما نبحث عنه، وانما نكرر الكلام اننا كنا نود ان نعرف ما هي الرابطة السياسية بين زيارتكم للمقام البطريركي وبين السياسة والمناقشات، لأننا نرى ان الامر هو مسألة لياقة لا مسألة سياسة.

الجنرال ساراي: اني حتى الان لم ارد الزيارة لاحد، فلماذا تطلب مني ان ارد الزيارة لغبطة البطريرك الماروني قبل سواه ؟ وعلى كل فاني بانتظار نتيجة المناقشة في مجلس الشيوخ.

ويتابع يوسف سالم كلامه بأنه في اليوم الذي تلا هذا المؤتمر الصحفي الصاخب اصدر المفوض السامي قرارا يخوله حق «تعطيل اي صحيفة او مجلة تنشر مقالا او خبرا من شأنه المس بالسلطات او الاخلال بالامن والنظام»، وكان القرار يشمل لبنان وسورية.

وعلى الرغم من راديكالية حكومتها فان فرنسا خشيت ان تفقد صداقة لبنان عندما وقعت على حقيقة ما يجري في بيروت وعلى اخطار تصرفات المفوض السامي وانعكاساتها على علاقاتها باللبنانيين، خصوصا برجال الدين الذين كانت تعتمد عليهم في حكمها ووجودها فيه. لذلك اوعزت فورا الى الجنرال بأن يكبح جماح عواطفه وان يحضر القداس الاحتفالي كما جرت العادة.

الجنرال ويغان :
يربط الشرق بالبلقان

هناك خط عجيب في مسيرة «جنرالات الشرق».. اكثرهم جاء الى المنطقة مرتين. اكثرهم خدم في المشرق وفي المغرب العربي ايضا، او بالاحرى في «افريقيا الشمالية» كما سماها الفرنسيون والانكليز لمرحلة طويلة.

وليس من شك في ان الجنرال ويغان كان من ابرز العسكريين الذين عرفتهم المنطقة، اذ قبل الحرب العالمية الثانية كان مفوضا ساميا لفرنسا في سورية ولبنان.. ومع نشوب الحرب عاد الى الشرق كقائد اعلى للقوات الفرنسية في الحوض الشرقي للمتوسط ومقره بيروت.

وحين عمل كمفوض سام في لبنان اشتهر الى حد بعيد بالاعتدال بالنسبة الى اسلافه. غير ان الدور الاكثر اهمية هو ذلك الذي لعبه خلال الحرب نفسها.. وهنا نترك للجنرال ويغان نفسه يروي لنا كيف جيء به من التقاعد الى.. الشرق:

– بلغت سن التقاعد يوم ٢١ – كانون الثاني/يناير ١٩٣٥ وتوقفت عن المشاركة في اي اجتماعات عسكرية على الرغم من اني ضمنت حق الاستمرار في العمل العسكري بصرف النظر عن السن تقديرا لما حققته في الحرب الكونية الاولى .. غير انني بسبب طباعي وتكويني لم اعد اتدخل في شؤون الرجل الذي خلفني، ولم اكلف خلال خمس سنوات في الحياة المدنية بأي مهمة رسمية باستثناء الوفد الذي مثل فرنسا في حفل زفاف ولي عهد ايران في نيسان/ابريل ١٩٣٩، وخلال عودتي من هناك توقفت في تركيا ورومانيا في مهمتين ديبلوماسيتين وفي آب/اغسطس ١٩٣٩ كنت مع عائلتي في منزلنا في مقاطعة «بريتاني» نراقب بقلق التطورات في اوروبا، وفي الثاني والعشرين من ذلك الشهر تلقيت رسالة من الجنرال غاملان، يطلب مني ان اوافيه الى باريس، وفي الساعة الرابعة في اليوم التالي كنت في مكتب غاملان في شارع الانفاليد في باريس، حيث ابلغني انه ينوي

ان يقترح على رئيس الوزراء وزير الدفاع ادوارد دالاديه تسميتي «شخصية عسكرية رفيعة»، وارسالي الى الشرق الادنى لكي اتولى تنسيق عمل القوات الفرنسية هناك، اذا دعت الحاجة الى قيامها بأي تحرك.

وقال لي الجنرال غاملان: «لم اتقدم بهذا الاقتراح بعد لأني اريد معرفة موقفك منه اولا».

وافقت من دون تردد.

وقد اتى عرض الجنرال غاملان بعد سنة من الطلب الذي تقدمت به الى وزير الحربية ايلول/سبتمبر ١٩٣٨ للسماح بعودتي الى الخدمة العسكرية اذا ما اندلعت الحرب .. فقد كنت اشعر على الرغم من اني بلغت الحادية والسبعين، اني مازلت املك شيئا اقدمه، وان البقاء من دون عمل امر لا يمكن لي التسليم به.

ولعل افضل ما في هذا العرض الذي يقدمه غاملان الان انه سوف يضعني في منطقة اعرفها تماما، ذلك انني شغلت بين العامين ١٩٢٣ و١٩٢٤ منصب المفوض السامي الفرنسي في بيروت.. كذلك فان التنسيق مع القيادة البريطانية لم يكن امرا يشغلني لأني تعودت عليه في الحرب العالمية الاولى، يضاف الى ذلك ان مهمتي الديبلوماسية في انقرة وبوخارست كونت لي من المعارف والاتصالات ما يكفي لتسهيل التعاطي مع دول البلقان.

عدت من باريس الى منزلي في «بريتاني» لكي اتم الاستعداد للقيام برحلة طويلة الامد وصباح يوم الجمعة تلقيت التعليمات لأكون في باريس في اليوم التالي، فبلغناها انا وزوجتي بعد ظهر السبت ٢٦ آب/اغسطس ولكننا لم نصل في الوقت المناسب لتوديع ابننا جاك الذي غادر بدوره مع قوافل القوات العسكرية المتجهة الى القتال.

وعندما توجهت الى مكاتب المجلس الاعلى للحزب في الانفاليد استقبلني الجنرال غاملان وسلمني رسالة التعيين الصادرة عن دالاييه. تقول الرسالة: «تم تعيين الجنرال ويغان قائدا عاما للقوات الفرنسية في شرق المتوسط في حال حصول تعبئة عامة.

وتوضع بلدان المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي ضمن نطاق المناطق العسكرية بموجب المادة ٤٣ من القانون الصادر في ١٣ تموز/يوليو ١٩٢٧.

ويكون الجنرال ويغان مسؤولا عن تنسيق اعمال بعثاتنا العسكرية لدى الجيوش التركية واليونانية واليوغسلافية والرومانية. ويكون الجنرال ويغان على اتصال مباشر بالقائد العام في مصر الذي يعطيه اي توجيهات بشأن التنسيق المحتمل مع القوات البريطانية الموجودة في بلاد المشرق».

حملت هذه الرسالة الى جانب توقيع دالاديه، توقيع رئيس الجمهورية ايضا..

بقيت بعيدا عن الجيش والحياة العسكرية اربع سنوات ونصف السنة، فلم اعد املك المعلومات الكافية التي تخولني انتقاء خيرة الضباط لمساعدتي في مهمتي، لذلك طلبت المشورة وتمنيت ان توضع تحت امرتي مجموعة من الضباط قليلة العدد على ان يكون افرادها من اصحاب الخبرة والمهارة.

تركت مطار لوبورجيه في الثامنة من صباح التاسع والعشرين من آب/اغسطس بعدما تم انجاز ترتيبات الرحلة الى بيروت بسرعة، وبعد اجتماعي مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ومدير عام وزارة الخارجية، حطت بنا الطائرة في مرسيليا في الحادية عشرة، حيث كانت تنتظرنا طائرة من طراز «داوتني» اعطيت الاذن بابقائها في سورية الى ان توضع في تصرفي طائرة خاصة.

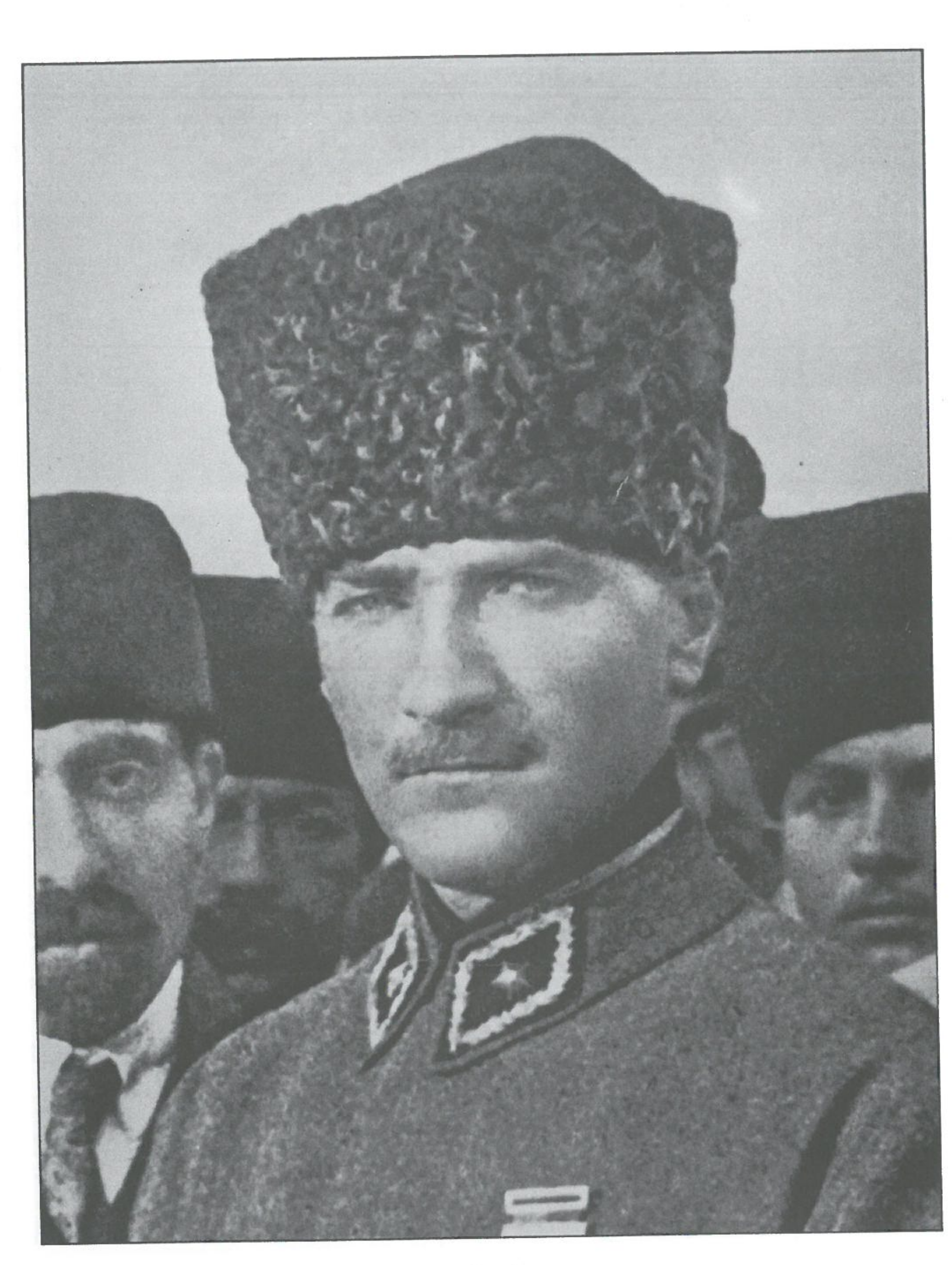
كانت محطتنا الاولى تونس، والثانية مالطا حيث تعرضنا لبعض التأخير فلم نغادر الجزيرة الا في السابعة مساء ووصلنا الى الاسكندرية في الواحدة فجرا في ٣٠ آب/اغسطس.. خلدنا الى الراحة قليلا في الاسكندرية ثم تابعنا الرحلة وحطت الطائرة في بيروت في العاشرة صباحا، اي بعد ست وعشرين ساعة من السفر.

فور وصولي الى بيروت استدعيت المسؤولين المدنيين والعسكريين الى اجتماع شرحت فيه طبيعة مهمتي ومسؤولياتي في حال اندلاع الحرب... وكان الجنرال غاملان قد اعطاني تعليمات سرية بشأن مهمتي قبل سفري الى بيروت، هذا ملخصها:

«سوف يبذل الجنرال ويغان كل ما في وسعه لتنسيق عمليات الجيوش الحليفة في منطقة البلقان وشرق المتوسط، وعلى الجنرال ويغان ان يأخذ في الاعتبار ان قيادة القوات البحرية هي من صلاحية السلطات البريطانية في شرق المتوسط، على ان يكون الاتصال بين الجنرال ويغان والقوات البحرية الفرنسية عبر قائد هذه القوات.

تكون مصر مركزا للعمليات في كل من مصر وجيبوتي وعدن وبلدان المشرق، ويكون القائد العام للقوات هناك انكليزيا، الامر الذي يوجب على الجنرال ويغان تلبية طلبات هذا القائد في ما يخص تنسيق عمليات القوات الفرنسية في بلدان المشرق، واستعمال اراضيها من قبل القوات البريطانية».

من ناحية اخرى كان بإمكاني الاسترشاد بمحتوى الضمانات التي اعطتها فرنسا وانكلترا للحكومة اليونانية والرومانية، ومفادها: «اعطت الحكومتان الفرنسية والانكليزية ضمانة لليونان ورومانيا بمدهما بكل مساعدة متوافرة في حال حصول ما تعتبرانه تهديدا لاستقلالهما يستوجب المقاومة بالقوة».



مصطفى كمال

في ٣١ آب/اغسطس اجتمعت في الاسكندرية بترتيب من الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة المسيو دو ديتاس بالقائم بالاعمال البريطاني نظرا الى غياب السير مايلز لامبسون كما التقيت الجنرال السيد ارشيبالد ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط، والاميرال السير اندرو كاننغهام، اضافة الى قائد سلاح الجو الملكي في المنطقة.. وشرحت للضباط الثلاثة طبيعة مهمتي في حال اندلاع الحرب مركزا على نقاط ثلاث:

١ - المشاركة الفرنسية في الدفاع عن مصر، وحجم القوات الفرنسية المتوافرة لهذه المشاركة، متمنيا على الجنرال ويفل ابقاء هذه القوات في تصرفي، الا اذا كانت حاجته اليها ملحة جدا.

٢ - الاهمية الواجب ان نعطيها لمدينة سالونيكا اليونانية وهو امر وافقني عليه الضباط البريطانيون.

٣ - امكانية استخدام قبرص من قبل القوات الجوية الفرنسية على الرغم من اعتبار الجزيرة نقطة ضعف لكونها غير محمية كما يجب.

كان الجنرال ويفل احد ابرع القادة العسكريين البريطانيين، وقد عمل خلال الحرب العالمية الاولى ضمن بعثة عسكرية بريطانية في القفقاز، كما شغل منصب رئيس الاركان للفيلد - مارشال اللنبي في الشرق الادنى.. والجنرال ويفل رجل ذكي، مخلص ومجرب في امور الحرب.. اما الاميرال اندرو كاننغهام فكان معروفا عنه انه عسكري ديناميكي ونشيط، وبعدما التقيته ثبت لي صحة ما يقال..

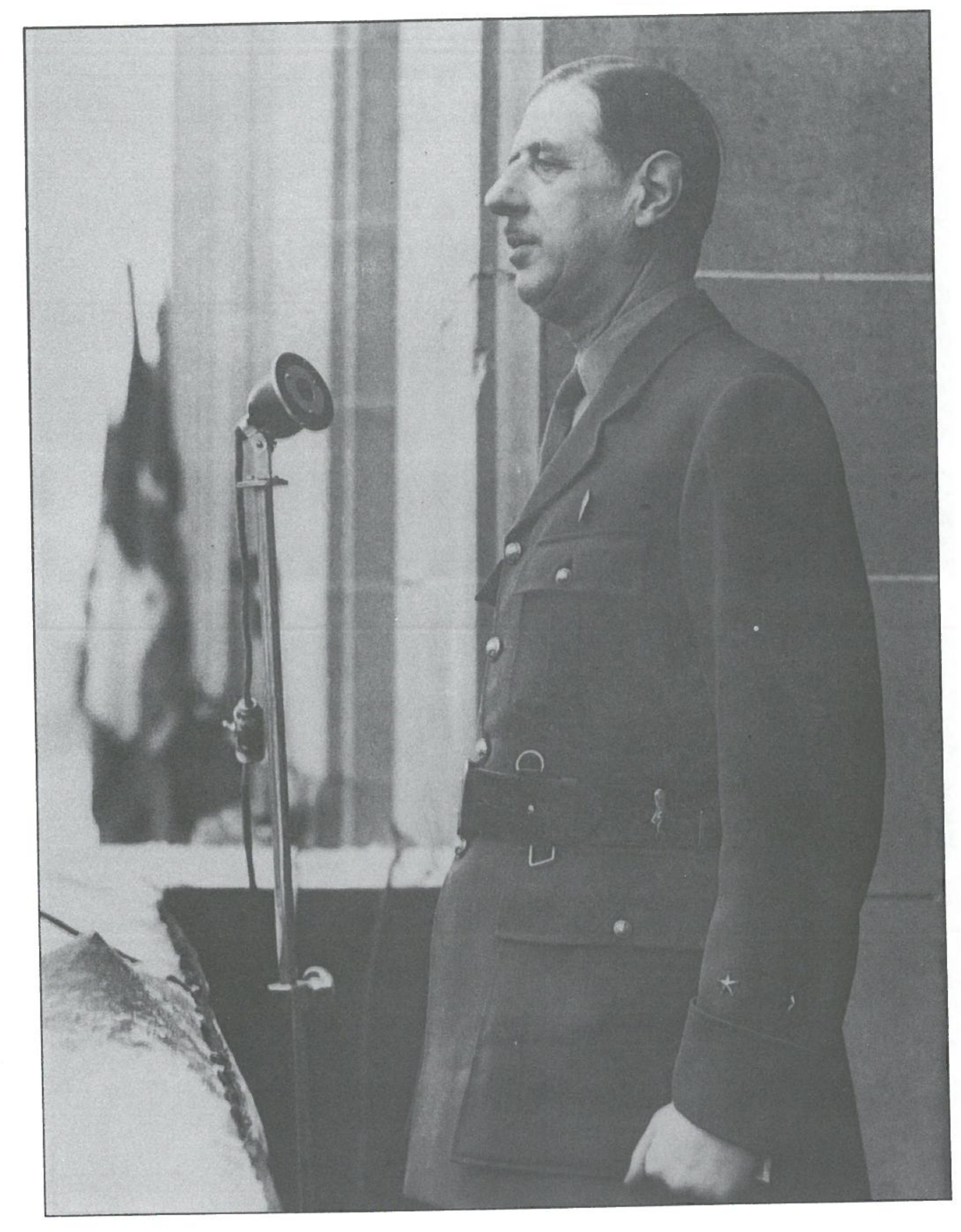
باختصار شعرت بالارتياح بعد اجتماعي الى القادة العسكريين البريطانيين لأني ادركت اني اتعامل مع رجال جديرين بالثقة، وهكذا اتفقنا على امور عدة من بينها مسألة ضباط الارتباط في القاهرة وبيروت.. وبعد اسبوعين من ذلك وصل الى بيروت الكولونيل سالزبوري جونز الذي شغل مركز ضابط الارتباط فيها قبل خمسة عشر عاما عندما كان برتبة نقيب، وكنت يومها المفوض السامي، والحقيقة اني سررت كثيرا بالاختيار الموفق للقيادة البريطانية.

قبل وصول الكولونيل جونز وبعد عودتي الى مصر حصلت اشياء عدة بعضها يستحق التسجيل.. ففي اليوم الاول من عودتي الى بيروت ارسلت برقية الى الجنرال غاملان ابلغه فيها بمضمون اجتماعي مع القادة البريطانيين، وبالنقاط الواجب الاتفاق عليها مع لندن. وعلمت ان الثلاثة اصدروا مذكرة بالمعنى نفسه وارسلوها الى حكومتهم في لندن.

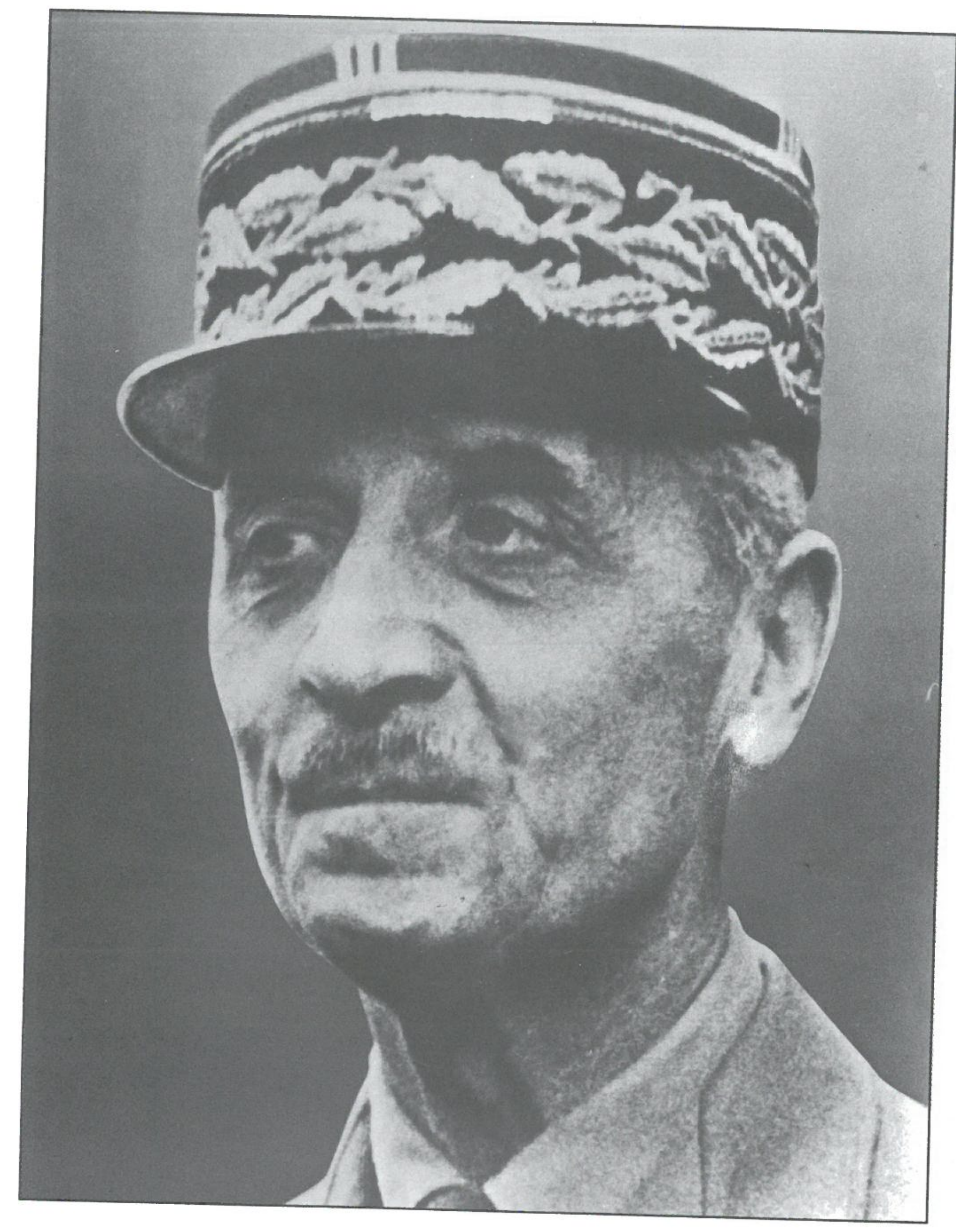
بعد ظهر اليوم نفسه بلغنا ان فرنسا اعلنت التعبئة العامة في مختلف اراضيها ومستعمراتها والبلدان المنتدبة عليها، اثر شن غارات جوية المانية على بولندا.



الماريشال إدموند اللنبي

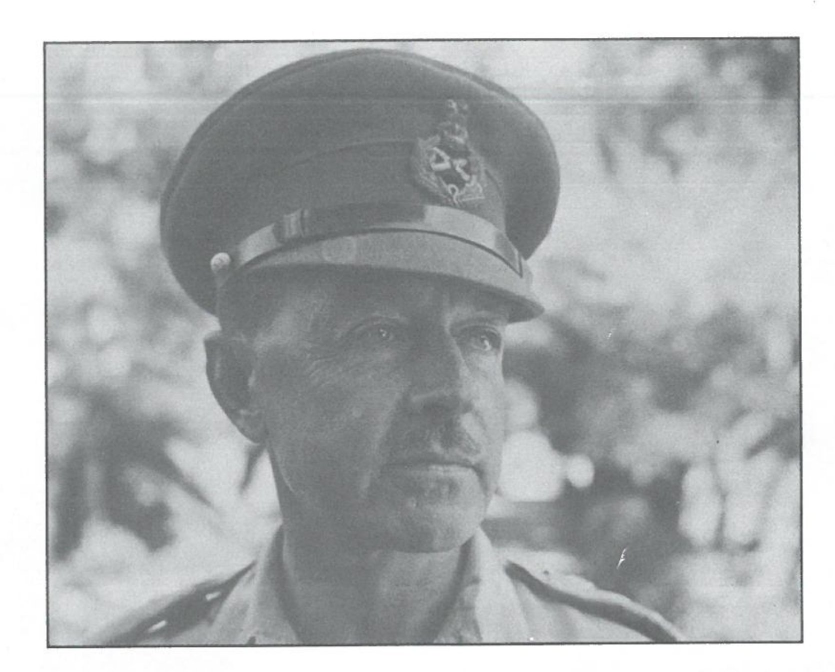


الجنرال ديغول



الجنرال جورج كاترو

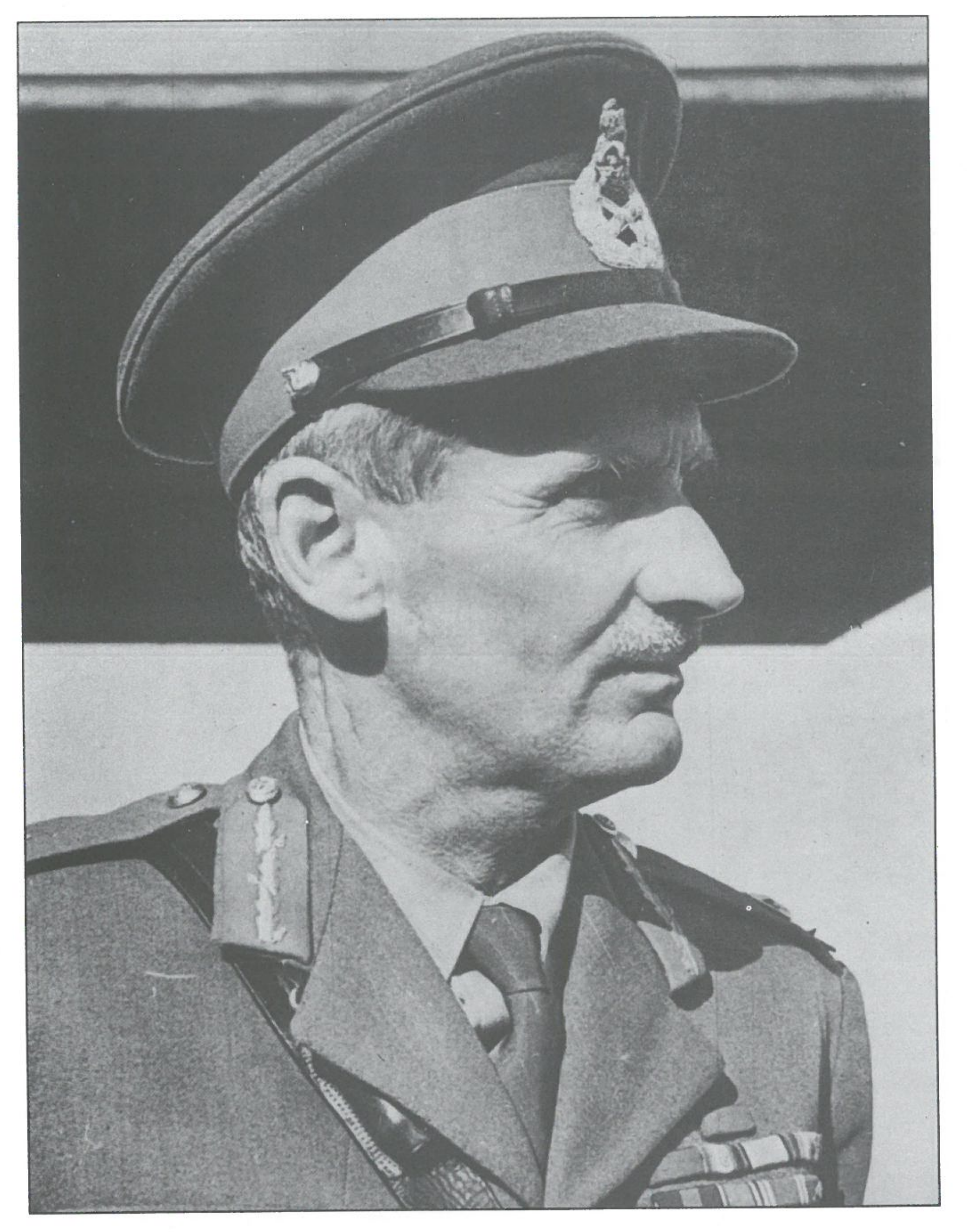
الماريشال اروين رومل



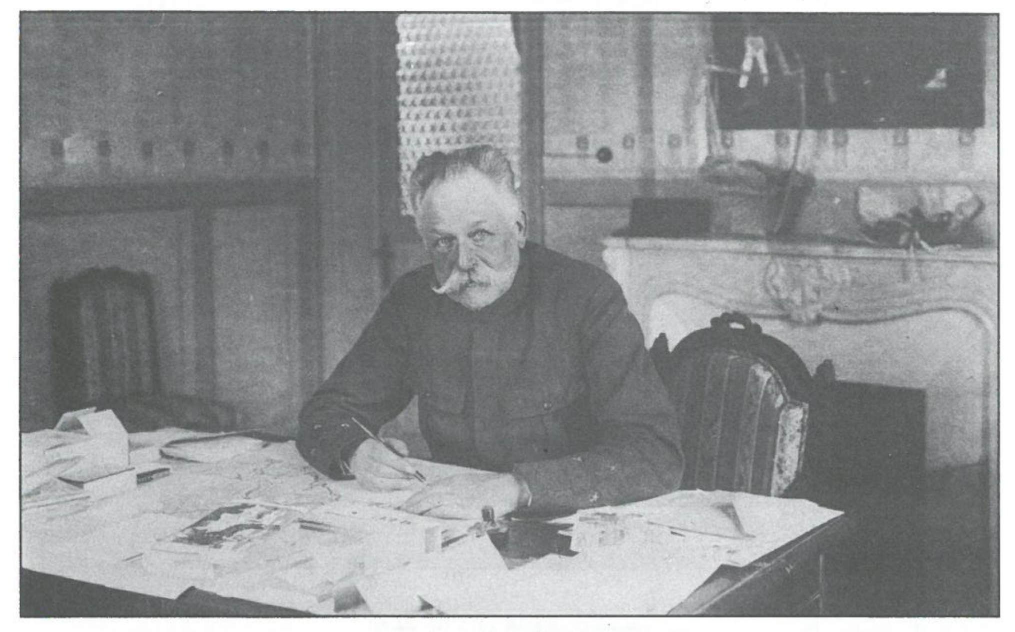
الفيلد مارشال هارولد ألكسندر



الماريشال كلود أوكينلك



الجنرال مونتغمري



الجنرال بول ساراي



مدرعات بريطانية في الرمادية عام ١٩١٧

في اليوم التالي اجتمعت في السرايا الكبيرة مع المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسورية غبريال بيو، والجنرال كابيو قائد القوات العسكرية هناك، والاميرال كاربانتييه قائد القوات البحرية في بلاد المشرق، واتفقنا خلال الاجتماع على النقاط التفصيلية لتوزيع الصلاحيات ولطبيعة مهمتي. وشددت امامهم على وجوب حماية الوضع الاقتصادي والمعيشي لئلا تتكرر مآسي الحرب العالمية الاولى، مركزا على ضرورة تأمين القمح للناس ومنع اي محاولة للاحتكار.

في ٣ ايلول/سبتمبر علمت ان وزارة الخارجية الفرنسية اتصلت بالحكومة اليونانية للوقوف على مدى استعدادها للسماح للقوات البحرية الفرنسية باستعمال قاعدة سالونيكا.. وطلب مني الاتصال بالسلطات العسكرية التركية بشأن استخدام قاعدة سميرنا او غيرها.

توجهت الى انقرة جوا واستقبلني في المطار السفير الفرنسي هناك المسيو ماسيغلي الذي عملت معه لفترة. وكان ماسيغلي خبيرا بشؤون تلك المنطقة ومؤيدا لقيام فرنسا بتحرك ما في البلقان في حال اندلاع الحرب.

مكثت في انقرة اربعة ايام قابلت خلالها رئيس الجمهورية عصمت اينونو، ووزير الخارجية سارادج اوغلو، والمارشال شاكماك. فوجدت لديهم تصميما على ابقاء منطقة البلقان في منأى عن السيطرة الالمانية وشيئا من الاسف والعتب لتأخر العتاد الحربي الفرنسي في الوصول الى تركيا. واوضح المارشال شاكماك ان الجيش التركي يعاني من نقص في المدفعية المضادة للدبابات والمضادة للطائرات، وفي الدبابات والعربات المدرعة والطائرات.

واثناء وجودي في انقرة قابلت الكولونيل دوفاس رئيس شعبة العمليات في الجيش اليوناني، الذي اوفده رئيس اركانه الجنرال باباغوس خصيصا ليطلعني على التدابير التي اتخذتها اليونان للدفاع عن اراضيها. فاعربت له عن اعجابي لهذه التدابير وعن ضرورة انشاء جبهة موحدة في البلقان لمواجهة الالمان وربما الروس. مشيرا الى اهمية قاعدة سالونيكا بالنسبة الى قوات الحلفاء. وفي المقابل شدد دوفاس على وجوب تزويد الجيش اليوناني بالاسلحة التي طلبها من فرنسا وبريطانيا.

وجدت لدى تركيا واليونان وكذلك لدى رومانيا تخوّفا من مواجهة المانيا من غير اسلحة فعالة، ولعل هذا التخوف خلق شيئا من التحفظ والتردد في مواقف هذه الدول.

وكان للموقفين الروسي والايطالي الغامضين دور اساسي في توجه دول البلقان. وايطاليا بوجه خاص حيرت الدول المعنية، حتى ان انكلترا اعتبرت انها ميالة الى السلام وانها لن تشارك الالمان في اي حرب محتملة.

اما انا فقد ذهبت الى انقرة وفي ذهني تصور اخر للموقف الايطالي، اذ كنت اعتبر ان

روما تتصنع الحياد والمسالمة عمدا وبشكل منسق مع الالمان يمنحهم حرية الحركة في منطقة البلقان، وان الايطاليين سيدخلون الحرب متى وجدوا الوقت المناسب. ولم تغير زيارتي لانقرة شيئا في تصوري، بل على العكس بت اكثر اعتقادا بوجوب السيطرة على سالونيك فور حدوث ما ينبئ باشتعال نار الحرب.

ومن المفيد التذكير بالموقف التركي ازاء روسيا، اذ اعرب لي المسؤولون الاتراك عن اعتقادهم بأن هتلر ما كان ليجرؤ على اجتياح بولندا لو كانت هناك معاهدة بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، مخافة الدخول في حرب على جبهتين. واللافت ان الرأي التركي جاء في وقت كانت روسيا اكثر ميلا للجانب الالماني، وكأن انقرة تلقت معلومات من روسيا تنبئ بأن الروس سوف يغيرون موقفهم.

من انقرة ارسلت الى باريس التقرير الاتي: «يبدو ان الحكومتين الفرنسية والبريطانية لم تتوصلا بعد الى توافق بشأن قيادة الحرب في الشرق الادنى، او ان تعليماتهما بهذا الشأن لم تبلغ المسؤولين المعنيين».

من ناحية اخرى تعتبر دول البلقان انها لا تملك القدر الكافي من المعلومات، وانها تعاني من نقص في العتاد العسكري، والتذمر من هذا النقص ولد لديها موقفا خجولا.

وبما ان اي تدخل مفاجئ لايطاليا في الحرب يعرضنا للخطر الشديد في منطقة البلقان، يغدو من واجبنا الاستفادة من الوقت المتوافر لاتمام الاستعدادات التي تكفل التدخل القوي والسريع من جانبنا.

ان المفاوضات البطيئة والسرية لن تحقق لنا نجاحا في المشرق، بل إنها ستضعف موقفنا في البلقان وتحرمنا القدرة على المناورة. من هنا يصبح لزاما على فرنسا وانكلترا بعد اتفاقهما على تصور واحد للمعركة في الشرق الادنى العمل الجاد على انتزاع الموافقة على التعاون الكامل في دول البلقان.

لكن ذلك لن يصبح ممكنا من دون تحقق شرطين، هما: ازالة خوف هذه الدول من تهديد المحور عبر مدها بالاسلحة الحديثة، والاستعداد الجدي لتدخل عسكري كبير لقوات الحلفاء في سالونيك».

طالما اعتقدت بأن تفوقنا على المانيا غير ممكن الا اذا ارغمناها على القتال على جبهتين. وما حصل في الحرب العالمية الاولى هو اكبر دليل على ذلك، فماذا كان ليتحقق في «المارن» او حتى «فردان» لولا اندفاع الجيش الروسي في الجبهة الاخرى. والكل يعلم ان هذه المعادلة اثبتت صحتها في الحرب العالمية الثانية، التي لعب الروس فيها دورا حاسما.

ولكن لنرجع قليلا الى الوراء حيث كنا لنقول ان الاتفاقية التي وقعها الالمان والروس لم تكن في الحقيقة الا وسيلة لكسب الوقت استخدمها الطرفان.

ولكن سرعان ما تبين لالمانيا ان عنصر الوقت ليس عائقا، اذ خلال اقل من شهر كانت الجيوش الالمانية قد احتلت فرصوفيا وازالت الجيش البولندي من الخارطة العسكرية، بينما لجأت الحكومة وقيادة الجيش الى رومانيا، وبقي الشعب البولندي وحده يواجه ذل الاحتلال.

بعد عودتي من تركيا الى بيروت اجريت بعض الحسابات العسكرية، فحذفت اولا احتمال وقوف الروس الى جانب الحلفاء الذين كانوا على وشك توقيع معاهدة سياسية وعسكرية مع تركيا، كما ان فرنسا وبريطانيا اعطتا رومانيا واليونان ضمانة خطية، في حين ان المؤشرات السياسية كانت تنفي وقوف يوغوسلافيا الى جانب المانيا.

هكذا كان بوسعنا الاتكال على اكثر من ١٠٠ فرقة عسكرية تعضدنا في وقف اي زحف الماني في اتجاه سالونيك. لكنني كنت اشعر مع ذلك بوجوب ارساء القواعد الصلبة والسليمة لتعاون اوسع نطاقا، يؤدي الى انشاء جبهة عسكرية موحدة في البلقان يكون للقوات الفرنسية والبريطانية فيها دور اساسي ومباشر.

الجنرال دنتز :
فرنسا تنقسم في دمشق
وتساعد الكيلاني في العراق

بين ١٨ و ٢٠ نيسان/ابريل ١٩٤٥ تجمعت باريس لحضور محاكمة هنري فرنان دنتز، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان والرجل الذي كان يمثل حكومة فيشي حين دخلت قوات «فرنسا الحرة» الى المشرق! وليست هناك كتب كثيرة او قليلة عن حياة دنتز، باستثناء الكتاب الذي روى وقائع محاكمته ومحاكمة الاميرال استيفا! على ان وقائع المحاكمة ومطالعة دنتز امام هيئة المحكمة العليا، تشكل واحدة من اهم القراءات والتحليلات السياسية لتلك المرحلة وربما من افضل ما قيل في كتب العلوم السياسية عن مرحلة الصراع الفرنسي - الالماني - البريطاني في المشرق.

يصف الكتاب بدء المحاكمة في ١٨ نيسان/ابريل بالقول إن دنتز الطويل القامة النحيل الجسم دخل القاعة متعبا شبه منهك. وحين طلب منه القاضي ان يقف استأذنه بالبقاء جالسا فسمح القاضي بذلك . غير ان هذا الرجل المتعب (٦٣ سنة) ما لبث ان انتفض واقفا ليعلن اسمه وهويته: «دنتز، ٦٣ عاما، جنرال في الجيش، حامل وشاح ضابط اكبر في جوقة الشرف، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان والقائد الاعلى السابق لجيوش المشرق».

ثم بدأ المدعي العام في قراءة القرار - الرواية:

«تلقت الهيئة الاتهامية في محكمة العدل العليا في ٤ نيسان/ابريل ١٩٤٥ التقرير التالي:

«ان الهيئة الاتهامية التابعة لمحكمة العدل العليا، المنعقدة تحت اسم الغرفة الاتهامية، وبموجب الامر الصادر في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤، قد اجتمعت في ٤ نيسان/

ابريل ١٩٤٥ للتداول في المسألة الموجهة ضد دنتز (هنري - فرنان) وغيرار (جاك) الفار (...) وبعد المداولة تبين انه تجمعت ضد هذا المتهم دلائل كافية، انه خلال عمله مفوضا ساميا في سورية ولبنان وقائدا اعلى للقوات المسلحة هناك اقدم، بالتعاون مع الموظفين «ران» و«غيرار» على تقديم المساعدة للعراق في ثورته ضد انكلترا، وقدم التسهيلات للالمان من اجل استخدام المطارات السورية وتقديم المؤن الضرورية لطيرانهم.

«وكذلك ساعد في ظروف مشابهة على نقل اسلحة مخزونة من سورية الى العراق، وقاد وساهم في معركة دموية ضد قوات فرنسا الحرة والقوات الانكليزية الحليفة. واتفق ايضا مع «ران» على منح القواعد الضرورية للقوات الالمانية لكي يمكنها من قصف القوات البريطانية من الداخل وكذلك قوات فرنسا الحرة، ولذلك فهو متهم بالتخابر مع العدو من اجل ترجيح قوته وهي جريمة يعاقب عليها بموجب المادة ٧٥ من قانون العقوبات».

بعد قراءة القرار الاتهامي يفتتح رئيس المحكمة، القاضي مونيبو، المحاكمة بالقول:

* رئيس المحكمة الاول: في تلك الساعات المظلمة من تاريخنا، كنت حاكما عسكريا على باريس اذ كانت تلك لحظة انكسارنا وقد وضعت لفترة قصيرة على ما اعتقد في السجن الالماني، وبعد اطلاق سراحك بعثت بك الحكومة حاكما عسكريا على مرسيليا تقديرا لك. ولأنك كنت معاونا للجنرال ويغان في سورية فان الحكومة جعلتك فيما بعد مفوضا ساميا هناك. وقد توجهت الى منصبك على ما اعتقد في نهاية العام ١٩٤٠.

* دنتز: ذهبت في ١٦ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٠

* رئيس المحكمة الاول: كانت تسود سورية حالة دقيقة جدا وصعبة جدا لم تكن تتطلب، في رأيي، الليونة بل السلطة والحزم والعزم على خدمة فرنسا لا اوروبا. ومن سوء حظك في هذه المرحلة ان المانيا، التي بدأت السعي نحو هدفها بالسيطرة الكونية والى تخريب الوضع في انكلترا. يجب ان تتذكر ان انكلترا كانت تحارب وحيدة وانها كانت وحدها المدافعة عن الحريات في العالم، واذا كان لا بد من الحاق الاذى ببريطانيا ومقدرتها على المقاومة، فالافضل ان توجه لها الضربة في هذا الموقع ومن سوء حظك ان الطريق الى الهند وقناة السويس تمر في سورية.

لا تمر في سورية فقط طريق الهند وطريق السويس بل تمر فيها ايضا ما اسميه طريق النفط، وطريق النفط كانت في اهمية الطريق المؤدية الى السويس او الى الهند.

هناك ايضا، في مثلث صغير من آسيا الصغرى، بلد يدعى العراق، هذا البلد وضعته عصبة الامم تحت الوصاية الانكليزية. هذا البلد بدأ بالتململ بسبب ما نسميه الطابور الخامس المسنود الى الديبلوماسية الالمانية القمعية لكنها ليست من غير ذكاء. وقد بدأ هذا

الطابور بالقيام بعمل يمكن ان يكون قاتلا لمصالح بريطانيا في العراق، ونتيجة ذلك قامت في العراق ثورة ضد الانتداب.

اريد ان اعرف منك عند هذه النقطة ماذا كانت سياستك في العراق خلال الثورة وما هي التعليمات التي كنت تتلقاها من حكومة فيشي. كيف فهمتها وكيف نفذتها.

* الجنرال دنتز - كنت قد خدمت في سورية ولبنان في السابق كرئيس لجهاز الاستخبارات مع الجنرال ويغان ثم بقيت عاملاً مع الجنرال ساراي ومع المسيو دو جوفنيل. وبعد ذلك حل مكاني في هذا الموضع الجنرال كاترو. حين وصلت الى سورية أول مرة في العام ١٩٢٣ قلت للجنرال ويغان انني اعرف القليل عن السياسة الداخلية في سورية، فقد جئت الى هناك من اسطنبول حيث عملت لمدة عامين ايضا رئيسا للاستخبارات وشهدت شيئا من الصراعات الاوروبية، لكنني لم اكن اعرف شيئا عن السياسات الداخلية في سورية. قلت يومها للجنرال ويغان بالحرف:

«انك سوف تعينني رئيسا لجهاز الاستخبارات اي مديرا سياسيا للمفوضية السامية. الا انني لا اعرف جيدا المسألة الداخلية».

ورد علي بالقول: «ان هذا لا يهمني. المسألة الداخلية سوف اتولاها بنفسي. لكن هناك شيء الاحظه وهذا ما هو مهم لدي، وهو ان جميع الخضات في سورية ليست نتيجة موجات تولد في سورية بل في جميع الدول العربية وجميع الدول الاسلامية وخصوصا مصر. لذلك انا بحاجة الى رئيس استخبارات يعرف اطراف سورية، اما الداخل فانا اتولاه، لأنني الاحظ انه من الخارج يأتي الخطر كله وجميع التأثيرات التي تجعل عملنا صعبا في سورية».

لقد بقيت هذه الجملة محفورة في نفسي، خصوصا انها تفسر كذلك بعض النقاط التي كانت تعدل موقفي فيما بعد. لقد ذهبنا الى سورية بموجب الانتداب الذي اعطتنا اياه عصبة الامم في سان ريمو في العام ١٩٢٠ حين اعطت ايضا لبريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين.

ان انكلترا التي تتبع سياسة خارجية اكثر ليونة من سياستنا بكثير انهت انتدابها على العراق فورا. لقد قلت للتو يا سيدي الرئيس في مطالعتك ان العراق كان تحت الانتداب البريطاني، اسمح لي ان اعترض. ان الانتداب البريطاني على العراق منته، بل هو انتهى تقريبا قبل ان يبدأ. اذ ما ان دخل الانكليز الى العراق حتى شعروا انه يجب ان يفعلوا ذلك: لقد اقاموا حكومة، ووضعوا دستورا حديثا وانشأوا مجلس نواب ومجلس شيوخ، ثم اعطوا العراق الاستقلال وادخلوه عصبة الامم.

ان الذي كان قائما بين انكلترا والعراق هو معاهدة! معاهدة يكون من خلالها لانكلترا بعض الميزات وتتعهد بموجبها دعم العراق، على الا تتجاوز قوتها العسكرية هناك، في اي وقت من الاوقات حجما معينا! ان عدم تطبيق هذا البند كان مبرر – وليس بسبب – الثورة في العراق. في اي حال الانتداب على العراق انتهى وبقي الانتداب على فلسطين: وهذا يوصلنا الى الانتداب في سورية ولبنان. وهنا دعني اسجل ملاحظتين.

الملاحظة الاولى : لقد وصلنا الى سورية تحت يافطة ليس من الضروري ان تكون هي الامثل، وطالما حاولنا ان نحول هذه اليافطة الى راية. لقد جئنا كحماة للمسيحيين.

هذه نقطة انطلاق خاطئة. ان جزءا من لبنان مسيحي لكن سورية في مجملها عربية محمدية. وبالتالي فانه بمجرد ان دخلنا الى سورية كحماة للمسيحيين قد وضعنا سياستنا في مأزق وكان ذلك سبب الكثير من الصعوبات. وذلك كله لم يكن شيئا. ولا بد لك ان تتذكر انني بحكم مسؤوليتي كنت اتلقى البرقيات التي تبعث بها حكومة فيشي! انا الذي كنت اراقب حكومة فيشي.

هذه اذن كانت الصورة السياسية العامة. ودعني الان اقول بضع كلمات، من وجهة نظر فرنسية، حول الوضع في سورية كما وجدته حال وصولي. لقد وجدت البلد منقسما تماما: من جهة الجالية الفرنسية التي كانت تحتاج الى كل عناية، ومن جهة اخرى السوريين واللبنانيين. وسوف اعرض امامك اذن واقعين مختلفين.

الجالية الفرنسية كانت منقسمة جدا. اذ بالنسبة الى بعض اعضائها كان يتوجب على حكومة فيشي ان تطرد الجميع وكان هؤلاء يتهمون المفوضين السامين السابقين.

الا انني طبعا لم اوافق. وقد القيت كلمة من الاذاعة قلت فيها انني اعتمد على الجميع ولا اريد ان اخص احدا بشيء. لقد اردت تقدمية لا رجعية. وكما قلت فإنهم كانوا يزعمون ان ادارة الانتداب خاضعة لحزب سياسي من الماضي، وانا لم ارد ان اجعلها خاضعة لكنيسة، وقد برهنت عن ذلك بالاعمال.

لقد حافظت على جميع الموظفين على الرغم من الحملات عليهم. وبين اكثر الموظفين تعرضا للحملات كان المسؤول عن الارشاد العام المسيو بونور الذي كنت قد عرفته وقدرت مزاياه خلال اقامتي الاولى. كان المأخذ عليه هو ولاؤه للنظام الماضي ومقاومته للحكم الجديد. وقد منحته ثقتي وطلبت اليه تنظيم الشبيبة الفرنسية في المشرق... إلخ.

* رئيس المحكمة : انك تلاحظ انني لم اقاطعك لأنني اعتقد ان لك الحق في الادلاء بجميع الايضاحات. ان الدفاع هنا يجب ان يكون حرا.

* الجنرال دنتز: طالما تمنيت مجيء هذا النهار.

* الرئيس : ارجو ان نأتي الى النقطة الرئيسية (الاسلحة والطائرات الى العراق).

* الجنرال دنتز : سوف اصل الى ذلك الان، لكن مع استدارة قصيرة.

يجب ان اقر ان الوضع الداخلي في سورية لم يكن حسنا، وبالتالي فقد كان يتطلب كل عنايتي، وهذا يفسر كلمة كانت ترد دائما في جميع البرقيات ونجدها ايضا في جميع المناشير التي كانت توزع ضدي وهي كلمة «السر» الشهيرة! دعني اوضح: حين وصلت الى سورية كانت الضمانة السرية قد الغيت. ففي العام ١٩٣٩ مع بداية الحرب تم الغاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ ورئاسة الجمهورية واستبدلنا كل هذه المؤسسات بحكومات موظفين، وهذه الحكومات لم تكن تملك لا المقدرة ولا السمعة لتمثيل الرأي العام! لكن الشعوب السورية (التعبير لدنتز) قبلت بمثل هذه الحكومات مادامت ظروف الحرب تفرض ذلك، لكن بعد الهدنة وانتهاء القتال قالوا لانفسهم: الآن حان الوقت لأن نبحث عن شيء آخر.

رأيت نفسي انذاك امام وضع جديد. كانوا يقولون «خلصونا من حكومات الموظفين واعيدونا الى النظام البرلماني». حتى ان البعض ذهب الى ابعد من ذلك ليقول «هذا هو الوقت لاعلان الاستقلال الكلي للبلاد. الانتداب انتهى، فلنتجه بخفة نحو الاستقلال ونحو المصائر الجديدة».

لكن ثمة ظلا كان خلف ذلك كله والافق لم يكن جليا على الاطلاق. ففي داخل البلاد كانت هناك مؤامرات هائلة لا بد من تلافيها. كان لا بد من الحذر. فالرايخ كان يظهر الان في مظهر المنقذ المحرر! والرايخ هو الذي سيوحد البلاد العربية ويحررها ويحيي الامبراطورية العربية ! ذلك الاستقلال وتلك الامبراطورية لن تأتي بهما فرنسا – فهي الان مهزومة ضائعة النفوذ! اما بريطانيا فكانت في الذهن العربي الدولة التي بشرت بفكرة الانتداب وهي العقبة الاساسية في وجه الحرية، في حين ان الرايخ المنتصر، المقترب، الذي اصبح في اليونان وعلى ضفاف البوسفور هو المحرر.

في الوقت نفسه بدأت في سورية حملة بالغة العنف، وقد زاد في تحريك هذه الحملة موظف لم اطلب مجيئه في اي وقت، ارسلته اليّ حكومة فيشي، وزارة الخارجية في هذه الحكومة، هو السيد م. فون هنتنغ. جاء السيد فون هنتنغ الى سورية وبقي فيها من ١٥ كانون الثاني/يناير الى ١٥ شباط/فبراير. كان احد الخبراء في شؤون الشرق الادنى. وكنت اعرف تماما ماذا يفعل. وقد اتهمتني بعض المناشير بأنه يفعل بعض الاشياء باسمي. كنت اعرف ذلك تماما كما يعرفه واضعو المناشير . لكن الحقيقة انني كنت احاول ان اضبط من اعماله، في حين ان كل ما فعله واضعو المناشير هو انهم دوّنوا ذلك.

انصرف فون هنتنغ على الفور الى التجول في طول البلاد وعرضها وكان ذلك السبب في غليان شديد. وقد اجرت معظم الشخصيات الوطنية والسياسية اتصالا به، اما مباشرا او عن طريق اخرين. وبالاضافة الى الاحزاب القائمة شكلت حركة جديدة. وكان الطلاب التقدميون بصورة خاصة يشكلون تجمعات تهدف الى اقامة حزب يحل محل الاحزاب القديمة ومحل السياسيين الذين وصفوهم بأنهم «سياسيو مآدب».

وهكذا انفجر في دمشق وحلب في الثامن من شباط/فبراير نزاع طلاّبي: اضرابات في المدارس، اغلاق الاسواق، خطب عنيفة في المساجد ... الخ. اما فرنسا فكما قلت كانت مسحوقة وبريطانيا كانت عقبة في وجه الاستقلال العربي. كل الانظار كانت تتجه الى المانيا. وقد ظهرت صلبان معقوفة على جدران دمشق وبدأت مغازل السوق تصنع اعلاما هتلرية.

ابلغت السوريين ان اعلان الاستقلال لايزال سابقا لاوانه وانه يجب عدم المراهنة على المستقبل وان الحرب لم تنته بعد، وانني قررت في اي حال ان امنحهم كل ما يرضي مطامحهم الشرعية! اقدمت اذن على حل حكومة الموظفين وشكلت حكومة من السياسيين والبرلمانيين في دمشق وبيروت، ودعمت ذلك بتشكيل مجلس استشاري. باختصار مع بداية نيسان/ابريل كانت الحالة قد هدأت.

باختصار تجنبت عملا استقلاليا سابقا لاوانه من طرف واحد كذلك الذي وجدت فرنسا نفسها امامه في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٣ والذي كان يمكن ان ينفذ ضد فرنسا لحساب المانيا.

الان اصل الى موضوع الطائرات الالمانية.

في ٢ نيسان/ابريل قام رئيس المجلس العراقي السابق رشيد (عالي) الكيلاني بانقلاب يدعمه الجيش واتهم بريطانيا بخرق معاهدة السلام لكن من دون ان يعلن حالة الحرب ضدها، وعلى الفور قام غليان شديد في سورية، بعدما جاءت الشرارة من العراق. في هذا الوقت كانت المانيا في ذروة قوتها، انها سيدة كريت تمتد قوتها عبر ايطاليا وتحاذي الدردنيل، وبالتالي فهي في موقع القادر على التدخل في سورية.

هكذا ذهب عدو انكلترا القديم، مفتي القدس الاكبر، الى الحرب، يغلف الحملة على الاستعمار البريطاني بالدعوة الى الانضواء تحت لواء دول «المحور» المحررة. هنا ندخل، سيدي الرئيس، في جوهر الموضوع. ان هذا التهديد لم يفت مندوب انكلترا الذي كان المستر هافارد.

كنت، بعد وصولي الى سورية في ٢٩ كانون الاول/ديسمبر قد استقبلت جميع افراد

السلك الديبلوماسي المعتمد لدى المفوضية السامية. وكان بين هؤلاء القناصل العامون من جميع البلدان: تركيا، البرازيل، الارجنتين، السويد بل حتى اليونان، حتى بولونيا. وكان هناك مندوب عن القنصلين البريطانيين العامين في حلب ودمشق، والقنصل العام الاميركي، والمستر فون هنتنغ الذي كان في بيروت.

في لقاء الوصول وجدت المستر هافارد الذي بدأ محرجا جدا لكنني استقبلته بحرارة قائلا له بالحرف انني اتمنى قيام اطيب العلاقة مع مندوبي بريطانيا العظمى التي شاركت فرنسا في حربين ضد المانيا. وذهب المستر هافارد مطمئنا كل الاطمئنان.

في بداية الحرب كان (هافارد) قد قال لسلفي، المسيو بيو، ان بريطانيا لن تقدم اي مطالب ضد فرنسا في شأن بلدان المشرق خلال الحرب، لكن بعد الحرب يجب ان يفهم ان فرنسا لا تستطيع ان تحافظ على التميز الذي تحتله حتى الان، واننا سنلقى، في هذا الشأن، تعويضا حسنا. لكن هذا الامر لم يؤثر اطلاقا في علاقتنا وكنت استقبل المستر هافارد دائما في ود.

عندما جاء يزورني في ٢٩ نيسان/ابريل كان الوضع شديد الخطورة وكان للقلق البريطاني الذي عبر عنه ما يبرره. بل كنت اشاركه قلقه تماما: ان سيطرة دول المحور على بحر ايجه تمتد الى كريت ورودس. الحدود المصرية مهددة. العراق في ثورة عسكرية وان تكن غير مسلحة بعد. وفي مثل هذه الحال قد تفكر المانيا في هجوم على قبرص يجعلها تطوق حوض المتوسط الشرقي، واذ تقيم رابطا مع العراق، تسيطر على القواعد العسكرية البريطانية هناك الامر الذي يشكل كارثة لا حدود لها.

لقد كان الالمان على وشك ان يهاجموا قبرص. بل ان المستر هافارد قال لي انه قد يغريهم البحث عن موطئ قدم بمهاجمة المطارات السورية من اجل استخدامها في الهجوم على قبرص. الا انني طمأنته على الفور مؤكدا له انني لن اسمح باستخدام المطارات السورية لأي كان وانني سأحرسها بكل ما استطيع ضد اي هجوم مفاجئ. وعمدت على الفور الى نشر قوات مدرعة حول مطارات دمشق وحلب وبيروت. وابرقت الى فيشي بقراري هذا في الثاني من ايار/مايو. وفي هذه الاثناء قام المستر هافارد بزيارتي من جديد، معلنا امتنانه وشكر حكومته. وقلت للمستر هافارد التالي:

«حضرة القنصل العام،

«دعني اعرض لك الاجراءات التي اتخذتها، وقد اتخذتها على مسؤوليتي الخاصة لقناعتي بأنني في هذه القضية على حق. اذا جاء الالمان ونزلوا بالقوة على مطاراتي فعندئذ هم لا انا يتحملون مسؤولية خرق اتفاقات الهدنة. وعندها يحق لي ان اقاومهم. ولا بد ان

اخبرك انني احلت الامر على حكومة فيشي ولا ادري ما هي التعليمات التي قد تعطى لي، اذ في هذه الحال لا بد لي ان انفذ ولو جزئيا».

وافقني المستر هافارد على ذلك واضاف هذه الجملة التي اعتبرها مهمة: «بالطبع لا نتوقع منك التمرد».

هذه الجملة بالغة الاهمية لأنها توضح الامر كله. لقد جاء القول من فم المندوب البريطاني نفسه، حول استحالة مثل هذا السلوك. والواقع انه في ٢ ايار/مايو، اي يوم جاء المستر هافارد لزيارتي وقال هذا الكلام، انفجرت المعارك بين انكلترا والعراق، اذ هاجمت القوات العراقية القوات البريطانية المتمركزة قرب بغداد. وقد دعا الزعماء الدينيون في العراق شعوب الشرق الادنى الى الجهاد ضد انكلترا وقامت تظاهرات في كل المشرق بل وعلى الارض الانكليزية نفسها تأييدا للمتمردين العراقيين. وفي دمشق نفسها حطم زجاج القنصلية البريطانية.

ان الوقوف عكس التيار كان يعني دعوة الالمان فورا واستحضارهم الى الشرق الادنى! في حين ان المساعدة التي قدمناها للعراق – وسوف اثبت لكم ذلك – كانت وهمية ولا تساوي شيئا، سواء بالنسبة الى موضوع الطائرات او موضوع الاسلحة! ان انفجار المحاولة البريطانية – العراقية اثار المشاعر الى حد بعيد في سورية وحتى في لبنان حيث انفجرت التظاهرات المعادية في كل مكان. وكان يتوجب علي ان اضبط هذه الحركة بحيث لا تلحق الضرر بالمصالح الفرنسية في المستقبل تحت اي ذريعة من الذرائع، وان اسعى الى عدم استغلال هذه الاحداث من قبل الالمان بحيث يصبح لهم موطئ قدم في سورية.

واني امل ان ابرهن لك على ان هذه الاهداف قد تحققت.

* الرئيس الاول : عند هذه النقطة من مطالعتك احب ان اقدم اعتراضا لا شك يوافقني عليه حضرة المدعي العام: في هذه المرحلة التي تشير اليها القى الماريشال بيتان خطابا قال فيه ان فرنسا لا تنسى التزاماتها تجاه حلفائها السابقين وانها لن تقدم على اي عمل غير ودي تجاههم. لكن في امكاننا القول – ويوافقني المدعي العام على ذلك – ان حكومة فيشي استغلت السرية التي تتحدث عنها من اجل اتباع سياسة مزدوجة. اذ في الوقت الذي كانت حكومة فيشي تعلن انها لن تقدم على اي خطوة غير ودية تجاه انكلترا فقد كانت في صدد صفقات تعقدها مع المانيا، وهي صفقات ما لبثت ان انتهت الى تعاون عسكري بين فرنسا والمانيا.

في ضوء هذه التفسيرات، يمكن القول إن تلك الاحتياطات لم تكن سوى غطاء لتدخل عدد من الشخصيات الالمانية في المشرق والذي اتخذ حجما مقلقا خصوصا فيما يتعلق

بالمدعو «ران» الذي نراه في هذه المحاكمة كما رأيناه في محاكمة الاميرال استيفا حيث لعب الدور نفسه تماما. ذلك ان فرنسا في تلك المرحلة كانت موهومة بأن لها مفوضا ساميا في المشرق وكانت موهومة بأن لها مقيما عاما في تونس! لكن تبين ان المستشار الالماني ران كان رديف المقيم العام. ثم اننا نعود فنجد هذا المستر ران عندك في مرحلة يفترض فيها المحافظة على تلك السرية التامة ولذلك اقول لك. بل المدعي العام هو الذي يقول لك: «السرية تجاه من؟ تجاه انكلترا بالطبع».

في هذه الفترة كان يرافق «ران» عدد من الشخصيات الالمانية! وكانت البرقيات تحدد الشروط التي يجب ان يأتي فيها اولئك الالمان: ان يأتوا في ثياب مدنية! ان يأتوا خفية بحيث لا يعرف احد في المشرق بمجيئهم. اما ران نفسه فقضت التعليمات الا يأتي تحت اسمه الحقيقي بل تحت الاسم الفرنسي رينوار، اسم الفنان الكبير! ثم بعد مجيء الالمان السبعة او الثمانية بقليل وقعت ثلاث اتفاقات فرنسية – المانية سوف اعود اليها لاحقا. اذن، الى ماذا ادت الاحتياطات التي اتخذتها؟ لقد ادت، بالتأكيد، الى شعور بريطانيا بالقلق على مصالحها الحيوية. وقد تصرفت بريطانيا كما يجب وكانت النتيجة ما سمي انذاك وما سميته انت ايضا على الارجح، الاعتداء على المشرق. ان هذا العدوان على المشرق لم يكن سوى الدفاع الشرعي عن النفس. وهذا العدوان هو الذي ادى، كما تعرف، الى ان تطلق النار على الفرنسيين وعلى الانكليز.

* الجنرال دنتز: هناك شيء يجب ان اقوله. لقد تحدثوا عن اتفاقات وبروتوكولات، ان هذه الاتفاقات والبروتوكولات عرفت بها أول مرة خلال التحقيق.

* الرئيس الاول : لقد تلقيت برقيات تعكس هذه الاتفاقات. في هذه الاتفاقات يقولون: «لا نستطيع ان نعتبر المانيا عدوا بسبب اتفاق المهنة فاننا مرغمين على اظهار الكثير من الاعتبار لها. اما بالنسبة الى انكلترا فيجب الا نقوم بأي اعتداء عليها ولكن اذا اقدمت هي على ما يسمونه عدوانا – وهو في الواقع دفاع شرعي عن النفس – فلك الحق انذاك في اتخاذ كل الاجراءات الحربية الاكثر ضراوة ضدها.

* الجنرال دنتز – كنت اعارض بشدة جميع بنود الاتفاقات

* الرئيس الاول : والبرقيات التي تلقيتها بخصوص تلك الاتفاقات؟

* الجنرال دنتز : كانت مصاغة بغموض يترك لي حرية التصرف في حين ان البروتوكولات...

* الرئيس الاول : اعتقد ان في امكاني ان اقول لك شخصيا انه يصعب علي جدا الاخذ بنظرية الخيانة بسبب الاهمال. ومن الصعب جدا علي ان اقر بأن مفوضا ساميا، اي

الرجل الذي يفترض انه ذكي وحذر وذو مبادرات، والذي هو في الوقت نفسه عسكري من طراز رفيع ورجل سياسي واداري كبير، مثل هذا الرجل لا تثير تلك الاتفاقات شكوكه ولا يرد عليها على الفور.

* الجنرال دنتز : اجل ، لقد ارسلوها. لكننا سوف نرى في البرقيات نفسها، بأي طريقة استطعت ان اتصرف. بالنسبة الى قضية السر، لا يعني ذلك اطلاقا سرا على بريطانيا التي كانت دائما على اطلاع على ما يجري. اليك ما فهمته دائما على انه «سر»: لم ارد ان يدري السوريون بتلك الحركة، لقد وجدت نفسي امام ثورة سورية داخلية والسرية كان تطبق فقط على الناس في الداخل. لقد كان الهدف ان نحول دون سقوط الناس في احضان المانيا.

اما السر فيما يتعلق ببريطانيا، فقد كان الامر محددا بالنسبة الي. لقد وصل «ران» و«غيرار» الى حلب مساء التاسع من ايار/مايو واستقبلتهما صباح العاشر منه. في ذلك اليوم ايضا وصل الجنرال كاترو الى القدس، وتسلم الجنرال الانكليزي قيادة القوات البريطانية في القدس. اذن، مسألة السر فيما يتعلق بالانكليز قد سويت تماما. وسوف ترون ان الانكليز كانوا على اطلاع تام على ما يجري في مطاراتنا وكانوا يستعدون لنسف الاماكن التي ليس فيها المان. وهذا يثبت انه لم تكن هناك ضرورة للمحافظة على اي سر فيما يتعلق بالانكليز.

اما قرار السماح للطائرات الالمانية العاملة في العراق بالمرور في سورية، فقد اتخذه الاميرال دارلان في باريس في ٥ ايار/مايو.

في ٨ ايار/مايو وصلتني برقية من الاميرال دارلان تبلغني بوصول ضابط الماني في اليوم التالي، الميجور فون بلومبرغ المولج مهمة استطلاع المدرجات الصالحة للطيران. استدعيت قائد القوات البرية في دمشق واطلعته على المهمة وطلبت اليه ان يرد على السؤال المطلوب بقدر الامكان. ومن بعدها لم اعد اسمع شيئا عن بلومبرغ. كل ما اعرفه انه كان اوائل الواصلين الى سورية وانه ذهب من هناك الى بغداد حيث قتله جنود عراقيون.

في ٩ ايار/مايو كنت لا ازال في دمشق حين تلقيت اتصالا هاتفيا من المدعو غيرار الذي وصل الى حلب وطلب رؤيتي صباح اليوم التالي. لم يخطر لي ابدا ما هي مهمة هذا المسيو غيرار. فقد ظننت انه في الطريق الى جيبوتي. استقبلته بترحاب لكنني قلت له انني على موعد في بيروت ولن يكون في استطاعتي الاجتماع به سوى في الغد.

على انه قال لي «عفوا، لكنني قادم من باريس وقد جئت بطريق الجو. ان المسألة ملحة جدا ولا بد ان تستقبلني غدا في بيروت. وانا لست وحدي في اي حال». تساءلت من

ترى يرافقه. واخيرا تحت الحاحه قبلت وتوجهت صباح اليوم التالي الى بيروت.

كان ذلك في العاشر من ايار/مايو. وفي الحادية عشرة صباحا استقبلت المسيو غيرار في قصر الصنوبر في بيروت. كان غيرار وحده وقد اطلعني على اوامر الاميرال دارلان. وقال: «انني منخرط في مفاوضات بالغة الاهمية مع الالمان قد تنتج منها فوائد كبرى في الافراج عن اسرانا. وانني امل بالحصول على تسهيلات تعطى للالمان في سورية لمساعدتهم في العراق، على امل ان نحصل منهم على فوائد ضخمة».

في رأيي، كان ما يجب ان نفعله هو انقاذ مصالح فرنسا الدائمة، وذلك باعطاء تسهيلات للرايخ في سورية مع السعي الى حد المضاعفات الداخلية. لذلك كان لا بد من ضبط المطالب الالمانية من جهة، ومن جهة اخرى تلبية المطالب الضرورية للحيلولة دون احتلال دائم. تلك كانت خطتي. تلك كانت سياستي التي لم تتغير ابدا.

بعد ذلك قال لي المسيو غيرار انه في رفقة الديبلوماسي الالماني ران المكلف تنفيذ هذه المهمة في العراق، ثم قدمه الي.

عرفت منذ تلك اللحظة ان غيرار نفسه قد خالف مهمته الاساسية. فقد كانت مهمته ان يحول دون اي اتصال بيني وبين الالماني. لقد حدد الاميرال دارلان مهمته بطريقة تجعلني في اعفاء عن اي اتصال مع الالماني، في حين ان اول ما فعله بعد القليل من المقدمات والشروح انه جعلني على صلة مع ران. اذن لست انا الذي طلب الاتصال «بران».

كان المسيو ران مكلفا بتدبير المساعدة للعراق. وقد ابلغني ان الامر يتعلق بنقل طائرات المانية الى هناك ترفع الالوان العراقية وتتجه الى الموصل وبغداد، لكنه لا يعرف عددها ويريد لها التزود بالوقود.

عرفت ايضا ان هذه الطائرات لن تبقى اكثر من ١٢ ساعة وانها ستصل في المساء وتسافر صباح اليوم التالي. طبعا سيدفعون لنا ثمن الوقود وطواقم الطائرات لن تغادر المطارات. ثم ابلغني المسيو ران انه سيقطن في سورية تحت اسم رينوار وانه من الافضل الا يتنقل باسمه الالماني. انتهى اللقاء عند هذا الحد فيما يتعلق بمسألة الطائرات وتوجه المسيو ران الى دمشق.

كانت ردة فعلي عنيفة، وقد قلت لغيرار بعنف «ان هذا الذي تفعلونه عمل عبثي من الوجهة العسكرية والتقنية. ان هذا الدعم للعراق لن يؤدي الى شيء. كيف نقيم قاعدة حين لا يكون لدينا خط تموين ولا اي مساندة»؟

لكنني قلت في نفسي سوف اقدم لهم تسهيلات الترانزيت لكي لا يقيموا منشآت

ثابتة. بعد العاشر من ايار/مايو وصلت برقية من الاميرال دارلان تنبئ بوصول طائرة المانية عليها مهندس. ثم وصلت ثلاث طائرات تحمل الالوان العراقية واكملت الى بغداد وصلت هذه الطائرات في ١١ ايار/مايو قبل ان نستطيع اصدار اي تعليمات حول استقبالها! هبطت الطائرات في قاعدة رياق وقال طياروها انهم في الطريق الى دمشق. وفيما كنت اقوم بزيارة لرئيس المجلس السوري حلقت هذه الطائرات فوق رأسي.

طلبت ان تهبط اي طائرات اخرى في تدمر، بعيدا عن الاعين، كما طلبت الحد من عدد الطائرات العابرة، ورفضت ان يترك الالمان اي قطع غيار! لكن الشيء التالي الذي طلبته مني حكومة فيشي هو ان اخلي مدرجات حلب واتركها في يد الالمان.

لقد وجدت نفسي امام المعضلة التالية:

ان اخلي حلب واترك دفاعاتها في يد الالمان يعني ان نتخلى عن قاعدة للالمان في شمال سورية. انني لا اريد ذلك وافضل الابقاء على احتلالنا ومنعهم من التمركز ولو اضطرني الامر الى استخدام المدافع المضادة للطائرات. وبهذه الطريقة تجنبت تنفيذ اوامر فيشي بالتخلي للالمان عن قاعدة جوية في شمال سورية.

١٢٠ طائرة المانية مرت في حلب. لكن كما توقعت لم يكن لتدخل هذه الطائرات اي فعالية. وما ان بدأ التدخل الالماني في ١٥ ايار/مايو حتى بدأت الخلافات بين الالمان انفسهم. فقد طالب العسكريون الالمان بقاعدة في سورية. وطالب ران بقنصلية في بيروت يتولى شؤونها بنفسه، غير انني عارضت ذلك رسميا ونجحت في اجهاض هذه الفكرة. ان اقامة قنصلية المانية في بيروت كانت تعني خلع المفوض السامي الفرنسي لحساب مفوض سام للرايخ. كان لا بد من تجنب هذا التخلي. وامام رفضي تخلى ران عن فكرته.

للاسف، في هذا الوقت، حقق المسيو غيرار رغبته الجامحة في انهاء مهمته تاركا اياي وجها لوجه مع ران. وعلى الرغم من كل اعتراضاتي سافر في ٣١ ايار/مايو. وعشية سفره ابرقت الى دارلان الاتي:

«لقد انتهت المقاومة في العراق. ومن المهم ان نتجنب في سورية الوقوع في خطأ مماثل. ان وجود العناصر الالمانية يشكل ذريعة لهجوم. انني اطلب انهاء المهمات القائمة وجميع الرحلات الالمانية من اي نوع». في اليوم التالي رد الاميرال دارلان بأنه ليس هناك اي اتفاق بالتعاون العسكري ضد بريطانيا وانه طلب سحب الالمان الذين جاءوا الى سورية.

غير انه في ذلك اليوم وقعت مفاجأة اخرى. فقد وصل الكولونيل الالماني يانغ الى حلب بزيه العسكري مدعيا ان هناك اتفاقاً المانياً - فرنسياً بالتعاون العسكري ضد الانكليز. رفضت تماما ان يأتي الى بيروت وطلبت من قائد القوات جانيكين ان يصفي هذه المسألة!

نجح جانيكين في ابعاد يانغ. وفي ٦ حزيران/يونيو لم تعد في سورية اي طائرة المانية. وقد ابلغت القائم بالاعمال الاميركي الذي كان يرعى المصالح البريطانية بهذا الامر.

هذه، بصورة عامة، سيدي الرئيس، قصة مرور الطائرات الالمانية.

يثير الرئيس الاول للمحكمة مسألة السلاح الذي ارسل الى العراق. ويقول دنتز إن غيرار وران قدما الطلبات في شأن الاسلحة وانه نجح في خفض اللائحة من ٣٠ الف بندقية الى ٢٠ الفا ومن ٨٠٠ رشاش الى ٢٠٠ ومن ٢٤ مدفعا عيار ٧٥ الى اربعة.

* الجنرال دنتز: كنت مقتنعا بصورة تامة بأن هذه الاسلحة لن تؤدي اي غرض، والواقع انها ظلت من دون استخدام. وقلت يومها لرئيس اركاني ان هذه الاسلحة لن تفعل شيئا سوى انها ستقع في ايدي الديغوليين والانكليز. لقد كان ارسال تلك الاسلحة عملا وهميا كما ثبت فيما بعد! انطلق القطار الاول في ١٣ ايار/مايو . وفي ٢١ منه اصرت القيادة الالمانية على مجموع المدافع من عيار ٧٥ و١٥٥. وكانت تعليمات حكومة فيشي انه «من الافضل ان نرضي الالمان ولو جزئيا، من دون تعريض الأمن في سورية للضعف».

كان مجموع الاسلحة المطلوبة الان ٣ بطاريات مدافع ١٥٥ قصيرة المدى و٣٥٤ بندقية رشاشة و٦٣٣ شاحنة خفيفة و٥٤ شاحنة ثقيلة! من كل ذلك نجحت في ان ارسل في ٢٦ و٢٧ ايار/مايو ٨ مدافع ١٥٥ قصيرة المدى و٣٥٤ بندقية رشاشة قديمة جدا! كانت لا تساوي شيئا سواء بالنسبة الى قوات حسنة التدريب ام غير مدربة. اما بالنسبة الى الشاحنات التي ارسلناها فكان مجموعها ٣٢ شاحنة. هذا كل شيء. وقد طلب مني ران ان ارسل مدربين فرنسيين الى العراق غير انني رفضت ذلك بصورة مطلقة ثم طلب مني ان ادرب جنودا عراقيين فرفضت ايضا.

* الرئيس الاول: هل لك ان تقول لنا لماذا طلبت بديلا لهذه الاسلحة؟ خوفا من اي اعتداء؟

* الجنرال دنتز: ما ان ارسلت الشحنة الاولى حتى طلبت بديلا لها. وقلت في برقيتي ان الاسلحة مطلوبة تحسبا لهجوم بريطاني. وقد طلبت بصورة خاصة مدافع مضادة للطائرات واسلحة مدرعة، لقد كان طبيعيا، سيدي الرئيس الاول - وقد فعلنا ذلك في افريقيا الشمالية - ان نحاول اخراج كل الاسلحة الحديثة من فرنسا. لقد انقذناها من ايدي الاحتلال الالماني.

* الرئيس الاول : افهم من كلامك انك انقذت السلاح من اجل استخدامه ضد حلفائنا البريطانيين ! ثمة ازدواجية هنا. ثمة شيء غير صاف.

* الجنرال دنتز: كان الهدف في اي حال انقاذ العتاد.

* الرئيس الاول: ايها المتهم، هل لك ان تشرح لنا ظروف «الاعتداء الانكليزي» وماذا اعددت لمقاومته؟

* الجنرال دنتز: كما قلت سابقا، وصلت بعثة غيرار الى حلب في ٩ ايار/مايو وبدءا من اليوم التالي تسلم الجنرال ولسون قيادة الجيش البريطاني في القدس التي وصل اليها ايضا الجنرال كاترو. في ١٤ ايار/مايو اعلن المستر (انطوني) ايدن في مجلس العموم ان الحكومة البريطانية منحت جميع السلطات الى قواتها المسلحة لكي تقف في وجه اي محاولة المانية لاستخدام الاراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. واضاف ان حكومته تؤيد تحقيق مطالب الشعبين السوري واللبناني. وفي ٨ حزيران/يونيو اعلن الجنرال كاترو استقلال سورية ولبنان، والى جانبه سفير بريطانيا العظمى في القاهرة. صباح ذلك اليوم عبرت القوات الحليفة الحدود الجنوبية لدول المشرق. والاوامر التي كانت لدي تقضي بأن اواجه بالقوة اي هجوم بريطاني.

ماذا يكون موقفي؟ اطيع ام اتمرد؟ اذا لم اطع يعني ذلك الغاء الهدنة في وقت كان كل شيء الى جانب دول المحور (صيف ١٩٤١) . التمرد يعني تعريض فرنسا لكل المطامح والشهوات الالمانية، وخصوصا وضع يدها على افريقيا الشمالية! فالواقع انه في امكان دول المحور ان تتمركز في سورية وان تقيم مسرحا جديدا للعمليات. وكان بإمكانها، بكل سهولة، ان تعبر من صقلية الى تونس فتحتل بنزرت وتؤمن بذلك لقواتها في منطقة طرابلس قاعدة وخط مواصلات! وفي العام ١٩٤٣ تطلب اخراج قوات المحور من تونس، ستة اشهر و٩ كتائب انغلو – سكسونية و٣ كتائب فرنسية!

في خطابه امام مجلس العموم في ١٠ حزيران/يونيو عن الهجوم البريطاني على سورية، اعلن تشرشل ان رد الفعل الالماني لا يزال المجهول الاكبر! لكن فرنسا وافريقيا الشمالية هي التي دفعت ثمن ردة الفعل هذه.

لم يكن هناك اذن سوى حل واحد: الطاعة! ان هذه الاسباب لم تعد قائمة الان لكن قواتي كانت تعرفها وانتم شهود على ذلك، وقد شرحتها للضباط البريطانيين الذين التقيتهم بعد المعارك. لكن كيف كان يمكن يومها ان نشرح الامر للشعب الفرنسي المشتعل. اليكم الاسباب:

لقد قيل انني دافعت عن سورية من اجل هتلر. وهذا ليس صحيحا. لقد دافعت عن سورية عن فرنسا وافريقيا الشمالية ضد احتلال الماني وهذا هو سبب تصرفي كما تصرفت.

* الرئيس الاول: اشرح لنا ظروف الهجوم والرد وتحليق الطائرات وطلبك في ١٦ حزيران/يونيو بتدخل الشتوكا.

* الجنرال دنتز: منذ العاشر من حزيران/يونيو بدأ الخصم بممارسة ضغطه على سواحل بيروت، العاصمة السياسية في المشرق. وكان الاسطول البريطاني يقصف مؤسساتنا الساحلية ويمنع الحركة على طول الكورنيش الذي يشكل خط المواصلات الوحيد بالنسبة الينا. وكانت بحريتنا عاجزة في وجهه وكذلك سلاحنا الجوي. في ١١ حزيران/يونيو اي بعد ثلاثة ايام من بدء الهجوم، كنا قد خسرنا ثلاث كتائب. وقد هوجمت صيدا في ١٢ حزيران/يونيو ولم نستطع فك الحصار عنها الا في ١٣ منه. ومن اجل الدفاع عن الساحل كان لا بد من تفريغ دمشق بصورة خطرة، وبالتالي فان الدفاع عن سورية سينهار خلال ايام. ان مثل هذا الانهيار السريع يعرضنا لخسارة كل شيء، سياسيا وعسكريا! وهكذا فكر قادتنا العسكريون الاكثر تعرضا للقصف البريطاني ان يطلبوا تدخل الطيران الالماني! كيف حصل ذلك؟

في التاسع من حزيران/يونيو جاءني الجنرال غيورغيس، الجنرال الايطالي الذي كان على رأس لجنة المراقبة الايطالية، وعرض علي بصورة تلقائية تدخل طيران المحور، اليكم البرقية التي بعثت بها الى حكومة فيشي حول هذا الامر:

«استقبلت هذا الصباح الجنرال غيورغيس الذي اعلن انه اقترح على روما تدخل الطيران الايطالي في فلسطين والاراضي الداخلية البريطانية. وقد اجبته بأن الايطاليين احرار في ان يضربوا بريطانيا حيثما شاءوا بشرط واحد هو عدم استخدام اي اراض في سورية».

الا ان حكومة فيشي كانت تتعرض لضغط هائل من لجنة الهدنة في فيسبادن والقيادة الالمانية العليا ولذلك نسبت طلب التدخل الايطالي الي! لكن انا لست الرجل الذي يقبل بأن تقاتل القوات الفرنسية وفوق رؤوسها الطيران الالماني، على انني ادركت ان فيشي تتعرض لضغط فيسبادن بقدر ما كنت اتعرض لضغط ممثلي المانيا. لقد فهمتها تماما.

في الحادي عشر من الشهر جاء لمقابلتي الاميرال غوهون، قائد القوات البحرية في المشرق، وقد قرأ علي برقية ارسلها الى فيشي تقول: «لقد اصررت امس على القائد العام بأن يخول فرق الشتوكا استخدام اراضي المشرق بهدف خفض ضغط قصف السرب البريطاني الذي يربح يوما بعد اخر في الشمال، وسوف يكون ذلك الحل الوحيد الناجع في الوضع الحالي. انني واثق بأن هذا الاجراء الذي كان مرفوضا قبل الهجوم البريطاني سيلقى قبولا حسنا من جميع المقاتلين».

زارني الاميرال كروتون في الحادي عشر. وظهر اليوم التالي بلغت برقيته حكومة فيشي! قاومت ارسال تلك البرقية حتى الظهر لكنني في الواحدة بعد الظهر احلت الامر الى فيشي، وارسلت بدوري برقية في المساء اقول فيها: «ان القصف المستمر من قبل الاسطول واستنزاف القوات السريع جعلاني اغير وجهة نظري».

جاءني من فيشي الرد التالي:

«سوف نرسل اليك

«اولا، اسراب مؤهلة لمقاتلة الاسطول.

«ثانيا ان مساعدة الشتوكا يجب الا تطلب ما لم تكن، ليس فقط سريعة ومستمرة، بل ايضا ضخمة جدا». لكنني في اليوم التالي ابرقت مجددا ارحب بارسال الاسراب واقول إن الاستعانة بالالمان يعني احتلال سورية!

ان تصرفي هو الذي حال دون التدخل الالماني، على الرغم من ضغوطهم الشديدة في بيروت وفيسبادن. وفي غضون ذلك وصلت الى قوات المشرق برقية تقول: «قاوموا اطول مدة ممكنة لاسباب تتعلق بالسياسة العامة. وحين تضطرون الى وقف مقاومتكم دمروا كل العتاد».

بين ١٣ و١٦ حزيران/يونيو ساء الوضع كثيرا، سقطت صيدا وادت سقوطها الى كشف بيروت. وسقطت جزين ومرجعيون. واصبحت مداخل بيروت ولبنان مكشوفة كذلك. ومن الجهة الاخرى صارت دمشق مهددة ايضا، اذ ظهرت على اطرافها واطراف حلب طوابير مدرعة قادمة بطريق الصحراء.

ابرقت الى الاميرال دارلان التالي:

«انني الان في وضع غير متوازن خصوصا في دمشق حيث وجدت القوات هذا الصباح متعبة جدا... والخطر الاتي من الصحراء يتأكد... في هذه الحال سوف يكون تدخل الشتوكا حاسما. ان ران يؤكد ان الزوار سوف يغادرون بالسرعة التي يأتون بها».

رد دارلان بالقول انه لا بد للحكومة ان تدرس مثل هذا الطلب وانه سوف يبعث الي بالجنرال بريغيه. وبالفعل وصل بريغيه في السابع عشر. وبعد اجتماع بيننا ابرقنا نقول ان الوضع قد تحسن. فقد قمت بهجمات معاكسة واستعدت جزين ومرجعيون.

لكن في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو تأكد لي اننا نخوض معركة خاسرة. وكنت في العشرين قد طلبت من المدير السياسي في المفوضية ان يجري اتصالات مع القنصل الاميركي المستر فان انغرت، وسألته، بأي طريقة نستطيع ان نضع حدا لهذه المعركة. وفي ٢١ حزيران/يونيو بعث الي المستر فان انغرت بمذكرة شروط الحلفاء جاء فيها:

«ان حكومة صاحبة الجلالة، التي لا تريد ان تفرض بأي شكل من الاشكال شروطا مهينة على الجنرال دنتز، مستعدة تماما لأن تمنحه كل شرف الحرب وكذلك للضباط

والاداريين الذين لم ينفذوا سوى ما اعتبروه اوامر حكومتهم. وبالتالي فإنه لن يصدر على الجنرال دنتز او رفاقه اي حكم بالاعدام او اي حكم آخر».

في ٢٦ حزيران/يونيو ارسلت الى فيشي القومندان تزه يرافقه القومندان غودليير ليعرضا الوضع كما هو بعد سقوط دمشق واستحالة الاستمرار في المعركة! في ٢٩ منه قصف قصر الصنوبر في بيروت ودمر جزء منه. واقترح بعض الضباط ان ارد بقصف مقر المفوض السامي البريطاني في القدس فقلت إن القدس لا تقصف. انها المدينة المقدسة لثلاث ديانات.

في ٣ تموز/يوليو سقطت تدمر بعد حصار دام ستة ايام، فاصبح الفرات مهددا والطريق الى حلب مكشوفة. واخيرا في ٨ تموز/يوليو تلقيت الاذن بالتعاطي مع الحلفاء فابلغت القنصل الاميركي فورا الرغبة في وقف النار وفي اليوم التالي حمل الي المذكرة البريطانية، التي كانت بمثابة عفو شامل ودعوة للقوات الفرنسية للانضمام الى قوات الجنرال ديغول.

ويفل :
من العلمين الى سورية الى النفي

يميل الجنرالات عادة إلى بناء أمجادهم فوق ركام الآخرين! هكذا يقول لنا رونالد لوين! لكن الفيلد - مارشال اللورد ويفل القائد الأعلى ونائب الملك بنى شهرته الأساسية على كونه... كاتباً.

طبعاً لعب الرجل دوراً كبيراً في الشرق، لكن بالنسبة إلى مواطنيه كان ذلك الكاتب الذي وضع «أزهار الآخرين» بالإضافة إلى «دراسة في العظمة» وهو أهم المراجع عن حياة معلمه، اللنبي. وحين يقول لنا «ويفل» في معرض الدفاع عن اللنبي إن الجنرالات يخطئون كثيراً، فعلينا أن نعرف أنه يدافع بصورة غير مباشرة عن نفسه.

لقد ارتكب ويفل أخطاء عسكرية كثيرة.

لكنه، في الوقت نفسه خاض معارك كثيرة. ولعله القائد «الطيف» الوحيد الذي كان باستطاعته أن يكتب:

«خلال الحرب الحالية، وفي أقل من أربع سنوات، من أيلول/سبتمبر ١٩٣٩ إلى حزيران/يونيو ١٩٤٣ توليت قيادة أربع عشرة حملة في الصحراء الغربية في شمال افريقيا، في الصومال البريطاني، في اريتريا، في الصومال الإيطالي، في اليونان، في كريت، في العراق، في سورية، في ايران، في الملايو، في جزر الانديز الهولندية، في بورما وفي اراكان».

وكما كان الجنرال غورو ذا ذراع واحدة، فقد تميز ويفل بأنه ذو عين واحدة. ويروي هارولد نيلسون في مذكرات كتبها في أول حزيران/يونيو ١٩٤٣ قصة لقائه الأول مع ويفل:

«التقيت فجأة برجل ذي عين واحدة. وقد تذكرت فوراً ذلك النهار عندما كنت في الكلي دروسية ودخل علينا رجل ضئيل بدا وكأن له هالة عظيمة. وقلت في نفسي: لا بد انه عريف في دائرة المراسلين وقد جاء إلى رئيسه بكمية جديدة من الاحصاءات. لكنني تنبهت فجأة إلى حقيقة الأمر ووقفت صائحاً: يا إلهي، انه الماريشال فوش»!

لم يكن ويفل يوحي بهيبة المارشالية أول وهلة. وكان رجلاً غامضاً منطوياً على الذات في أي حال. وقد تذمر من ذلك المؤرخون العسكريون الذين أرادوا الغور في حياته. ولعل ذلك كان أمراً عفوياً بالنسبة إليه لم يلحظه، لأنه وهو يدوّن سيرة اللنبي فيما بعد سوف يتذمر من ان الرجل لم يترك أي أوراق أو مذكرات يمكن أن يعود إليها المؤرخون.

لكن في أية حال هناك أشياء كثيرة يمكن للمرء ان يقرأها في تاريخ الرجل. خصوصاً طبعاً في الشرق وفي الغرب ظل اسم ويفل مرفوعاً في شوارع ليبيا حتى مجيء العقيد معمر القذافي والغاء كل المعالم الأجنبية.

الرجل، اذن، مزيج من الفيلسوف والعسكري، ومزيج من الفشل والنجاح. بل الغرابة انه نجح في جميع المعارك التي خاضها ضد قوات فيشي والايطاليين واخفق في معاركه ضد اليابانيين والألمان. لكن الظروف تتحكم في المعارك وليس الأبطال كما سيقول في تعليق كتبه «للتايمس» عن معركة «العلمين» ثم يتساءل: ماذا كان حدث لو ان هنيبعل كان لديه ٥٠ فيلاً إضافياً؟ اما كان غيّر وجه التاريخ؟:

كان ويفل دائماً بحاجة إلى المزيد من الفيلة عندما يتعلق الأمر بالألمان واليابانيين! كذلك كان دائماً بحاجة إلى المزيد من الكتب «التي كانت ذخيرته الأخرى». فقد نظر إلى كل أمر من زاوية تاريخية ما وإلى كل معركة من خلال القادة الذين سبقوه إليها. هكذا فعل اللنبي من قبل، غير ان ويفل كان مثيراً للجدل في الأميرالية، في حين ان اللنبي حقق للانكليز من الانتصارات ما جعله معفى من تحاليل النقاد العسكريين في لندن.

وعندما انطلق ويفل في مهمته كقائد اعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط – تموز/يوليو ١٩٣٩ كتب جون كونيل، الرجل الذي سوف يؤرخ حياته بكل حماسة فيما بعد:

«وهكذا صعد السلم المجرد، العظيم، سلم الواجب من دون تحية ولكن ايضاً من دون غمّ».

وبين الذين لم يقفوا لأداء التحية له كان ونستون تشرشل بالذات، السياسي الذي لن يمنح ويفل ثقته والذي سوف ينقله بعد ذلك من مصر إلى الهند.

غير ان العصر كان قد تغير بالنسبة إلى ويفل وليس الظروف وحدها. وهو لن يستطيع

ان يكون اللنبي آخر أمام الأميرالية، لأن ١٩٤١ ليست ١٩١٤ في أي حال. لقد كان هو نتاج ما بين الحربين. وكان، كعسكري وسياسي معاً، يعرف ان الحرب الأولى تركت أشياء كثيرة من دون حسم بالنسبة إلى أوروبا. وقد كتب غير مرة ان الثلاثينات كانت فترة خنوع شديد بالنسبة الى انكلترا وقال بعد رحلة تشامبرلين الشهيرة إلى ميونيخ: «كيف نستطيع أن نرفع رؤوسنا ثانية بعد اليوم».

غير ان الرجل الذي كان يرتاح إلى الورقة والقلم كان يتعثر في حياته العسكرية. وطالما لجأ إلى القلم لا إلى القتال للدفاع عن النفس، وعندما انتقد تشرشل انسحابه من الصومال بعدد قليل من الضحايا كتب اليه يقول «إن فاتورة الجزّارين اذا كانت كبيرة لا تشكل دليلاً على الحنكة». ويقال ان هذه البرقية أغضبت تشرشل أكثر من مرة في حياته العامة.

كان تشرشل بحاجة إلى جنرالات يستطيعون «اداء المهمة». وكما فعل ابراهام لنكولن في الحرب الأهلية الأميركية عندما راح يطرح الجنرال بعد الآخر، هكذا أبعد ويفل ثم اوكينلك إلى أن اعطاه مونتغمري النصر الذي يريد. ففي غياب أو استحالة الانتصار على المانيا في قلب المعركة كانت لندن بحاجة إلى انتصار في «الضواحي». لكن ويفل أخفق في قراءة ما يدور في غرفة العمليات أو في ذهن تشرشل ولذا لم يكن هناك حوار حقيقي بين الرجلين.

أيضاً ما يهمنا في سيرة ويفل هو دوره في الشرق الأوسط، أو أبرز ادواره في المنطقة، وهو دور سوف يمتد، من ليبيا في المغرب إلى مصر وسورية ولبنان. لقد جاء الرجل إلى العالم العربي في الوقت الذي كان الثعلب الألماني اروين رومل يصل إلى طرابلس مع الطلائع الأولى من «الفيلق الافريقي» أو (KORPS AFRIKA) كما سماه الألمان.

وكانت أوروبا، سواء من «الحلفاء» أو من «المحور»، عين على أرضها وعين على الشرق. أو بالأحرى، «الشرق الأوسط» الآن ومع حلول الحرب الكونية الثانية. وكانت لندن تخشى ان يدفع هتلر الايطاليين في حملة على مصر قبل أن يتم حسم «المعركة من أجل بريطانيا».

وبدأ الأعداء الأوروبيون في عمليات التمويه. وفي حين ظن ويفل ان الألمان سيفجرون الحملة عبر البلقان، كانت الدوائر الحربية في لندن تأخذ على محمل الجدّ الاشاعات القائلة إن هتلر ينوي اقتحام تونس. وعلى الرغم من كل التنقلات الايطالية والألمانية إلى ليبيا، وانتقال فيالق كاملة من نابولي إلى طرابلس ظل الانكليز يعتقدون ان المسألة غير جدية. لكن هذه القناعة تغيرت تماماً في ١٧ شباط/فبراير ١٩٤١ عندما بدأ رومل بالتحرك شرقاً من طرابلس. عندها أيقنت لندن ان هتلر يريد الوصول إلى مصر من «طرابلس الغرب لا من مصر». وقبل أن ينتهي ذلك الشهر وقع اصطدام بالمدرعات في منطقة «العجيلة» فلم يبق مكان لأي شكوك.

في بداية الشهر التالي سوف يتأكد البريطانيون أيضاً من ان رومل هو الذي سيتولى قيادة الحملة. لكن القيادة البريطانية في القاهرة ولندن معاً كانت لا تزال مأخوذة بالانفجار الوشيك في البلقان وبالتزامها تجاه الحكومة اليونانية، وبالتالي فان أي خطر في ليبيا بدا ثانوياً، خصوصاً ان تشرشل كان يحمل تطمينات من ويفل بأن جبهة الصحراء بألف خير!

غير انه في الوقت الذي بدأ رومل بالتقدم متخطياً خليج سرت والعجيلة، أثار المخاوف في لندن وحمل ويفل على الاعتراف في ٢٣ آذار/مارس بقوله:

«يجب ان اعترف بأنني ارتكبت مخاطرة كبرى في برقة بعد احتلال بنغازي من أجل ان أوفر الحد الأقصى من الدعم لليونان، وكان تقديري آنذلك ان الايطاليين في طرابلس ليسوا بذوي بال وان الألمان لن يخاطروا على الأرجح بارسال عدد كبير من القوات المدرعة إلى افريقيا بسبب عدم كفاية البحرية الايطالية. ومن هنا فانني وضعت الترتيبات لترك قوة مدرعة صغيرة وفرقة اوسترالية مدربة جزئياً، في برقة».

غير ان الاعتراف بالخطأ، على نبله، لم يكن ليلغيه. اذ بين كل التقديرات التي ذكرها كان هناك واحد صحيح فقط وهو انه يمكن تجاهل الجيش الايطالي في شمال افريقيا. اما بالنسبة إلى البحرية الايطالية فقد أظهرت السجلات انه بين شباط/فبراير وآذار/مارس ١٩٤١ نقلت من ايطاليا إلى ليبيا نحو ٢٢٠ ألف طن من بضائع «المحور» لم يعترض منها في البحر سوى ٢٠ ألفاً. وقد أغرق الانكليز سفينة هنا وأعطبوا أخرى هناك، لكن بناء «الفيلق الافريقي» استمر قائماً، لذلك كان تقليل ويفل من أهمية الايطاليين عملاً آخر لصالح الثعلب الألماني الذي سبقته شهرته إلى كل مكان. كما ان ويفل نفسه كان من دون ضباط كفؤ وقد استدعى يومها من فلسطين فيليب نيامي الذي وصفه العسكريون بأنه «جنرال عادي جيد». أما الألمان فانهم كانوا كلما فقدوا أحد ضباط الأركان استبدلوه بمن هو اكفأ منه.

أكثر من ذلك فان ويفل لم يتفقد أرض الجبهة المحتملة، جنوب بنغازي. وعندما ذهب أخيراً لتفقد النواقص في الجبهة في منتصف آذار/مارس عاد منها «قلقاً وحزيناً» كما كتب فيما بعد، اذ اكتشف ان ٢٥ دبابة من أصل ٥٢ كانت قيد الاصلاح، أما الباقي منها فكان يتساقط فوق الرمال، وبدلاً من أن يعاقب ويفل ضباطه على الحالة المزرية تركهم في مناصبهم. وبعد ذلك بأسابيع سوف يعطيه رومل درساً في معاقبة المهملين بالطريقة التي عاقب بها كبير ضباطه، الجنرال شرايك.

كانت مخاوف القيادة البريطانية في لندن تزداد على جبهتين: الثقة الضعيفة بويفل وتزايد اعداد الوحدات الألمانية. وفي ٢٨ شباط/فبراير استطاع مركز «بليتشلي» ان يحل رمز شيفرة سلاح الطيران الألماني في المتوسط وراح يتابعها باستمرار. وهكذا فقد تأكدت لندن

في أوائل آذار/مارس من عدد العناصر الألمانية، الجوية والبرية، في منطقة طرابلس ومن مدى الحضور «الروملي» هناك.

عادت وزارة الحرب تسأل ويفل: هل جبهة الصحراء آمنة حقاً؟

وقد بعث الرجل في ٢ آذار/مارس بالرد المطمئن التالي:

«من طرابلس إلى العجيلة هناك ٤٧١ ميلاً ومن بنغازي نحو ٦٤٦ ميلاً. وهناك طريق واحدة، والماء غير كاف على مسافة ٤١٩ ميلاً من أصل المسافة كلها. ان هذه العوامل، بالإضافة إلى الافتقار إلى وسائل النقل، تحد من خطر العدد حالياً، ان باستطاعته على الأرجح ان يحافظ على فرقة مشاة وفصيل مدرع على الطريق الساحلية لمدة ثلاثة أسابيع وربما استطاع في الوقت نفسه استخدام فصيل مدرع آخر في الصحراء عبر هون ومردة، ضد قواتنا».

كان ويفل مقتنعاً بأن الجنرالات الألمان يفكرون بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الجنرالات الانكليز، ومن هنا قناعته الأخرى بأن عدوه لن يقوم بأي هجوم مهم قبل حلول أيار/مايو. لكن بعدها كانت رحلته التفقدية المأساوية. وقد ثبت أن أوضاع قوات الجنرال نيامي «كانت مجنونة». والحقيقة ان رومل لم يفاجيء ويفل وحده، بل فاجأ برلين أيضاً، وعندما طلب من قيادته ١٥ دبابة «بانزر» اضافية رفض طلبه، وقيل له ان يؤجل الحملة حتى منتصف أيار/مايو لكن في ٤ نيسان/ابريل كان رومل قد أصبح في بنغازي وفي ٦ منه في درنه وفي ١٠ في طبرق، وفي نهاية ذلك الشهر كان جالساً على الحدود المصرية.

وحده هتلر، في هذه المرحلة، كان يفهم ديناميكية رومل «لقد اخترق رومل لأنه يعرف كيف يتخاطب روحياً مع قواته. وان هذا لأمر ضروري بالنسبة إلى قوة يتعين عليها القتال في ظروف صعبة مثل القطب الشمالي أو شمال افريقيا».

في الوقت الذي كان «الفيلق الافريقي» يهدد بنغازي كان ويفل قد طار مرة أخرى إلى الجبهة. واذ تأكد مجدداً من رداءة نيامي ناشده جون هاردينغ (جنرال آخر من جنرالات الشرق) ان يعزله، وبالفعل استدعى الجنرال اوكونور للعمل معه، غير ان اوكونور نصح ويفل بالابقاء على نيامي في هيئة الأركان، وهو قرار سوف يندم عليه كثيراً فيما بعد.

ذلك ان مضاعفات مأساوية قد ترتبت عليه. ففي السادس من نيسان/ابريل كانت تلك الوحدات التي لم تدمر أو تلك التي لم تقع في الأسر تهيم على وجهها هاربة في سهول «الجبل الأخضر» كالثيران الفالتة. وكانت بنغازي قد سقطت. وليلة ٦ نيسان/ابريل كان الجنرالات نيامي واوكونور وكومب يتجهون في سيارة واحدة إلى درنه. وكان اوكونور ملاحاً قديراً من ملاحي الصحراء، غير ان السيارة كانت سيارة نيامي الذي كان يقودها

أيضاً. وراح اوكونور يحذر السائق الجاهل من انهم ضلوا الطريق. ولم تمض فترة قصيرة حتى وجد الثلاثة انفسهم امام جنود الماني يطلبون منهم أن يضعوا ايديهم فوق رؤوسهم. لقد قدم نيامي إلى روميل على طبق من ذهب اثنين من أفضل جنرالات «الصحراء الغربية». ومنذ تلك اللحظة بدأ اوكونور في محاولاته المتكررة للفرار إلى ان نجح في ذلك بعد سنوات.

في هذه الاثناء تحرك البريغادير جون هاردينغ. لقد كان أول من شعر بأن الجنرالات قد وقعوا في الأسر. وعمد فوراً إلى تدعيم دفاعات طبرق ثم ارسل إلى ويفل يطالبه بالذهاب إلى هناك، ووصل ويفل إلى طبرق في ٨ نيسان/ابريل، وقد كتب جون كونيل يصف ذلك الموقف:

«... وكان في استقباله على المطار الجنرال مورشد والكولونيل لويد وآخرون، كانوا تعبين، منهكين غير حليقي الذقون وكانوا يعرفون ان رائحة الصحراء والتراجع والهزيمة تفوح منهم. وقد اعاد اليهم حضور ويفل الثقة بالنفس كما اعاد الثقة إلى نفسه أيضاً. ولقد ابلغهم قبل أي شيء انه يجب المحافظة على طبرق».

من أجل ذلك، أي من أجل المحافظة على طبرق، كان لا بد لويفل ان يستنفر في ذاته كل موهبة ومقدرة يملكها. لكن قبل أي شيء كان لا بدّ من ان يقرر الصمود. الصمود حتى الرجل الأخير! ذلك هو الحل الوحيد أمام تلك الصورة المحزنة: الجيش في تراجع، القادة مفقودون، الآليات القليلة متروكة في الرمال.

كانت طبرق بالغة الأهمية بالنسبة إلى الأوروبيين المتقاتلين في الصحراء، وكان البريطانيون والألمان يعرفون ذلك تمام المعرفة. لكن الذي لم يكن يعرفه ويفل هو ما إذا كان ممكناً الدفاع عن هذه الجبهة العريضة بمثل هذه الحامية الصغيرة، ولم يكن أيضاً يعرف ما إذا كانت مقدرة «الفيلق الافريقي» في حرب المحاصرة هي كمثل مقدرته في المعارك المتحركة، غير انه في مثل هذه الحالات التجربة وحدها تعطي الجواب الأكيد.

وسوف تثبت التجربة، اذن، ان حامية طبرق حققت على الأقل النجاح في الهاء روميل. وكان لدى تشرشل من أسباب الفرح انه ابرق إلى ويفل في العاشر من نيسان/ابريل قائلاً: «إننا جميعاً نتبنى بكل قلب قرارك بالتمسك بطبرق وسوف نفعل كل ما في وسعنا لأن نوصل اليك المساعدة». اما روميل فقد نظر إلى المسألة من زاوية مختلفة «لقد كان ويفل ينوي بوضوح المحافظة على طبرق وتزويد دفاعاتها بحراً، معتقداً ان هجماتنا الأولى على الحامية لن تنجح». وسوف يقول روميل فيما بعد إنه من بين جميع القواد البريطانيين الذين قاتلهم «كان ويفل الوحيد الذي أظهر شيئاً من العبقرية».

بالفعل كان ويفل على حق، اذ لا الهجوم الأول على طبرق نجح ولا الهجمات التالية، طالما كان ويفل في مركز القيادة البريطانية وحاول روميل طوال شهر نيسان/ابريل اقتحام البلدة يوماً بعد آخر مستخدماً كل سلاح متوافر لديه لكن من دون جدوى. وقد دوّن في مذكراته بكل يأس انه في مثل هذه الحالات من القتال كان الانكليز والاوستراليون أكثر مقدرة من رجاله.

لقد حقق ويفل النجاح الذي اراده واستطاع بذلك ان يحمي تلك «القاعدة» البريطانية المهمة أي قناة السويس وان يصد الخطر الداهم أيضاً عن الاسكندرية التي كانت الميناء الأول للاسطول البريطاني.

بعد ذلك سوف يلحق ويفل الكارثة بالبريطانيين في معركة كريت، تلك الجزيرة التي كان يقول تشرشل إنه يجب «ان نصل اليها أولاً، يجب الا يأخذها الايطاليون». كان كل شيء متداخلاً بعضه ببعض. اليونان كانت تعني مصر. ومصر كانت تعني سورية ولبنان، وسورية كانت تعني المشرق، والمشرق كان يعني ذلك السؤال الكبير: اين سيضرب هتلر؟ في سورية؟ في اليونان؟ في البلقان؟

هتلر كان، بالطبع، يستعد للجبهة الروسية!

كتب تشرشل في مذكراته فيما بعد عن «الحالة الرهيبة الطارئة التي حاصرت الجنرال ويفل من كل جانب مرة واحدة». والحقيقة انه خلال نيسان/ابريل وأيار/مايو ١٩٤١ وهي الفترة الأكثر حرجاً من الحرب على مسرح الشرق الأوسط كله، كان تشرشل يظهر صلابة وقساوة موازنة لصلابة هتلر أو تخطاه، وفي الأسابيع الثمانية التي سقطت خلالها اليونان ويوغوسلافيا وكريت، ارغم ويفل أيضاً على القيام بعمليات الهائية في سورية والعراق. ويقول الكاتب رونالد لوين ان ويفل قام بهذه العمليات ضد ارادته غير ان الجنرال ادوارد سبيرس أشهر المفوضين السامين في لبنان كتب في مذكراته عن تلك المرحلة الآتي:

«لم تكن الصعوبات التي يواجهها القائد الأعلى (ويفل) لتتضاءل. لكن في الوقت نفسه كانت الأحداث تثبت ان موقفه من الفرنسيين في المشرق كان موقفاً خاطئاً من الأساس».

«في الرابع من ذلك الشهر التقينا، الجنرال كاترو وانا، بالقائد الأعلى. كان لقاء مغماً حقاً، وقد القينا جانباً على الفور خطة ديغول لأن الزمن تخطاها. غير انني شعرت بالأسى أيضاً وأنا أسمع ويفل يقول إنه لم يرد في أي وقت التدخل في العراق وان التدخل في سورية يعني التشتت وبالتالي الهزيمة. لكن في اليوم التالي (٥ أيار/مايو) عرضنا المسألة في اجتماع. وقال إنه اذا هاجمنا الالمان براً أو جواً فانه سيرد عليهم بكل القوات الموجودة في تصرفه».

منذ اللحظة الأولى اعتبر ويفل ان مجيئه إلى سورية والعراق سوف يكون وبالاً عليه. وها هي ثورة رشيد عالي الكيلاني تقوم في العراق فيبرق تشرشل إلى ويفل على عجل: اعدّ فرقة عسكرية خاصة للتدخل. غير ان ويفل يرد في خوف: الأمر مستحيل. حاولوا البحث عن حل سياسي! الا ان مستشاري تشرشل انضموا إليه الآن في الاقتناع بأن سورية، بسبب وضعها الاستراتيجي، سوف تكون نقطة انفجار. لكن على الرغم من ذلك كان ويفل مقتنعاً بان «قوات فرنسا الحرة» التي يطالبه تشرشل بدفعها إلى المعركة سوف تستقبل في سورية كعدو وليس كصديق. وكان على حق.

وقد ابرق إلى حكومته في ١٧ أيار/مايو ١٩٤١ يقول: «اني أؤمن بقوة ان قوات فرنسا الحرة، سوف تكون ضعيفة جداً من دون دعم بريطاني بل انها ربما زادت في تعقيد الأمور. انني اقترح ان نقوم نحن بالهجوم على ان يتبعنا الفرنسيون الأحرار إذا كان الهجوم ناجحاً».

وطار صواب تشرشل عندما أشار ويفل في تلك البرقية، عن غير قصد اطلاقاً، إلى احدى الهزائم في حرب البوير، واستدعى وزير الحربية على الفور وقال له إنه قرر ان ينقل ويفل إلى الهند وان يضع في مقر القيادة في القاهرة الجنرال اوكينلك. واضاف تشرشل بالخبث الذي عرف عنه «انه سوف يستمتع هناك في فيء المعابد البوذية»! وفي أي حال فهو لم يكن يريده ان يأتي إلى لندن «لكي يمضي الوقت في غرفته في النادي». وبالفعل ابرق ويفل إلى وزير الحربية يتوسله السماح له بالذهاب إلى لندن لرؤية ابنته، غير ان تشرشل الذي كان لؤمه يغطي عظمته، اراد ان يتجنب أي اسئلة يمكن ان تطرح أو أي اشاعات يمكن ان يثيرها مجيء ويفل إلى لندن، فارسله مباشرة إلى الهند.

لكن عملية النقل كان لا بد ان تتأخر، أيضاً بسبب تلاحق الأحداث، فقد ابرقت غرفة الحرب في لندن إلى ويفل على وجه السرعة: «ليس من حل امامنا سوى ان تبتدع أكبر قوة ممكنة – من دون أن يؤثر ذلك في امن الصحراء الغربية – وان تكون مستعداً للانتقال إلى سورية في أقرب فرصة ممكنة». ودار نقاش حاد آخر حول دور القوات الفرنسية. وأخيراً ابرق ويفل إلى رؤسائه باستسلام في ٢١ أيار/مايو قائلاً: «أما ان تثقوا بتقديري لهذه المسألة أو ان تأمروا باعفائي من القيادة».

غير ان تشرشل لم يغتنم الفرصة ويمدّ يده لالتقاط رأس ويفل من على الطبق الفضي. لقد كان يعرف بحدسه ان ذلك سوف يثير ضجة سياسية هائلة كان هو في غنى عنها. غير انه رد على ويفل في اليوم نفسه ببرقية تقطر لؤماً وسخرية:

«إننا نرى انه اذا كان باستطاعة الألمان ان يأخذوا سورية والعراق بقوات لا تذكر وعن

طريق السياح والثورات المحلية فيجب الا نتوانى عن ركوب مخاطر عسكرية صغيرة نحن أيضاً».

وفي الوقت نفسه كان وزير الحربية يكتب إلى الجنرال اوكينلك مذكرة سرية يقول فيها: «اريد ان اخبرك ان رئيس الوزراء قد فقد الثقة بويفل – هذا اذا كانت له أي ثقة به على الاطلاق. وانني مقتنع بانه في الحرب اما ان تكون لك ثقة في جنرالك أو ان تطرده. وبما ان الأمر كذلك فإننا قد نواجه قريباً بنقل ويفل من الشرق الأوسط – وربما حصل ذلك قبل ان تصلك هذه الرسالة، وعندما يتم الأمر عليك ان تكون مستعداً لخلافته».

في اي حال مضى ويفل في تنفيذ الأوامر المعطاة إليه وأخذ في جمع قوة ضاربة من هنا وهناك، اضافة إلى مقاتلي «فرنسا الحرة». وعندما بدأ في التقدم نحو سورية في ٨ حزيران/يونيو بدا ان كل ما توقعه قد حدث وان ما توقعته لندن كان خاطئاً، ذلك ان قوات «فيشي» لم تسقط بسرعة بل اخذت تحارب القوات الديغولية (الحرة) بضراوة ولم يوقع الجنرال دنز، قائد قوات فيشي الهدنة، الا في ١٤ تموز/يوليو.

لكن، في تلك الاثناء، كان ويفل في طريقه إلى ظلال المعابد البوذية في الهند .

الماريشال كلود اوكينلك:
الهزائم انتصارات

لا يمكن الكتابة عن دور ارشيبالد ويفل في الشرق الأوسط والمغرب العربي من دون الحديث عن رفيقه وصديقه الجنرال اوكينلك. فالرجل لم يخلفه كقائد أعلى للقوات البريطانية فحسب بل كان إلى جانبه مرحلة كبرى من مراحل ويفل العصيبة، عسكرياً وسياسياً، بل إن تلك المرحلة قد تبدو أقل تعقيداً من خلال سيرة أوكينلك الذي كان بدوره أقل تعقيداً من ويفل، مع انه سوف يلقى المصير نفسه على يد ونستون تشرشل فيما بعد، وسوف يكون بدوره مثيراً للجدل: هل كان بطلاً أم فاشلاً؟

غير ان انصار أوكينلك اختصروا الجواب: انه الرجل الذي ربح المعركة الأولى في «العلمين» ولولا تلك «المعركة الأولى لما كانت هناك معركة ثانية».

ولأنه حرم من لقب «بطل العلمين» الذي سوف يعطى لمونتغمري فيما بعد فقد أعطاه أحد مؤرخيه، روجر باركنسون، لقب «قاهر العلمين»، فهو في نهاية الأمر قائد «الجيش الثامن» الذي اوقف انهزام القوات الانكليزية وتراجعها في وجه رومل وحوّل التراجع إلى هجوم كاد يهزم ثعلب الصحراء وفيلقه الافريقي.

في وائل صيف ١٩٤٢ كان شبح الهزيمة يخيم فوق بريطانيا أكثر من أي وقت مضى. وتهديد الجزيرة هذه المرة لم يكن آتياً عبر المانش وانما عبر الصحراء «في شمال افريقيا». ففي تموز/يوليو ١٩٤٢ كانت قوات رومل قد وصلت إلى مسافة ١١٥ ميلاً من قناة السويس و ٧٠ ميلاً من الاسكندرية. وبدا وكأن شيئاً لن يقف دون دول «المحور» واحتلال مصر. فاذا سقطت القناة فان ذلك سيعني تلقائياً وصول الألمان إلى العراق وسورية وايران. وعندها «يستطيع العدو ان يندفع شمالاً نحو روسيا وشرقاً نحو الهند. وسوف يخسر الحلفاء حقول النفط وتصبح الهند معزولة. وعندها يخسر الحلفاء كل شيء ويمتد الساعد الالماني لمصافحة اليد اليابانية».

الصراع حول الشرق، حول المشرق، حول العراق وسورية ومصر ولبنان. حول ليبيا وتونس والمغرب. حول الجزائر، انما هو صراع حول العالم أجمع. صراع حتى الصين وربما على الصين أيضاً. وفي الحروب بدا واضحاً كم هو الشرق نقطة ارتكازية في قلب الكرة: تلك الكرة التي تتصدر صورها جدران المدارس، وقد اصبح بعض حلفاء اليوم اعداء الأمس والعكس.

لقد جاء اوكينلك إلى الشرق في الحرب الأولى وهو بعد برتبة «كابتن». وعرف يومها من قائده ومعلمه اللنبي مدى أهمية المنطقة التي تركها وهو برتبة «ميجور». غير انه الآن دخل على استراتيجيات الصراع عنصر جديد: النفط!

كذلك كان هناك مقاتلون جدد أمام الجنرال اوكينلك: ها هم الأميركيون قادمون وهم حتى الآن يلقون بثقلهم في دفاعات الحلفاء. وفي لندن كان وضع تشرشل السياسي شديد الاهتزاز: هزيمة أخرى ويذهب إلى بيته مكللاً بالعار بدلاً من الغار: هل لاحظت فرق النقطة الواحدة فوق حرف «العين»؟!

كل شيء كان متوقفاً آنذاك على رجل واحد: كلود اوكينلك. وفي صباح ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٤٢ يغادر القائد الأعلى (الجديد) للقوات البريطانية مقره في القاهرة إلى الجبهة لكي يتولى بنفسه قيادة الجيش الثامن المتراجع في الصحراء. وفي قاموس العسكر ليس من مهمة أكثر صعوبة من السيطرة على جيش متراجع.

وقد نجح. ليس فقط في وقف التراجع بل في تجريد رومل من المبادرة وفي ارغامه على العودة إلى مواقع لن يخرج منها فيما بعد. لكن بعد شهرين من ذلك الانتصار كان أوكينلك عاطلاً عن العمل، وبعد سبعة أشهر كانت اللعنة تحل عليه وتشرشل يقول: «لقد فقدنا الثقة في اوكينلك في الميدان».

وسوف تكشف الوثائق الرسمية فيما بعد ان تشرشل بنى قراره هذا على تقارير وضعها ضابط أقل رتبة يدعى برنارد مونتغمري وهو الذي سوف يسرق ثمار الانتصارات الحقيقية في العلمين. وكانت تلك التقارير كاذبة طبعاً.

لقد كانت هناك اختلافات كبيرة في الشخصية بين الاثنين: كان اوكينلك ودوداً لطيفاً. وكان متواضعاً. مونتغمري كان العكس.

وصل كلود اوكينلك إلى القاهرة في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٤١ قادماً من بريطانيا بطريق متعرجة أخذته إلى افريقيا الغربية وكانت في استقباله في «القيادة العامة للشرق الأوسط» مشاعر مختلفة هي خليط من التعب والارتياح والقلق على المستقبل. وكان سلفه الجنرال ويفل، قد امتص الحملة الايطالية في الخريف السابق وتراجع

إلى مواقع معدة في مرسى مطروح. وبدأت الاستعدادات لهجوم بريطاني مضاد كان تشرشل يلح على التعجيل به. وقد واجه «قائد الشرق الأوسط» ضغوطاً من جانب آخر أيضاً. ففي ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر اقدمت ايطاليا على اقتحام البانيا بعدما رفضت اليونان التحذير النهائي الذي وُجه اليها. وهكذا فان التعزيزات التي كان مقرراً ان تصل إلى قوات ويفل أخذت تتحول إلى الحليف اليوناني الخاسر.

وفي هذا الوقت شنّ ويفل حملته المعروفة باسم «البوصلة» في ٩ كانون الأول/ديسمبر. وخلال ثلاثة أيام كان الانكليز وحلفاؤهم قد اسروا ٤٠ الفاً من الايطاليين الشجعان!! واستولوا على ٢٣٧ مدفعاً و ٧٣ دبابة. وفي نهاية ذلك الشهر حاصر الانكليز ميناء «بردية» الاستراتيجي واخذ ويفل وجنراله ريتشارد اوكونور يستعدان للتقدم نحو ليبيا. غير انه في هذا الوقت وصلت إلى لندن تقارير ان الألمان يستعدون لدعم الحملة الايطالية المتراجعة في البانيا.

وبحث اوكينلك الوضع مع ويفل. وقال الثاني إنه يعتقد ان الحشود الالمانية على حدود يوغوسلافيا واليونان قد تكون خدمة هدفها استدراج القوات البريطانية من شمال افريقيا. وهكذا قرر اوكينلك ان يتفقد الصحراء مرة أخرى. وفي ٨ كانون الثاني/يناير توجه إلى الاسكندرية ومنها إلى مطار «العامرية» حيث التقى قائد القاعدة ارثر تيدر، الذي سوف يصبح بعد ذلك من أقرب معاونيه، وقد وصف تيدر ذلك اللقاء:

«كانت الريح تعصف قوية من الجنوب الغربي والرمال تتكاثف بسرعة. وقد وجدت هناك عسكريين اثنين: الأول يعتمر خوذة نحاسية والثاني برتبة كولونيل... وبعد قليل عرفت ان الخوذة النحاسية هي خوذة اوكينلك: لحية أنيقة وطبع جيد وتواضع».

يومها كان اوكينلك في طريقه إلى نيودلهي التي وصلها في الأسبوع الثاني من كانون الثاني/يناير. لكن الوضع في الشرق الأوسط كان يزداد سوءاً. وفي ١٣ كانون الثاني/يناير اضطر ويفل لأن يطير إلى اثينا لكي يرى أي نوع من المساعدات تريد اليونان، لكنه اكتشف ان اثينا لا تقبل المساعدة. وفي لندن كانت اللجنة الدفاعية العليا تعود فتعطي الأولوية لجبهة الصحراء. وقد سقطت طبرق في ٢٢ كانون الثاني/يناير وبنغازي في ٦ شباط/فبراير «وهكذا اكتمل سقوط برقة». وهكذا اصبح الطريق معبداً مرة أخرى «امام طرد الايطاليين» من شمال افريقيا، لكن فكرة مساعدة اليونان عادت إلى الأولوية مجدداً. وطار انطوني ايدن، الذي اصبح الآن وزيراً للخارجية، إلى الشرق الأوسط مع الجنرال جون ديل للبحث في ارسال قوة من مصر إلى اليونان. وفي اليوم التالي وصل اروين رومل إلى طرابلس وأمر الايطاليين باستئناف الهجوم.

سوف تكون الهند مصدراً مهماً للقوى البشرية إلى الشرق الأوسط. وعلى أوكينلك ان

يتولى الأمر، وبالإضافة إلى ذلك كانت مهمته حماية الهند نفسها، التي سوف تزود البريطانيين بنحو ١٠٠ ألف جندي. وفي هذا الوقت كان ايدن قد قرر خلال محادثاته في اثينا ارسال ١٠ آلاف جندي إلى اليونان وهو أمر اعتبره اوكينلك مضعفاً لجبهة الصحراء. كذلك كان قلقاً على الوضع في العراق، مؤمناً ان «سلامة الهند من سلامة العراق. وان سقوط العراق في ايدي المحور يعني سقوط حقول النفط».

وكان رشيد عالي الكيلاني يتطلع إلى الألمان في دعم ثورته العربية تجاه البريطانيين الذين كانت لهم قاعدة جوية في الحبانية لكن لم تكن لهم قوات ميدانية في العراق.

واستقال رشيد عالي الكيلاني في نهاية كانون الثاني/يناير ليخلفه طه باشا الهاشمي وكان هو أيضاً معادياً للانكليز. وفي حين نظرت لندن إلى الأمر ببساطة رأى فيه اوكينلك «مسألة خطيرة» ضد مصالح بريطانيا. وعاد إلى درس خطط سابقة لاحتلال البصرة من «اجل حماية آبار النفط». كما كتب إلى ويفل يقول «إن الوقت يدهمنا والوضع في العراق لا يبدو مريحاً على الاطلاق».

وكان أوكينلك يتذكر جيداً من الحرب الأولى تلك الفوضى التي نشأت في حملة العراق من جراء تضارب الأوامر بين الهند ولندن والبصرة. ولذا كتب في ٢١ شباط/فبراير إلى الجنرال «ويفل» معاً في محاولة لتوضيح مسألة القيادة: «اعتقد انه من الأضمن لنا ان يوكل امر احتلال البصرة، بأي ثمن، لهذه القيادة (أي الهند) واذا تبين لاحقاً انه من الضروري وضع تلك القوة تحت قيادة الشرق الأوسط فلا مانع لديّ شرط ان يكون بامكاني اعطاء رأيي في الخطط الموضوعة»... ووافق ويفل على الأمر.

لكن ويفل كان إيضاً عرضة لكل أنواع الضغوط. ففي اليوم الأخير من شباط/فبراير تقدمت تشكيلات المانية صغيرة نحو بلغاريا من رومانيا. وبعد ذلك بيومين تدفقت العناصر الرئيسية في الجيش الالماني الثاني عشر على بلغاريا وتمركزت حول الحدود اليونانية واليوغوسلافية. وفي الأسبوع الأول من آذار/مارس نزلت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى في اليونان وتحركت شمالاً لدعم الحلفاء.

وفجأة انفجرت البراكين التي كانت تتحرك في العراق واليونان والصحراء. وفي ٣١ آذار/مارس اندفع رومل نحو «العجيلية». وفي اليوم نفسه فرّ الوصي على العرش في العراق إلى قاعدة الحبانية. وفي ٣ نيسان/ابريل كان رومل يتقدم نحو بنغازي فيما تتراجع القوات البريطانية مشتتة. وفي بغداد استولى رشيد عالي على السلطة. وبعد ذلك بثلاثة أيام تم أسر الجنرالين نيامي واوكونور وفي ذلك اليوم أيضاً (٦ نيسان/ابريل) دخل الالمان إلى اليونان ويوغوسلافيا.

بُلّغت حكومة تشرشل بالوضع الكارثي في اليونان في ٧ نيسان/ابريل، كذلك بُلّغت ان «الوضع في العراق قد تدهور» وان «معركة كبرى قد تكون ضرورية قبل اتضاح الأمور».

وكان أوكينلك مستعداً لارسال قواته من الهند. وقد التقت أفكاره مع تفكير تشرشل الذي طرب للأمر وقرر مكافأته في المستقبل القريب. وفي ١٠ نيسان/ابريل قبلت الحكومة البريطانية عرض اوكينلك «مع الشكر». لكن ويفل كان لا يزال يصر على حل ديبلوماسي مدعوماً «بعرض قوة جوي». وابرق باقتراح مماثل أيضاً السفير البريطاني لدى العراق السير كيناهان كورنويلس.

كان رد فعل اوكينلك قاسياً. وقد بعث برسالة إلى سكرتير نائب الملك في الثاني عشر من ذلك الشهر: «ان القبول بنصيحة السفير وتأجيل الحل (العسكري) لتأمين سلامة البصرة قد يؤدي إلى عدم رؤية البصرة بعد اليوم. ان زمن المحاولات الديبلوماسية قد مضى. واني أعتقد بأن رشيد قد يستغل هذه الفرصة لكي يدعم مواقعه أو لكي يطلب المساعدة الالمانية!».

وكان مقرراً للقافلة البريطانية التي تنقل القوات إلى البصرة ان تغادر كراتشي ذلك الجمعة. وقد رفض اوكينلك تأخير سفرها.

في ١٧ نيسان/ابريل وصلت الدفعة الأولى من القوات البريطانية إلى البصرة من دون أي معارضة. ويبدو ان البريطانيين خدعوا رشيد عالي بأن ابلغوه ان قواتهم انما تنوي اكمال مسيرتها إلى فلسطين وهو أمر كان مسموحاً لهم بموجب المعاهدة الموقعة بين البلدين. وكان بين الذين اعجبوا «بعزم» اوكينلك تشرشل بالذات فقرر ان يدفع به إلى القتال، وبعث برسالة فورية إلى الجنرال ديل يقترح فيها تعيينه نائباً لويفل. غير ان الوزير تردد، مبدياً الأسباب التالية:

«أولاً، لأن أعمال أوكينلك في الهند ذات قيمة عظيمة بالنسبة إلى المجهود الحربي الذي تبذله الامبراطورية. وثانياً، ان منصب اوكينلك في الهند رفيع جداً ولن يفهم أحد معنى تعيينه في منصب الرجل الثاني، ثالثاً، انني ابلغت ويفل بأنه اذا حدث له شيء ما فانني سأعين أوكينلك خلفاً له. فاذا ارسلنا اوكينلك إلى مصر اليوم فان ويفل سوف يعتقد على الأرجح اننا ننوي ازاحته. رابعاً، الحقيقة ان القائد لا يستطيع ان يشارك احداً في مسؤوليته لأنه لن يلبث ان تعقب ذلك التسويات وتغيب الأفكار والخطط الواضحة».

ثم يعقب ديل هذه الرسالة بقوله: «اذا كان لا بد لأوكينلك ان يذهب إلى مصر فانني أفضل ان اراه مكان ويفل على ان يكون نائباً له. وفي أي حال لا بد لي من القول إن

أوكينلك جنرال جيد ذو شخصية قوية لكنه ليس سوبرمان. ان ويفل يتمتع بعقل أفضل منه وهو أكثر علماً منه في تسيير العمليات العسكرية في الظروف الحديثة... وباختصار فاني لا أوصي بأن يصبح نائباً لويفل بل ان يخلفه إذا فقدتم الثقة بويفل أو حدث له أمر ما».

وسوف يسرّ اوكينلك لأصدقائه بعد الحرب بأنه لو سمح له تشرشل بأن يذهب إلى جانب ويفل، لكانت أمور كثيرة قد تغيرت بالنسبة إلى الاثنين!

اسرع ويفل إلى اثينا في ٢١ نيسان/ابريل في محاولة يائسة لتفقد الجبهة اليونانية المنهارة، وقد أبرق السفير البريطاني إلى لندن يصف اللقاء بين ويفل وعاهل اليونان: «لقد أقرّ صاحب الجلالة بأن عامل الوقت يجعل من المستحيل تنظيم أي قوة يونانية لدعم الجناح الأيسر من القوة البريطانية... وعندها قال ويفل إن من واجبه في هذه الحال ان يسحب ما استطاع من القوات البريطانية فوافق الملك تماماً». وبعد برهة كانت الحكومة في لندن توافق بدورها على قرار الإنسحاب. وانتهت المقاومة اليونانية في ٢٤ نيسان/ابريل. وبدأ اجلاء القوات البريطانية تلك الليلة واستمر نحو أسبوع، وترك ويفل خلفه نحو ١٢ ألف جندي بين قتيل ومفقود بالإضافة إلى الكثير من العتاد، وتوجه نحو ١٥ ألف جندي من القوة المنسحبة إلى افريقيا الشمالية حيث كان رومل قد أجبر القوات البريطانية على التراجع من «برقة» إلى مصر، باستثناء تلك المتمركزة في طبرق. أما سائر القوات التي انقذت من اليونان فقد نقلت إلى كريت، الهدف التالي لدول المحور.

بالإضافة إلى الأنباء المقلقة في المتوسط تلقت لندن انباء عن «انهيار مفاجىء» في العراق. اذ بعد ٢٤ ساعة من بدء الجلاء عن اليونان وقّع رشيد عالي الكيلاني معاهدة مع ممثلي دول المحور. وهكذا حرك اوكينلك قوات جديدة باتجاه العراق كان مقرراً أن تصل إلى البصرة في التاسع والعشرين من نيسان/ابريل غير ان رشيد عالي الكيلاني الذي أبلغ قبل يوم بوصول هذه القوات رفض ان يمنحها الاذن بالنزول وأرسل قواته جنوباً لمقاومتها، وفي ذلك النهار أيضاً ابلغت لندن ان قوات رومل تجس النبض على حدود مصر وان الهجوم على كريت اصبح وشيكاً.

وطار صواب تشرشل. وابلغ لجنة الحرب الوزارية انه لا يعتقد ان بامكان بريطانيا الصمود طويلاً في كريت. وانتقد الدور العسكري في الشرق الأوسط وصاح: يجب ان ندافع عن كل بوصة في مصر!

في أول أيار/مايو تسلم اوكينلك مسؤولية «الشؤون العسكرية في العراق»، وفي اليوم التالي بدأت القوات الموجودة في الحبانية بالرد على قوات رشيد عالي. وكان ويفل أكثر الناس خوفاً. وقد أبرق، يائساً، في ٣ أيار/مايو إلى لندن: «لقد حذرتكم مراراً انه من المستحيل ان نبعث بتعزيزات إلى العراق من فلسطين في الظروف الراهنة ونصحتكم مراراً

بعدم التورط في العراق... ان قواتي متعبة في كل مكان... انني استطيع فقط أن أنصحكم بالتفاوض».

لكن لندن ردت على الفور، أولاً، انها ترفض الوساطة التركية في الموضوع، ثانياً يجب تدعيم دفاعات الحبانية بانتظار التعزيزات! صباح اليوم التالي كان ويفل يرد بالمزيد من الغضب: «انكم لا تعيرون الحقائق أي اهتمام. ويجب ان تواجهوا الواقع».

كان ذلك في الخامس من أيار/مايو وقد قال ويفل في برقيته انه غير قادر الا على تأمين قوة صغيرة وان هذه القوة لن تصل إلى الحبانية إلا في ١٢ أيار/مايو على أقرب تقدير «واني لا أدري ما إذا كانت القوة المذكورة تستطيع انقاذ الحبانية أو ما إذا كانت القاعدة نفسها قادرة على الصمود حتى ذلك الوقت». وحث مرة أخرى على التفاوض: «انني اعتبر ان اطالة القتال في العراق سوف تعرض دفاعات فلسطين ومصر للخطر».

وكان موقف اوكينلك معاكساً تماماً: التورط في العراق لن يهدد موقع مصر بل إن التخلي عن المواقع البريطانية في العراق سوف يزعزع القبضة البريطانية على الشرق الأوسط كله. ان ضعف بريطانيا سوف ينكشف وسوف تعمد «عناصر أخرى» في المنطقة إلى مساعدة دول المحور.

وصلت برقية ويفل القلقة إلى «لجنة الدفاع» ظهر السادس من ذلك الشهر. ويبدو انه خيّل إلى وزير الحربية ان ويفل كان مبالغاً في التشاؤم. وكان الوزير مقتنعاً بأنه ليس من المخاطرة ارسال قوة نجدة من البصرة إلى الحبانية. وقد كتب تشرشل عن تلك الجلسة بعد الحرب ان «ويفل استمر في اطاعة الأوامر بعد الاعتراض أما اوكينلك فاستمر في عرض التعزيزات». وهكذا ابرقت لندن إلى ويفل تعتذر عن قبول اقتراحه وإلى اوكينلك تشكر وتشجع.

هنا أيضاً قام خلاف بين القيادات البريطاية الثلاث في لندن والقاهرة ودلهي: هل تظل القوة الموجودة في العراق تابعة لقيادة الشرق الأوسط ام تلحق بالهند من جديد؟ اوكينلك مع الهند. اما ويفل فقال: «إن البعض ينظر إلى الوضع الآسيوي الاستراتيجي من زاوية ضيقة ويرى ان شمال افريقيا والمشرق قلعة واحدة وان الهند قلعة أخرى والملايو - بورما - هونغ كونغ قلعة ثالثة. انني افضل ان ننظر إلى هذا الوضع على انه جبهة واحدة مستمرة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام».

في العاشر من أيار/مايو بحث تشرشل المسألة مع عدد من رفاقه: ايدن، اتلي، بيفربروك وديفيد مارغسون، الذي اصبح في هذا الوقت وزيراً للحربية. وروى ايدن فيما بعد ان «تشرشل اقترح استبدال اوكينلك بويفل وهذا بذالك». ووافق بروك بينما تردد الثلاثة

الآخرون. «لم يكن لدي شك في أن ويفل كان أفضل لكنني لا أعرف كيف كان يتحمل تلك الأعباء».

بدأت القوات البريطانية بالوصول إلى الاسكندرية في ١٢ أيار/مايو وكان معها نحو ٣٠٠ دبابة لدعم قوات ويفل في الصحراء. وكانت الأوضاع تتدهور في امكنة أخرى. ومنذ ٢٨ نيسان/ابريل كانت لجنة الحرب قد أبلغت ويفل ان مهمة أخرى قد توكل اليه: الزحف إلى سورية التي تسيطر عليها قوات فيشي بقيادة الجنرال دنتز. والآن في منتصف أيار/مايو أغارت الطائرات الالمانية، مستخدمة مطارات سورية، على القوة البريطانية المتجهة من البصرة إلى الحبانية. وأعلن الجنرال دنتز انه سوف يطيع أوامر حكومة فيشي بالسماح للألمان باحتلال سورية. وطلبت لندن إلى ويفل ان يهيئ بأي شكل قوة طارئة لمساعدة «الفرنسيين الأحرار»، لكن الرجل اعترض مجدداً.

كان تشرشل قد اقتنع نهائياً بأن ويفل يجب أن يقال. واصدر الأمر الشهير بنقله إلى الهند وتعيين اوكينلك. لكن عملية التسلم والتسليم تأخرت قليلاً بسبب مستجدات الساعة، اذ فجر ٢٠ أيار/مايو شن الألمان حملتهم المدمرة ضد كريت. وقد قتل في الجزيرة من الألمان أكثر مما سقط خلال ٢٠ شهراً من الحرب. لكن التضحية اعطت ثمارها. وسوف تستمر اعباء ويفل في المنطقة بعض الوقت. وقد بدأت الحملة البريطانية – المشتركة في سورية في ٨ حزيران/يونيو بموجب خطة وضعها ويفل سميت «المصدّر» (بالتشديد) لكن الرجل كان مقتنعاً بأن قواته غير كافية وان القوات الفرنسية الحرة غير كافية للقيام بالحملة. وكان ذلك صحيحاً. إذ ان القوة كانت تأمل بالوصول إلى دمشق في يوم واحد لكنها لم تصل دمشق إلا في ٢٢ حزيران/يونيو ولم يوقع دنتز الهدنة إلا في ١١ تموز/يوليو.

قبل ذلك، أي في ١٥ حزيران/يونيو من ذلك الصيف الحار جداً، كان ويفل قد شن حملته المتوقعة في الصحراء. وكان تشرشل يعلق آمالاً كثيرة على ذلك الهجوم الذي سمي سراً «فأس المعركة». وفي الصحراء كان الثعلب الألماني قد قرأ سلفاً الخطوة البريطانية المقبلة في الرمال فهيأ قواته سلفاً. وهكذا، في الساعات الأولى من ذلك النهار، صد الايطاليون والألمان الهجوم البريطاني. وقد استخدم رومل في المعركة اسلوبه التقليدي: دع العدو ينهك نفسه أولاً ثم انقض عليه. ومع ظهر اليوم التالي كان الانكليز قد فقدوا الكثير من الدبابات. وانقض رومل على فريسته: «لقد خططت ان اجمع فرقتي المدرعات في شكل قوس ثم اوجه إلى العدو ضربة قاضية في النقطة الحساسة».

وتقدمت الفرقتان الألمانيتان طوال الليل ومع الفجر كانتا تطبقان على الانكليز وتقطعان عليهم خطوط الاتصال. وانتشرت الفوضى في صفوف البريطانيين، فيما طار ويفل إلى

الخطوط الأمامية على الجبهة. لكن في ١٧ حزيران/يونيو كان الأمر بالانسحاب قد صدر.

في لندن كان تشرشل ينتظر النتائج على أعصابه. لكنه كان متوتراً لدرجة لم يعد معها قادراً على البقاء في ١٠ داوننغ ستريت فحمل نفسه ومضى إلى منزله الريفي في «تشيكرز». وهناك تلقى رسالة ويفل: «آسف أن أبلغك بفشل فأس المعركة». وقام تشرشل إلى الوادي يهيم على وجهه ساعات طويلة، كما كتب فيما بعد.

وبعد ذلك بثلاثة أيام كان يكتب إلى ويفل: «آسف. لقد اعجبت كثيراً بسجلك الحافل ولكن...»!

كذلك بعث برسالة أخرى إلى اوكينلك الذي غادر «سيملا» بالطائرة في ٢٧ حزيران/يونيو ووصل إلى القاهرة في ٣٠ منه. انه «شرف عظيم» ان يكون المرء «قائداً أعلى في الشرق الأوسط». هكذا قالت غرفة الحرب للجنرال الجديد الذي ظل تشرشل إلى ما بعد الحرب يشعر بالامتنان له لأنه لعب دوراً أساسياً في انهيار ثورة رشيد عالي في العراق!! لقد أيد الانكليز الثورة العربية في الحرب الأولى لأنها كانت ضد الأتراك اما أن تصبح هذه الثورة ضدهم أيضاً فهذه مسألة أخرى.

هبطت طائرة أوكينلك في مطار «هليوبوليس» فلم يجد أحداً في استقباله. كانت عملية الانتقال لا تزال محاطة بالسرية الشديدة. غير ان ويفل كان في انتظاره في منزله المطل على نادي الجزيرة الساحر، وفي اليوم التالي رافقه إلى مقر القيادة حيث قدمه إلى الضباط الذين كانوا يجهلون كل شيء عن عملية التسلم والتسليم الوشيكة. وفي ٧ تموز/يوليو غادر ويفل القاهرة إلى الهند بطريق فلسطين لينصرف اوكينلك إلى مهمات الجبهة الأكثر أهمية وتعقيداً في الحرب: «لقد امتدت السيطرة البريطانية الآن من كينيا إلى الحدود التركية. ومن ايران إلى الحدود المصرية – الليبية». وعلى الرغم من فشل هجوم «فأس المعركة» فان الانتصارات السابقة التي حققها ويفل في شمال افريقيا سوف تؤثر في مدى فعالية الايطاليين طوال الحرب.

كان ظل رومل الطويل يخيم على حدود مصر. لكن ثعلب الصحراء بدأ يتعب. وقوته أخذت تنزف. ان الفوهرر بحاجة إلى تعزيزات على الجبهة الروسية، وها هم الجنود الألمان ينزحون من حرّ الصحراء إلى برودة الجبهة الروسية العميقة الثلوج. وفي المقابل كانت التعزيزات البريطانية تصل تباعاً بعدما فقد الانكليز نحو ٣٠ ألف رجل في اليونان وكريت.

في أول تموز/يوليو تذوّق اوكينلك الملعقة الأولى من مرّ التعاطي مع تشرشل: «بعدما وضعت أمامك الحقائق كلها عليك أن تقرر الآن ما إذا كنت تنوي ان تجدد الحملة في الصحراء الغربية، ومتى. ويجب ان تعطي اهتماماً خاصاً لطبرق وللتعزيزات التي يقوم بها

العدو في ليبيا وللاستفزازات في سورية». وبعد ذلك بيومين الحق تشرشل برقيته برسالة أخرى: «عندما تستقر الأمور في سورية نأمل بأن تدرس امكان تعيين (الجنرال) ولسون قائداً لجبهة الصحراء الغربية، لكن بالطبع القرار في النهاية قرارك».

ما إن عرض اوكينلك وجهة نظره على رئيس وزرائه حتى دبّ الخلاف بين الاثنين. فهو يرى انه يجب عدم القيام بأي حملة قبل تأمين «القاعدة». وتأمين «القاعدة» كان يعني «استكمال احتلال سورية وتدعيم مواقعنا هناك» بالإضافة إلى قبرص. وكان أوكينلك يعتقد ان أي تهديد لأي فجوة في الجبهة هو تهديد الجبهة كلها. أما الهدف النهائي «أي تدمير العدو في شمال افريقيا» فهو غير ممكن في «حملة واحدة وانما في سلسلة هجمات مركزة». ثم ماذا عن الأعتدة، سأل اوكينلك رئيسه، «ان مثل هذه الحملة في الصحراء ليست مناسبة للمشاة بل علينا دعم الجيش بسلاح جوي قوي».

وظلت هذه شعارات اوكينلك طوال مدة بقائه في المنطقة: الحاجة إلى قوة مدرعة فاعلة، إلى تفوق جوّي وربط حسابات الجبهة الشمالية بالصحراء! وسوف يزيد من مخاوف تشرشل عندما يتناول وضع طبرق: «لست واثقاً من انه في الإمكان المحافظة على طبرق بعد أيلول/سبتمبر. اننا نفعل كل ما نستطيع لكن غارات العدو الجوي ضد السفن والبواخر في عرض البحر بدأت تفعل فعلها. وفوق ذلك إذا استطاع العدو تأمين «سيدي براني» – هو قادر على ذلك في أي وقت – فانه لن يعود من الممكن حماية السفن بالمستوى الحالي». وتحدث أوكينلك أيضاً عن مخاطر قيام الألمان بحملة على الجزء الشمالي من الجبهة في سورية أو العراق، الأمر الذي سيعقد الأمور تجاه الحملة في الصحراء الغربية! ومن الهند انضم ويفل الذي كان في السابق يقول «بالتفاوض» والحل السياسي في العراق – انضم إلى اوكينلك: «يجب ابعاد الألمان من العراق الآن، أكرر الآن، من أجل سلامة الهند».

بحث الوزراء الذين يشكلون «لجنة الحرب» آراء اوكينلك مساء تموز/يوليو ولم يكن بينهم من يؤيده. بل ان البرت الكسندر، لورد الاميرالية الأول قال: «يجب ان نوجه ضربتنا القاضية في برقة خلال اربعة أسابيع على الأكثر. لا نستطيع أن نؤجل الحملة حتى تصبح قواتنا كاملة التدريب والعتاد». وقد وافق على ذلك الزعيم العمالي اتلي الذي تحدث عن ضرورة «اعادة احتلال برقة، فيما الألمان منشغلون على الجبهة الروسية».

وامسك تشرشل بذريعة من ذرائع أوكينلك نفسه: «انك تقول انه قد لا يكون في الامكان المحافظة على طبرق بعد أيلول/سبتمبر. ولذلك نعتقد ان أي محاولة لاستعادة برقة لا يمكن أن تؤجل بعد ذلك الشهر... فهل باستطاعتك القيام بالهجوم إذا ارسلنا اليك

١٥٠ دبابة اضافية على الفور». وفي اليوم نفسه الحق تشرشل الرسالة برقية أخرى: اذا لم نستغل انشغال الألمان على الجبهة الروسية الآن فان الفرصة قد لا تتكرر!

تدارس أوكينلك الوضع مع ضباطه: الجميع يقرون ان الحملة غير ممكنة الآن. متفوقون، خصوصاً في العتاد. ومن أجل اعادة احتلال برقة لا بد من فرقتين مدرعتين على الأقل، لكن مثل هاتين الفرقتين لا يمكن اعدادهما قبل أوائل العام ١٩٤٢ على أقرب تقدير.

تكاثرت الرسائل بين تشرشل وقائده في الشرق الأوسط. وسوف يكتب رئيس الوزراء البريطاني في مذكراته انه شعر بأن ضباط ويفل قد اثروا في خلفه بالتعاطي مع لندن. واختصاراً للوقت والمزيد من العناد طلب تشرشل إلى جنراله ان يأتي إلى لندن للبحث في الأمر.

كان اوكينلك يكن الاحترام لرئيسه لكنه يعتقد أيضاً انه يبالغ في تدخله في التفاصيل «ليته لم يكن جندياً في يوم من الأيام. لقد كان ذا عقل عظيم لكنه كان أيضاً مهووساً بالانتصار». وفي ٣١ تموز/يوليو حاول اوكينلك ان يشرح لحكومة الحرب المشاكل التي تواجهه. وقد أصر أمام اعضائها على انه حتى الحملة من أجل تخفيف الضغط على طبرق لن تكون ممكنة قبل شهر تشرين الثاني/نوفمبر وان الهجوم الكامل يمكن أن يتم قبيل ربيع العام المقبل، وقال إن الوضع في ليبيا «مجمد» حالياً، لا قواته قادرة على التقدم ولا الألمان ينوون القيام بهجوم مبكر.

لم يعلق تشرشل بشيء تاركاً الكلام حتى اليوم التالي الذي وصفه اوكينلك في رسالة إلى زوجته بأنه كان يوماً «رهيباً»، قال تشرشل لقائده:

«إن الألمان لاهون كلياً بالجبهة الروسية، وهم يجدون صعوبة شديدة في تموين مواقعهم في برقة لدرجة انهم قد ينسحبون من هناك، لكنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا أرغموا على قتال شديد يستنفد قواهم... ولقد بذلنا جهوداً كبرى من أجل ارسال قوات إلى الشرق الأوسط، ومع ذلك ها نحن نبلّغ انه ليس بالإمكان فعل أي شيء قبل أول تشرين الثاني/ نوفمبر. ان هذا سوف يترك انطباعاً سيئاً عنا، كوننا في هذه المرحلة الحيوية، فيما يتحمل الروس لوعة الهجوم، وفيما الظروف مواتية جداً، لا نقوم بأي عمل».

رد اوكينلك من جديد: «ضرورة الهجوم واضحة جداً، لكن الوسائل غير سهلة». وقال للوزراء ان الفريقين يملكان عدداً متساوياً من الدبابات «في حين ان التجربة اظهرت انه لكي نربح المعركة لا بد من تفوق بنسبة دبابتين إلى دبابة واحدة».

تحدث انطوني ايدن. انه وزير الخارجية ودوره هو ان يعرض المضاعفات السياسية: «اذا صد الروس الألمان فانهم سوف يكونون في موقف يمكنهم من القول إنهم ربحوا الحرب

لنا... اما إذا فشل الروس فاننا لن نفقد فقط الفرصة بالهجوم بل سوف نتهم بأننا لم نبذل أي مجهود لانقاذهم».

نحو الواحدة والنصف اعتذر اوكينلك من السادة في ١٠ داوننغ ستريت. انه على موعد للغداء مع الملك جورج على بعد أميال قليلة في قصر باكنغهام. كان الملك منشرحاً والغداء بسيطاً: حساء ودجاج وشراب التفاح! في الثالثة عاد إلى ١٠ دواننغ ستريت ليصغي إلى تشرشل أكثر اصراراً وعناداً. ومعه، كمؤيد، كليمنت اتلي: «معنا شهران فقط. الانتظار حتى تشرين الثاني/نوفمبر يعني ان الألمان سوف يستردون انفاسهم وان فرصتنا سوف تضيع».

رد اوكينلك بقسوة: «الحملة الأخيرة اخفقت لأنها شنت قبل ان يكون الجيش مستعداً. واذا تكرر ذلك فاننا لن نعرض القوة المدرعة فقط للخطر بل مصر كلها. لن يقف شيء أمام مسيرة العدو إلى الدلتا».

تدخل اتلي: لقد اخفقت الحملة الأخيرة لأننا لم نرم بكل شيء في المعركة. وفي أي حال، كيف يمكن أن ننقذ مصر إذا انتظرنا بحيث نعطي الألمان فرصة تدعيم قواهم؟

غير ان اوكينلك ظل على عناده. إذا توافرت الفرصة للقيام بمثل هذا الهجوم سوف نبادر إلى ذلك على الفور. اما الآن، فلا. ازداد تشرشل عناداً بدوره: «ان الحروب لا تخاض على أساس الانتظار إلى ان يصبح كل شيء جاهزاً. وانه لأمر مخيف ان نمضي اربعة أشهر ونصف الشهر من دون ان نفعل شيئاً».

استمر الاجتماع إلى ما لا نهاية! هكذا كتب اوكينلك إلى زوجته. غير ان تشرشل وعد في النهاية بأنه سوف يضع استنتاجاته على ورقة خلال يومين. والواقع ان تشرشل اعترف بالهزيمة: «لقد هزّ اوكينلك جميع وزرائي بالتفاصيل التي قدمها. انا شخصياً لم اقتنع. لكن اوكينلك ظل بالنسبة إليّ الرجل الأفضل ولذا اذعنت وقبلت تشرين الثاني/نوفمبر موعداً».

كعادته حين ينهزم، اصبح تشرشل ودياً ومتفهماً. وهكذا دعى اوكينلك لتمضية عطلة الأسبوع في «التشيكرز». وانضم إلى الاثنين انطوني ايدن، فذهب تشرشل إلى النوم. بحث الاثنان في أمر الجنرالات الآخرين. وابلغه اوكينلك ان تشرشل مصر على تعيين الجنرال ميتلاند ولسون قائداً في الصحراء الغربية «لكن الرجل بطيء» بالنسبة إلى حملة من هذا النوع. وفي وقت لاحق من ذلك المساء اجتمعت اللجنة الحربية مرة أخرى.

كان ذلك في ٢ آب/أغسطس. وكان الموضوع تلك الليلة: تركيا! لقد بحث البريطانيون كيف يمكن مساعدة تركيا - التي لا تزال على الحياد - في وجه أي غزو الماني

محتمل! لم تتغير الأشياء. في الحرب الأولى كان أوكينلك، النقيب في الجيش آنذاك، يحارب الأتراك وكان الألمان إلى جانبهم.

عاد اوكينلك إلى القاهرة في العاشر من ذلك الشهر بطريق جبل طارق ومالطا، وكانت مثل هذه الرحلة الجوية في تلك الأيام تستغرق يومين. وعمد فوراً إلى تعيين الجنرال الآن كانينغهام قائداً للجبهة الغربية وليس ميتلاند ولسون الملقب «جامبو» لسمنته. وأبرق اليه تشرشل يهنئه، لكنه في الواقع كان ضد التعيين. وسوف يقول مونتغمري عن اوكينلك بعد ذلك: «إنه كان رديئاً في اختيار الرجل». لكن الحقيقة ان بريطانيا كانت تعاني نقصاً في قادة الميدان آنذاك والرجل الذي كان يريده أوكينلك، آبي اوكونور، كان قد أصبح في الأسر الالماني الآن.

كان كانينغهام في الرابعة والخمسين من العمر، اما ولسون فكان في الستين. وكان الأخير قد قاد «جيش النيل» وقام بالحملة الأولى على «برقة» تحت امرة ويفل كما تولى قيادة المعارك في سورية.

في هذه الأثناء كان رومل يعيد تنظيم قواته بعد نجاحه في «فأس المعركة». وقد مكنته التعزيزات التي وصلته خلال الصيف من تدعيم كتائبه. وكان رومل قد اقنع هتلر خلال آب/ أغسطس بأن القوات الألمانية والإيطالية في افريقيا يجب ان تتوحد تحت امرته. وظلت طبرق هاجس رومل الأول لكنه وزع أيضاً بعض قوات المحور بين حلفايا و «سيدي عمر» لصد أي هجوم بريطاني من مصر. ولم يكن اوكينلك يخدع نفسه تجاه منافسه «انه عدو سريع الحركة وخطر جداً. خطر جداً، ومتفائل. ويجب ان تظل على حذرك منه طوال الوقت».

أسبوع بعد أسبوع، تدفق الرجال والعتاد للفريقين في الصحراء. وها هم ألوف الرجال، من جنسيات متعددة، يتعرفون أول مرة إلى حر الصحراء ومسافاتها اللامتناهية. وعلى هذه الرمال «الممتدة حتى الأفق» سوف يتقاتلون قريباً: «مسافات خلف مسافات من الرتابة الفسيحة وفوقها مسافات فوق مسافات من السماء الفسيحة: شمس حارقة وأرض تعكس حرها كأنها مرآتها».

يطرأ تحول جديد. ان اوكينلك، بعكس ما كان موقفه في لندن، اصبح مقتنعاً الآن ان في امكانه تقديم موعد الهجوم. وها هو يكتب إلى تشرشل في ٢١ آب/أغسطس انه بدلاً من «الهجوم المحدود» في الخريف يمكن القيام بالهجوم الكبير الذي تعد لندن نفسها به. ومع حلول أيلول/سبتمبر كان يصدر إلى كانينغهام امراً يقول إن الهدف من حملة الخريف هو «اخراج العدو من شمال افريقيا». وحدد ذلك في مرحلتين، الأولى احتلال بنغازي

وجوارها والثانية احتلال طرابلس وجوارها أو المنطقة التي كان الأجانب يسمونها «تريبوليتانيا».

وفي لندن كان صبر تشرشل ينفذ من جديد ويتذمر علناً من ان هناك «٦٠٠ ألف فم يجب اطعامها في مصر». لكن مع منتصف أيلول/سبتمبر كانت المناوشات الحقيقية قد بدأت فعلاً بين اوكينلك ورومل. وارسل الثعلب الألماني فرقة من المدرّعات باتجاه «سيدي براني» لظنه انها مخزن الوقود البريطاني.

وعندما لم يجد شيئاً هناك استمر في تقدمه، فيما تراجع الانكليز في دهاء. وتوقف روما في ١٦ أيلول/سبتمبر عن المضي في تلك المعركة التي سميت «حلم ليلة صيف»، مقتنعاً هذه المرة بأن تقديراته بضعف البريطانيين قد صحت.

وهكذا أدار روما ظهره لعدوه بينما راح الانكليز يبنون هذه المرة فعلاً. مخازن وقود في «سيدي براني». هو، كان يريد ضرب حصار حول طبرق. غير ان متاعب الانكليز كانت كثيرة أيضاً وبينها كما يروي وزير زائر، كثرة الضباط «من الدرجة الثانية». وبالتالي فانه «ما لم يستبدل هؤلاء بدماء جديدة فان الحالة سوف تزداد انهياراً».

وفي أي حال وضع الجنرال كانينغهام خطة محددة للهجوم، انه الآن قائد «الجيش الثامن» مع ان تشرشل كان يريد أن يطلق على القوة اسم «جيش النيل». واعترض اوكينلك على التسمية «اين نحن من النيل. انها رومانطيقية ساذجة. وفي أي حال فان الجنود لا يهمهم بشيء أي اسم تطلقه عليهم». كانت خطة كانينغهام تقضي بشن الهجوم عبر الجزء المهجور تقريباً من الحدود المصرية – الليبية قرب «سيدي عمر»، على ان تتجه القوة البريطانية الضاربة في الشمال الغربي نحو طبرق. وكان الهدف من ذلك استدراج روما وفرقتيه المدرعتين «بعيداً عن حصنه». وعندما يتم ذلك تندفع الحامية البريطانية إلى القتال بدورها، ثم تقوم فرقة أخرى من الجيش الثامن بتطويق المواقع الألمانية على الحدود قبل ان تندفع نحو «البردية» وطبرق.

في غضون ذلك تابع اوكينلك مسؤوليات أخرى. وفي ٣ تشرين الأول/أكتوبر بدأ جولة تفقدية على قواته في سورية وفلسطين استمرت حتى العاشر منه. وعلى عكس تشرشل ظل خائفاً من مخاطر محتملة في تلك «الجبهة الشرقية». وقد كان على حق، ففي الجانب الآخر كان روما يحلم، اذا توافرت له التعزيزات، بدحر حملة بريطانية توقعها في أوائل الربيع، يندفع بعدها في نهايات الربيع إلى قناة السويس ومن هناك إلى العراق وخصوصاً البصرة.

لكن في حين كان اوكينلك يتطلع بطرف عينه إلى الشرق كان نظر تشرشل مركزاً

على غرب تلك الجبهة الطويلة! كانت للعجوز اللندني احلام بعيدة المدى، أقلها ابعاد روما من ليبيا: «إذا أخذنا طرابلس ولم تتحرك فرنسا فان حيازتنا لمالطا سوف تمكننا من الزحف على صقلية وبذلك نفتح «الجبهة الثانية» الوحيدة الممكنة في أوروبا.

وشاركه وزراء آخرون هذا الحلم الذي بحثته لجنة الدفاع في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر في جلسة خاصة. وبحث الوزراء أيضاً في وضع روسيا وعدم مساعدة بريطانيا للحليف المتألم. ولذا قال اتلي «إن السياسة الحكيمة هي في ان نكون مستعدين لاستغلال نجاحنا في الصحراء». اما ايدن فكان يعتقد ان «اللحظة المناسبة للزحف على صقلية قد تكون خلال الهجوم على طرابلس». وأصر اللورد بيفربروك على انه يجب القيام بأي عمل في الحرب لمساعدة الروس.

انهمك اوكينلك في تعديل الدبابات الواصلة الحديثة حيث تستطيع القتال في الصحراء. كان هذا يعني تأخير موعد الهجوم إلى ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر. وطار صواب تشرشل من جديد، ومن جديد أيضاً تطايرت البرقيات بين القاهرة ولندن، واصر العجوز البريطاني من عاصمته على ان قواته تملك الآن ٦١٦ دبابة في حين يملك الألمان ١٨٦ «أي اربعة لواحد. وهذا كثير».

غير ان تشرشل عاد فأذعن لقرار جنراله المتأني «ليس لدينا خيار سوى ان نقبل اقتراحك الجديد. لذلك فانني لن اضيع المزيد من الكلام في الحديث عنه».

لكن اوكينلك، بعد بروز صعوبات جديدة في تدريب بعض الفرق، سوف يؤجل الموعد مرة أخيرة حتى ١٨ من ذلك الشهر. في المقابل كان روما يركز اهتمامه على طبرق لطرد الحامية البريطانية منها ويهيئ للقيام بهجوم عليها بين ١٥ و ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر. وكتب اوكينلك بعد الحرب انه درس آنذاك امكانية «تأجيل حملتنا إلى ان يكون روما قد بدأ هجومه وعند ذلك نهاجمه من الخلف لكننا لم نكن نعرف موعده».

غادر ثعلب الصحراء افريقيا الشمالية لبضعة أيام في منتصف الشهر، فيما كان الجيش البريطاني الثامن يتخذ مواقعه للهجوم. وفي ١٥ منه وجه تشرشل رسالة إلى رجال اوكينلك: «ان جيش الصحراء قد يضيف صفحة جديدة إلى التاريخ الذي كتب في بلنهايم وواترلو. ان انظار جميع الأمم تتطلع اليكم».

حل فجر الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١. وعنه كتب أحد المشاركين في المعركة: «لقد بدأت! هذا الصباح استيقظنا في الرابعة تحت جنح الظلام وكذلك استيقظت على ما يبدو جميع الوحدات في فرقتنا المدرعة وكأننا في سباق عظيم... وعلى مدّ النظر في تلك الصحراء كانت هناك عربات من كل الأنواع – دبابات وسيارات مصفحة ومدافع

وطنابر وشاحنات ولوريات – كلها تتجه غرباً نحو ليبيا».

طوال ذلك النهار سارت القوات البريطانية من دون ان ترى امامها أي قوات المانية سوى وحدات الاستكشاف. ومع المساء كان أحد الفيالق قد وصل إلى موقعه في «جبر صالح» جنوب غرب طبرق حيث أمل في استدراج الألمان. لكن الألمان لم يتحركوا. وقد خيل إلى رومل، الذي عاد إلى الصحراء قبل يوم واحد، ان القوات البريطانية لم تكن سوى قوة استكشاف ضخمة، وهكذا استمر في الاعداد للهجوم على طبرق. والهدوء الألماني أدى بدوره عن غير قصد إلى ارباك الانكليز الذين حاروا في تفسيره، وهكذا غير البريطانيون خططهم بأن وزعوا جنودهم... وبالتالي قواهم، وقد كتب رئيس اركان رومل الجنرال فريتزبايرلين فيما بعد: «انه فقط بعد ظهر الثامن عشر تيقنت فرقة البانزر من ان العدو قد شن حملة رئيسية».

وبدأت وحدات دبابات «البانزر» بالتجمع في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر باتجاه «جبر صالح». غير ان القوات البريطانية كانت قد قطعت شوطاً من التقدم نحو «سيدي رازق» وطبرق، وهو تقدم لم يكن مهماً بسبب تفرق القوات والمسافات التي تفصل بينها.

تعالت ضراوة الاشتباك في كل اتجاه، واستطاعت فرقة بريطانية اقتحام إحدى النقاط الألمانية، إلا ان رومل صدّ المزيد من التقدم، فيما دارت الدبابات والمدرعات البريطانية حوله وحول نفسها أيضاً في مساحات الصحراء، وتوقف عدد كبير من الدبابات بسبب اعطال ميكانيكية او لنفاد الوقود وانقطعت خطوط الاتصال وضاعت وحدات كثيرة ثم وجدت ثم ضاعت من جديد. «لم يكن ضباب الحرب بهذه الكثافة في أي معركة».

في هذه الحالة من الضياع والفوضى فقد الجنرال كانينغهام قبضته الأولى على المعركة وفقد اعصابه أيضاً. وكان رومل يستخدم في الجانب الآخر حدة الهجوم وصلابة القتال، فاستعاد المبادرة لقوات المحور. اما اوكينلك الذي كان يزوّد بتقارير خاطئة من الجبهة فكان يرسل هذه التقارير بدوره إلى لندن. وفي ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ابرق إلى لندن يقول: «ان امكانات تحقيق هدفنا الفوري، اي تدمير القوات الألمانية المدرعة، تبدو جيدة». وفي برقية أخرى ذلك النهار: «ان الشجاعة والاقدام اللذين اظهرهما القادة والقوات كانا رائعين. وفي رأيي ان كانينغهام قد انهى حتى الآن هذه المعركة الشديدة التعقيد بمهارة وجرأة».

بعد بزوغ فجر ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر بقليل كان رومل يهجم على المواقع البريطانية فيحطم الكثير منها ويوقع في صفوف الانكليز ٣،٩٩٤ قتيلاً. وفقد البريطانيون أيضاً مئات الدبابات. اما الألمان ففقدوا نحو ٦٠ دبابة فقط.

وبدا ان كانينغهام سيأمر بين لحظة وأخرى بتراجع جماعي إلى مصر. غير ان رئيس

اركانه، الجنرال الكسندر فالواي عارض مثل هذه الخطوة بشدة وابرق إلى القيادة في القاهرة بالأمر. وابرق كانينغهام يائساً إلى اوكينلك يطلب منه الحضور فوراً.

حتى تلك اللحظة لم يكن اوكينلك قد تدخل في المعركة. وقد قال فيما بعد: «آخر ما كنت اريد هو ان اتدخل، إلا اذا ساءت الأمور». لكن ها هو يستقل الطائرة العسكرية التي تحلق به في العاصفة «على علو ١٠٠ متر فقط احياناً». وما ان وصل حتى انتحى جانباً بكانينغهام الذي اطلعه على الخسائر الفادحة في الدبابات. وسأله قائد الحملة ماذا نفعل الآن؟

كان اوكينلك حاسماً: يجب على «الجيش ان يهجم. يجب انزال خسائر موازنة بالعدو. الآن وقت الضغط عليه». فقد لاحظ ان الألمان أيضاً يعانون من التشتت: «انهم يهاجمون هنا وهناك، وفي كل مكان، في ما بدا لي محاولة يائسة للاخلال بتوازننا وزرع الفوضى في صفوفنا. صحيح ان العدو كان قد استرد المبادرة التكتيكية لكن المبادرة الاستراتيجية ظلت في ايدينا: نحن نهاجم اما هو ففي موقع الدفاع»، وهكذا قرر اوكينلك تخطي الصعاب بدلاً من ان ينوء تحتها مثل جنراله. لم يفقد اعصابه امام مشهد المدرعات والسيارات المحترقة التي تضيء ليل الصحراء. اما ثعلب الصحراء فقد عاد إلى قاعدته في «العدم» وهو شديد الفرح. لقد قرر رومل الآن ان يقوم باجرأ خطوة في حياته العسكرية: سوف ينتقي افضل وحداته ويقودها نحو مصر، ضارباً أولاً الأجنحة الخلفية للجيش الثامن، مشتتاً الفيالق الأخرى! ولو نجح رومل في ذلك لاعتبرت تلك من امكر الخطوات ذكاء في تاريخ الحرب لكنه سوف يفشل بسبب اوكينلك.

في ذلك النهار بالذات كتب رومل إلى زوجته يقول: «يبدو ان المعركة قد تخطت ازمتها». اما اوكينلك فكان يبرق إلى لندن «يبدو ان المعركة تتجه نحو ذروتها». الأول اعتقد ان ساعة النصر قد حانت، والثاني كان يعتقد ان اللحظة الحاسمة لم تحن بعد.

«ان السرعة حيوية جداً». هكذا قال رومل لجنراله نويل صباح اليوم الثاني، ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر وبعد قليل كانت الدبابات الألمانية تتجه نحو مصر تتقدمها، سيارة رومل! ووصف أحد الضباط الانكليز تلك الساعات بقوله: «كان رومل يتقدم وكأنه ثور فالت في مخزن للأواني الزجاجية»: لقد بدا الآن ان مصر في متناوله.

على طاولة مفككة في الصحراء كان اوكينلك يكتب اوامره: ١ – «استمروا في مهاجمة العدو بلا هوادة مستخدمين جميع امكاناتكم حتى الدبابة الأخيرة. ٢ – هدفكم الفوري هو تدمير دبابات العدو. ٣ – هدفكم النهائي لا يزال احتلال برقة ثم الاتجاه نحو طرابلس».

استمرت حملة الجيش الثامن على الرغم من ضربات رومل. وفي «سيدي رازق» اعاد الفريق المهزوم تجميع افراده، وفي الشمال اندفعت الفرقة النيوزيلندية نحو طبرق.

تحرك رومل بلا راحة وتعطلت سيارته قرب دورية بريطانية لكنه نجا من الاسر. الا ان اوكينلك ظل مطمئناً. وقال لأحد المراسلين الاميركيين: «إنه يقوم بمحاولة يائسة لكنه لن يذهب بعيداً. ان ذلك الطابور من الدبابات غير قادر، بكل بساطة، على الحصول على مؤن».

من ناحية أخرى كان عليه ان يستبدل كانينغهام. لا مفر من ذلك. انه يتلقى كلاماً طيباً من تشرشل وانباء جيدة من الجبهة. لكن البدائل كانت قليلة. وفي النهاية اختار احد رفاقه في القيادة، ريتشي، وهو قرار سوف يثير الانتقادات فيما بعد، وكتب إلى كانينغهام رسالتين، واحدة شخصية والثانية رسمية. وفي الأولى يقول له: «ليس هناك جدوى في ان اقول لك كم اكره هذا. لكن لا خيار امامي. انها قناعتي». وسوف يصبح كانينغهام، على الرغم من ذلك، المفوض السامي وقائد القوات البريطانية في فلسطين بين العامين ١٩٤٥ و ١٩٤٨.

بدا القائد الجديد متفائلاً: «ان الوضع العام في برقة جيد بصورة عامة والدلائل تشير إلى ان صعوبات العدو آخذة في التزايد». غير ان تشرشل كان يبرق إلى اوكينلك. لماذا لا يقود المعركة بنفسه؟ لكن الجنرال ردّ بان ذلك قد يترك تأثيراً سيئاً في الجنود. ولكل مسؤولياته في الميدان.

في غضون ذلك، في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر كان ثعلب الصحراء قد عاد إلى «العدم» واعاد قواته إلى منطقة «سيدي رازق» التي احتلها بعد يومين واستعد من جديد لضرب طبرق.

وفي أول كانون الأول/ديسمبر عاد اوكينلك إلى الجبهة ليرى ان رومل قد خسر الكثير من الدبابات. ففرقة البانزر الحادية والعشرون لم يبق لديها سوى ٢١ دبابة، اما الفرقة الخامسة عشرة فبقي لها ١٥ دبابة، وبالمقابل حصل الانكليز على ١٢٠ دبابة جديدة: لم يبق امامنا سوى التراجع. هكذا قال أحد اركان رومل.

لكن رومل نفسه لم يوافق. وقد حال القيام بهجوم مضاد في ٢ كانون الأول/ديسمبر. وفي الرابع منه كان مشهد القتال بين سيدي رازق وطبرق مضحكاً ومأساوياً معاً: الدبابات والمدرعات تدور حول نفسها في الصحراء، المشاة غارقون في الرمال، يقاتلون، يغرقون، ثم يتقدمون ثانية. وكتب الكابتن روبرت كريسبا، أحد المشاركين في تلك المعركة: «استطيع القول بكل صدق إن أحداً منا لم يكن يعرف اين نحن من يوم إلى يوم ومن

ساعة إلى ساعة. ولم نكن نعرف ماذا يحدث لقواتنا أو لقوات العدو. لقد انتقلت الحملة، في عنف شديد من أحد جوانب الصحراء إلى الجانب الآخر... كنا نطارد السراب ونشعر ان السراب يطاردنا أيضاً. لم ننم. لم نأكل. لم نستحم. والكلام الوحيد الذي كان يقال على اللاسلكي فقط».

بعد ثلاثة أيام بدأ رومل، الذي لم تصله أي مؤن، بعكس الانكليز، يفكر في الانسحاب في ضوء خسائره البشرية والمادية. وعرف البريطانيون بازمة ثعلب الصحراء فراحوا يشبعون قواه ضرباً. وفي الثامن من ذلك الشهر كان المارشال الألماني ينسحب من حول طبرق بعد حصار دام ٢٤٢ يوماً. اما اوكينلك فكان يعود إلى القاهرة، كلاهما سوف يستعد الآن لواحدة من أشهر المعارك في تاريخ الحروب: العلمين!

رومل :
أحب الصحراء.. فهزمته الصحراء

هناك اسم غريب بين «جنرالات الشرق». لا هو فرنسي مثل جنرالات «المشرق» ولا هو بريطاني مثل اولئك العسكريين الانكليز الذين هاموا بالصحراء من أطرافها إلى أطرافها وكأنها حديقة غناء في أواسط لندن. انه الماريشال اروين رومل.

لقد خرج رومل في نهاية الأمر مهزوماً من الحرب العالمية الثانية. وخرج مهزوماً من معركته الكبرى من أجل الوصول إلى مصر. لكن للغرابة فان الجميع يعاملونه وكأنه منتصر، والمؤرخون الغربيون الذين يلعنون عسكر النازية صباحاً مساء يعاملون اروين رومل باعجاب غريب. ولعل السبب الأول والأخير انه في الحرب حيث تسود القذارات، حرص رومل على الاعراف، وفي الحرب حيث لا تعود هناك مبادىء حرص رومل على احترام القواعد. اما السبب الآخر فهو ان الرجل ولو انه هزم في النهاية فقد كان من الصعب جداً ان يهزم.

لقد وضع البريطانيون ثلاثة من كبار قادتهم في وجه اروين رومل. ومن أجل ان يهزم هذا الماريشال الألماني الوسيم، كان تشرشل يغير الجنرالات في ليبيا ومصر وتونس كما يغير سيجاره المشتعل أبداً.

اذن، من هو رومل الذي قرأنا عنه في الفصول عن ويفل واوكينلك ؟

انه العام ١٩٤٤، وبالتحديد في ١٨ أيار/مايو، ثمة من يبلغ هتلر خلال الاجتماع الحربي هذا الصباح ان العدو قد نفذ عمليتين تخريبيتين على الساحل الفرنسي على الرغم من دفاعاته الشديدة. وفي مسرح العملية الأولى تبادل الألمان النار مع الكوماندوس المهاجمين، اما في الثانية، قرب نهر السوم، فقد تم اعتقال ضابطين بريطانيين.

وفي صوت متهدج قال الجنرال الفرد جودل رئيس العمليات العسكرية في الفيرماخت لسيده الفوهرر «لقد جاءا بقارب من المطاط انزله مركب بريطاني بخاري».

يتغير المشهد إلى قصر فرنسي عتيق مبني على ظهر صخرة ضخمة تطل على وادي السين. وكان ذلك بعد يومين من الاجتماع بقيادة الفوهرر. تقف سيارة عسكرية مسرعة امام القصر ويترجل منها جنديان متعبان من عناء الرحلة التي بدأت قرب المانش. يتقدم العسكريان وخلفهما رجلان عصبت اعينهما وشد وثاقهما. انهما من الكوماندوس البريطاني. عند المدخل تفك العصبة عن اعينهما فتلمع الشمس فيهما لمعاناً محزناً. لقد كانا يعرفان ان اوامر الفوهرر واضحة: كل رجل كوماندوس يعتقل يسلم إلى رجال الغستابو فوراً ويرمى بالرصاص.

يدفعهما الجنود إلى زنزانات مختلفة لكنهما يجدان هناك فناجين شاي وقطعاً من الخبز. يرفض أحدهما، اللفتنانت روى وودريج ان يتفوه بأي كلمة، اما الضابط الآخر جورج لين فيساق إلى مقابلة الكولونيل هانز – غيروغ فون تمبلهوف. ويقف تمبلهوف بكل هدوء ويقول لأسيره بتحبب: «لا بد ان الطقس جميل في انكلترا اليوم».

ودهش لين امام طلاقة الرجل في الانكليزية، فشعر تمبلهوف بذلك وسارع إلى التوضيح: «ان زوجتي انكليزية». وراح يتأمل اسيره طويلاً ثم وقف فجأة وطلب اليه ان يذهب ليغتسل: «انك ستقابل شخصاً مهماً... شخصاً مهماً جداً. الفيلد ماريشال رومل»!

كان الحلفاء على بعد ١٧ يوماً فقط من موعد الهجوم الكبير على فرنسا التي يحتلها النازيون، وفي مرافئ بريطانيا كانت اساطيل ضخمة تتجمع استعداداً لتلك العملية الحاسمة في الحرب الكونية الثانية. ومن أجل ذلك فقد وضع هتلر على رأس القيادة في فرنسا ماريشاله المفضل اروين رومل، ثعلب الصحراء الشهير، والرجل الذي دوخ الاميركيين والبريطانيين من قبل.

انه يعرف ماذا يغضب الاعداء ويستطيع ان يتكهن بكل حركة سوف يأتونها. وقد لاحظت طائرات الاستكشاف التابعة للسلاح الجوي الألماني قبل أيام حشداً لسفن الانزال قباله منطقة السوم. ثم جاءت عملية الكوماندوس لتؤكد ان الغزو الحليف سوف يبدأ من هناك. لكن انى لهذا العسكري الذكي ان يعرف ان سفن الانزال تلك كانت نماذج فارغة وان رجال الكوماندوس انزلوا عمداً لكي يزودوا الألمان بمعلومات كاذبة! لقد كان كل شيء جزءاً من خطة خادعة دبرها الانكليز.

اختار رومل هذا القصر المنيع مقراً له لأنه مليء بالأقبية. وقد أضاف إلى الانفاق الأساسية انفاقاً أخرى حفرها رجاله في الصخرة الضخمة. ومنذ خمسة أشهر وهو يعد الجيش الألماني للهجوم الحليف فيزرع الأسلاك الشائكة والأفخاخ البشرية والألغام والمصائد. وبالتالي فانه لم يفاجأ بأن يركب الانكليز المخاطر لكي يعرفوا ماذا يدبّر!

يدخل اللفتنانت لين إلى مكتب الفيلد ماريشال فيراه جالساً ينظر من النافذة. انها غرفة طويلة ضخمة، مزينة جدرانها بأربعة لوحات نادرة وأرضها مغطاة بالسجاد الثمين وقد انتشرت التحف في كل زاوية منها. اما رومل نفسه فكان قد بدأ يخسر بعض وسامته الشهيرة: انه الآن مائل إلى السمنة وشعره بدأ يتساقط لكن عينيه الزرقاوين تزدادان عمقاً. وبدا واضحاً ذلك النهار ان الشمس قد لوحت وجهه بسبب جولاته الكثيرة على الساحل. وكان يضع حول عنقه وسام الاستحقاق المذهب الذي منحه في العام ١٩١٧ وهو ارفع وسام كانت تقدمه بروسيا لضباطها.

يقف رومل ويحيي اسيره البريطاني بلطف. ثم طلب من لين ان يتقدم ويجلس، وقبل ان يفعل يقول له:

– اذن، انت واحد من رجال الكوماندوس المجرمين؟».

فيرد لين قائلاً:

– «انني فخور بكوني من رجال الكوماندوس ولست مجرماً».

ويقول رومل: «ربما لست مجرماً. لكن لنا تجارب رديئة معكم معشر الكوماندوس. فهم لم يتصرفوا دائماً كما يجب». ثم يضحك ساخراً ويضيف «انك طبعاً في مأزق، فأنت تعرف ماذا نفعل بالمخربين».

يتطلع لين إلى المترجم ويقول له: «لو كان سيدك يعتقد انني مخرب لما دعاني إلى هنا».

فضحك رومل وقال: «اذن، انت تعتبر هذه دعوة».

فيجب لين: «يجب ان اعترف بأنني اعتبرها كذلك ولذا فأنا أشعر بالفخر».

ويضحك الجميع. ثم يقول رومل: «بالمناسبة، كيف حال صديقي القديم مونتغمري».

ويجيب لين: «انه ممتاز. شكراً. وقد سمعت مؤخراً انه يعد لغزو ما».

وتصنع رومل الدهشة: «هل تعني انه سوف يكون هناك حقاً غزو ما؟».

ويرد الأسير: «هكذا تخبرنا «التايمس». وهي كما تعرف جريدة موثوقة».

وقال رومل: «انك تعرف ولا شك انه سوف يترتب على الانكليز للمرة الأولى ان يقاتلوا بصورة حسنة».

فأجاب لين: «لكن كيف قتالهم في افريقيا؟».

آه، رد رومل: «لقد كان ذلك لعب اطفال. والسبب الوحيد الذي جعلني اتراجع انذلك هو ان المؤن لم تعد تصل اليّ».

وأخذ رومل لعشرين دقيقة يستعيد ذكريات الحرب ويلقي على لين العظات حول تراجع بريطانيا وانحسار امبرطوريتها وحول المستقبل العظيم الذي ينتظر الرايخ الثالث. ويعتذر لين: هل يسمح له الماريشال بهذا السؤال: أليس الاحتلال العسكري ظلماً؟

لا. يرد رومل. ثم ان العسكريين، بسبب تنشئتهم، يتحولون إلى ديكتاتوريين مثاليين. ان الجنود معتادون على الأزمات وهم يعرفون كيف يواجهون اقصى حالات الطوارئ: «ولو انك تجولت في انحاء فرنسا اليوم وفتحت عينيك جيداً لرأيت كم هم الفرنسيون سعداء. ها هم يعرفون للمرة الأولى ماذا يجب ان يفعلوا - لأننا نحن الذين نعلمهم ذلك! وهذا ما يفضله السواد الأعظم من الشعب».

بعد فترة تعصب عينا اللفتانت لين من جديد. ويخرج من مكتب رومل إلى معسكر الاعتقال و... العفو كما شاء الماريشال! وفيما هو يركب السيارة امسك بذراع آسره الكولونيل ستاوب واسر وقال له:

«هل لي بطلب منك؟ قل لي اين نحن الآن».

ورفض ستاوب واسر بتهذيب لأسباب امنية. لكن لين عاد يصر: «أقسم لك بأنني لن أخبر أحداً، لكن غداً عندما تنتهي هذه الحرب اريد ان احضر أولادي وأقول لهم: هنا قابلت رومل».

في العام ١٩٤٤ كان رومل قد اصبح اسطورة حية. فقد عرفه اعداؤه وجنوده معاً انه يملك مقدرة نادرة على القيادة: انه لا يكف عن القتال لكنه لا يسأم من العفو. يعرف كيف ينتصر ويعرف كيف يعامل المهزومين. كان يهاجم مثل اعصار كما يقول المؤرخ ديفيد ارفينغ، لكن اعداءه كانوا يحسدونه على أسلوبه في الانسحاب.

رأى فيه البعض هنيبعل معاصراً، يعرف كيف يطوق اعداءه وكيف يدكهم ويهبط معنوياتهم وكيف يحقق النصر بعد النصر إلى ان ترغمه «قوة خارجة عن كل ارادة» على الانسحاب، وكان يفعل ذلك بأقل كمية ممكنة من الخسائر.

كان فتياً دائماً بالنسبة إلى رتبته العسكرية، يعشقه جنوده حتى الموت، ويقال إنه احيا في الحرب تلك الفروسية التي نسيها الناس منذ زمن. ففي حرب نسف فيها الناس جماعات ودمرت فيها المدن حتى الحجر الأخير، كان رومل يأمر جنوده بالقتال مع الخلق. كان يحترم الأسرى والممتلكات الخاصة. واننا نقرأ في امر يومي إلى جنوده في ايطاليا في العام ١٩٤٣: «لا تنهبوا. حافظوا على النظام واحترموا الفيرماخت الالماني». وقد رفض فكرة السخرة في فرنسا ودفع للعمال رواتبهم بالطرق العادية. وفي العام ١٩٤٢ تجاهل حتى اللحظة الأخيرة أوامر هتلر الشهيرة بالاعدام الفوري لكل رجال الكوماندوس وعندما

اعتقل بعض العرب الذين عملوا إلى جانب الحلفاء رفض الانتقام من الرهائن قائلاً: «الأفضل ان نترك هذه الحوادث من دون ثأر من ان نثأر من الأبرياء».

لم يكن يشعر بالفرح في قتل جندي عدو، في حين ان الماريشال مونتغمري كان يقول: «اقتلوا الألمان اينما وجدتموهم». وكان ايزنهاور يقول: «بالنسبة اليّ كل جندي يقتل المانياً هو رجل احبه، واذا كان بامكاني ان اساعده على قتل اثنيـن بـدلاً من واحد فعلت ذلك». لم يتفوه رومل اطلاقاً بمثل هذه الأقوال، بل كان يكتفي بالتفوق على عدوه ذكاء وخداعاً وقوة. ويقال إن متعته الكبرى كانت في حمل عدوه على الاستسلام قبل الوقت الضروري.

وقبل اي شيء كان جنرالاً مقاتلاً، يندفع إلى الميدان قبل الجميع غير عابئ بأي اخطار وانه كما يقول ارفينغ، الرجل الذي لم تمزقه قذيفة عدو ولم يقتله لغم ولم تسقط على مقربة منه قنبلة تصرعه. ولقد كانت اسطورة رومل قوية لدرجة انها اسرت اعداءه قبل حلفائه. وقد عمد الحلفاء إلى تضخيم اسطورته خلال الحرب في البداية لكي يبرروا خسائرهم ثم بعد ذلك لكي يرفعوا من شأن انتصاراتهم. كذلك لأن هناك سبباً ثالثاً وهو ابراز هذا الألماني النبيل كنقيض للقذارات النازية الأخرى.

لقد كان هناك زمن كان فيه اسم رومل وحده يساوي بضعة فرق. وعندما اقعده المرض اخفي الأمر عن الجنود لكي لا يصيبهم الاحباط. وعندما ايقن الحلفاء ان رومل لم يعد حقاً في أرض القتال بدأت حملة من التكهنات الغريبة. وامتلأت واشنطن باشاعات تقول إنه يقود جيشاً سرياً في اليونان أو رومانيا أو يوغوسلافيا. ام هل هو فعلاً في ايطاليا؟ في فرنسا؟

ولقد تعرض رومل مرتين لعملية اغتيال. وفي المرتين نجا مثل هتلر. وساد العالم شعور بأنه «لا يقهر». وكان أول المصدقين رومل نفسه.

اينما تلفت كان يرعب الحلفاء. وفي آذار/مارس ١٩٤٢ كتب قائد القوات البريطانية في افريقيا الشمالية السير كلود اوكينلك إلى ضباطه يحذرهم: «ثمة خطر من ان يتحول صديقنا رومل إلى اسطورة في نظر جنودنا لكثرة ما يتحدثون عنه. انه ليس سوبرمان، على الرغم من طاقته ومقدرته. وحتى لو كان سوبرمان حقاً فإنه ليس لجنودنا ان ينعموا عليه بهذا اللقب».

وبعد ذلك بأربعة أشهر وصلت نسخة من هذه المذكرة إلى رومل فضحك. كذلك ابلغ رومل ان برنارد مونتغمري، خلف اوكينلك، كان يعلق في قاطرته صورة لرومل. اما الفيلد ماريشال نفسه فيبدو انه لم يعجب بأحد من اعدائه. انه لا يذكر أحداً منهم بالاسم في آلاف الصفحات التي تركها من مذكراته.

إذا كانت هذه نظرة الأعداء إلى رومل فماذا كانت نظرة شعبه؟ الحقيقة انه كان قد اصبح اسطورة بالنسبة إلى الألمان منذ العام ١٩٤١. وهوليوود، مصنع الأساطير، لعبت هي أيضاً دوراً في صناعة صورة رومل. ونادراً ما كتب جنرال إلى آخر من دون الاشارة اليه أو إلى امثولاته. فقد اجمع هؤلاء على ان الرجل ربح معارك كان صعباً على الآخرين ان يأملوا بربحها. لكن للأسف فان رومل تعلم فن الاستراتيجيا وتكتيك القتال في ميدان القتال. والميدان وحده ليس كلية كاملة. فالخبرة القتالية لا تكفي وحدها بالنسبة إلى الجنرالات. وكان رومل ينظر باحتقار إلى ضباط الأركان العامة، ولذا حاول ان ينجح من دون العلم الذي اتقنوه، أي الاستخبارات والتموين وسلاح الاشارة والعمليات وغيرها. ومن هنا يقول احد نقادة الجنرال اينو فون رينتلن: «لم يكن رومل استراتيجياً كبيراً بل كان يفتقر إلى تدريب ضباط الراين الذي يمكن ان يجعل منه واحداً». وقال الجنرال غيرهارد فون شفيرن الذي قاتل إلى جانب رومل، بكل سخرية ان الفيلد ماريشال «تعلم الكثير من الأخطاء التي ارتكبها». اما الفيلد ماريشال غيرد فون روندشت فقال إن رومل لم يكن «أكثر من قائد فرقة جيدة».

بعض هذه الانتقادات كان لها في رأي الخبراء ما يبررها. وثمة من يقول إن النقص الآخر لدى رومل بالنسبة إلى بقية رفاقه هو تكرسه المطلق للفوهرر الذي كان بدوره يعتبر رومل ماريشاله المفضل. وقد عرف رومل أيضاً ان يدير الآلة الدعائية حول «المانيا الجديدة» وحول نفسه بحيث نشأت حركة من نوع «عبادة» رومل كما قال أحد الجنرالات الألمان ونادراً ما ذهب إلى مكان من دون طابور من المصورين، كما ان أكثر الصور التي التقطت له كانت «مخرجة» و «مدبرة» مثل فيلم سينمائي حسن الاخراج.

ويقال ان ضباطه عرفوا نقطة ضعفه هذه فكانوا يعمدون من اجل استمالته إلى وضع مصورين في انتظاره كلما زار نقطة ما – حتى لو كانت آلات التصوير خالية من الأفلام!

وقد رأى بعض الجنرالات في ذلك بعداً عن المهنية والروح العسكرية، وقد كتب الجنرال هاينز غودريان إلى زوجته من أرض القتال في موسكو يقول لها «لن اسمح لنفسي في أي ظرف من الظروف ان احيط اسمي بهذه الدعاية الفارغة على الطريقة الروملية وإذا ما حاولت ذلك فأرجو ان تمنعيني».

لقد عبّر الآخرون عن حسدهم لرومل في اشكال كثيرة. وقال احد الجنرالات مردداً الاشاعة الأكثر شعبية انه «كان يتحدث إلى هتلر بالهاتف شخصياً كل أسبوع»! اما الحقيقة فهي انه تحدث إلى الفوهرر مرة يتيمة خلال الحرب كلها. وقد كان مغتبطاً بهذه المكالمة لدرجة انه كتب عنها في عدة مناسبات فيما بعد. لقد كان الحسد وليد الاسطورة نفسها، وقد لعب هذا الحسد دوراً في نهاية رومل المأساوية. اذ عندما احتاج إلى اصدقاء لم يكن هناك أحد.

بعد موت رومل كبرت الاسطورة أكثر فأكثر. وفيما خجل الألمان بعد الحرب بالجنرالات الآخرين فقد ظلوا يفاخرون برومل الذي اطلق اسمه على احد السفن الحربية. ولعله الجنرال الوحيد من الحرب العالمية الثانية الذي اطلق اسمه على بعض الشوارع. وقد وضع الاميركيون، أعداء الأمس فيلماً ملحمياً عنه بعنوان «ثعلب الصحراء».

انه اللقب الذي ربحه في صحاري ليبيا، التي عرفت حتى الاستقلال بأنها «برقة» و«طرابلس».

ويستحيل ان نكتب عن رومل «ثعلب الصحراء» أو بطل «العلمين» من دون الدخول في ملحمة كتابية. لذلك، وكما فعلنا بالنسبة إلى الجنرالات الآخرين. لا بد من فصل واحد. لماذا لا يكون ذلك الفصل عن رومل على مشارف «العلمين»، المعركة التي رفعت اسمه ورافقته في التاريخ.

ها هو رومل على بعد مئة ميل فقط من القاعدة البريطانية البحرية الضخمة في الاسكندرية. وقد بدا للبريطانيين آنذاك ان مصر اصبحت في متناول يده، ولذا فان بين الخطط التي وضعها الجنرال اوكينلك لائحة بأسماء المنشآت التي يجب تدميرها حين يقترب رومل من النصر: محطات اذاعة، آبار نفط، محطات تلغرافية ومولدات الطاقة. وفي الوقت نفسه باشر البريطانيون بتعزيز الدفاعات حول الأهرام. وثمة من ابلغ رومل ان حالة الطوارىء قد اعلنت في العاصمة المصرية وان القوات البريطانية تتولى حفظ الأمن في القاهرة.

كانت شهرة رومل قد سبقته. كان يعرف ان المصريين المتعبين بالاستعمار البريطاني ينتظرون وصوله بحماس لم يحاولوا اخفاءه، ولذا فإنه كان يأمل بأن يضع المصريون نهاية الجيش البريطاني الثامن عن طريق التظاهرات. وهكذا، ابرق من الشاحنة التي جعلها مقراً متحركاً إلى وزارة الخارجية في برلين يطلب «استخدام اقصى حد من الدعاية في مصر في أقرب وقت ممكن».

وفي لندن كان ونستون تشرشل يقاتل من أجل المحافظة على منصبه. وكان النائب العمالي انورين بيفان قد اطلق آنذاك جملته الشهيرة ان تشرشل ربح مناقشة بعد أخرى لكنه خسر معركة بعد أخرى. والآن كان عدد من النواب المحافظين قد تقدموا بطلب لسحب الثقة من تشرشل. وقد وقف السير جون والدرو ميليني في البرلمان ليقول له بكل تحد: «إنه لواضح تماماً لأي مدني ان سلسلة الكوارث التي حلت بنا في الأشهر القليلة الماضية – وفي الحقيقة خلال العامين الماضيين – ناتجة من عيوب جوهرية في القيادة المركزية للحرب». ويقف الادميرال كيز ليؤيد هذا الاقتراح، هو الرجل الذي فقد ابنه في الهجوم

العبثي على مقر روميل. ثم يقف اللورد ونترتون مؤيداً هو أيضاً قائلاً لتشرشل إن بريطانيا «لم تعان مثل هذه الهزائم في الحرب الماضية».

في اليوم التالي، ٢ تموز/يوليو ١٩٤٢، يزداد الهجوم على تشرشل حدة. ويقول أحد النواب ان سبب الهزائم الروح الطبقية التي تسيطر على الجيش، ثم يضيف: «هناك قناعة في هذا البلد انه لو كان روميل بريطانياً لكان ما زال عريفاً في الجيش».

يقف تشرشل مدافعاً فينقل اللوم من كتفيه إلى اكتاف جنرالاته: كلوبير وريتشي وحتى اوكينلك نفسه. انه سيد من خطب طبعاً. ثم ينتقل إلى وصف الهزيمة في افريقيا الشمالية من دون ان ينسى أي تفصيل حزين، متحدياً انه «إذا كان هناك من يرى الكارثة بوضوح أكثر منه فليتفضل». وينجو تشرشل بجلده ذلك النهار عندما يضع اللوم كله في هزيمة الجيش الثامن على... كفاءة روميل.

وتلقفت المانيا هذا الكلام بفرح بالغ. وغداة ذلك اليوم صدرت صحيفة «برلينز بورسنتسايتونغ» بعنوان عريض: «تشرشل يقول: «روميل هو المسؤول». وفي بروسيا الشرقية يغرز هتلر سكينه في العشاء النباتي الذي يتناوله ثم يروح يشرح غلطة تشرشل التكتيكية في رفع معنويات جنرال عدو. ويقول: يسألنا الناس كيف يتمتع روميل بهذه الشهرة العالمية، والحقيقة ان الفضل في ذلك يعود أحياناً إلى خطابات تشرشل في مجلس العموم حيث يصور روميل دائماً على انه قائد عبقري». يضحك الفوهرر ثم يضيف: «ان الاسم وحده يصبح سلاحاً مرعباً. تصوروا لو اننا اخذنا نقول مثل هذا الكلام عن الماريشال السوفياتي تيموشنكو! ان جنودنا انفسهم سوف يرون به في النهاية رجلاً متفوقاً».

وإذ انصرف النواب البريطانيون إلى التصويت في الأروقة كانت قوات روميل امام طريق مسدود مع قوات اوكينلك. فقد وصل جيش البانزر إلى دفاعات «العلمين» ومعه فقط ٥٣ دبابة المانية و ٣٢ دبابة ايطالية. وكانت القوات منهكة من التعب يعذبها العطش والحر. وقد سمح روميل لنفسه بالاستحمام مرتين في البحر لكن المياه كانت حارة إلى درجة انها اتعبته ولم تنعشه. وعندما طلبت الكتيبة التسعون ان يسمح لقناصتها بالشيء نفسه رفض روميل ذلك ودفعهم أكثر نحو ارض المعركة.

بعد ثلاث ساعات من منتصف ليل ٢ تموز/يوليو استقل قناصة الفرقة التسعين ورجال الرشاشات شاحناتهم وتحركوا في تشكيل عريض نحو العلمين. وهبت عاصفة رملية هائلة اعمت رجال روميل وجعلتهم يسقطون في قلب الدفاعات المعادية. وكانت أول مرة ترد فيها كلمة «رعب» في المفكرة الحربية الألمانية. وانهارت مجموعات من الفرقة وتراجعت إلى الخلف، لكن الضباط ارغموها على العودة إلى خطوط القتال وعلى التمترس هناك، وبعد

ذلك جاء روميل بسيارته إلى الموقع وشعر فوراً بقسوة القصف المدفعي على قوته الصغيرة المؤلفة من ٢٠ شاحنة ومصفحة.

وكتب الألماني امبرستر عن تلك الليلة قائلاً: «لقد كان الأمر مرعباً حقاً. فقد انفجرت قذيفة على بعد ستة اقدام فقط من سيارة القائد العام. وتحت نيران شديدة حفرنا بجنون خنادق واختبأنا فيها طيلة ثلاث ساعات وكان الغسق قد اطل قبل ان نستطيع الخروج منها». وقد ازداد الأمر سوءاً اذ راحت تمطر في المساء فاختلط المطر المتواصل بالقصف الجوي المتواصل.

كانت قد بقيت لدى «الفيلق الافريقي» ٣٧ دبابة فقط. وكان لا يزال على مسافة بعيدة قليلاً. وكالعادة لم يطل الايطاليون، اما الفرقة التسعون المسكينة فقد فقدت ثلاثة ارباع قوتها العادية. وعلى الرغم من ذلك امر روميل الكتيبة بأن تستأنف القصف حين يطلع القمر. وقد شجعته الآن انباء من السلاح الجوي الألماني تفيد ان الاسطول البريطاني قد رسا في الاسكندرية وانه يستعد للاختباء في أمان قناة السويس. وقد شعر روميل آنذاك بأن معنويات «المحور» افضل من معنويات اعدائه.

كتب امبرستر يقول: «كانت ليلة مخيفة. وبين منتصف الليل والرابعة صباحاً كانت هناك ثماني طائرات تقصفنا باستمرار». وقبل الفجر بساعة واحدة بدأ قناصة الفرقة التسعين قصفاً ميدانياً من دون استعداد مدفعي. وبعد ٢٠٠٠ قدم فقط سحق هجومهم وسط نيران مدفعية رهيبة. وأبلغ روميل بالأمر في العاشرة من ذلك الصباح غير انه لم يهدأ. وبعد ظهر ذلك اليوم أمر «الفيلق الافريقي» بدفع كتيبتي الدبابات إلى القتال في محاولة أخرى لشق الطريق إلى الساحل. وفي الساعة ٤،٣٠ بعد الظهر اضطرت الفرقة التسعون مرة أخرى إلى التوقف بعدما تقدمت ٥٠٠ ياردة أخرى. وفي غضون ذلك، التحمت فرقتا البانزر بالألوية البريطانية المدرعة في قتال عنيف استمر حتى هبوط الظلام. آنذاك كان قائد الفرقة الجنرال نيرنغ قد خسر ١١ دبابة أخرى وانخفض عدد دباباته إلى ٢٣ فقط.

اليوم التالي، ٣ تموز/يوليو اوقفت اندفاعات روميل في كل مكان. وهو يسجل في مفكرته ظهر ذلك النهار انه كان يتعرض للغارات الجوية باستمرار وانه يحاول حث ضباط المدرعات على المزيد من الجهد. ويسجل ضابط آخر ان «القائد العام مقتنع بأن كتيبتي الدبابات تتسكعان بكسل. وفي الساعة ١٢،٥٠ أمر الفيلق الافريقي كله بالزحف بأي ثمن. غير ان روميل كان الآن يخاطب الطرشان أو الموتى أو الذين لا معنويات لهم. حتى «اريت»، الفرقة الايطالية الاسطورية بدأت بالانهيار. فقد هاجمتها الفرقة النيوزيلندية بكل بأس ذلك الصباح واستولت على ما تبقى من مدافعها وأسرت منها نحو ٣٨٠ رجلاً، اما باقي الايطاليين فقد رموا اسلحتهم واطلقوا سيقانهم للرياح.

ويبدو ان رومل ايقن أخيراً انه يخوض معركة خاسرة عندما قتل اقرب ضباطه اليه، الكابتن فون هوماير. وقد اعترف في لحظة ضعف نادرة بأن «الأمور تسير للأسف عكس ما نشاء. ان المقاومة التي نلقاها كبيرة جداً فيما قوتنا تزداد ضعفاً. انني منهك حقاً». وصباح الرابع من تموز/يوليو ابلغ ضباطه المتعبين بالقرار الصعب. انه سوف يسحب المدرعات من الخطوط الأمامية ويستبدلها بالمشاة، وخصوصاً الايطاليين. وبذلك يمكن رجال «البانزر» من الاستراحة واعادة تنظيم انفسهم. وبعدها - اكد رومل - يستأنف الحملة.

كان موسوليني قد طار إلى ليبيا مع مجموعة من وجهاء الفاشية وراح ينتظر بفارغ الصبر لحظة الدخول إلى القاهرة. كذلك كان في الانتظار، حصان «الدوتشي» الأبيض. وطارت البرقيات بين برلين وروما حول تعيين حاكم ايطالي على مصر. وفي غضون ذلك بث البريطانيون اشاعات تفرقة تقول إن ثروات مصر سوف تسقط في ايدي الجيش الألماني وحده. وكانت هذه واحدة من الاشاعات التي زرعت الفوضى والشك في صفوف الايطاليين الذين تحت قيادة رومل، وما ان حل منتصف الشهر حتى ابرق إلى برلين يقول ان «كتائب كاملة» قد لاذت بالفرار. والواقع ان شقوقاً حقيقية بدأت الآن تظهر في جبهة «المحور». ومن مقر رومل نفسه كتب الفرد برندت إلى وزير الدعاية غوبلز يبلغه ان الجنود الألمان يشعرون بالتذمر من المدائح التي تعطيها الصحف الألمانية للايطاليين. وقال غوبلز لأركانه: «إن على احدنا ان يشرح لرومل لماذا قرر الفوهرر انه من الضروري ان ندغدغ مشاعر الايطاليين».

كان رومل ينظر إلى هذه الأمور على انها سياسات تستدعي الاحتقار، لكنه قرر ان يتجاهل الأمر إلى ان يكون قد انتهى من احتلال القاهرة. وكان هو أكثر من غيره، يعرف صعوبة الوضع الذي هو فيه، فقد كان مستوى الذخيرة والوقود منخفضاً إلى أقصى الدرجات وكانت وحداته متعبة. وفي شهر حزيران/يونيو وحده فقد الفيلق ٨٤٥ قتيلاً، فيما اصيب ٣١٨ رجلاً بجروح. وكانت خطوط التموين الألمانية طويلة وصعبة بينما خطوط أعدائهم قصيرة وسهلة. لكن حتى الآن كان الألمان قد حافظوا على مواقعهم بسبب تفوقهم في السلاح. كذلك اظهرت المعارك الأخيرة ان القوات الحليفة كانت تستفيد من الالتحام بجيوش رومل، وهذا خفض من نسبة تفوق الألمان.

كانت القوات الإيطالية تنتشر على خط طويل يمتد من مياه المتوسط الزرقاء في «العلمين» إلى المستنقعات المالحة في منخفض «القطارة» على بعد ٣٨ ميلاً. وكان رومل مأخوذاً بوعورة المنخفض فلا يتعب من التأمل فيه. واننا نقرأ في مذكرات ذلك الشهر كيف انه غالباً ما يقف على مرتفع يطل على تلك الكثبان المليئة بالصمت والزمن والتي لم يطأها على الأرجح بشري من قبل. وطالما التقط له رجال غوبلز الصور وهو يتأمل في

المنخفض على عمق ٦٠٠ قدم! هل كان ينوي ان يعبر ذلك الوعر نحو النيل؟

وذات مرة من ذلك الشهر قال لمساعده، الخبير في الشؤون المصرية: «برندت، سوف اطلب منك ان تسيطر على جسر فوق النيل لم يلحق به أي دمار». فأجاب الضابط ضاحكاً: «كان عليك ياسيدي ان تطلب مني ذلك في العام ١٩٣٩».

كان رومل ينوي ان يدفع بدبابات البانزر عبر ثغر جنوب آخر خط القتال في ١١ تموز/يوليو. وقبل ذلك بيومين احتل موقعاً مهجوراً لاعدائه في «باب القطارة». وفي هذا الموقع الحصين اجتمع إلى بسمارك، قائد الفرق المدرعة، ذي الرأس الذي يشبه الرصاصة، وكالعادة استخدم رومل الأقلام المتعددة الألوان لكي يرسم هجوم البانزر المقبل. وأقام مقر البانزر المتقدم في ذلك الحصن المهجور أيضاً، لكنه اكتشف فيما بعد انه كانت في الموقع مستعمرة من الذباب. وهكذا اختار «القائد العام ان ينام في سيارته حيث يمر الليل بسلام».

اثناء نومه سمع رومل صوت الرعود ثم في الرابعة صباحاً سمع الصوت ثانية، وكان الصوت بعيداً. وحين استيقظ جيداً عرف ان هذا ليس الرعد في أي حال، بل هو صوت قصف مدفعي شديد لم يسمع مثله منذ الحرب العالمية الأولى. ثم اصغى من جديد فعرف ان القصف آتٍ من على بعد ٤٠ ميلاً فقط إلى شماله! لقد بدأ العدو هجوماً مفاجئاً وغير متوقع على تلتين قرب الساحل يتمركز حولهما الايطاليون. وتساءل رومل في قلق: هل وقعنا في فخ؟

لقد خشي رومل فوراً ان يصل البريطانيون إلى خطوط التموين. وكتب مساعده في مفكرة ذلك النهار: «لقد اتجهنا شمالاً على الفور بالسيارات ومعنا فرقة مقاتلة ومجموعة من رجال البانزر. وقد تولى القائد العام بنفسه اطلاع المقاتلين في الميدان على آخر التطورات». وقبل وصول رومل كان قائد العمليات ميللنتان قد دفع بكل وحدة المانية متوافرة لملء الفراغ؟ اداريون ومشاة وسلاح اشارة وحتى الطباخين. ذلك ان الفرقة الايطالية المدافعة «صبراته» ذابت تحت القصف مثل الملح هاربة نحو ستة آلاف ياردة. وتتحدث مذكرات رومل عن الحادث بتهذيب: «لقد كانت هناك مظاهر تدعو إلى الأسف في صفوف الوحدات الايطالية». غير ان ضابطاً آخر يفقد جأشه في وصف الايطاليين «لقد دمر البريطانيون كتيبتين من قاذورات صبراته».

وتلك الساعة أيضاً سقط الكابتن سيبوم، الضابط الألماني الذي اظهر المقاومة الوحيدة. وقد فقد فيه رومل سنداً ذكياً وفنياً كان يمكنه دائماً من التفوق على الانكليز في التشويش على الاتصالات. آلان سيبوم قد مات ورجاله المدربون افضل تدريب قد اسروا ومعهم كتب فك الرموز القيمة. ولا شك في ان تلك الخسارة قد اثرت في رومل لشهور طويلة وهذه الكتب المصادرة اظهرت للحلفاء كم كان جهاز الاتصالات عندهم ضعيفاً. الآن،

اذن، سوف يقاتل رجال البانزر كالعميان. ولن يكون بامكان روميل ان يضبط بعد اليوم تلك الرسائل التي بعث بها الملحق العسكري الاميركي في القاهرة الكولونيل فيللرز إلى واشنطن. فقد استدعى فيللرز إلى عاصمته تاركاً برلين في حزن شديد «لقد كان يبلغنا سلفاً بكل تحركات العدو».

صباح اليوم التالي، في العاشر من تموز/يوليو هاجم الأوستراليون إحدى التلتين، (تل العيسى)، واحتلوها في منتصف النهار. وحقق طابور صغير من الدبابات والمشاة انتصاراً مهماً آخر على الايطاليين في منطقة دير الأبيض. الأمر الذي جعل احد ضباط روميل يدون: «يجب جلد الايطاليين بالسياط. لقد حاصرت ستة دبابات بريطانية كتيبة كاملة وأسرتها في شاحنتين. ان هذه الأمة من الـ... يجب ان ترمى بالرصاص! وانهم لا يزالون يطلبون منا ان نقاتل من اجلهم. انه لعار كبير وموقف القائد العام يدعو حقاً إلى الشفقة».

كان لهذه الهجمات المحدودة مضاعفات تكتيكية خطيرة على روميل، ذلك انها اخلت في توازن جيش البانزر وجردت روميل من احتياطي الوقود والذخيرة الذي كان ينوي استخدامه للقيام بحملته.

في ١٣ تموز/يوليو جعل فرقة البانزر الحادية والعشرين بقيادة بسمارك، تقوم بهجوم آخر على خطوط الحلفاء وكانت خطته تقضي بقطع الطريق على المنطقة المعروفة «بالصندوق» في العلمين ثم القيام بهجوم ساحق. وقرر ان يقوم بالهجوم ظهراً حين يكون كل شيء معرضاً للذوبان في حر الصحراء، وبالتالي يجعل من المستحيل على المدافع المعادية ان تصيب اهدافها. وفي الظهيرة تماماً تحركت الدبابات وسط عاصفة رملية هائلة حجبتها عن الأنظار. وتقدم روميل كالعادة بسيارته إلى منطقة المعركة لكن كان من الصعب ان يتبين اي شيء.

ولم يعرف الا في الخامسة بعد الظهر ان كتيبة البانزر توقفت عند جبل في منطقة القصابة. وفي غضون ذلك كان السلاح الجوي الألماني ينتظر بفارغ صبر ليعرف ما هي الأوامر التالية. وأخيراً في السادسة والنصف، تحركت القاذفات والدبابات معاً.

بعد ذلك بدا كل شيء مفرحاً. ونحو الثامنة اتصل روميل بمساعده فالداو فوجده مرتفع المعنويات وأبلغه ان فرقة البانزر استغلت الهجوم الجوي الناجح لتقتحم خطوط الحلفاء «وهي ستحاول الوصول إلى الطريق الساحلي شرق العلمين الليلة». غير ان الحقيقة البشعة، كما يصفها ضابط من فرقة المشاة الملحقة بجيش البانزر، كانت مختلفة تماماً. «اننا ننبطح أمام الأسلاك الشائكة التي زرعها العدو وقد عجزت كل الأدوات التي نستخدمها عن اختراقها. ولم تصل معنا إلى هنا سوى كاسحات أسلاك قليلة العدد. انه الغسق وأرض المعركة مضاءة فقط بنيران الآلات المحترقة، وضوء القمر. وفجأة، تستدير دباباتنا في الاتجاه

المعاكس. فهل نفد لديها الوقود ام الذخيرة؟ ها هو الكابتن فون روتنفلد يقفز على اقرب دبابة لكي يمنعها من التراجع. وفجأة تسقط عليه قذيفة مضادة للدبابات وتمزقه. وعند منتصف الليل يقود الميجور شوتي كتيبتنا إلى التراجع من جديد».

في غضون ذلك عاد روميل من أرض المعركة إلى مقر قيادة جيش البانزر، وتشير مفكرته إلى انه «نحو العاشرة ليلاً ابرقت قوات البانزر معلنة ان هجومها قد اخفق اخيراً». وهكذا، يصدر روميل امره إلى الفرقة بالعودة إلى منطلقها الأول. لا العاصفة الرملية افادت ولا الهجمات الجوية.

لقد كانت علة روميل الأساسية في الايطاليين. فقد انهارت فرقتان ايطاليتان أخريان، هما بافيا وبريسكيا، وهذا زاد في وضوح التكتيك البريطاني أمام روميل الذي كتب إلى زوجته في ١٧ تموز/يوليو يقول «إن العدو يحاصر تشكيلاً ايطالياً بعد آخر. وقواتنا الألمانية اضعف من ان تصمد بمفردها. انني أشعر بحاجة إلى البكاء»، وبعد كتابة هذه الرسالة ابلغ ان الأوستراليين اخترقوا وحدات ايطالية جديدة وحملوا رجالها على الفرار. وهكذا وجد نفسه يرمي في المعركة آخر ما عنده من الاحتياط.

وعندما زاره افراد القيادة الايطالية ذلك اليوم ابلغهم بكل اسى «اننا لم نعد نحتمل. ضربة أخرى من هذا النوع وينتهي كل شيء». وفي اليوم التالي، ١٨ تموز/ يوليو، شعر بالارتياح حين لم يواجه بأي مفاجآت أخرى، كانت الجبهة هادئة، وقد امضى اليومين التاليين يتفقد الخطوط كلها فيأمر بزرع الألغام وتحصين المواقع وغير ذلك. وقال لقائد الفرقة التسعين بمرارة «ان فشل الفرق الايطالية الأربع التي دمرت تقريباً قد وضعنا في ازمة لن تنتهي إلا بوصول الأعداد الكافية من القوات الألمانية خلال ٨ أو ١٠ أيام».

في ٢١ تموز/يوليو بدا وكأنه أكثر تفاؤلاً. فقد تجمعت لديه نحو ٤٢ دبابة المانية و ٥٠ دبابة ايطالية. وكتب في مفكرته: «شكراً للعناية الالهية فقد هدأت الجبهة الآن وتسنى لي ان أخزن بعض الأسلحة. لكنها سوف تكون ازمة طويلة. فالحشود على الجانب الآخر تتم بسعة وسهولة». وكان قد أخذ آنذاك يرتدي سرواله القصير من جديد. لقد كان هناك جحيم من الذباب والحر والرطوبة.

كان كلود اوكينلك يهدف من هجومه التالي، قبل أي شيء، إلى تدمير قوة البانزر المدرعة، وقد بدأ الهجوم ذلك المساء بطلعات جوية عنيفة وضخمة أكثر منها فعالة، يرافقها قصف مدفعي مكثف، وخلال ساعات الظلام، استطاع فصيل نيوزيلندي ان يتقدم من الجنوب نحو منخفض المرير الأجرد، وهو اشبه بصحن نحاسي وسط الصحراء. وكان من المفترض ان يرفق اوكينلك ذلك بهجوم للمدرعات عند الفجر.

غير ان الجنرال نيرنغ كان يراقب الوضع عن كثب. وأعطى مدرعاته الأوامر بصد الهجوم قبل ثلاث ساعات من وقوعه في الرابعة صباحاً.

في تلك اللحظة كان الألمان في حالة تأهب قصوى بكل ما لديهم من اسلحة. ساعاتهم مربوطة بالساعة الصفر. وكان النيوزيلنديون قد اطمأنوا لدرجة انهم نصبوا الخيام في المنخفض. وفي اللحظة المحددة اطلقوا في الجو اشارات نارية تعلن بدء الهجوم، فكان ان الذي بدأ هو الألمان الذين التفوا بدباباتهم على المهاجمين وكلفوا الجنرال اوكينلك أكثر من ألف قتيل وأطنان الأسلحة.

بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية! فقد دفع الحلفاء بمئة دبابة إلى القطاع نفسه من الشرق. وكانت هذه الدبابات حديثة الصنع وصلت للتو من بريطانيا. وفي السابعة والنصف اقتحم الرتل حقول الألغام. وتخطت خط الدفاع الألماني عند رجال المشاة القليلي العدد. آنذاك قام كولونيل يدعى برونر بدبابات البانزر (بسمارك كان قد اصيب) لانقاذ ما يمكن انقاذه، فأوقف فرار كتائب المدفعية الهاربة وجعلها تواجه الحلفاء من جديد. ثم اقتحم بدوره جناح العدو وقلب الموازين. وخلال ساعتين من القتال استطاع ضباط رومل، بما يملكونه من مهنية وكفاءة، ان يجردوا البريطانيين من ٢٠٠ رجل و ٨٧ دبابة.

كانت هناك بطولات على كل مستوى. ولعل ابرزها كانت تلك التي اظهرها النفر غونتر هالم الذي لم يتعد التاسعة عشرة، فقد كانت مهمة هالم أن يعبىء المدافع الروسية من عيار ٧٦،٢ المضادة للدبابات، والتي كان يفترض انها آخر موقع دفاعي قبل ان يتمكن العدو من الاقتحام. غير ان طاقم المدفع لم يستطع ان يحفر في الأرض الصلبة لتركيزه، وهكذا جلس مدفعيان على ذنبه لامتصاص ارتداده. وفجأة اقبل على الموقع طابور من الدبابات البريطانية. وخلال دقيقتين كان هالم ينسف اربع دبابات من طراز فالنتاين. وتوقفت الدبابات الأخرى لتبحث عن الموقع الظاهر في اي حال، ثم فتحت النار عليه. وسقطت قذيفة بين ساقي هالم. ثم قذيفة على ساق رفيق له، فأخذ مكانه مدفعي آخر. ثم دمرت. خمس دبابات بريطانية أخرى قبل ان تعطب مدفع هالم. وفي غضون ذلك كانت فرقة البانزر قد وصلت وقضت على الرتل الحليف. وقال احد الضباط الانكليز الأسرى غاضباً: «لقد امضينا عامين في التدريب وقطعنا نصف الكرة لكي نصل إلى هنا ثم في خلال نصف ساعة انتهى كل شيء!». بعد ذلك بأسبوع منح رومل النفر هالم وسام الفرسان، وكانت تلك أول مرة يعطى فيها مثل هذا الوسام لنفر في تاريخ الجيش الألماني.

بعد ظهر اليوم التالي، ٢٣ تموز/يوليو، كتب أحد ضباط رومل في مفكرته: «لقد انعكس التيار بشيء من الانتقام! وها هو الفصيل البريطاني المدرع قد ابيد. لقد فقد الانكليز ١٤٦ دبابة و ١٢٠٠ رجل. يا لها من لحظات مثيرة. وقد ادار القائد العام المعركة هذه المرة من المؤخرة وجعل الرعب يدب في نفوس الانكليز».

قام رومل بجولة في الميدان، فشكر قواته وأثنى على الرجال ووزع الأوسمة. ثم راح يتفحص الدبابات البريطانية الحديثة التي وصل بعضها إلى مسافة ٢٠٠٠ ياردة من دبابات البانزر، لكنها رابضة الآن وإلى جانبها طواقمها الذين قتل بعضهم وأسر البعض الآخر. وكتب رومل في رسالة إلى صديق: «ان الصعوبات التي مررنا بها في الأيام الأخيرة تفوق كل وصف. لكننا بالطبع لا نزال بعيدين جداً عن رأس الحربة. ان العدو يملك تفوقاً عددياً هائلاً، لكنه يبذل الكثير قبل ان يستبدل الدبابات التي دمرناها في اليومين الماضيين».

الآن أيضاً اعطي الفرصة لأن يقرأ بريده. وهذه رسالة من نائب هتلر، رودولف شموندت ومعها اشارة السيف التي كان رومل يحتاجها ليصبح برتبة فيلد ماريشال. لكن قبل ان يفض تلك الرسالة فتح الرسالة الآتية من زوجته وفيها صورة ابنه مانفرد. وقبل اي شيء أخذ يقرأ التقرير المدرسي الذي افرحه: لقد تقدم مانفرد عن المرة السابقة. وبعدما قرأ رسالة زوجته اليه وفيها تبلغه ان زوجة بسمارك اتصلت بها قلقة لأنها لم تسمع من زوجها منذ فترة فنقل رومل الأمر إلى بسمارك فوراً (بعد ذلك بثلاثة أسابيع مات بسمارك . كذلك اخبرته زوجته ان آخر اشرطة الأخبار السينمائية تعرض فيلماً لموسوليني في افريقيا وآخر للقادة الايطاليين برفقة رومل حول خطوط العلمين. وطار صواب رومل. فقد كانت زوجته تعرف أيضاً مدى ما يعانيه مع الايطاليين. وفي رسالة أخرى تروي له لوسي ان ونستون تشرشل يقوم بزيارة إلى ستالين «آه كيف تتساقط هذه البريطانيا العظمى. واليوم أيضاً اعلن ان عدوك اوكينلك قد اقيل وعين مكانه الجنرال مونتغمري»! لم يكن هذا الاسم يعني شيئاً لرومل بعد.

ها هو يحزر في اوائل آب/أغسطس ١٩٤٢ ان أمامه أربعة أسابيع أخرى قبل ان يقوم البريطانيون بهجوم جديد. وفي الوقت نفسه فان حملة هتلر الضخمة باتجاه بلاد القفقاز الروسية سوف تؤثر في تحركات البريطانيين في الشرق الأوسط، وكان يعرف ان بامكان جيش البانزر ان يتحمل هجمات متوسطة الحجم من العدو لكنه اصدر أشد الأوامر محذراً من الاستسلام لمثل ذلك الرعب الذي دب في قواته في تموز/يوليو: «انني اطلب من كل رجل ان يتمسك بموقعه والا يتراجع. ان التخلي عن مواقعكم يعني الابادة. وانكم تعرفون ان محافظتنا على مواقعنا في المعارك الليلية جعلتنا نربح بالقليل من الاصابات. كل من يهجر موقعه سوف يتهم بالجبن ويقدم إلى المحكمة العسكرية» التوقيع: رومل.

ثمة شيء كان شديد الوضوح: الانتصار أو الهزيمة يتوقفان على القوات الألمانية المتمركزة هنا. لم تغب هذه الحقيقية عن بال رومل. وقد رد على الجنرالات الذين كتبوا اليه يهنئونه بالترقية قائلاً: «ان هذه الثقة الرفيعة التي منحني إياها الفوهرر هي في الواقع نتيجة لشجاعة جنودي الألمان فقط».

شيئاً فشيئاً أخذ يملأ الثغرات. وخلال تموز/يوليو استقبل نحو ٥٤٠٠ عسكري والكتائب الأولى من فرقة جديدة هي الـ ١٦٤. وهذا يعني ان نحو ١٢٣٣٠٠ عسكري جديد قد وصلوا إلى افريقيا الشمالية الآن. وكان المزيد يصل بمعدل ١٠٠٠ في اليوم. ومع أوائل آب/أغسطس وضعت تحت قيادة رومل أيضاً وحدة خاصة من السلاح الجوي هي فصيل المظليين الأول. وكان قائد الفصيل اشبه بوحش سينمائي إذ امتلأ فمه بالأسنان المعدنية التي استبدل بها اسنانه التي فقدها خلال هبوط اضطراري في كريت. وكان رجاله أيضاً من المتفوقين. لكن بما انهم كانوا من السلاح الجوي وليس من الجيش فان رومل لم يعطهم الكثير من الانتباه. لكنهم كانوا «الماناً ونظاميين»، كما يقول ارفينغ، وهكذا دفع بهم رومل إلى خط الدفاع الواقع بين المنخفض والبحر. وكانت المدفعية الجديدة تصل باضطراد والذخيرة تتكوم والألغام تزرع بكل اتقان. كذلك كانت تصل يومياً وحدات ايطالية اضافية... لكن رومل لم يضعها في حسابه: «هذه البضاعة التي تصلنا لا نفع فيها». وفي ٢٩ تموز/يوليو عندما اجتمع إلى قائد فرقة «بولونيا» للمشاة الجنرال اليساندرو غلوريا ضرب هذا على صدره وأقسم ان القوات الايطالية لن تعمد «إلى الفرار أبداً».

والواقع ان الايطاليين ساهموا هذه المرة بوحدة من الدرجة الأولى مدربة على أيدي الألمان. وقد وضحت نوعية تدريبهم عندما القى قائد الوحدة التحية العسكرية على رومل. لكن خلافاً لتلك التحية واعجابه بها لم يغير رومل رأيه: «ان ما احتاجه هنا ليس الايطاليين والمزيد من الايطاليين بل جنوداً ألمان واعتدة المانية استطيع معهم ان اقوم بحملتي في نهاية الأمر».

الآن نشأ نوع من الخلاف بينه وبين اركانه. فقد قرر، خلافاً لنصيحة الضباط، ان يرمي بجيش البانزر كله مرة واحدة وان يقتحم خط العدو في الطرف الجنوبي منه، فيلتحم بالجيش الانكليزي هناك، وفي الوقت نفسه يقوم بهجوم صاعق على جسور النيل في القاهرة والاسكندرية. وثمة خريطة في اوراق رومل تظهر كيف رسم زحف كل فيلق وفرقة وكتيبة – على ان يندفع نصفها من القاهرة نحو قناة السويس ويتحول النصف الآخر من القاهرة جنوباً في محاذاة النيل إلى قلب افريقيا. ويبدو ان زواراً غامضين وصلوا إلى عربيه آنذاك. كان هؤلاء ضباطاً مصريين وعدوه باعلان انتفاضة عسكرية ضد الانكليز في الوقت الذي تصل قواته إلى القاهرة والاسكندرية. لكن مع اقتراب شهر أيلول/سبتمبر كان قد ايقن ان الجيش الثامن من القوة بحيث يصعب على رومل نفسه ان يهزمه. اذن، لا بد من الهجوم في آب/أغسطس. ولأنه يفضل المعارك الليلية فلا بد من ضوء القمر. اذن، أيضاً، نهاية آب/أغسطس: «وبعدها سوف ننجح في هذه البوابة الأخيرة قبل حقول مصر الخصبة».

طوال شهر آب/أغسطس حفر جنود رومل الخنادق. وكان الصدى في الصحراء يحمل بعيداً صوت المعاول والانفجارات. وزرعت عشرات الآلاف من الألغام تحسباً لأن يقوم الحلفاء بالهجوم أولاً. ويبدو ان كاتب رومل قد تعب من اللحاق به فهو يدون في الثاني من آب/أغسطس: «انه حر لا يطاق لكن القائد العام لا يتعب».

لكن هذا الأتون في دلتا النيل لن يحرق دبابات البانزر وحدها، بل إن رومل أيضاً أصيب بالمرض. وفي الثاني من آب/أغسطس كان بدأ يشعر بالتعب، ثم في منتصف الشهر كان قد تعب حقاً. والواقع انه كان الضابط الوحيد الذي تخطى الأربعين من العمر وأمضى كل هذا الوقت في الصحراء وفي ١١ آب/أغسطس لاحظ اركانه انه مصاب بصداع دائم وبألم في الحنجرة. وكتب طبيبه تقريراً يقول فيه إنه مصاب أيضاً بهبوط في ضغط الدم نتيجة اضطرابات معوية.

وأبرق رومل بنص التقرير إلى برلين وأوصى بأن يخلفه الجنرال هانز غودريان. وفي الوقت نفسه طلب مساعده ان ترسل اليه – دون علمه –خضروات طازجة كل يوم.

في ٢٤ آب/أغسطس شعر رومل بأنه قادر على تحمل الرحلة إلى مرسى مطروح لاجراء تخطيط في القلب. وحين عاد إلى مقر قيادته وجد برقية تقول إن برلين لم توافق على غودريان لأن بنيته لا تتحمل حر الصحراء كفاية (السبب الحقيقي ان هتلر كان غاضباً من غودريان لأنه عصى أوامره في الشتاء السابق) وهكذا بقي رومل في مكانه شبه عليل.

في هذه الحالة من المرض راح رومل يخطط لأكبر حملة في التاريخ ضد الامبراطورية البريطانية. وراح أيضاً يحلم انه بعد ستة أسابيع سوف يسافر إلى النمسا حيث يستطيع ان يستحم في مياه جارية وأن يكون إلى جانب لوسي ومانفرد... لكنه قبل ذلك سوف يكتب في تاريخ الحروب فصلاً لا مثيل له بعنوان: العلمين!

العلمين:
سوف يربحها مونتغمري

خاض معركة العلمين اربعة من اشهر جنرالات الحرب العالمية الثانية على الجانبين، البريطاني والالماني. وكان يخيل الى الناس ان العلمين مدينة استراتيجية كبرى تقاتل من اجلها الحلفاء ودول المحور بكل قواهم وحتى اللحظة الاخيرة. لكن العلمين لم تكن في الحقيقة سوى تل صغير على بعد نحو مئة كيلومتر من الاسكندرية عند الطريق الساحلي الى مرسى مطروح، اقيمت فيه محطة صغيرة بين الخط الحديدي والبحر.

في هذه المحطة الصغيرة كان يتوقف الجنود البريطانيون المتمركزون في مصر قبل الحرب العالمية الثانية من اجل ان يمضوا ليلة مريحة وهم في الطريق الى مرسى مطروح.

ولم تكن هناك انذاك طريق معبدة بل ممر، واما في محطة «تل العلمين» فكان باستطاعة المرء النزول الى المياه الصافية الزرقاء من اجل الاغتسال من رمال الصحراء وتعب الطريق، كما يقول المؤلف مايكل كارمز.

اضافة الى العلمين كانت قرية الحميمات على بعد نحو ستين كيلومترا الى الجنوب، محطة مشهورة اخرى عبر الصحراء بين القاهرة ومرسى مطروح، ومنها الى بلدة سيوه كان يقوم حاجز طوله نحو ٢٠٠ ميل لا يمكن للعربات ان تخترقه الا في مكان او مكانين، وتعرف هذه بمنخفض القطارة وهو ارض مالحة رطبة على ٢٠٠ قدم تحت سطح البحر، لا تستطيع حتى الجمال عبورها الا في امكنة قليلة. والى الشمال منها، وحتى سيوه كانت تقوم سلسلة من التلال الحادة. اما من الزاوية الجنوبية الغربية لهذا المنخفض، وعلى مقربة من سيوة، فكان يمتد حاجز هائل اخر يمتد الى الجنوب والغرب مئات الاميال، ويعرف ببحر الرمل الكبير.

جنوب هذه الحواجز او الاسوار وشرقها كانت تمتد الصحراء برمالها المغطاة بطبقة من

الحصى الناعمة. وكان بالامكان ان تقطع هذه المسافات في شاحنة قليلة الحمولة ذات دواليب صحراوية خاصة، شرط الا تسد الطريق عليك فجأة الكثبان الرملية التي تكونها الرياح. اما الى الشمال والغرب فكانت الطبيعة الصحراوية مختلفة تماما، فلا اهوار مالحة ولا رمال الا عند البحر، وما عدا ذلك أرض صخرية تستطيع ان تتحمل من الشاحنات والناقلات ما لا حد له. وكانت تقطعها في بعض الاماكن المنخفضات والتلال ومساحات من الرمل الناعم او الاجمات التي يمكن ان تسد الطريق في اي وقت، بحيث يصبح السير مستحيلا في الليل من دون الاضواء العالية.

اذن، لم تكن تخفى على احد الاهمية الاستراتيجية لهذا العنق من الارض الممتد بين العلمين والحميمات، والتي لا بد لأي جيوش تهاجم مصر من الغرب ان تعبرها، وقد كانت الصحراء الممتدة مئات الاميال غربا الحاجز الطبيعي في وجه المهاجمين قبل بدء العصر الآلي!

كيف حدث اذن وتحول هذا العنق من الارض الممتدة نحو ٣٠ ميلا، في خريف العام ١٩٤٢، الى ساحة لاحدى اكبر المعارك بين جنود الامبراطورية البريطانية من جهة وبين جيوش هتلر وموسوليني من جهة اخرى؟ كانت الجيوش البريطانية تتمركز في مصر منذ العام ١٨٨٢، حين انزل السير غارفت وولزلي الجنود القادمين من انكلترا في الاسماعيلية واولئك القادمين من الهند في السويس والحق الهزيمة بقوات الخديوي اسماعيل في تل الكبير بينما كان الاسطول الملكي يقصف الاسكندرية. وبعد افتتاح قناة السويس في العام ١٨٦٩ اخذت بريطانيا تعطي اهمية اكبر بكثير لذلك العنق الضيق من الارض بين المتوسط والبحر الاحمر. وعندما انهار اقتصاد الخديوي وعجز عن تسديد ديونه الخارجية، دعت بريطانيا فرنسا الى مشاركتها في حماية المصالح الاوروبية في مصر، لكن الفرنسيين تمنعوا عن ذلك وبقيت بريطانيا تحكم وحدها.

وكانت الامبراطورية تكرر دائما انها ستخرج من مصر بعد ترتيب اوضاعها، غير ان حالة مختلفة تماما استجدت في العام ١٩١٤، فقد كانت مصر لاتزال، اسميا، تابعة للآستانة حين اعلنت تركيا تحالفها مع المانيا في الحرب العالمية الاولى فما كان من بريطانيا الا ان اعلنت استقلال مصر. وقامت القوات التركية، يساعدها الالمان، بهجوم من فلسطين اوصلها حتى قناة السويس. وتحولت مصر خلال الحرب العالمية الاولى الى قاعدة اساسية للنشاط العسكري في غاليبولي وسالونيكا وفلسطين.

بعد الحرب الاولى وسقوط الامبراطورية العثمانية اتسع الدور البريطاني في الشرق الادنى. وزاد من اهمية مصر الاستراتيجية لدى الامبريالية اكثر من عامل جديد، بالاضافة الى النفط، بينها ظهور الطائرة كوسيلة مدنية وعسكرية. وفي العام ١٩٣٥ قامت ايطاليا

بحملتها الشهيرة على الحبشة فخشي البريطانيون على وضعهم في مصر واخذوا يجددون شباب حاميتهم العسكرية هناك ومعظمها انذاك من المشاة والخيالة.

حين انضمت ايطاليا، التي تتمركز قواتها في ليبيا، الى المانيا مع سقوط فرنسا في العام ١٩٤٠، كان للبريطانيين قوة مدرعة ضخمة (اللواء السابع) في مرسى مطروح عند الصحراء الغربية، اقدمت على عبور الحدود عند السلوم بعد ساعات من اعلان الحرب، يدعمها سربان مقاتلان وثلاثة اسراب قاذفة.

مع بداية العام التالي هزم الجيش الايطالي في ليبيا، اولا في معركة سيدي براني ثم في معركة كبيرة قرب بنغازي في شباط/فبراير ١٩٤١. وفجأة خشي الالمان ان يقع المغرب العربي كله تحت سيطرة الحلفاء. فاذا استطاع البريطانيون اقتحام منطقة طرابلس الغرب فانهم سيتحالفون مع الفرنسيين الذين قد يعلنون انذاك الاستقلال عن حكومة فيشي. ومثل هذا الوضع سيقلب كل شيء في حوض المتوسط برمته.

واقدم الالمان، على عجلة، على ارسال قوة الى طرابلس لدعم الايطاليين في الدفاع عن الغرب الليبي. وكانت هذه القوة بقيادة جنرال يدعى اروين رومل الذي كان قد اثبت عبقرية فذة في قيادة كتيبة من الدبابات في فرنسا في العام السابق. وسوف تعرف هذه القوة فيما بعد باسم «الالوية الالمانية في افريقيا».

لم تتقدم القوة البريطانية في مصر وبرقة (التي انضمت اليها الان قوات من اوستراليا وجنوب افريقيا ونيوزيلندا والهند وروديسيا) نحو طرابلس بل صرفت اهتمامها الى انقاذ اليونان وكريت من الهجوم الالماني. وفيما كانت غارقة في ذلك وجه رومل ضربة صاعقة الى القوة البريطانية الصغيرة المتمركزة في مرسى بريغا عند خليج سرت، وتقدم من هناك فرحا وهو ينشر الفوضى في صفوف اعدائه فحاصر طبرق ووصل الى الحدود المصرية في السلوم، فتوقف قليلا بعدما كان قد استعاد كل ما خسره الايطاليون في حملة الشتاء (راجع الفصل السابق) .

حقق رومل معجزات عسكرية ستترك تأثيرها فيما بعد في الحملة برمتها. ذلك انه اقدم على كل ما فعل متمردا على اوامر القيادتين الالمانية والايطالية، وبالتالي فها هو يثبت الان ان التمرد على الاوامر يمكن احيانا ان يلقى التصفيق. كذلك تجاهل كل التعليمات العسكريـة التـي أُعطيها، خصوصا من قيادة الاركان. وقد اثبت، على الاقل لفترة، ان ما لا يستطيع الانسان ان يحققه بالمنطق يمكن ان يحققه بالارادة الصلبة وسرعة الحركة واستغلال ذهول الخصم. لكن هذا الاسلوب الذي سيكرره رومل فيما بعد هو الذي سيؤدي في النهاية الى هزيمته.

في ايار/مايو وحزيران/يونيو ١٩٤١، حاول البريطانيون عبثا طرد رومل من الحدود واعادة الالتحام بحاميتهم المحاصرة في طبرق، كما اخفق روميل نفسه في حمل تلك القلعة على الاستسلام! في هذا الوقت حل الجنرال كلود اوكينلك محل الجنرال ارشيبالد ويفل كقائد اعلى للقوات البريطانية في الشرق الاوسط، وكان اول ما فعله اقامة دفاع قوي في العلمين، التلة التي تشرف على السهل المفتوح الى الجنوب الغربي. وكان الموقع المرتفع التالي عند قرية العبد على بعد ١٥ ميلا، اما المنطقة بين التلتين فكانت من المنخفضات والصخور الصعبة. وفي منتصف الطريق بين التلتين كانت تلة الرويسات والى شمالها منبسط سهل العبور.

هذا كان، في العام ١٩٤١، اطار اكبر معركة دارت رحاها على ارض عربية خلال الحرب العالمية الثانية. لقد انهزم البريطانيون في اليونان وكريت ومالطا وفقدوا برقة (بنغازي) وها هو الجنرال اوكينلك يحاول استعادتها ومنع طبرق من السقوط. وما ان بدأ العام التالي حتى كانت القوات الالمانية - الايطالية قد تعبت من جديد فيما وصلت قوات جديدة الى طبرق. لكن كما اضطر البريطانيون في العام السابق الى نقل قوات من الشرق الاوسط الى اليونان ها هم الان يضطرون الى تحويل عدد كبير من الرجال الى الشرق الاقصى حيث سقطت سنغافورة واصبحت بورما مهددة، فما كان من روميل الا ان استغل الموقف مرة اخرى وبنجاح.

ووقف الفريقان يستعدان لمواجهة اخرى: روميل يريد اسقاط طبرق والبريطانيون يأملون باقامة مطارات محصنة في برقة. واخذت الاميرالية تلح على اوكينلك بالقيام بحملة هجومية، لكن الرجل ظل يتردد الى ان صدرت اليه الاوامر بأن يفعل ذلك مهما كانت النتائج. وحين اقترب موعد المعركة في ايار/مايو كان الالمان يحققون النجاح في روسيا وكان اليابانيون قد استولوا على بورما وبدأوا التقدم نحو سيلان (سري لانكا). عبثا حاول اوكينلك اقناع القيادة بتأجيل الهجوم، فقد ارادت لندن ان تخفف الضغط عن حاميتها في مالطا القريبة بأي ثمن.

اخيرا سقطت طبرق امام روميل في ٢١ حزيران/يونيو واخذ يتقدم باتجاه العلمين حيث اشتعل القتال طوال شهر تموز/يوليو، فاذا عبر الالمان من هنا ماذا يحدث للشرق الاوسط الذي دفع اليه البريطانيون بما استطاعوا من قوات منذ العام ١٩٤٠؟ لقد تقهقروا الآن حتى الدلتا من جديد واسر روميل الكثير من رجالهم، وفيما دخلت لندن السنة الرابعة من الحرب سرت اشاعات بأن الاميرالية قد تضطر الى اخلاء مصر نفسها.

لا شك في ان هذه النتائج قد اثرت ايضا في معنويات «جيش الصحراء»! وفي لندن كان ونستون تشرشل يتساءل لماذا لم تعرف القوات البريطانية سوى الكارثة في الشرقين

الاقصى والاوسط؟ لا بد اذن من تغيير في القيادة. اسماء كثيرة عرضت وفي النهاية تلقى مونتغمري برقية من وزارة الحربية تطلب منه السفر الى مصر لقيادة الجيش الثامن، او اللواء الثامن! في الخامسة من صباح ١٣ آب/اغسطس غادر مونتغمري القاهرة باتجاه الصحراء كل شيء سوف يتغير بعد الان.

الدفاع عن مصر، قرر مونتغمري، سوف يكون في العلمين لا خلفها. لن يكون هناك انسحاب او تراجع، ومقر القيادة نفسه يجب ان يكون اكثر ارتياحا وان ينقل الى الساحل لكي يكون اقرب الى القيادة الجوية. ان اوامره واضحة: دمّر روميل! لكنه لن يتسرع. اذا قرر روميل الهجوم خلال اسبوع ستقع كارثة، اما خلال اسبوعين او اكثر فثمة مكان للحظ!

على الجانب الاخر كان ثعلب الصحراء منهمكا في حفر الخنادق وزرع الالغام، وكانت تحركاته تشير الى انه يعد لهجوم وشيك، ربما حين يكون القمر مكتملا في ٢٦ آب/اغسطس. وكانت القيادة البريطانية في الصحراء تعتقد ان روميل سيلتف من الخلف. لكن ها هو مونتغمري يراجع الخرائط والمعطيات ويقرر ان ذلك غير وارد، كذلك يثنيه الى اهمية تل الرويسات ومنطقة المالحلفا ويفكر في طلب تعزيزات من القوات المتمركزة في الدلتا: لماذا تعريض حامية العلمين للخطر في حين يستريح الاخرون على مقربة منها؟

خلال الايام العشرة التالية كان الجيش الثامن يُدّعم بالرجال والمدرعات، كما اخذ مونتغمري يضلل الثعلب الشهير بالتظاهر وكأنه يعد لهجوم من الجنوب، ثم وضعت كتيبتان من الدبابات المزيفة في منطقة الحميمات، ونشرت الغام مزيفة ومواقع مشاة مزيفة ايضا. كل هذه الترتيبات تمت نحو ٢٥ آب/اغسطس. اذن، حين يكتمل القمر، يكون الجيش الثامن في وضع افضل بكثير. لكن القمر صار بدرا ولا هجوم. وقد شعر الخداعون المحترفون بشيء من الارتياح: لقد نجحوا في اخافة روميل.

***

بعد سقوط طبرق بين يديه في ٢١ حزيران/يونيو شعر روميل، الذي رقي الى رتبة فيلد مارشال، ان بامكانه صرف النظر عن خطته القاضية بالتوقف عند الحدود، اذ بامكانه بعدما استولى على كل تلك المؤن في طبرق، ان يستغل الى اقصى حد تلك الفوضى التي وقع فيها البريطانيون، وبالتالي فهو سيتقدم نحو الاسكندرية والقاهرة قبل ان يتمكنوا من جمع صفوفهم.

كان روميل، كقائد للجيش الالماني - الايطالي المدرع في افريقيا، خاضعا لاوامر القيادة الايطالية العليا التي يرأسها المارشال كالفيرو والتي الحق بها الجنرال فون رنتلن كمندوب

للقيادة الالمانية. كذلك كان يقيم في ايطاليا الفيلد مارشال كسرلينغ الذي كان رومل نظريا من مرؤوسيه، وكان يشكو دائما من تضارب الاوامر بين الايطاليين والالمان، الا انه في الواقع كان يستغل ذلك من اجل استقلاليته.

عارض الايطاليون وكسرلينغ معا فكرة رومل بالهجوم مباشرة على الاسكندرية والقاهرة. فقد شعرت القيادتان ان قواته لا تستطيع التقدم اكثر من ٣٠٠ ميل بما تملكه من مقومات، كما انه ما لم تسقط الحامية البريطانية في مالطا تماما فان صمود القوة الالمانية في مصر لن يكون مضمونا. وكان رئيس اركان العمليات في قوة رومل، الكولونيل سيغفريد ويستفال، يشارك القيادتين هذا الحذر.

لم ير رومل في هذا الحذر اكثر من علامات جبن وخوف. ان المانيا امام فرصتها الكبرى للاستيلاء على المنطقة الرئيسية في الشرق الاوسط والالتقاء بالقوات الالمانية شمال القفقاز، ولذا لا بد من تجاهل تلك التحذيرات المتشائمة عن صعوبات الدعم الجوي والمؤن، كما فعل من قبل مرتين حين اندفع من العقيلة (وردت العجيلة، بلفظها المصري في فصول سابقة) خطط انه سيصل الى الدلتا قبل ان يدرك البريطانيون ذلك، وسوف يرى غنيمة امامه كل ما يملكون في قاعدتهم الكبرى ومطاراتها. وبعد ذلك لن يعود بامكان جيشهم التحرك في شرق المتوسط بحرية، وسوف يكون بامكانه انذاك التفوق على صعوبة التزود بالمؤن من ايطاليا.

كان رومل بحاجة الى موافقة رجل واحد: هتلر! وقد سارع هذا الى تقديمها، فيما شد رومل الرحال باتجاه النيل.

اخفق رومل في الهجوم الاول الذي استنفد فيه كل ما غنمه في طبرق. وفي نهاية تموز/ يوليو حين توقف الفريقين لشيء من الراحة كان وضع رومل التمويني بدأ يسوء. ذلك ان طبرق ، كميناء، لم تكن تستطيع ان تستقبل اكثر من ٦٠٠ طن في اليوم، اي جزء ضئيل جدا من احتياجاته، كما كانت معرضة دوما للغارات الجوية. كذلك كان لا بد له من استخدام بنغازي وطرابلس. وحاول جاهدا، لكن عبثا، استخدام الخط الحديدي بين طبرق والجبهة. وكانت رحلة الشاحنات من طرابلس واليها تستغرق ١٢ يوما. ومن بنغازي سبعة. وكان رومل يفتقر الى وسائل النقل لأن معظمها استولى عليه البريطانيون، اما عدد كبير مما بقي فكان يفتقر الى قطع الغيار. والامر الذي زاد الامور سوءا ان جميع التعزيزات التي ارسلت اليه قد وصلت جوا، من دون اليات.

كان الافتقار الى العربات والمؤن اكثر ما يقلق رومل. وقد ازداد قلقه مع ازدياد الغارات البريطانية على قوافل التموين في البحر والبر. ولم يتلق طيلة شهر تموز/يوليو سوى ٦ آلاف طن، اي خمس ما كان يريد. وفي الاسابيع الثلاثة الاولى من آب/اغسطس استهلك

«الطابور الافريقي المدرع» ضعف ما نقل عبر المتوسط في تلك المرحلة مع ان المعارك التي وقعت في الفترة نفسها لم تكن ذات شأن. وزاد في حنق رومل ان الايطاليين ارسلوا الى ليبيا كتيبة بيستويا ومعها نحو ٤٠٠ عربة، في حين لم يكن يملك على الجبهة اكثر من ٦٠ عربة.

في آب/اغسطس ايضا وصلت من ايطاليا ٣٠ سفينة شحن و١٤ مركبة وست غواصات فاغرقت منها ٤ سفن بنار الغواصات و٣ بالغارات الجوية ووصلت الى طبرق ١٤ سفينة و١٣ مركبا وغواصتان، والى بنغازي ٧ سفن وغواصتان وسفينة واحدة وغواصة الى طرابلس وغواصة الى درنة. ومن اصل ٣,٧٢٠ طنا من الذخيرة فقد ١٦٦٠ طنا. ومن اصل ١٥,٥٠٠ طن من الوقود فقد ٢٧٠٠، كذلك فقد ٢١٢٠ طنا من المؤن من اصل ٦,٣٧٠، و٤٣ مدفعا من ٢٢٠، و٣٦٧ عربة من اصل ١١٤٧ و ووصلت ٣٩ دبابة كاملة.

بالاضافة الى كل هذه الاسباب المقلقة، اضيف سبب اخر! المرض! ان معظم الضباط والجنود في الطابور المدرع الافريقي يقاتلون منذ عامين ونصف العام من دون انقطاع. وقد بدأت تظهر عليهم - وعليه - علامات التعب والاعياء، فبدأ يصاب بنوبات اغماء متكررة. وكانت آلام عنيفة تقصف برئيس اركانه الجنرال كونر، في حين اصيب الكولونيل ويستفال بالكبد.

اذن، لم تكن القوات البريطانية وحدها الان في وضع مقلق. لكن رومل شعر ان التعزيزات القادمة من اميركا وبريطانيا قد تصل الى الجبهة في اي وقت. واذا ما برهنت زيارة تشرشل الى مصر اي شيء فقد برهنت على مدى الاهمية التي تعطيها لندن للبلد. وسرعان ما توافرت لدى الاستخبارات الالمانية معلومات تفيد ان ١٠٠ الف طن من المعدات والمؤن سوف تصل الى السويس قبل بداية ايلول/سبتمبر ولذا كان مهما لرومل ان يوجه ضربة اخرى قبل ان يستفيد الجيش الثامن من الوضع الجديد. والوقت الاكثر ملاءمة لذلك هو بدر السادس والعشرين.

لم يكن ذلك الاعتبار الوحيد امام القائد الالماني من اجل القيام بضربة مبكرة. اذ مع مرور كل يوم كان يلحظ تعزيزا جديدا في الدفاعات البريطانية. لكن المؤن التي طلبها من كالفيرو وكسرلينغ لم تصل بعد. ولذا قرر رومل ان يكرر تماما ما فعله في طبرق في ٢٧ ايار/مايو: اندفاع صاعق خلال الليل حول الجيش الثامن من الجهة الجنوبية شمال الحميمات، بحيث يُطوّق تماما وتقطع عنه الامدادات كليا، وهكذا تُشل المطارات البريطانية ويقف الالمان على مشارف الاسكندرية ولا يعود امامهم سوى القاهرة وما خلفها.

كان لا بد من ثلاثة اشياء لتأمين نجاح هذه الخطة: المفاجأة والسرعة والتموين الكافي

لخوض معركة متحركة. ومن اجل ان يؤمن عنصر المفاجأة كان ضروريا ان يخبئ رومل حتى اللحظة الاخيرة تنقل قواته المتحركة. ولذا قضت الخطة بأن تنقل الدبابات خلال الليل الى مخابئ على مدى اربع ليال، اي الربع كل ليلة، على ان يرفق ذلك بهجوم تمويهي جانبي عند تل الرويسات! لكن رومل كان لا يزال ينتظر بفارغ صبر وحول مادة بالغة الحيوية: النفط! وفي ٣٠ آب/اغسطس ابلغه كسرلينغ وكافاليرو معا ان الوقود سيكون لديه خلال ساعات.

***

مضت خمسة ايام على اكتمال القمر وكان مقررا ان يظهر الان قبل ٢٠ دقيقة من انتصاف الليل. وقبل ساعتين من ذلك بدأت طوابير رومل في التقدم نحو المنطقة الواقعة بين قرية العبد وجبل الكلاخ، لكن سرعان ما ذهلوا حين بدأت بعد قليل غارات جوية عنيفة على مراكز مستودعاتهم شمال غرب الكلاخ، التي كان السلاح الجوي البريطاني قد حدد موقعها الليلة السابقة، وهكذا بدأت الشكوك الاولى حول كون الهجوم مفاجئا حقا. وما ان طلع القمر حتى بدأت التقارير من الوحدات المتقدمة تتحدث عن حركة عسكرية واسعة. واذ شرع الالمان في نزع الالغام من امامهم انهالت النار عليهم من كل مكان، الا انهم استمروا في الاندفاع لشق طريقهم شمال الحميمات. وبدا حجم الهجوم واضحا الان فطلبت القوات الامامية من السلاح الجوي الاغارة على المنطقة بين حقل الالغام وجبل الكلاخ، فكانت الحرائق التي يشعلها القصف الجوي تضيء المكان وتسهل عمليات القصف البري.

كان الطابور الالماني المدرع، او جيش «البانزر» يتوقع عبورا سهلا لا يعيقه اكثر من نزع بعض الالغام هنا وهناك، وليس كل هذه الغابة منها. وراح رومل يتصل هاتفيا المرة بعد الاخرى لكن جواب القوات الامامية ظل واحدا وهو ان المقاومة ثقيلة والالغام كثيرة وان الخسائر فادحة. وفي الرابعة والنصف، اي قبل نصف ساعة فقط من اندلاع الفجر استطاع الالمان ان يشقوا طريقا لهم شمال الحميمات، اذ عبرت نحو ٦٠ دبابة حقل الالغام الاول وبدأت تضغط على الحقل الثاني، فاخذت القوات البريطانية تتراجع قليلا قبل ان تتعرض للنار المواجهة.

في الثامنة صباحا كان رومل في جبل الكلاخ حيث تلقى تقريرا قاتما عن الهجوم الذي بني عليه كل آماله. اذ ما ان اجتازت قواته الحقول التي زرعتها بنفسها حتى واجهت ما اسماه الالمان «حزاما بريطانيا هائلا من الالغام مليئا بالافخاخ ومغطى بالنيران الثقيلة». وحدثت اصابات كثيرة كان بينها الجنرال فيرينغ قائد الطابور الافريقي الذي اصيب بجروح، كما قتل الجنرال فون بسمارت قائد كتيبة البانزر.

لا شيء توافر من تلك الشروط الثلاثة: المفاجأة، السرعة، التموين. وفكر رومل جديا في التخلي عن العملية كلها، لكنه رأى ان الامر يتوقف الان على اداء الطابور الافريقي الذي عين قائدا له رئيس الاركان، الكولونيل بايرلين.

مقابل التقرير القاتم الذي تلقاه رومل، تلقى مونتغمري تقريرا مبهجا! في الساعة ونصف الساعة التالية سيكون اندفاع الطابور الافريقي من الحميمات الحدث الرئيسي: مئة دبابة تتقدم. العواصف الرملية تملأ المنطقة. الالتحام مستمر يوما آخر وكذلك التقدم الالماني المحدود. في هذه الاثناء يجتمع القائد العام، الجنرال الكسندر، مع مونتغمري. الامر اليومي واضح: لا انسحاب ولا استسلام. والقرار الوحيد الذي يتخذانه هو نقل الفرقة المدرعة الثامنة من شرق القاهرة الى غرب النيل قرب الاهرام. وطلب مونتغمري من الطيران ان يقصف التجمعات الالمانية تلك الليلة في منطقة راغيل. واذ سره النقص في ادارة النقل لدى رومل فقد اصدر الاوامر بجعل العربات الالمانية هدفا رئيسيا. وتكبدت قوات الاستطلاع الالمانية خسائر كبرى هي ايضا، في حين جلس رومل ينتظر اطنان النفط التي وعده بها كالفيرو والتي لم تكن قد وصلت بعد. ويقول رومل في مذكراته إنه بالاضافة الى ذلك كله اعاق البريطانيون خطوط التموين الالمانية، ولم تكن هناك اي قوات بريطانية الى جانب حقول الالغام ذلك اليوم او حتى اليومين التاليين. ويقول رومل ايضا انه بسبب ازمة التموين قرر ان يحصر الهجوم في اليوم التالي بفرقة البانزر الخامسة عشرة وان يكون الهدف فقط الاستيلاء على الماحلفا.

كان ذلك قرارا غريبا في رأي الخبراء العسكريين: اما ان رومل اساء تقدير الوضع او انه اراد الوصول الى حل جزئي بدلا من الهجوم الشامل. وعندما درس مونتغمري الموقف في اول ايلول/سبتمبر كان مقتنعا بأنه لم يعد ثمة خطر من هجوم كبير شرق الماحلفا. لكن ما ان حل المساء حتى عاود الالمان محاولتهم من جديد.

***

بعد شهر تقريبا من الكر والفر بدا ان ثعلب الصحراء وافضل جنرالات هتلر يقوم هذه المرة في مغامرة يائسة . كما بدا ان البريطانيين مع مونتغمري، يرون أول مرة تباشير الانتصار. ها هي معركة الماحلفا تشارف على نهايتها لكي يبدأ الالمان الجولة الثانية من القتال وهم تقريبا فاقدوا الامل. وقد زاد في المأساة ان صحة رومل تدهورت اكثر فاكثر فيما تراجع الالمان والايطاليون الى الخط البريطاني القديم في الجنوب. واصر طبيبه الخاص، البروفسور هورستر، ان على رومل ان يذهب الى اوروبا لكي يمضي بضعة اسابيع على الاقل في الاستشفاء. وهكذا بدأت الاستعدادات لتعيين خلف موقت له، الجنرال شترومي البالغ السادسة والخمسين والقائد السابق لفرقة البانزر السابعة، الذي خدم ايضا على الجبهة

الروسية. ولم يكن امام رومل سوى اسبوعين يعيد خلالهما تنظيم جيشه من اجل مواجهة هجوم مونتغمري الذي كان يعتقد انه سيبدأ بين اربعة وستة اسابيع. وقد نقل الان فرقة البانزر الخامسة عشرة الى الساحل اولا من اجل استراحة اسبوع، ثم الى منطقة سيدي عبد الرحمن، بينما توزعت بقية القوات الالمانية والايطالية هنا وهناك.

كانت خطة رومل في السابق تقضي بحمل البريطانيين على خوض معارك متحركة، لكنه من الواقعية بحيث يعرف ان هذا الامر لم يعد نافعا الان. ذلك ان مهارته في هذا المضمار انهارت امام التفوق العددي في الآليات الذي يملكه البريطانيون. فقد كان الجيش الثامن يتلقى اضافات هائلة من القوة الآلية بلا انقطاع، في حين كانت التعزيزات التي يتلقاها رومل خالية من الاليات الامر الذي جعلها، حسب تعبيره، «صالحة من اجل لا شيء في الصحراء العارية» وبسبب تفوق البريطانيين الهائل في القوة الجوية وافتقار رومل الدائم الى النفط، رأى نفسه مرغما على وقف دفاعه عند خط جامد محصن وجعل قوة المشاة تستغل الالغام الى اقصى الحدود.

هذا النوع من القتال، في رأي رومل، سوف يمكن البريطانيين من استخدام المدفعية الى اقصى حد وكذلك من استغلال مهارة فرق المشاة الاوسترالية والنيوزيلندية التي كان ثعلب الصحراء معجبا بها ايما اعجاب. انه الان يريد الحؤول دون فتح اي ثغرة في دفاعاته بأي ثمن. وقد كان في ظنه ان الجيش الثامن سوف يشن هجوما متعدد الاضلاع من اجل تحقيق هذه الثغرة. ومن اجل الحيلولة دون ذلك اتخذ خطوات دفاعية كثيرة اولها ضم القوات الالمانية والايطالية وقيادتهما.

قبل ان يسافر في رحلته الصحية الارغامية لم يترك رومل تفصيلا واحدا من دون ان يتوقف عنده مع مساعديه. وكان اكثر ضباطه يعانون من امراض مختلفة ايضا الامر الذي اضطره الى استبدالهم. كذلك لم تكن كميات النفط التي طلبها قد وصلت بعد، حين غادر درنة في ٢٣ ايلول/سبتمبر. وفي اليوم التالي التقى الدوتشي موسوليني وعرض عليه مرة اخرى اهمية وصول المؤن وحالة وسائل النقل. وبعد ذلك بايام التقى هتلر وغورينغ وابلغهما بالصعوبات التي يواجهها لكنه شعر بأنهما يعتقدان، مثل موسوليني، انه يبالغ في الامر.

كان رومل قد تخطى الصعوبات او الاستحالات اللوجستية مرات عديدة من قبل، وقد اعتقد هتلر انه بامكانه ان يتخطاها الان مرة اخرى! وذهب رومل الى جبال سيميرنغ في النمسا للاستشفاء وهو منقبض النفس. وهناك (حسب مذكراته) راح يفكر في التأثير الذي سيكون لاشتراك دولة صناعية مثل اميركا في الحرب في الحؤول دون تحقيق الانتصار الالماني. كان عقله مع طابور البانزر في الصحراء والتقارير التي تلقاها من شترومي

وويستفال لم تطمئنه اطلاقا. اذ على الرغم من ان العمل في حقول الالغام كان يسير على ما يرام فان استعدادات الجيش الثامن كانت ايضا تتقدم. وكان البريطانيون يغيرون على طبرق كل ليلة ويلحقون الخسائر والاضرار الكبرى بعمليات التموين. ومع ان الحالة التموينية تحسنت قليلا الا انها ظلت دون الحد الادنى من مطلب رومل.

وعلى الجبهة اثّر غياب رومل في معنويات الطابور المدرع الافريقي. وقد تبخرت الآن الاحلام بالسيطرة على مصر حتى لدى اكثر الضباط تفاؤلا. وفيما ساءت الحالة الصحية تحول تكاثر الذباب الى ازمة حقيقية. وسادت حالة من التشاؤم في صفوف الايطاليين الذين اخذوا يطالبون بانهاء الحرب، فانتقل الخلاف بينهم وبين الالمان من القمة الى القاعدة. لكن هذا لم يحل دون اقامة خط دفاعي جديد خلف الخط القديم.

كان الثالث والعشرون من تشرين الاول/اكتوبر يوما مثل باقي الايام بالنسبة الى طابور البانزر الذي استعد لليلة هادئة اخرى حين، في التاسعة الا ثلثا، اشتعلت الجبهة مرة واحدة وانهالت القذائف على المدفعية، على المشاة، على الرمال.

***

كان لدى الجانب البريطاني ٤٢٦ مدفعا بعيد المدى و٤٨ متوسطا. الالمان كان لديهم ٢٣٢ مدفعا بعيد المدى و٤٠ متوسطا و٢٤ مدفعا ثقيلا. وكان بامكان المدافع المتوسطة البريطانية ان تطال ٨٠ موقعا مدفعيا المانيا تقريبا، كما كانت هذه تطلق ٩٦ قذيفة كل دقيقتين. وكان الرد الالماني ضعيفا نسبيا وظل ضعيفا حتى الرابعة صباحا. وفي ضوء القمر تقدم المشاة البريطانيون وكأنهم في مناورة. لكن هذه السهولة ما لبثت ان توقفت حين بلغوا حقل الالغام الثاني، فاخذ الرصاص والانفجارات تحيق بهم من كل مكان.

الآن كان هم البريطانيين تأمين جسر عبر حقول الالغام الالمانية قبل الفجر ومساعدة الدبابات على الوصول اليه. كذلك كان عليهم، خلال الساعات الثلاث التي تسبق طلوع الضوء، ان يحفروا الخنادق لمواجهة اي هجوم بالمدافع المضادة للدروع، في حين تتحرك دباباتهم في تشكيلات صغيرة من اجل تأمين الجسر بأي ثمن. ولم يكن الاستسلام مسموحا الا للجرحى.

مع حلول المساء سمح للجنود بتناول العشاء في السابعة، لكن هؤلاء كانوا اكثر اغتباطا بأنهم استطاعوا ان يمدوا سيقانهم قليلا بعد الساعات الطويلة في الخنادق. الا ان موعد الجولة المقبلة لم يكن بعيدا. وقد وصفه الكابتن غرانت موراي بالكلمات التالية:

«بدأت عقارب ساعتي وكأنها تزحف حول نفسها اذ جلسنا نصغي ونراقب. امامنا كان كل شيء هادئا باستثناء نور خافت وبعض اصوات الرشاشات. واذ اقتربت ساعة الصفر استدرت وتطلعت عبر خطوطنا في الخلف. وفجأة صار الافق كله زهري اللون

ولثانية او ثانيتين كان هناك صمت متجمد ثم هبط علينا ازيز مدافع الجيش الثامن مثل جدار من الصوت جعل الارض كلها تهتز. ومن خلال هذا الجدار اخذنا نميز صوت القذائف وقرقعة الرشاشات واخيرا صوت القرب الاسكوتلندية. ثم طالعنا مشهد سيظل حيا في ذاكرتنا الى الابد: صف خلف صف من رجال يعتمرون الخوذ ويحملون البنادق التي تلمع حرابها في ضوء القمر... لكن فوق كل شيء عويل القرب وفرقة الموسيقى تتقدم نحو صفوف الاعداء التي لفها الدخان. وكانت اخر مرة شاهدنا رجالها وهم يقتحمون الدخان ونيران العدو تتساقط بينهم».

ما هو الا قليل حتى بدأ الرجال يتساقطون. وقد سقط القرّاب دنكان ماكنتاير وهو يعزف. وعمت الفوضى وتباطأت خطى المهاجمين. وفي الجانب الاخر كان شترومي يتأكد من ان هذا القصف المدفعي لم يعرفه احد منذ العام ١٩١٨، وها هو الآن يدمر شبكة الاتصالات الالمانية كلها. وبسبب خشية شترومي على ذخيرته فهو لم يصدر الاوامر برد فوري، وهو امر اعتبره رومل فيما بعد خطأ فادحاً اذ تفادت التجمعات البريطانية القصف. وحين فتحت المدفعية الالمانية نيرانها اخيرا اصبح اثرها ضعيفا بعدما تمكن البريطانيون من التمركز في الدفاعات الالمانية التي استولوا عليها.

انه اليوم الثاني من المعركة الان، الرابع والعشرون من تشرين الثاني/اكتوبر. وها هو رومل يقر فيما بعد بأن قصف الجيش الثامن كان «دقيقا جدا» وان الخسائر جسيمة بين قواته وان معظم الاسلحة الثقيلة لدى المشاة الالمان قد دمرت. وقيل يومها ان عددا كبيرا من الايطاليين فر الى الصفوف الخلفية بسبب شدة القصف. ووسط هذا الجو العنيف قرر شترومي ان يرى بنفسه ماذا يحدث ولم يكن يرافقه في هذه المهمة سوى الكولونيل بوكنغ وسائقه الرقيب ولف، ورفض ان يأخذ معه عربة مواكبة او سيارة اتصال بحجة انه لن يذهب بعيدا. اما الواقع فإنه ذهب حتى الجبهة حيث اطلقت عليه النار من الاوستراليين فقتل الكولونيل بوكنغ بينما استدار الرقيب ولف بسرعة قصوى عائدا وكان شترومي يتعلق بالسيارة من حافتها حين اصيب بنوبة قلبية وسقط. ولم يعرف ولف ماذا حدث الا حين ابطأ قليلا لكن العثور على جثة شترومي تم فقط بعد ٢٤ ساعة.

صباح السادس والعشرين من تشرين الاول/اكتوبر جلس مونتغمري يدرس الخطوات التالية: على الرغم من ان الفيلق الثلاثين قد حقق معظم اهدافه، فان خسائره بلغت ٤،٥٠٠ قتيل بالاضافة الى ٥٠٠ في الفيلق العاشر و١٠٠٠ في الثالث عشر. ولم تكن هذه ارقام فائقة نسبيا، لكن ايضا لم تكن هناك تعزيزات متوافرة للفيلق الجنوب افريقي او النيوزيلندي الذي مني ب٨٠٠ اصابة، اي ثلث قوته، فيما فقدت الفرقة الاسكوتلندية ٢،١٠٠ قتيل. لكن تقييم خسائر الالمان كان صعبا. فقد اسر البريطانيون نحو ٢٠٠٠ عسكري بينهم ٦٠٠ الماني. اما التقدير العام لخسائر الالمان والايطاليين فكان ٣٢ الف

الماني و٢٩ الف ايطالي. في الدبابات ٢٥٠ و٢٨٠. في المدافع الميدانية ١٤٠ و٢٠٠. في مدافع ٨٨ ملليمترا ٥٠ و٤٠، وفي الاسلحة الاخرى المضادة للدروع ٤٠٠ و٣٢٠. كانت هذه ارقاماً مرتفعة حقا واذا صحت كلها فهذا يعني انه لم يعد امام الجيش الثامن الكثير من القتال.

الانباء السيئة اعادت رومل الى الجبهة من مصحه النمساوي. هذه المرة كان هتلر نفسه هو الذي اتصل به عند منتصف الليل وطلب منه العودة فورا، فطار الى روما في الصباح الباكر حيث تلقى تقريرا قاتما عن كل شيء، خصوصا عن المؤونة النفطية: ثلاث حصص في اليوم بدلا من الثلاثين التي طلبها كحد ادنى! كان ذلك كافيا لاعطائه صورة واضحة عن سير المعركة ومستقبلها. وحين وصل الى ارض المعركة فجر اليوم التالي اعطاه ويستفال صورة اكثر واقعية واشد قتوما: لقد حال النقص في النفط دون اي حركة ذات مغزى. ولم يكن هناك اي شيء ممكن سوى بعض الهجمات المضادة. والغارات الجوية والميدانية البريطانية التي لم تتوقف في الليل او النهار اثرت كثيرا في معنويات الجنود.

قرر رومل ان اول ما يجب ان يفعله هو طرد البريطانيين من خط دفاعه الاول خلال الايام القليلة التالية. ومن اجل ذلك اشترك في المعركة حرس القيادة الالمانية المعروف ببأسه ومهارته. لكن الذي كان يلعب لعبة المخادعة العسكرية الآن مونتغمري وليس رومل. وفيما قلب القائد البريطاني كل استراتيجيته مع حلول الثامن والعشرين من تشرين الثاني / اكتوبر، كان رومل لا يزال يعتقد خطأً ان مونتغمري سيهاجم من الشمال، وهكذا نقل معظم قواته من الجنوب. الا ان نقطة الهجوم الحقيقية عرفت تلك الليلة حين بدأ الاوستراليون هجومهم. وكان ذلك هجوما بعيد المطامح. لكن الذي اخفق الجانبان مرة اخرى في تقديره هو قراءة افكار بعضهم بعضاً. ففي حين اخذ رومل يفكر جديا في الانسحاب كان البريطانيون يعيدون النظر في نتائج المعارك الرهيبة المستمرة منذ ست ليال وخمسة ايام بلا جدوى سوى اكوام الخسائر البشرية. وها هي الاشاعات تنتشر عن انسحاب النيوزيلنديين من الخطوط الامامية فتعود الى الذاكرة الاخفاقات الاولى والحرب العالمية الاولى ايضا.

وتلك الليلة ارسل رئيس الوزراء الى القائد العام الجنرال الكسندر برقية يعرب فيها عن قلقه صباح التاسع والعشرين. وبدا تشرشل متضايقا الان من اختيار مونتغمري واتهمه بخوض المعركة من دون حماس. الا ان مونتغمري الذي ابلغ بمزاج الرجل الضخم في لندن قرر المضي في خططه العسكرية دون تغيير، شن هجوما ضد الالمان في اقوى دفاعاتهم عند الساحل. لكنه ما لبث ان تراجع حين ابلغ بالتطورات الاخرى، بينها عودة رومل الى قيادته.

***

الآن بدأ البريطانيون الاستعداد «للهجوم الكبير» في الاول من تشرين الثاني/نوفمبر. انه الحل الحاسم الوحيد في رأي مونتغمري الذي حدد موعدا له في الساعة الواحدة الا خمس دقائق تلك الليلة. وقد تقرر ان تحقق فرقة المشاة اهدافها قبل الرابعة الا ربعا ثم تكون مهلة لساعتين تتقدم بعدها الوحدة المدرعة نحو ٢٠٠٠ ياردة باتجاه منطقة سيدي عبد الرحمن، وفي السابعة الا الربع يتقدم طابور مدرع اخر فيما يركز السلاح الجوي غاراته على فرقة البانزر الحادية والعشرين والفرقة الخفيفة التسعين.

تلك الليلة قرر جيش البانزر ان يغير الساعة من الوقت الصيفي في المانيا الى التوقيت الاوروبي العام. الا ان ذلك لم يساعد كثيرا في تخفيف الفوضى التي عمت حين راحت الغارات تدك مقدمة الطابور الافريقي الذي اصيب قائده فون توما بجروح طفيفة. ولم يتمكن الالمان من اصلاح شبكة الاتصالات الا في الخامسة والنصف صباحا، وبالتالي فان رومل لم يستطع ان يبلغ اوامره الى القيادة الرئيسية. وخيل للالمان في البداية ان الهجوم الرئيسي يتم من الشمال لكنهم تبينوا نحو الرابعة صباحا انه في الجنوب. اما مونتغمري فكان عالما «بالفوضى التي دبت في الجانب الاخر من التلة» وقد غادر مقره في السابعة والنصف صباحا ليتوجه الى مقر القيادة التكتيكية حيث قدمت له معلومات مشجعة. وقد وصف مراسل حربي الوضع على الجبهة انذاك كالتالي:

«تركنا مواقعنا وعبرنا حقول الالغام في خط واحد. لم تطلق اي طلقة علينا. والاعاقة الوحيدة لتقدمنا حدثت فقط حين اصطدمت السيارة بمدفع من عيار ٨٨ ملليمترا. كان موقعا مليئا بجثث الالمان. وكان العدو مذهولا بحيث لم يقم بأي حركة ونحن نتقدم ، او ان القطاع الايطالي ظن اننا المان والقطاع الالماني ظن اننا ايطاليون. لقد لوحوا لنا بالاعلام الالمانية وكنا نقول لهم بالالمانية: تأهبوا! او اي شيء اخر يمكننا من عبور صفوفهم. وحتى حين طلع الضوء تماما وايقنوا انهم اخطأوا فانهم لم يصدقوا اعينهم. مررنا احيانا على بعد ١٠ ياردات فقط من مدفعيتهم. واحيانا اخرى مررنا امام المان يحملون بنادقهم لكنهم لحسن الحظ اخفقوا في اطلاقها. وكان احدهم يكتشف اننا بريطانيون فيهرع ليخبر رفيقه ثم يقف الاثنان مذهولين لا يصدقان.

«بعد قليل مررنا بايطالي ينام في سريره. وقد عرفنا من كثرة الشاحنات والاعتدة التي حوله انه في مقر قيادي. ايقظناه فقفز امتارا من الخوف ثم رمينا قنبلة يدوية في الشاحنة قربه فاحرقتها. تقدمنا اكثر فاذا نحن امام مقر اكبر فايقظنا اهله بالقنابل التي اسقطناها على الشاحنات».

كان هم مونتغمري طبعا ان يستغل الى اقصى الحدود الضعف الذي اظهره الايطاليون والالمان في الجزء الجنوبي من الجهة الا ان تلاحما هائلا جعل الدبابات تتحرك في مواقعها:

«لقد ارغت وازبدت قرب سيدي عبد الرحمن». الدبابات تشتبك مع الدبابات والمدافع المضادة للدروع تدك الدروع. من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب. انه اطول اشتباك مدرع في المعركة كلها. وقد ضحى رومل بمواقعه المضادة للطائرات لكي يشرك مدافعه في معركة الدروع، الا انها ما لبثت ان دمرت. ثم تهاوت الدبابات الايطالية فيها. ومع حلول الظهيرة ايقن رومل ان هجومه المضاد الاول قد اخفق فامر بهجوم ثان في الساعة الثانية. لكن الهجمات التالية لقيت المصير نفسه. وبعد الظهر كان عدد الدبابات الصالحة لدى الطابور الافريقي قد انخفض الى ٣٥، فاتخذ رومل القرار المرير بالانسحاب الى فوكا على بعد ٦٠ ميلا بينما يستمر الفيلق العشرون في مقاومة الجيش الثامن ويعمل على الانسحاب ببطء. وابرق رومل بقراره الى هتلر قائلا إنه لم يعد بامكانه ان يصد الاندفاع البريطاني المقرر لليوم التالي. وكما يفعل كل ليلة جلس وكتب الى زوجته الرسالة التالية:

٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٢

عزيزتي لو

المعركة ضدنا ثقيلة جدا. ان ثقل العدو، بكل بساطة، يسحقنا. لقد قمت بمحاولة لانقاذ جزء من الجيش ولست ادري ان كانت ستنجح. انني امضي الليل مفتوح العينين افكر في طريقة انقذ بها قواتي المسكينة من هذا العذاب. ان الموتى سعداء الحظ فقد انتهى كل شيء بالنسبة اليهم. انني افكر بك بكل جوارحي وقد تسير الامور على ما يرام واشاهدك ثانية.

***

استدعى الفيلد مارشال مونتغمري اركانه الى اجتماع خاص في التاسعة من صباح ٣ تشرين الثاني/نوفمبر. انه شبه واثق الان من ان رومل بلغ النفس الاخير وتطلع الى القطاع الجنوبي من الجبهة من اجل الاقتحام. وخلال الاجتماع وصلت الى الضباط تقارير عن انفجارات على الجبهة حيث يقاتل الفيلق الثالث عشر وعن انسحابات المانية في ذلك القطاع. اما في مقر القيادة الالماني فكان رومل يشعر بضيق حقيقي. وخوفا من ان يلقى تقريره اثرا سيئا جدا في برلين قرر ان يرسل مساعده الشخصي اللفتنانت برندت لكي يشرح الامر بنفسه الى هتلر. وطلب منه ان يشرح للفوهرر خطته بأن يخوض معارك جانبية الهائية في الصفوف الخلفية الى ان تصل التعزيزات، فاذا لم تصل تمكن من اجلاء قواته بسلام عن طريق المتوسط. انتهى من هذه الترتيبات وقام الى مقر القيادة الساحلي يتفقده فرأى في الطريق قوافل مؤونة ايطالية وتعجب من ان السلاح الجوي البريطاني لم يكن يقصفها. ولدى وصوله الى المقر ابلغ ان الجيش الثامن لا يقوم بمحاولة جدية لضرب الطابور الافريقي الذي لم يعد لديه الآن سوى ثلاثين دبابة، بل هو منهمك في اعادة تنظيم نفسه.

وقرر رومل استغلال هذا الهدوء لكي يأمر معظم الايطاليين بالانسحاب. لكن السلاح الجوي البريطاني لم يستطع مقاومة الاغراء بقصف هذه التجمعات على الطريق الساحلي، وكاد رومل نفسه يقضي وهو عائد الى مقره الرئيسي. وبعد عودته بقليل وصله رد هتلر على التقرير الذي كان بعث به الليلة السابقة:

«اننا نتابع، الشعب الالماني وانا، بالثقة المطلقة بشجاعتك وقيادتك، الصراع البطولي في مصر.

وفي هذه الحال التي انت فيها لا تخطر فكرة سوى الصمود، فلا تسلم شبرا واحدا وادفع بكل رجل ومدفع الى ارض القتال. ان تعزيزات جوية ضخمة ترسل الى القيادة في الجنوب. والدوتشي (موسوليني) والقائد الاعلى يبذلان ايضا اقصى الجهود لكي يرسلا اليك جميع وسائل القتال. ان عدوك ، على الرغم من تفوقه، لا بد ان يكون هو ايضا قد استنفد قواه، ولن تكون هذه اول مرة في التاريخ تنتصر فيها الارادة القوية على المعارك الكبرى. اما بالنسبة الى قواتنا فان لك ان تخيرها بين طريقين لا ثالثة لهما: النصر او الموت!».

كانت تلك ضربة قاصمة لرومل. وفي شيء من اللامبالاة الغى الاوامر بالانسحاب. الا انه ابلغ مساعده برندت تفاصيل جديدة خلاصتها ان تنفيذ اوامر هتلر يعني القضاء على جيش البانزر خلال ايام. وفي اي حال بدأ جيش البانزر الان العودة عن حالة الانسحاب فيما كان البريطانيون يستعدون للاقتحام. الا ان رومل كان موقنا بأنه سيطوق خلال ساعات بعدو يملك ٢٠ ضعفا من الدبابات اكثر منه. وفي اليوم التالي تبين له انه لم يعد من المجدي الاصغاء الى اوامر الفوهرر فامر الطابور الافريقي بالانسحاب فورا فيما امل مونتغمري بأن يأسر جيش البانزر قبل ان يتراجع. لم يعد هناك ما هو مهم سوى سلامة من بقي. لقد انتهت معركة الثعلب الالماني امام الثعلب البريطاني الضيق العينين.

***

كانت معركة العلمين في الواقع معركة مصر. او المعركة من اجل مصر. واذ ابتهجت لندن بعد ثلاثة اعوام من الوجوم ايقنت ايضا ان الالمان لن يحققوا ذلك الحلم التاريخي بعبور قناة السويس الى مصر ومنها الى منابع النفط. لكنها معركة كبدت فيها ابطالها الكثير من الرجال والمال. لقد بدأها رومل بمئة الف رجل اسر منهم ٣٠ الفا بينهم عشرة الاف الماني. وقتل او اصيب ٢٠ الفا. وترك رومل في ارض الميدان ١٠٠٠ مدفع و٤٥٠ دبابة. وترك الايطاليون خلال انسحابهم ٧٥ دبابة بسبب الافتقار الى الوقود. وحين انسحب الطابور الافريقي من مرسى مطروح في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر لم يكن لديه اكثر

من ٢٠ دبابة. اما خسائر الجيش الثامن، بين قتيل وجريح، فكانت ١٤٥٠٠ رجل، اي ٨ في المئة من القوة المقاتلة، وعطلت ٥٠٠ دبابة ودمر ١٠٠ مدفع.

لقد كانت معركة العلمين اهم معركة على ارض عربية خلال الحرب العالمية الثانية، لكنها ايضا احدى المعارك التي حسمت مجرى الحرب في كل مكان وانزلت الهزيمة باشهر جنرالات المانيا.

الجنرال الكسندر:
من صحاري مصر الى زيتون تونس

انه الفيلد مارشال هارولد الكسندر. وايرلندي الأصل. لكنه سوف يذهب إلى التاريخ العسكري والبريطاني حاملاً اسم تونس. هو اذن، «الكسندر لورد تونس».

لقد اختار الاسم الأحب إليه. هكذا فعل غيره من الجنرالات!

انه أيضاً، الايرلندي الذي تقاسم مع دوايت ايزنهاور قيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. الرجل الذي استسلم له مليون عسكري، كما يروي لنا تشرشل في مذكراته! لقد كان هناك أربعة رجال يختارون القادة العسكريين خلال الحرب: تشرشل ومستشاره العسكري الجنرال آلان بروك وروزفلت ومعه الجنرال جورج مارشال وهؤلاء الأربعة اختاروا معاً للقيادة العليا في أوروبا: ايزنهاور لشمال غرب القارة والكسندر لقيادة القوات «الحليفة» في ايطاليا التي ستطبق مع قوات ايزنهاور على رجال الفوهرر. لكن الأول عاد إلى بلاده لكي يصبح رئيساً للجمهورية أما الثاني فعاد لكي يدون مذكراته الحربية والسياسية.

وثمة كتب كثيرة وضعت عن الكسندر. لكننا وقد قررنا اختيار فصل واحد من كل جنرال، لم نجد أفضل من الكسندر نفسه يحدثنا عن تونس وقد عاد اليها بعد سنوات طويلة من نهاية الحرب. لنقرأ معاً هذا الفصل بعنوان «العودة إلى الصحراء الغربية» لكي نرى كيف يتذكر قائد عسكري في أيام السلم تلك الصحراء التي عرفها أيام الحرب:

«عدت إلى الصحراء في ربيع ١٩٦٠. ثمانية عشر عاماً مرت! زالت كما تزيل شمس الفجر الندى المبكر. وها انني أشاهد مرة أخرى زرقة البحر الرائعة - زرقة رائعة لدرجة اننا لو وضعناها على لوحة لاعتقدنا انها خيالية - وأشاهد أيضاً الكثبان الرملية البيضاء وأحس الريح تأتي هادئة من البحر: انه الماضي يعود الي حياً.

إن المرء ينسى كم هي المسافات عظيمة إلى ان يراها من جديد. والصحراء تبدو خالية

تماماً الآن كأن شيئاً لم يحدث هناك. لكن قبل ١٨ عاماً كانت الأرض التي نقف عليها تضج بالحركة. أما الآن فما هناك سوى الصمت. لا شيء. على ما يبدو، ينمو أو يعيش في الصحراء سوى أشجار الشوك. وانك تلمح بين فترة وأخرى عصفوراً وحيداً يطير من مكان إلى آخر. لا شيء سوى الرمال والمساحات الخالية والريح، وهنا وهناك خيمة بدوي عربي وجمل ما. ويبدو لك وكأن هذه الصحراء تركت من غير ازعاج آلاف السنين، لكنك لا تلبث أن تلمح آثار ذكرى أو أكثر: بقايا علبة تنك صدئة أو قطعة قديمة من سلك هاتفي - تلك الأشياء الصغيرة تذكرك بأن معركة ما قد وقعت هناك.

رحت أتفقد موقع المعسكر الذي كنا فيه (مبنا) في الصحراء على أطراف القاهرة، وقد أطل على الصحراء الغربية والجبهة. هنا كان مقر العمليات الرئيسي عندما تسلمت القيادة العليا في الشرق الأوسط. هنا أيضاً أمضى الجنرال اوكينلك وعدد من ضباطه بعض الوقت قبل أن يتسلم قيادة الجيش الثامن في نهاية حزيران/يونيو ١٩٤٢. لكنني قبل أن أصل إلى القاهرة في آب/أغسطس ١٩٤٢ كان المعسكر قد فكك. وهكذا بدا معسكراً مهجوراً حين وصلت آنذاك، واليوم، في تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٠ لم يكن ممكناً أن أعرفه لولا الحجر الذي يشير إلى ان معسكراً كان قائماً هنا. لقد اقفلت ابوابه وأغلقت نوافذه، لكن لا بد ان بعض الاصلاحات قد أحدثت في السنوات الماضية، ولا بد ان أحداً ما قد جعل من هذا المعسكر بيتاً، لأن ثمة حارساً يقطن ما كان في السابق مطبخاً. انه عربي بسيط ومعه ولد صغير ودجاج وصيصان وكلب وسيارة جيب مهترئة - لعلها آخر الدلائل على الحرب.

وحيث كان مطعم المعسكر المبني من الخيم، ليس هناك الآن سوى الرمال وبضعة أعمدة خشبية مغروزة في الأرض. ولعل الهرم الكبير الذي يطل على موقع المعسكر، قد شهد عبر العصور ثكنات عسكرية كثيرة أخرى. وربما يكون نابوليون قد أمضى ليلة في ظلاله عندما زار الأهرام، كما فعلنا نحن، أهل الجيش الثامن قبل ثمانية عشر عاماً...».

بهذه الكلمات الشاعرية يتذكر الجنرال الكسندر أحد فصول الصحراء، لكن «العلمين» وضواحي القاهرة لم تدخل التاريخ على أنها معركته، بل تونس هي المعركة. ففي ١٧ شباط/فبراير ١٩٤٣ يتلقى الكسندر من ايزنهاور البرقية الآتية:

«لقد عينت نائباً للقائد العام لقوات الحلفاء في شمال افريقيا قائداً لمجموعة الجيوش العاملة في تونس».

وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر كان الكسندر يرسل إلى تشرشل البرقية التالية في ١٣ أيار/مايو ١٩٤٣:

«سيدي، من واجبي أن أبلغكم بأن حملة تونس قد انتهت. وتوقفت كل مقاومة للعدو. لقد دانت لنا السيطرة على سواحل افريقيا الشمالية».

كان ذلك بعد معركة «العلمين» مباشرة. وكانت الناس مأخوذة بانتصار مونتغمري، غير ان قادة الحرب كانوا يعرفون أيضاً انه لولا دور الكسندر لظل الانتصار ناقصاً.

ولنعد إلى قصة الكسندر من أولها!

في كانون الثاني/يناير ١٩٤٣ اجتمع ونستون تشرشل إلى الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت وكبار القادة العسكريين من البلدين في مدينة الدار البيضاء لرسم الخطوات التالية ضد قوات «المحور»، الآن وقد اصبحت اميركا طرفاً في الحرب. وانتهى النقاش الطويل في ذلك اللقاء إلى الاتفاق على نقطتين محددتين:

الأولى، احتلال جزيرة صقلية في اليوم الذي يطلع القمر فيه كاملاً في شهر تموز/يوليو والثانية تعيين ايزنهاور قائداً للقوات الأميركية - البريطانية يعاونه ثلاثة من الضباط البريطانيين هم الأميرال كانينغهام للقوات البحرية، والجنرال الكسندر للقوات البرية، والجنرال تيدر للقوات الجوية.

وتقرر أيضاً ان تصبح كل القوات البرية المتجمعة في تونس تحت امرة الكسندر عندما يتمكن الجيش الثامن من عبور الحدود الليبية إلى الغرب من طرابلس، يصبح على مسافة قريبة من قوات الحلفاء، التي كانت تقاتل في الجبال واطلق على مقر قيادة الجنرال الكسندر اسم المجموعة العسكرية ١٨، على اعتبار انه كان مكلفاً بتنسيق عمليات الجيش الأول الذي كان يقوده الجنرال اندرسون في تونس، والجيش الثامن الذي كان يتقدم من طرابلس بقيادة مونتغمري.

وهكذا استدعى الكسندر وتيدر إلى الدار البيضاء ليطلعا تشرشل على تطورات المعركة في الصحراء. وقد تكلم الكسندر يومها بنبرة الواثق من نفسه، وقال عنه آرثر بريانت: «طار الكسندر من القاهرة إلى الدار البيضاء حيث سحر جميع الحاضرين في المؤتمر بما سماه تشرشل الكياسة العفوية المطمئنة».

وقد أكد تشرشل هذا الانطباع بقوله: «بعد يوم أو يومين جاء الكسندر وقدم لي وللرئيس (روزفلت) تقريراً عن تقدم الجيش الثامن، وترك الكسندر انطباعاً حسناً لدى الرئيس الذي أعجب به وبما قاله عن اقتراب الجيش الثامن من طرابلس... وكانت ثقته الكبيرة بنفسه من النوع الذي ينعكس على الآخرين».

والواقع ان فكرة تعيين الكسندر مكان ايزنهاور خطرت في أكثر من بال. وترددت أكثر من مرة في الصحافة العالمية وعلى ألسن المراسلين. ويعلق روبرت شيروود على الأمر قائلاً:

«في وقت من الأوقات كان هناك شك في بقاء ايزنهاور قائداً أعلى لعملية غزو صقلية، وكان أكبر منافس لايزنهاور الجنرال الكسندر الذي يعلوه رتبة...».

وقد شاركت دول «المحور» في هذه الدعاية، لكن لأغراض في نفسها. أي لزرع الشقاق في صفوف الحلفاء. وفي هذا الشأن كتب الكوماندر بوتشر: «توقع راديو برلين نقل ايك (ايزنهاور) إلى... واستلام الكسندر المسؤولية في افريقيا الشمالية. وقد جاء ذلك وقت تزداد الانتقادات الموجهة إلى ايزنهاور في بريطانيا والولايات المتحدة، والتلميحات إلى وجوب استبداله...».

لكن موقف ايزنهاور لم يكن في الحقيقة مهدداً. اذ بالإضافة إلى ان تشرشل كان معجباً بطريقته في قيادة جيوش الحلفاء فانه كان يدرك في الوقت نفسه ضرورة ان يكون القائد العسكري الأعلى اميركياً حتى يضمن بقاء المجهود الحربي الأميركي مركزاً في أوروبا بدلاً من المحيط الهادئ. ومن ناحية أخرى كان تشرشل يعتبر ان مسؤوليات كبيرة وكافية قد أعطيت للجنرال الكسندر الذي اعتبر بطلاً بعد عملية الانسحاب من دنكرك. والواقع ان الكسندر لم يخذل رئيس حكومته يوماً.

ويذكر ان الأميركيين قبلوا على مضض متابعة العمليات العسكرية في حوض المتوسط بعد سقوط تونس. وقد فعلوا ذلك فقط لكي يبقوا على قواتهم منشغلة ونشطة بانتظار شن الهجوم على شمال غرب أوروبا في ربيع ١٩٤٤، على أن تغادر كل العناصر العسكرية والسفن والطائرات الحربية المطلوبة حوض المتوسط لتنفيذ الانزال في النورماندي خلال الخريف.

وفي المقابل كان ونستون تشرشل مصمماً على انجاح استراتيجيته في منطقة المتوسط. كان يريد تحقيق ما يستطيع من انتصارات هناك قبل ان ينشغل حلفاؤه بالغزو الأوروبي الكبير عبر المانش. ولذلك راح يلح على الكسندر بالعمل على طرد جميع قوات المحور من افريقيا الشمالية بأكبر سرعة ممكنة من أجل تسهيل الانقضاض على جنوب أوروبا، قبل حلول فصل الشتاء. فالأميركيون كانوا يعارضون القيام بأي عمليات رئيسية في المطر والوحل.

وصل الكسندر إلى الجزائر في ١٨ شباط/فبراير مصطحباً معه الجنرال ديك ماك كريدي كرئيس للأركان إلى جانب مجموعة من الضباط البريطانيين الذين عملوا في القاهرة، وذلك لتشكيل نواة للمجموعة ١٨ في مدينة الجزائر. وفي مقابل ذلك كان مقر قيادة الجنرال ايزنهاور يعمل في الجزائر أيضاً ولكن «على الطريقة الأميركية». وأمضى الكسندر ليلته الأولى في المدينة يفكر في كيفية معاودة مد الجسور بينه وبين ايزنهاور بعدما كانت قد انقطعت قبل نحو السنة.

يقول الكوماندور بوتشر ان التصافي بين الرجلين بدأ عندما «قال الجنرال الكسندر إنه اصيب بخيبة أمل لالغاء أول مهمة كلف بها تحت امرة ايزنهاور بعد ٢٤ ساعة من التكليف».

ورد ايزنهاور بأن أعرب عن رضاه التام لما قام به الكسندر ومونتغمري خلال ملاحقة رومل في الصحراء. وأعرب عن اعتقاده «بأن القيادة ستكون من نصيب الكسندر بعد كل المنجزات التي حققها».

في هذه الأثناء كانت تطورات مهمة تجري في الميدان. فقد تدهور وضع الحلفاء في تونس منذ اجتماع الدار البيضاء، إذ تمكنت قوات المحور من نقل التعزيزات بسرعة كبيرة بفضل الجسر البحري الجوي الذي أقيم بين ايطاليا وصقلية وتونس. وفي هذا الوقت اخلى رومل مدينة طرابلس بعد أن دمرت قواته تجهيزات المرفأ وعطلتها. وانضمت هذه القوات إلى قوات فون آرنيم المسيطرة على وسط تونس وشمالها.

أما مونتغمري فوجد نفسه عاجزاً عن التقدم بسبب الشلل الذي أصاب مرفأ طرابلس. في حين بات التفوق العددي لقوات المحور في تونس ينذر بعواقب وخيمة. وفي الجبال الشمالية حول تونس المدينة وبنزرت أوقفت قوات فون آرنيم الجيش البريطاني الأول بقيادة اندرسون عن التقدم. ولم تكن قوات الجنرال كولتز (فرنسي) والجنرال فريدينדال (اميركي)، التي تولت القتال على المحاور الأخرى للجبهة التونسية بأفضل حال من قوات اندرسون، وقد عانت الأولى غياب العدد الكافي من الدبابات والمدفعية الثقيلة، في حين عانت الثانية قلة الخبرة وسوء التدريب.

وقد سبب ذلك مشاكل جمة لايزنهاور الذي وجد مشقة كبيرة في قيادة العمليات، لاسيما ان الجنرال الفرنسي رفض العمل تحت امرة الجنرال اندرسون لأنه بريطاني، لذلك اضطر ايزنهاور إلى الامساك بزمام القيادة بنفسه من مقره في قسطنطينة (الجزائر). ولم تسهل مهمة ايزنهاور الا بوصول الجنرال الكسندر.

بدأ الهجوم الألماني في ١٤ شباط/فبراير في وقت كان الجنرال الكسندر يودع القاهرة، وسرعان ما تفوق جيش فون آرنيم على الفرنسيين والأميركيين في أكثر من محور وموقع، فاخترق دفاعات قوات فريدينדال في الفايد، بينما احتل جيش رومل قفصة. وتراجع الأميركيون بقيادة فريدينדال لاقامة تحصينات دفاعية جديدة في الكاف وتبسة.

ووسط هذا الجو المقلق بالنسبة إلى الحلفاء قام الكسندر بأول جولة له على مواقع القتال تمهيداً لتسلمه القيادة في ٢٠ شباط/فبراير. ولم تكن حصيلة الجولة التي رافقه فيها الجنرال ديك ماك كريدي مشجعة في أي حال، لأن الوضع كان يعاني من الفوضى على الرغم

من جهود اندرسون ومحاولاته ضبط الأمور. ولاحظ الكسندر ان الروح المعنوية لدى الجنود ولاسيما لدى الأميركيين كانت ضعيفة، وان خليط الجنسيات بين القوات المسلحة سبب كثيراً من الارتباك وانعدام التنسيق والتنظيم. وأدرك الكسندر بفضل خبرته الطويلة أسباب الوضع المتدهور لقوات الحلفاء في شمال افريقيا، وفهم تماماً ان ما يعانيه الأميركيون يعود إلى قلة خبرتهم الميدانية وشعورهم بالفارق الشاسع بين حرب النظارات والحرب الدقيقة.

وفي ليلة ١٩ – ٢٠ شباط/فبراير تمكنت قوات رومل من طرد الأميركيين من ممر القصرين وفتح الطريق باتجاه تبسة والكاف، الأمر الذي استدعى ارسال تعزيزات بريطانية للاسهام في وقف المد الألماني الجديد.

أما القوات الفرنسية فكانت من سوء التجهيز بحيث لم تكفها الشجاعة البالغة للصمود ميدانياً.

قرر الكسندر تولي قيادة المجموعة العسكرية ١٨ يوم التاسع عشر من شباط/فبراير أي قبل يوم واحد من الموعد المحدد، وذلك لأن الوضع في القصرين لم يكن يتحمل الانتظار. وفي ذلك الوقت اعتبر رومل ان ما لديه من قوات لا يخوله متابعة الهجوم واحتلال المزيد من مواقع الحلفاء، كما انه لم يكن يستطيع ترك مونتغمري يجهز قواته بهدوء على الجبهة الجنوبية لتونس. وهكذا أمر رومل قواته بوقف الهجوم للاستعداد لمواجهة الجيش الثامن الذي يقوده مونتغمري.

ولعل أفضل ما يعبر عنه الوضع الميداني على الجبهات التونسية ما جاء في رسالة بعث بها الكسندر إلى بروك بعد تسلمه مهام القيادة؛ «الوضع غير مرض أبداً. والقوات البريطانية والأميركية والفرنسية تعاني من الارتباك ولاسيما على الجبهة الجنوبية، ولا تملك خطة واضحة أو توجهاً عسكرياً موحداً. لقد فقدنا المبادرة».

بعد هذه الرسالة بأيام ثلاثة أبرق الكسندر إلى لندن يقول إن الوضع على الجبهة سيء غير عارف بأن رومل بدأ بالانسحاب... وبعد أيام قليلة كتب الكسندر إلى تشرشل وبروك قائلاً: «لقد صعقني واقع الحال هنا. وإذا كان من واجب اندرسون تنظيم الأمور بسرعة أكبر مما فعل فان الوقت لم يسمح له لأنه لم يتسلم القيادة فعلياً إلا في ٢٤ كانون الثاني/يناير والخلل الأكبر هو غياب التوجيهات من فوق وغياب أي خطة واضحة ومحددة. وأنا أشك في كون اندرسون مؤهلاً لهذه المهمة على الرغم من المزايا التي يملكها... لا أريد تثبيط العزائم لكن النصر النهائي في افريقيا الشمالية ليس أمراً قريب الحصول، وعلينا القيام بالكثير لتحسين أوضاع القوات البرية والجوية والجنرال ايزنهاور يبدي كل التعاون...».

كان في مقدور الكسندر وضع الخطة العسكرية التي شكا من غيابها، لكن عدم ثقته

بالأميركيين لم يكن أمر يمكن حله بين ليلة وضحاها، علماً ان البعض اعتبر ان الكسندر قد ظلمهم وان الاميركيين كانوا قادرين على تحقيق قفزات نوعية وسريعة والتعلم من اخطائهم.

كانت الخطة الأسهل في نظر العسكريين تجميع القوات في منطقة «الفندق» والاندفاع باتجاه القيروان إلى سوسة الساحلية، أو الاندفاع من الفايد في اتجاه صفاقس لقطع الخط الذي يربط بين جيش فون آرنيم وجيش رومل لاستفرادهما في مرحلة لاحقة... والواقع ان فكرة القيام بهذه العملية كانت تدور في خلد ايزنهاور منذ شهر كانون الأول/ديسمبر لكن الكسندر عارض الفكرة عندما طرحها ايزنهاور في لقاء الدار البيضاء، لأن تنفيذها قد يؤدي إلى حشر جيش فريدندال الأميركي بين جيشين المانيين حسني التدريب ويجعله لقمة سائغة بين فكي كماشة.

كان الكسندر واقعياً يقيس الأشياء بمقياس العقلانية والتروي، وقد أخذ بعين الاعتبار أربعة عوامل عندما بدأ بوضع الاستراتيجية العسكرية لمعركة تونس. العامل الأول هو الازدياد المضطرد لقوة جيشي فون آرنيم ورومل براً وجواً بفضل سيل الامدادات المتدفق عبر الجسر البحري – الجوي الذي يمر بصقلية، الأمر الذي يوجب شل فعالية هذا الجسر من خلال تحقيق التفوق الجوي لقوات الحلفاء في ذلك الجزء من البحر المتوسط، وهو أمر لا يمكن القيام به الا باحتلال أكبر قدر ممكن من المطارات والمدارج التي تستطيع الطائرات الانطلاق منها وبلوغ المسالك البحرية المفضية إلى المرافئ التونسية، علماً ان معظم المطارات في تونس تقع في السهل الأوسط بين قابس جنوباً والنفيضة شمالاً.

العامل الثاني هو التقدير الحقيقي لقوة جيش فون آرنيم ورومل، فالفوهرر كان يعلق آمالاً كبيرة عليهما لالقاء قوات الحلفاء بعيداً عن جنوب أوروبا، ولذا أمر باجراء تعديلات في هيكلية القيادة بعد معركة القصرين، مكلفاً رومل بتنسيق كل العمليات بين جيشه وجيشي فون آرنيم، كما تسلم الجنرال الايطالي ميسي القيادة المباشرة للجيش الذي كان تحت أمر رومل.

العامل الثالث هو التقدير الحقيقي للقوة الموضوعة في تصرف الكسندر نفسه. الجيش البريطاني الأول الذي يقوده اندرسون في شمال تونس كان على قدر مقبول من الفاعلية والخبرة ولاسيما بعد انضمام الجنرال جون كروكر اليه وتعزيزه بفرقتين من المشاة استقدمتا من انكلترا. أما القوات الفرنسية التي يقودها الجنرال كولتز فكانت تعاني من نقص فادح في التجهيز، ومن عدائية الانكلوسكسونيين، مع الاشارة إلى ان عناصرها كانوا يملكون خبرة جيدة في حرب الجبال.

تبقى القوات الأميركية بقيادة الجنرال فريدندال، وكانت مجهزة بأكثر مما تحتاجه ومدفوعة بالشجاعة والإقدام اللذين تنقصهما الخبرة والتدريب الكافي.

ويمكن أن يضاف إلى هذا العامل وجود الجيش البريطاني الثامن بقيادة مونتغمري في الجنوب، وهو جيش كان يتفوق بنوعيته على كل القوات التي في تصرف الكسندر. وهكذا يتضح ان هدف الجنرال الكسندر المباشر والملح كان في رفع مستوى قوات الحلفاء في تونس بما يجعل اداءها متقدماً، ويبدأ ذلك أولاً باعادة تنظيم الجبهة وتقسيمها إلى قطاعات تتولى القتال فيها القوات البريطانية والفرنسية والأميركية من غير تداخل بين العناصر، بحيث يكون الجندي خاضعاً لأوامر ضباط من مواطنيه. وبعدها يكلف كل جيش بمهمات يستطيع تنفيذها وفقاً لقدراته حتى تتعزز الثقة وتبنى الخبرة القتالية بالشكل الصحيح.

العامل الرابع والأخير كان طوبوغرافياً، وخلاصته ان تنتشر قوات المحور في منطقة واسعة يحدها البحر شمالاً وشرقاً، والجبال غرباً، ومستنقعات المياه المالحة جنوباً حتى حدود قابس الساحلية، وانطلاقاً من هذا الواقع الجغرافي الصعب كان أمام قوات الحلفاء طريقان، أولهما الانطلاق داخل الصحراء لمهاجمة قوات المحور من الطرف الغربي، والثاني سلوك الطريق الضيقة بين قابس والمستنقعات المالحة. وكانت الطريق الأولى صعبة وغير عملية بالنسبة الى قوات عسكرية كبيرة الحجم، في حين كانت الطريق الثانية شبه مستحيلة بسبب طبيعة المنطقة الجغرافية واحتماء قوات المحور خلف التحصينات الدفاعية التي بناها الفرنسيون في مارث.

وقد لخص الكسندر خطته المبنية على العوامل الأربعة المذكورة قائلاً: «يجب ان تقسم الحملة العسكرية إلى مرحلتين. في المرحلة الأولى ينفذ الجيش الثامن إلى شمال قابس حيث يصبح متصلاً بالجيش الأول ويكرس تفوقه في القدرة على الحركة والقوة النارية... وفي المرحلة الثانية يجب ان تكون مهمة الجيشين الأول والثامن احتلال القدر الكافي من المطارات والمدارج لتحقيق التفوق الجوي البريطاني – الأميركي. وعندما نصل إلى هذا الهدف يصبح بوسعنا تضييق الخناق على مواقع العدو».

١ – الهدف – تدمير قوات المحور في تونس في أقرب وقت ممكن.

٢ – المجموعة العسكرية – تسيطر المجموعة العسكرية ١٨ على الجيش الثامن، والفيلق الأميركي، والجيش الأول، والفيلق الفرنسي.

٣ – القطاعات – توزع القوات البريطانية والفرنسية والأميركية على قطاعات مختلفة، ويكون الجنود خاضعين لأمرة ضباط من مواطنيهم بالقدر الذي يكون ذلك ممكناً.

٤ – التنظيم – تعمل الفرق العسكرية كفرق كاملة، ولا تقسم إلى مجموعات صغيرة.

٥ – القوات الخاضعة كفرق الكوماندوس والمظليين تسحب من أرض المعركة في أقرب فرصة، من أجل الراحة واعادة التدريب والتجهيز.

٦ – احتياطي المجموعة ١٨ يتكون من: ٦ فرق مدرعة. فرقة مشاة بريطانية. ٩ فيالق عسكرية. لواء مظليين. ٦ فرق كوماندوس. والفيلق التاسع الذي يخضع لتدريبات مكثفة على العمليات الهجومية.

٧ – الاحتياطي المحلي – على كل فيلق أن يعمل على ايجاد احتياطي خاص به يضم فرقة مشاة وفرقة مدرعة.

٨ – المدرعات – تسحب الدبابات من الخطوط الأمامية وتجمع كاحتياطي محلي لتؤدي دورها في الهجمات المعاكسة.

٩ – القواعد الثابتة – تحول المواقع الأساسية إلى قواعد ثابتة وحصينة تساندها المدفعية والدبابات، وتراقب الدوريات الدائمة في المناطق الفاصلة بين هذه القواعد. ويكون التعامل مع اي خرق صغير يقوم به العدو لهذه المناطق من مهمة الاحتياطي المحلي، في حين يتولى احتياطي الفيلق التعامل مع أي خرق كبير.

١٠ – يكون الموقف في الجبهة حالياً دفاعياً وانما بروحية الاستعداد للهجوم، مع ضرورة اقامة دوريات مستمرة وعمليات هجومية صغيرة تهدف إلى تحسين المواقع وتدريب الوحدات العسكرية والامساك بزمام المبادرة...

وهكذا نرى ان الكسندر اعتمد التكتيك العسكري الذي اثبت نجاحه قبل معركة العلمين، انما على نطاق واسع يشمل مجموعة جيوش كاملة.

ومن ناحية أخرى يسجل ان ضابطاً كبيراً واحداً فقد مركزه خلال هذه الفترة بمبادرة من ايزنهاور لا من الكسندر. فبعد معركة القصرين رأى ايزنهاور ان القوات الأميركية فقدت الثقة بقائدها فريدندال، فاستدعى الجنرال باتون من المغرب للحلول محله.

ديغول:
الضابط الذي حارب الانكليز من لندن

«لقد ترملت فرنسا»!

هكذا قال جورج بومبيدو! لكن من هو ذلك الرجل الواحد الذي يمكن ان يرمل امة كاملة؟ انه، بالتأكيد، شارل ديغول. وها هو الآن، ذلك العملاق الهائل القامة، الضئيل الشاربين، ينطفئ بهدوء في قريته الصغيرة «كولومبي» ذات مساء خريفي حزين من اوائل تشرين الثاني/نوفمبر في العام ١٩٧٠.

لقد طوى شارل ديغول كتاباً كاملاً لا صفحة واحدة: تاريخ فرنسا الحديث، هو. وهو أيضاً «زوجها»، شاءت ام ابت. انه يترك كل شيء منذ العام ١٩٤٠، لكي يتزوج فرنسا. وهكذا سوف يعاملها. هو يقول لها اي رداء ترتدي وأي قبعة تعتمر وأي دولة تصير. هو يترك لها حرية الأكل والشراب والتنزه على البولفارات الطويلة السارحة تحت اشجار الامبراطورية، لكن إذا حل المساء فالمخدع واحد: الديغولية تنام في مخدع فرنسا.

كرهه الانكليز وامتعض منه الاميركيون وحاربه الألمان ولم يثق به الروس. فقط الفرنسيون وحدهم احبوه ثم سحبوا منه هذا الحب، ثم اعطوه وأخذوه من جديد. هكذا تفعل فرنسا مع قادتها. انها تنسحر بهم في المساء وفي الصباح تخرج إلى الشوارع لتتظاهر ضدهم. لكن شارل ديغول كان يعرف تاريخ فرنسا جيداً: سوف يكثر من الاستفتاءات وفي النهاية يفعل ما يشاء.

وسوف يستهوي فرنسا باللغة التي تفهمها أكثر من اي شيء آخر وتحبها أكثر من اي شيء آخر: اللغة! انه جنرال من غير عسكر ومن غير عسكرية. وعلى وجه الدقة فهو كجندي ربح معركة واحدة فقط في ابيفيل، مقاطعة بيكاردي، في العام ١٩٤٠. ولعلها

كانت المعركة الوحيدة التي ربحتها فرنسا في تلك الأيام الحزينة، لكنه كان انتصاراً ضيئلاً لدرجة ان الفرنسيين، وحتى الجيش الفرنسي، اختاروا أن يتجاهلوه.

بالكلمات، لا بالمعارك، ربح ديغول حروبه الكثيرة، وخصوصاً غزوته لفرنسا. وحول شخصه فقط توحد الفرنسيون، احياناً ضده، احياناً معه، لا فرق. ذلك ان كلا الموقفين كانا دليلاً على انه وحده نقطة الاستقطاب، ووحده استطاع ان يطبع اسمه على ثلاث جمهوريات: الثالثة التي سقطت في الذبول، الرابعة التي امتلأت بالكوارث، والخامسة التي استنبطها من بين الركام.

كان يحب الكلام ويجيده. وكانت مؤتمراته الصحافية اشبه بأمسيات شعرية تلقى كل قصائدها من الذاكرة. وكان ممتعاً ان تسمعه بقدر ما هو ممتع ان تقرأه. وكان يدور ويدور حول شعار واحد هو عظمة فرنسا. ومن أجل هذه العظمة ذهب إلى السلام طائعاً وإلى الحرب متقدماً. وبعد سنين قليلة من ولادة الجمهورية الخامسة كان يحقق ما لم يحققه أي قائد من بلاد الغال أو اي زعيم جرماني من قبل، اي المصالحة بين المانيا وفرنسا. وهو أيضاً أول زعيم فرنسي يستطيع ان يقف في وجه المد الشيوعي الفرنسي على الرغم من انه اتهم بالتواطؤ مع السوفيات. وشارل ديغول الحاكم هو الذي سدد لأميركا ديون خطة مارشال قبل موعدها بكثير. وهو الذي اعاد إلى سطح الأرض ذلك الفرنك الغارق في ضباب الهاوية. وذلك الخطيب الحماسي الذي ادار فرنسا من الاذاعة ثم من التلفزيون هو أيضاً ذلك السياسي البارد الذي عندما اخفق المتطرفون الفرنسيون في اغتياله بسبب سياسته الجزائرية، نظر إلى الرصاص الضائع حوله وقال: ملعوناً ابوهم انهم لا يجيدون الرماية!

وهذا الرجل الامبراطوري النابليوني الأهواء، كما يقول لنا اندريه مالرو، هو الذي سيفتك بالامبراطورية الفرنسية ويصبح أيضاً الناطق الأول باسم الدول الصغيرة، منتقداً الهيمنة المتقاسمة بين الاميركيين والسوفيات.

ذلك كان شارل ديغول، الرجل الذي ترك اثاراً طويلة في العالم العربي. لكن بما ان هذا الكتاب يعنى فقط «بجنرالات الشرق» في المرحلة الواقعة بين العامين ١٩١٤ و ١٩٤٥ فاننا للأسف نحصر حديثنا عن الرجل في تلك المرحلة، اي المرحلة التي تزعم فيها ديغول «فرنسا الحرة» من خارج فرنسا وقاد الحرب و «الانقاذ» متنقلاً من برازافيل إلى السنغال إلى القاهرة إلى دمشق إلى بيروت إلى لندن.

كان العام ١٩٤١ حاسماً في الحرب الكونية الثانية. فهذه السنة سوف ينضم إلى النزاع العالمي الاتحاد السوفياتي واليابان والولايات المتحدة دفعة واحدة. وفي هذه السنة أيضاً سوف تبدأ العلاقة بين ديغول وحلفائه بالتدهور. وقد وصلت الأزمة بين «فرنسا الحرة» والانكليز إلى ذروتها خلال الحملة المشتركة على قوات فيشي في سورية ولبنان، لكنها لم

تنفرج بعد ذلك طوال السنوات الأربع التالية. وفي تلك الأثناء بعثت «هيئة الأحرار الفرنسيين» المقيمة في لندن ببرقية إلى ديغول الموجود آنذاك في القاهرة تحذره فيها من ان سياسته قد تؤدي إلى خلاف نهائي مع بريطانيا «الامر الذي يعني نهاية فرنسا الحرة ونهاية آخر أمل في انقاذ وطننا البائس».

وقد رد ديغول على لجنته ببرقية تأنيب، لا بد لنا من قراءتها لأنها سوف تكون قاعدة لسياسته طوال الحرب:

«انني اعي، أكثر من اي كان، المضاعفات القومية والدولية الخطيرة المترتبة على اي انشقاق بين فرنسا الحرة وبريطانيا. وانني لهذا السبب بالذات قررت ان اضع انكلترا وجهاً لوجه أمام هذه المضاعفات، فيما إذا خطر لها ان تتصرف تجاهنا بطريقة غير مقبولة. ولقد سمعت ان البريطانيين قد تذمروا لكن هذا التذمر لا وزن له بالمقارنة مع واجباتنا تجاه فرنسا. انني ادعوكم لأن تكونوا أكثر صموداً والا تعطوا الانطباع بأن أولئك الذين يمثلونني لا يتبعون سياستي تماماً. ان عظمتنا وقوتنا تكمنان فقط في عنادنا بشأن كل ما يتعلق بحقوق فرنسا».

ففي القاهرة نفسها كانت لديغول أيضاً مشاحنات كثيرة مع الجنرال ادوارد سبيرس الرجل الذي نظم المراحل الأولى من الدعم البريطاني «لفرنسا الحرة». وبعد عام من الانسجام بين الرجلين بدأ الامتعاض المتبادل يظهر على السطح ثم تحول هذا الامتعاض إلى فراق بعد انتقال سبيرس من القاهرة إلى منصبه الجديد في سورية ولبنان. ويروي سبيرس ان ديغول انفجر في وجهه ذات يوم قائلاً: «لا اعتقد ان بامكاني بعد اليوم التفاهم مع الانكليز. انكم جميعاً سيان. لا يهمكم سوى مصالحكم وأهدافكم ولا تشعرون بمتطلبات الآخرين. هل تعتقد انه يهمني ان تربح بريطانيا الحرب؟ لا. اطلاقاً. ان كل ما تعنيني هو انتصار فرنسا».

وعندما رد سبيرس ان الانتصارين واحد قال ديغول: ابداً (pas du tout).

كان ديغول يدفع بالخلاف مع حلفائه إلى اقصى الحدود لكي يؤكد للفرنسيين في الداخل انه هو، وليس حكومة فيشي، الذي يناضل من أجل حماية مصالح فرنسا واعادتها إلى صفوف الكبار، وكان يعرف ان فرنسا الضعيفة لا تملك الا ان تكون صلبة. وقد روى انطوني ايدن انه ابلغ ديغول ذات يوم بأنه من بين جميع الحلفاء، يجد صعوبة شديدة في التعاطي معه، فأجابه ديغول: «وكيف تريدني ان اتصرف. ان فرنسا دولة عظمى».

ويروي المؤرخ هارولد نيكلسون ان تشرشل انفجر ذات يوم عندما قال أحدهم ان ديغول رجل عظيم وقال: «ديغول عظيم؟ انه اناني، متعجرف ويعتقد انه نقطة الثقل في العالم... عظيم؟ اجل. انك على حق. انه لرجل عظيم».

سواء كان عظيماً ام لا في نظر الانكليز. فقد كان في الشرق حليفهم وعدوهم في وقت واحد.

وقد كتب ديغول يقول: «في بداية آذار/مارس ١٩٤١ ايقنت بلا اي شك في أن الحرب في الشرق الأوسط وأفريقيا ستؤدي بنا إلى تجارب كبرى في وجه العدو، واننا سنواجه في وقت واحد معارضة شديدة من قبل حكومة فيشي، وسوف نمر في خلافات خطيرة مع حلفائنا. لذلك كان علي ان اتخذ القرارات الضرورية في لحظتها. قررت الذهاب إلى هناك ومعي افكار بسيطة. كنت اعرف انه وسط ذلك التعقيد من العناصر والأمور، فان لعبة حيوية تلعب هناك. اذن، لا بد ان يكون لنا دور فيها».

وهكذا طار الجنرال ديغول إلى القاهرة، حيث حاول ان يضغط على الجنرال ويفل لقبول اقتراحين: الأول ان يسمح للقوات الفرنسية الحرة، وعددها آنذاك نحو ستة آلاف رجل (في الشرق الأوسط) بالتجمع وشن حملة هجومية للسيطرة على سورية ولبنان والثاني ان يشدد ويفل الحصار البحري على موانئ المشرق وصولاً حتى جيبوتي. حيث يرغم تلك المقاطعات على ان تغير مواقفها. غير ان ويفل رفض اياً من هذه الخطوات على اساس ان لديه ما يكفيه من المتاعب في جبهات أخرى، وتخوفاً من الغرق في صعوبات لا نهاية لها مع حكومة فيشي. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تدعم ويفل في هذا الموقف لأنها كانت لا تزال تأمل في ان تجتذب حكومة فيشي اليها. وأكثر من ذلك فان ويفل، كرجل عسكري، كان يشعر ان ديغول يبالغ في التفاؤل في حمل المقاطعات الفرنسية آنذاك على تغيير مواقفها والوقوف إلى جانبه بدلاً من البقاء إلى جانب حكومة فرنسا الفيشية المستسلمة للألمان.

هكذا، ترك ديغول القاهرة في شيء من الحيرة في منتصف نيسان/ابريل عائداً إلى مقره الأساسي في برازافيل وفي ظنه، وربما في قناعته، ان هدف الانكليز الأول هو ابقاؤه خارج لبنان وجيبوتي بحيث تتم لهم السيطرة على تلك المناطق في وقت لاحق.

يصل ديغول إلى برازافيل، اذاً، في الوقت الذي كان الجنرال ويفل يركز قواته في العراق. ومن برازافيل يرسل ديغول تعليمات إلى نائبه في القاهرة الجنرال كاترو بأن يضغط على الانكليز مرة أخرى لكنه سوف يتلقى برقية من الجنرال سبيرس في التاسع من أيار/مايو يخبره فيها «بأنه من المستحيل علينا ان نؤمن النقل لقوات فرنسا الحرة خلال شهر على الأقل» نظراً الى العمليات العسكرية التي كانت قائمة في العراق ويضيف «ان الجنرال ويفل قد طلب الي ان اخبرك بأنه على الرغم من كونه سعيداً دائماً برؤيتك شخصياً، فانه لا يرى أي ضرورة لأن تأتي إلى القاهرة الآن او في المستقبل القريب». واذ فرغ ديغول من قراءة هذه البرقية شعر ان رأسه الطويل يكاد يضرب السقف وبعث ببرقية إلى كاترو في ١٢ أيار/مايو يطلب منه الانسحاب من القاهرة:

«في ضوء السياسة السلبية التي اتبعها حلفاؤنا الانكليز في الشرق الأوسط، فانني اعتقد ان وجود شخصية في حجمك في القاهرة لتمثيل فرنسا الحرة هناك، لم يعد له ما يبرره. ارجوك ان تبلغ الانكليز بهذا القرار. وليس امامك اي سبب لأن تخبئ عنهم الداعي لرحيلك. على العكس انني اطلب منك ان توضح لهم ذلك».

غير ان تشرشل في هذه الأثناء، كان قد بعث في ٩ أيار/مايو ببرقية إلى الجنرال ويفل يقول فيها:

«انك تعرف ولا شك الخطر الذي يمكن ان يتأتى عن اقدام بضعة آلاف من الألمان المنقولين جواً على احتلال سورية. وفي ضوء قناعتك الواضحة بأننا نفتقر إلى كثير من الامكانات، فاننا لا نرى اي طريق آخر مفتوحة امامنا سوى ان نقدم على تزويد الجنرال كاترو بوسائل النقل اللازمة وان تدعه هو وقوات فرنسا الحرة يبذلون ما يستطيعون في هذه اللحظة وما يرونه مناسباً...».

ثم عندما سمع تشرشل بتعليمات ديغول إلى كاترو بالانسحاب من القاهرة، بعث على الفور برسالة مهدئة إلى برازافيل. طالباً إلى الجنرال الفرنسي ان يعود عن قراره ومبلغاً اياه بالتعليمات الجديدة التي بعث بها إلى ويفل لتأمين وسائل النقل للحملة التي تنوي قوات فرنسا الحرة القيام بها في سورية ولبنان. وأضاف إلى ذلك كله خبراً حسناً جداً، اذ قال إن حكومة الحرب في لندن قد قررت تشديد الحصار حول جيبوتي كما طلب ديغول. وقد فوجئ ديغول بهذا الموقف البريطاني المستجد والمفاجئ لدرجة انه ابرق أول مرة إلى تشرشل باللغة الانكليزية، خاتماً رسالته بتحية نادرة «انكم سوف تربحون الحرب بلا شك». غير ان السعادة التي رافقت تلك البرقيات المتبادلة بين الرجلين لم تختم دائماً على علاقاتهما في المشرق أو في الشرق الأوسط. بل على العكس فان ضباباً كثيفاً سوف يظل يجلل تلك العلاقات حتى نهاية الحرب، في العام ١٩٤٥.

في اي حال يعود ديغول إلى القاهرة في ٢٥ أيار/مايو، وفي غضون ذلك يكون الجنرال ويفل الذي يخضع لكل أنواع الضغوط، قد استطاع ان يجمع من هنا وهناك، شمل قوة ضعيفة مزركشة الألوان للقيام بما يسمى «الحملة السورية» في مواجهة ثلاثين ألف جندي فرنسي موالين لحكومة فيشي وبقيادة الجنرال دنتز. لم تكن قوة فرنسا الحرة تزيد على ستة آلاف رجل كما ذكرنا بقيادة الجنرال لوجنتيوم، وتدعمها نحو عشر دبابات على الأكثر ونحو اربع وعشرين طائرة وبضع قطع مدرعة أخرى. اما القوات البريطانية في الحملة فكانت مؤلفة من الجنود الاوستراليين الذين امكن الاستغناء عنهم في طبرق.

ويبدو ان دنتز لم يكن ينوي المقاومة في بادئ الأمر، غير انه عاد واتخذ قراراً معاكساً بعد تزايد الدعم الجوي الألماني، اذ اخذت طائرات الفوهرر تهبط بصورة منتظمة في مطارات سورية.

مرة أخرى خشي الفرنسيون ان يعودوا إلى مواجهة بعضهم بعضاً كما حدث غير مرة في التاريخ، وان يتقاتل جنود فرنسا خارج اراضيها بالحرب وأن يشوهوا وجوه بعضهم بعضاً. لكن الأمر بدا حتمياً إلى حد ما. وكان على ديغول ان يختار بين ان يمضي في معركته وحلمه وبين ان يتجنب المواجهة مع دنتز الذي قرر الآن تصعيد الدفاع.

بدأت الحملة البريطانية – الفرنسية ضد سورية ولبنان في ٨ حزيران/يونيو ١٩٤١ ومعها اوامر مشددة بعدم اطلاق النار الا إذا اطلقت النار عليها. ولم يطل الأمر امام مثل هذه اللحظة. وظهر بادئ الأمر ان الحملة تتقدم بشكل جيد، لكن قادة قوات فيشي الفرنسية ما لبثوا ان لاحظوا ضعف القوات المهاجمة، وبدأت عندها المقاومة تتصلب فاضطرت القوات الفرنسية الحرة إلى التوقف على الطريق إلى دمشق في حين لقيت القوات البريطانية مواجهة عنيفة إلى الشمال من مدينة حلب. لكن الوضع في العراق كان خلال ذلك قد تغير لصالح الانكليز وهنا استطاع ويفل ان يحرك ثلاثة الوية أخرى إلى سورية من الشرق، وفي ٢١ حزيران/يونيو دخلت قوات فرنسا الحرة إلى دمشق لكي يلحق بها الجنرال ديغول بعد ذلك بثلاثة أيام.

وقد عرف الجنرال دنتز الذي لم تكن لديه تعزيزات يطلبها من اي مكان، انه لا يستطيع الاستمرار في القتال إلى الأبد. وفي ١٨ حزيران/يونيو طلب من القنصل الاميركي في بيروت ان يأتي له بشروط الهدنة التي يريد الانكليز وضعها. الا ان القتال ظل مستمراً في غضون ذلك ولم يطلب دنتز وقف النار حقاً الا في ١٠ تموز/يوليو حين اعلن الدخول في مفاوضات الاستسلام. وقد شعر ديغول آنذاك بأن مواطنيه الفرنسيين الذين يدينون بالولاء إلى المانيا هم الذين عمدوا عن قصد إلى اطالة الحملة على سورية، من أجل اراحة القوات النازية المندفعة نحو روسيا، في اي حال انتهت الحملة بنحو أحد عشر ألف قتيل وجريح ومفقود ومن الفرنسيين الأحرار وأعدائهم الفيشيين. وأيضاً من الاوستراليين والانكليز والهنود والآخرين.

ازدادت الهوة اتساعاً بين ديغول والانكليز. فالجنرال الفرنسي لم يكن راضياً عن طريقة الانكليز في توجيه المعركة ولا عن الطريقة التي ارسلت بها التعزيزات إلى قواته. وسوف تكبر الهوة أكثر، اذ تتجاهل لندن الشروط التي بعث بها هو إلى دنتز حول قبوله بالهدنة. لقد اصبح مقتنعاً الآن بأن البريطانيين ينكرون الانتصار على قوات فرنسا الحرة.

ثم اعقب ذلك سلسلة حوادث صغيرة مع القوات لكن هذا التمنع لن يدم طويلاً. وسوف يستدعى ديغول إلى مواجهة مع تشرشل في ١٠ داوننغ ستريت في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر.

ثمة حقيقة لا بد ان تقال عن تشرشل ذلك ان الرجل الذي عرف بقسوته وفظاظته

ولؤمه لم يكن يعرف كيف يحقد. لقد كان رجلاً ذكياً يعرف ضعف الإنسان ويعرف ان للحياة طلعاتها ونزلاتها ولذلك غالباً ما كان يميل إلى العفو. وقبل ان يعقد تلك المواجهة مع ديغول قال لسكرتيره الخاص جون كولفيل إنه عندما يدخل ديغول إلى المكتب «سوف اقف وانحني قليلاً، لكنني لن اصافحه وسوف اومئ اليه ليجلس على الجانب الآخر من الطاولة». وكان مقرراً ان يقوم كولفيل، الذي يجيد الفرنسية بدور المترجم. وقد وصل ديغول في الساعة الثالثة تماماً كالعادة وجلس في الكرسي التي أشار إليها تشرشل وراح يحملق به منتظراً منه ان يبدأ الحديث. وقد روى كولفيل في مذكراته فيما بعد وقائع ذلك الاجتماع المسلي الذي لم يكن بالفعل مسلياً آنذاك. يقول كولفيل، بدأ تشرشل بالقول: «ايها الجنرال ديغول لقد طلبتك ان تجيء إلى هنا بعد هذا الظهر» ثم توقف ونظر إلى كولفيل الذي ترجم الكلام بقوله: «سيدي الجنرال لقد دعيتك إلى المجيء بعد هذا الظهر...» غير ان تشرشل اعترض بقسوة قائلاً: «إنني لم أقل سيدي الجنرال ولا قلت دعوتك». واستطاع كولفيل ان يصمد بداية الاجتماع وسمع ديغول وهو يعطي رده الأول. لكن عندما ترجم الرد إلى الإنكليزية، قاطعه ديغول الذي كان يجيد اللغة تماماً لكنه يرفض ان يتكلمها، وقال «ابداً. ليس هذا المعنى الذي قصدت».

عند ذلك صرف تشرشل سكرتيره كولفيل وطلب اليه ان يبعث بمترجم آخر. وجيء آنذاك بأكثر الديبلوماسيين طلاقة بالفرنسية في وزارة الخارجية الذي قطع الشارع بين مبنى الوزارة ومبنى رئاسة الحكومة راكضاً. وبعد عشر دقائق من دخوله الى غرفة الاجتماع خرج أحمر الوجه وقال لكولفيل: «لقد اصيبا بالجنون». وبعد ذلك اكمل الرجلان الحديث من دون مترجم ومعهما فقط سكرتير يدون الملاحظات. بعدها بنحو ساعة كما روى كولفيل قائلاً: «حاولت ان اتنصت لكن الأبواب المزدوجة كانت قد اغلقت. لم استطع ان اسمع شيئاً. ودخلت إلى القاعة وحاولت ان اجرب على راسي قبعة الجنرال ديغول التي تركها في المدخل وشد ما فوجئت من مدى صغر حجم رأسه. حاولت ان الهي نفسي بأي عمل او اتظاهر بأي عمل، لكنني لم افلح. ثم قرع الجرس فدخلت إلى الغرفة لأجدهما وقد ظهرت على وجهيهما علامات الرضى. وكان ديغول، لأهداف تكتيكية طبعاً، يدخن أحد سيجارات رئيس الوزراء ويتحدثان بالفرنسية، وهو اغراء لم يكن تشرشل يستطيع ان يقاومه طويلاً».

في حين ان الأزمة السورية كانت ابرز هموم ديغول في صيف ١٩٤١، فان انضمام الاتحاد السوفياتي إلى الحرب فتح امامه امكانات سياسية عدة ما لبث ان استغلها بسرعة. فقد سارع ديغول بذكائه السياسي المعروف إلى ان يلعب «الورقة الروسية» ضد حلفائه الآخرين. وهي استراتيجية ظل يتابعها حتى ايامه الأخيرة في السلطة في العام ١٩٦٩.

كان الجنرال ديغول مجتمعاً إلى ليتلتون عندما شن هتلر هجومه في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٤١. وفيما كان ينتظر ان يدخل دمشق بعد انتصار الفرنسيين الأحرار على قوات فيشي بعث ببرقية تعليمات إلى لجنته في لندن في ٢٤ حزيران/يونيو يقول فيها:

«من دون حاجة في الوقت الحاضر إلى البحث في شهوات بل في جرائم النظام السوفياتي، يجب ان نعلن مثل تشرشل، اننا بكل صراحة مع الروس لأنهم يحاربون الألمان. حاولوا الاتصال بهدوء بالسفير السوفياتي في لندن ايفان مايسكي وأبلغوه باسمي ان الشعب الفرنسي يقف مع روسيا واننا نريد ان ننظم العلاقات العسكرية مع موسكو».

لماذا كان ديغول يستعجل ان يمنح روسيا هذا التأييد؟

طبعاً لأنه كان بحاجة إلى اعتراف موسكو بفرنسا الحرة. ولم يطل هذا الاعتراف لكي يهل عليه. وبعد اسابيع قليلة تنقل موسكو سفيرها الكسندر بوغومولوف من فيشي إلى لندن لكي يصبح ممثل ستالين لدى الجنرال ديغول. وقد طرب ديغول لهذه الخطوة لدرجة انه عرض على السفير الجديد ان ينقل فرقتين من المشرق إلى الجبهة الروسية. كيف يستطيع ان ينقل هاتين الفرقتين وان يجهزهما وان يدربهما؟ امر متروك له. غير انه من خلال ذلك نجح في الضغط على تشرشل اكثر فأكثر. وبعد أسبوع من اللقاء مع السفير السوفياتي يبعث اليه تشرشل بمن يبلغه ان الجنرال اوكينلك القائد الجديد في الشرق الأوسط سوف يضم إلى قواته لواء من الفرنسيين الأحرار في العمليات العسكرية الجارية في برقة (الآن الجماهيرية الليبية). لقد حققت «الورقة الروسية» نجاحها الأول. فالاعتراف السوفياتي دعم من مركز الفرنسيين الأحرار وزاد من استقلالهم كقوة كبرى أكثر فأكثر ضد البريطانيين وزاد من قوته السياسية ومن عدد اتباعه في فرنسا نفسها. وكان موقف ستالين الحار من ديغول متناقضاً بصورة واضحة مع البرودة والعداء اللذين اظهرهما روزفلت والولايات المتحدة تجاهه، مع العلم ان اميركا - وبالتالي رئيسها - كانت قد بدأت آنذاك تنحني امام الوقائع الجديدة الظاهرة امامها وتتجاهل عواطفها الحقيقية نحو ديغول.

بعث ديغول برسوله الأمين رينيه بلوفان إلى الولايات المتحدة في مهمة خاصة من أجل الدفاع عن قضية فرنسا الحرة. وقد امضى الرجل نحو أربعة أشهر بين حزيران/يونيو وتشرين الأول/اكتوبر. لكن روزفلت رفض مقابلته. غير ان واشنطن على الرغم من ذلك قبلت عرض ديغول باستخدام الوسائل البحرية في المقاطعات الافريقية الفرنسية. وأرسلت الحكومة الاميركية فرقاء اختصاصيين للتفاوض حول استخدام المطارات عبر افريقيا الفرنسية من أجل نقل المساعدات الجوية إلى البريطانيين في الشرق الأوسط.

وفي ٤ تشرين الأول/اكتوبر منح بلوفان أخيراً مقابلة مع وكيل وزارة الخارجية سمنر ويلز في واشنطن. وكتب إلى ديغول يقول عن اللقاء ان «ويلز كان بارداً جداً. ان الجميع

هنا يعرفون ان ويلز وتلامذته يشعرون بأنهم أكثر دراية بالأمور من حلفائنا الانكليز وبل وحتى منا نحن بشؤون فرنسا».

امر ديغول وحدة عسكرية من قوات فرنسا الحرة اعادة احتلال المبنى بالقوة اذا اضطر الأمر، وبالفعل تجنب الفريقان تبادل الرصاص في اللحظة الأخيرة. وفي حادث آخر رفضت الشرطة العسكرية الاوسترالية بكل فظاظة السماح للجنرال كاترو بالدخول إلى مقر القيادة البريطانية. وفي كل مكان كان البريطانيون يتصرفون وكأنهم يريدون ابعاد الفرنسيين الأحرار. وحين تلقى ديغول تقارير من كاترو عن هذه المسائل شرع في العودة إلى القاهرة التي وصلها بعد يومين في ٢٠ تموز/ يوليو . وكان يشرح في الطريق إلى العاصمة المصرية لجميع الحكام والقادة العسكريين الانكليز «مدى خطورة المسألة» كما كتب في مذكراته فيما بعد.

وهذه المرة يجد ديغول في القاهرة شخصية بريطانية اضافية انه اوليفر ليتلتون الذي كان أول وزير تقرر حكومة الحرب ارساله إلى الخارج لكي تشدد على اهمية المنطقة بالنسبة اليها. وقبل ان يتسنى للوزير الجديد، ان يستحم فعلاً، كان ديغول يمنحه حماماً حاراً من التأنيب. اذ خلال اجتماع استمر ساعتين ونصف بين الرجلين استنكر ديغول «الأساليب الرديئة والمهترئة» التي استخدمها الانكليز في قيادة الحملة السورية وانتقد الحكومة البريطانية لأنها تريد ابعاد المشرق عن فرنسا بعكس ما ينص عليه انتداب عصبة الأمم. وهاجم أيضاً حكومة تشرشل لأنها لم تأخذ بالتوصيات التي بعث بها حول شروط الاستسلام، كما انتقد قرارها بمنع ضباطه من اجراء اي اتصال مع ضباط فيشي المستسلمين. وأوصل الهجوم إلى ذروته بأن سلم ليتلتون بياناً مكتوباً كان اعده من قبل وينتهي بالكلمات التالية: «ان فرنسا الحرة، اي فرنسا نفسها لم تعد مستعدة لأن توكل إلى القيادة العسكرية البريطانية واجب قيادة القوات الفرنسية في الشرق الأوسط. ان الجنرال ديغول ومجلس الدفاع الفرنسي الامبراطوري سوف يستأنفون قيادة جميع قوات فرنسا الحرة في المشرق اعتباراً من ظهر الرابع والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤١». ولم يعرف ليتلتون المسكين كيف يرد على هذا الشلال المتدفق من الهجمات. وعلى طريقة الانكليز عاد ببرودة إلى ذاكرته فلم يجد سوى التعبير الديبلوماسي العتيق "non venu" وخلاصته انه لم يسمع ولم ير. اي انه لا يستطيع تقبل الاحتجاج بالطريقة التي قدمه بها ديغول.

وفي اليوم التالي حدث ما يمكن ان يطري الأجواء قليلاً. فقد علم ليتلتون ان قوات فيشي قد اعتقلت ٥٢ ضابطاً وشحنتهم إلى فرنسا. وعندها امر فوراً باعتقال الجنرال دنتز وغيره من الضباط الفيشيين إلى ان يتم اطلاق سراح الضباط الانكليز. وهذا ارضى ديغول بعض الشيء ثم وصل الرجلان إلى تسوية بشأن شروط الهدنة، كما سحب ديغول طلبه

بسلخ القيادة من ايدي البريطانيين. وفي أثناء ذلك عين الجنرال كاترو مفوضاً سامياً اعلى لشؤون المشرق، لكن يبدو ان الأوان قد فات بالنسبة إلى ديغول في البحث عن جنود إضافيين في وحدات فيشي المتقهقرة والتي كانت قد تركت المنطقة. وهكذا استطاع كاترو ان يجتذب ١٢٧ ضابطاً من قوات فيشي فقط واختار ستة آلاف جندي البقاء في الشرق الأوسط والقتال تحت راية ديغول بينما ابحر ٢٥ ألفاً عائدين إلى فرنسا.

في هذه المرحلة بدا وكأن الأزمة انتهت. غير ان ما يعرف بـ «المشكلة السورية» بين ديغول والانكليز استمر ناراً تحت الرماد. فقد كان الانكليز يضغطون عليه كما يقول كاتب سيرته دون كوك، من أجل الايفاء بتعهده اعطاء الاستقلال للدولتين المشرقيتين سورية ولبنان، غير انه استمر أيضاً معانداً بأن التعهد لا يمكن تنفيذه قبل نهاية الحرب.

ولا شك في ان المسألة السورية قد احدثت شرخاً كبيراً بين الفريقين بالنسبة إلى القضية المشتركة والهدف المشترك، اذ بصرف النظر عن الأخطاء التي يمكن ان يكون الانكليز قد ارتكبوها، فان تشرشل ومعه بالطبع حكومته، قد شعروا بالكثير من المرارة بسبب التهم التي اطلقها ديغول وبسبب طريقته في معاملة ليتلتون والتهجم عليه.

بعد المواجهة مع ليتلتون عاد ديغول مجدداً إلى برازافيل في نهاية آب/أغسطس ليستعد للذهاب من هناك إلى لندن. لكن عشية سفره إلى العاصمة البريطانية اوصل العلاقات مع بريطانيا مجدداً إلى حافة القطع عندما اعطى حديثاً رسمياً إلى مراسل اميركي يدعى جورج ويلر من صحيفة «الدايلي نيوز» قال فيه:

«إن انكلترا خائفة من الاسطول الفرنسي. وان ما تنفذه انكلترا الآن هو في الواقع صفقة حرب مع هتلر تقوم فيها حكومة فيشي بدور الوسيط. حكومة فيشي تخدم هتلر بابقاء الشعب الفرنسي خاضعاً وبتقديم الامبراطورية الفرنسية لقمة سائغة لألمانيا. لكن لا تنس ان حكومة فيشي تخدم أيضاً انكلترا بابقاء الاسطول الفرنسي بعيداً عن ايدي هتلر. ان بريطانيا تستغل حكومة فيشي بالطريقة التي تستغلها بها المانيا.

ان ما يحدث بالفعل هو تبادل منافع بين دولتين عدوتين بحيث تبقى حكومة فيشي على قيد الحياة ما دامت بريطانيا والمانيا متفقتين على بقائها».

هذه الطريقة في التفسير ازدادت غرابة عندما مضى ديغول يقول للصحافي الاميركي:
«إنني لا انوي اخفاء الحقائق بعد الآن. لقد عرضت على الولايات المتحدة الاميركية حق استخدام مرافئنا الرئيسية في افريقيا التابعة لفرنسا الحرة كقواعد بحرية ضد هتلر. لقد عرضت عليهم ذلك على أساس ايجار طويل المدى وبالطريقة نفسها التي عرضت فيها بريطانيا قواعدها الأطلسية على الولايات المتحدة. غير انني لم اطلب اي مدمرات بحرية مقابل ذلك».

وصل ديغول إلى لندن في أول شهر أيلول/سبتمبر وكأنه لم يقل شيئاً ولم يدل بأي حديث، غير ان الأمر لم يدم طويلاً قبل ان يشعر ببرودة الجو في المدينة. وكان تشرشل قد ابلغ حكومته قبل ذلك قوله «في ضوء سلوك ديغول المزعج في الأسابيع الأخيرة، فان على الوزارات في الوقت الحالي ان تتبنى موقفاً حذراً نحو جميع المطالب التي تتقدم بها فرنسا الحرة. وبادئ ذي بدء منع ديغول لدى عودته من ان يلقي خطاباً متفقاً عليه في هيئة الاذاعة البريطانية لكنه رد على ذلك فوراً بأن منع جميع الفرنسيين الأحرار من الأدلاء بأي شيء عبر تلك الاذاعة. ثم بعث برسالة خطية إلى تشرشل يقول فيها إنه سوف يكون سعيداً إذا استقبل في ١٠ داوننغ ستريت. غير ان تشرشل بعث برد بارد يقول فيه «إن الدلائل التي تلقيتها عن موقفك غير الودي نحو الأمة البريطانية قد ملأتني بالدهشة والحزن ومن الآن وإلى ان تتجمع لدي تفسيرات لذلك فانني لا أعرف ما إذا كان اي لقاء بيننا سوف يكون مفيداً».

وقد استمر هذا الصراع إلى ما بعد خروج الألمان من المشرق بكثير ولم يكن ثمة شك لدى ديغول بأن بريطانيا تتمنى الانتصار لاعدائه وتريد له السقوط «لقد كان البريطانيون، وخصوصاً تشرشل يتمنون ان اصاب باليأس وبالتالي ان يؤدي ذلك إلى سقوطي». وحين عرض عليه الانكليز نقل التعزيزات الفرنسية إلى المشرق قال ديغول لداف كوبر، الرجل الذي قدم العرض «إننا نشعر بأمان أكبر في نقل قواتنا بأنفسنا. وفوق ذلك فأنت تعرف ان المحافظة على النظام في المشرق هو امر موكل إلى الفرنسيين وإلى الفرنسيين وحدهم، ولا يحق للقيادة البريطانية في الشرق الأوسط أو للحكومة البريطانية ان تتدخل في المسألة».

ويروي ديغول في مذكراته ان السفير البريطاني كوبر اعترض على هذا الاعتراض قائلاً: «إن الجنرال بادجيت يتولى قيادة جميع القوات الحليفة في الشرق الأوسط بما فيها قواتكم».

ورد ديغول «اجل. لقد وافقنا على ذلك. لكن العدو قد طرد من الشرق الأوسط منذ أكثر من عامين وبالتالي فان قواتنا في المشرق لم تعد خاضعة للقيادة البريطانية في اي حال».

واعترض كوبر مجدداً: «ان الوضع في سورية مرتبط بالوضع في العالم العربي كله وهو وضع اعطيت فيه بريطانيا المسؤولية العليا».

وأجابه ديغول «في دول المشرق ليست هناك مسؤولية اعلى من مسؤولية فرنسا كدولة انتدابية. وان سلوكك يدل على انه على الرغم من التطمينات التي تقدمت بها حكومتك، وعلى الرغم من استدعاء سبيرس إلى لندن فان السياسة البريطانية لم تتغير. انكم ما زلتم تصرون على الوقوف بين فرنسا وبين الدول الواقعة تحت انتدابها ولذا فان لنا الحق في الاعتقاد بأن هدفكم هو طردنا».

يقول ديغول إنه امام ذلك هز المستر كوبر كتفيه ومشى غاضباً!

لكن الخلاف البريطاني - الفرنسي حول المنطقة لن ينتهي هنا، انه سوف يستمر إلى الأبد، اذ بعد ذلك بأسابيع يبعث اليه تشرشل برسالة «تؤكد في أسلوبها ومحتواها» الخط الذي اعتمده مع الفرنسيين الأحرار في السنوات الماضية. فقد اعلن تشرشل مرة أخرى انه «يعترف بوضع فرنسا الخاص في المشرق» لكن هذا لا يمنع بريطانيا من الاهتمام ببعض الشؤون في المنطقة انطلاقاً «من التزاماتها وواجباتها». وبما ان تشرشل لم يعد قادراً - كما يقول ديغول - على التذرع الآن بأخطار هتلر وموسوليني على قناة السويس «فقد تذرع هذه المرة بالحرب مع اليابان»، لذا طلب من ديغول التوقف عن ارسال الامدادات العسكرية إلى القواعد الفرنسية في المنطقة واعادة القوات «الخاصة» إلى حكومتي دمشق وبيروت «راجياً العمل على ذلك بسرعة لتجنب اي محنة تضاف إلى الصعوبات التي نمر بها».

لماذا طلب تشرشل ذلك ايها الجنرال ديغول؟

«لم اخدع نفسي لحظة واحدة في شأن ما طلب. فاذا كان المستر تشرشل يؤنبني بسبب ارسال تعزيزات من ٢٥٠٠ جندي فرنسي إلى منطقة يتمركز فيها ٦٠ ألف جندي بريطاني سينضم اليهم قريباً ١٥ ألف جندي آخر ومعهم ٢٠٠٠ طائرة مقاتلة، فذلك لأن الانكليز كانوا على وشك اثارة فوضى كبرى.

وفي ردي على رئيس الوزراء شعرت انه من الحكمة ان اشير إلى المسؤولية التي تتحملها بريطانيا في تدخلها في شؤوننا وانها بذلك تضع عقبة كبرى في وجه اي اتفاق بين باريس ولندن. ولذا كتبت اليه اقول إننا اعترفنا باستقلال دول المشرق كما فعلتم في مصر والعراق واننا نحاول فقط ان نؤلف بين هذه الأنظمة وبين مصالحنا في المنطقة. وهذه المصالح ذات طابع ثقافي واقتصادي. وهي أيضاً ذات طابع استراتيجي... اننا مثلكم مهتمين بخطوط اتصالات مع الشرق الأقصى ومهتمين أيضاً بأن تكون لنا سيطرة مستقلة على حصتنا في نفط العراق».

ثم يكشف ديغول عن مرارته من الحركة الاستقلالية في سورية ولبنان فيمضي قائلاً «اعتقد ان هذه المسألة ما كانت لتثار لولا ان حكومتي دمشق وبيروت لم تشعرا بأن بإمكانهما الاعتماد عليكم من اجل التحرر من اي التزام. ان وجود «قواتكم ونصيحة عملائكم يشجعانهما في هذا الموقف السلبي المؤسف. ويجب ان ابلغكم بأن دخول قوات بريطانية جديدة من فلسطين إلى لبنان هو امر يدعو للأسف الشديد...».

لكن الأمور لم تسر كما شاء لها قائد فرنسا الحرة. بل ان «محنة جديدة بدأت بعد يومين فقط من هذه الرسالة، في ٨ أيار/مايو خلال احتفالات النصر في بيروت. فقد مرت

في شوارع المدينة كتيبة من الجنود العرب الملحقين بالقوات البريطانية في فلسطين وأخذت تطلق الاهانات لفرنسا. وبعد ذلك وقعت حوادث عدة ضد القوات الفرنسية في سورية من دون ان تتدخل الشرطة لمنعها (...) وبما ان القيادة البريطانية استمرت في تزويد الشرطة بالسلاح من دون موافقتنا فقد اصبحت لدى السيد شكري القوتلي وحكومته قوة من ١٠ آلاف شرطي وفي تصرفها أحدث الأسلحة».

هذه القوة استخدمت أيضاً ضد الفرنسيين. وفي اثارة اعمال «الشغب». ويتساوى هنا ديغول مع اي محتل آخر. كل عمل استقلالي هو عمل «ضد» فرنسا. وكل حركة وطنية هي شغب واضطرابات، ولذلك سوف يؤرخ في الكثير من المرارة والأسى تلك المقدمات لاستقلال سورية وسوف يرى طبعاً ظل بريطانيا في كل مكان: «لقد هاجمت وحدات من الشرطة والمتظاهرين مراكزنا في كل مكان مسلحة بالقنابل البريطانية الصنع».

لم يكن ديغول يقبل من الانكليز حتى الوقوف على الحياد «خلال ثلاثة أسابيع من التظاهرات لم يحرك الانكليز ساكناً. ففي القاهرة ظل السير ادوارد غريغ، وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط، صامتاً وكذلك القائد الأعلى الجنرال بادجيت. وفي المشرق لم يقم الجنرال بيلو، قائد الجيش البريطاني التاسع بأي خطوة لتحريك القوات الكثيرة الموجودة تحت امرته في المنطقة. وفي لندن نفسها ساد الصمت».

استمرت التظاهرات في دمشق ومدن سورية الأخرى وظل ديغول يرى الشبح البريطاني، بل إن حكومة تشرشل استدعت سفيره في لندن وحذرته من ان بريطانيا لن تقف طويلاً مكتوفة اليدين تجاه ما يجري في سورية. والرجل الذي وجه التحذير كان... انطوني ايدن بالذات الذي سوف يقوم في العام ١٩٥٦ بالعدوان على السويس... ومعه فرنسا!

ويروي ديغول انه بعدما توصلت فرنسا إلى وقف إطلاق النار في دمشق عاد تشرشل فوجه تهديداً آخر «لكي يصور نفسه حامي العرب وأملاً في ان تحدث هذه الصدمة هزيمة سياسية داخل فرنسا وربما سقوط ديغول».

اذاً، يقول ديغول، الانذار البريطاني وجه بعدما اوقف الفرنسيون اطلاق النار في دمشق، وثانياً فان انطوني ايدن قرأ على مجلس العموم رسالة قال إن تشرشل بعث بها إلى ديغول في حين ان الرسالة لم تكن قد وصلت اليه، الا ان حملة «الاذلال» البريطانية للفرنسيين لم تتوقف هنا:

«ذلك النهار أيضاً جاء الجنرال بادجيت إلى بيروت وسلم انذاراً إلى الجنرال (الفرنسي) بينه. وقد اطلق الانكليزي على نفسه في هذه الوثيقة لقب «القائد الأعلى في مسرح

عمليات الشرق الأوسط» مع العلم انه على مساحة ١٠ آلاف ميل مربع لم يعد هناك جندي عدو واحد في كل هذا «المسرح». وقد اعلن انه تلقى تعليمات من حكومته بأن يتولى القيادة العليا في سورية ولبنان وبالتالي فهو يأمر السلطات الفرنسية «بأن تنفذ من دون اي معارضة» أي أوامر يصدرها اليها.

وكان أول الأوامر ان توقف قواتنا القتال وتنسحب إلى ثكناتها.

«وقد استخدم الجنرال بادجيت لمناسبة زيارته عرضاً عسكرياً استفزازياً إلى اقصى الحدود. فقد رافقت طائرته إلى بيروت اسراب مقاتلة عدة. وتقدمه من المطار إلى مقر المندوب الفرنسي طابور من الدبابات وسيل من السيارات المقاتلة اقلت جنوداً كانوا يرفعون السلاح في وجه قواتنا لدى المرور بها.

«ولقد ابلغ الجنرال بينه الجنرال بادجيت انه فيما يتعلق بالأوامر فانه لا يتلقى اوامره الا من الجنرال ديغول وحكومته. وقال له إنه قد اصدر امراً بوقف اطلاق النار وفقاً لتعليمات تلقاها مني. وزاد ان قواتنا في الوقت الحاضر سوف تبقى حيث هي، اما بالنسبة إلى القوات البريطانية فبإمكانها ان تذهب وتأتي حيث تشاء...

«وبالفعل سحب الجنرال بادجيت قواته في هدوء ومضى...».

لكن الستار لم يسدل طبعاً على ذلك النزاع التاريخي بين لندن وباريس او بين ديغول والانكليز .

الماريشال لايوتيه المغربي:
الحظ يطفئ النيران

من غرائب الصدف – أو ربما ليس من غرائبها – ان عهد العسكريين الفرنسيين كمفوضين سياسيين في الخارج انتهى في المغرب في أواخر الخمسينات. لقد قررت الجمهورية الخامسة يومها ان الروح الاستعمارية قد انتهت في العالم، ومعها انتهى أيضاً دور البزّات العسكرية لدى الآخرين.

وفي المغرب ايضاً، في المغرب العربي عموماً، كان العسكريون قد بدأوا منذ أواخر القرن الماضي، ذلك الدور العسكري – السياسي الذي اوكلته اليهم تلك الجمهورية التي ورثت امبراطورية، التي ورثت مملكة. ولعل ابرز الأسماء في فترة ما بين الحربين، اي الفترة التي يغطيها هذا الكتاب كان الماريشال لايوتيه.

انه، ايضاً، كما قالت الأميرة مارتا بيبسكو ذات يوم «الملكي الذي اعطى امبراطورية للجمهورية». وهو ايضاً مرحلة انتقالية من القرن الماضي إلى النصف الأول من هذا القرن. وهو أيضاً وأيضاً من العسكريين الذين بنوا مجدهم السياسي في المغرب العربي في المرحلة التي كان فيها غورو وكاترو وويغان وساراي يرسمون الدوائر السياسية على صفحة المشرق.

شيء آخر لا بد من الاشارة إليه قبل الدخول في سيرة لايوتيه: هو أيضاً، مثل ماريشالات وجنرالات فرنسا الآخرين، ادى خدمته العسكرية في ذلك الاتون المعروف باسم الهند الصينية. بل انه من هناك جاء إلى الجزائر.

كانت الحرب بين الفرنسيين وأهل المغرب قد بدأت قبل زمن طويل. وفي العام ١٨٨٠، في اعقاب ثورة «بو عمامة» احتل العسكر الفرنسي منطقة «عين صفراء» الجبلية في الجزائر وجعلوا منها مركزاً عسكرياً. وقد لجأ بو عمامة إلى المغرب حيث ظل يحرض من هناك

على الجهاد المقدس. وعبثاً حاول الفرنسيون بناء التحصينات في وجه المقاتلين. وهكذا قررت حكومة فرنسا ان تحتل الواحة التي يأخذ المقاتلون منها المؤن وعقدت من أجل ذلك «معاهدة مع حكومة المغرب».

لكن الأمور ازدادت سوءاً بالطبع. ما ان وصل حاكم الجزائر العام المسيو جونارت في العام ١٩٠٣ حتى فقد ٢٥ رجلاً من مرافقيه في كمين هائل. وهكذا فكر جونارت بأن يطلب المساعدة من ضابط كانت له الخبرة في قمع الحركات في الصين! اتصل بالكولونيل - آنذاك - لايوتيه واجتمع اليه، لكن لايوتيه تساءل: هل يجوز تعميم الأشياء؟ هل الأشياء في الصين مثلها على الحدود المغربية - الجزائرية؟

لم يتردد جونارت. نعم! وبعد ذلك بأسابيع تعرضت فرنسا لهزة هائلة جديدة. ففي ١٧ آب/أغسطس ١٩٠٣ اقتحمت قوة من أربعة آلاف مقاتل المركز العسكري الفرنسي في «تاغيث» ثم تلاها بعد أسابيع هجوم كبير آخر. وفي غضون ذلك كان الجنرال اندريه وزير الحربية يحضر في باريس مناورات لرشاشات جديدة سوف تستخدم في جنوب وهران. وكان معه أيضاً المسيو جونارت. وفي نهاية المناورة التفت جونارت إلى الجنرال اندريه وقال: «إنني بحاجة إلى قائد كفؤ هناك واني اعرف واحداً».

قرأ الكولونيل لايوتيه في الصحف عن منصبه الجديد. وقد التقى احد الجنرالات الذين كانوا سابقاً في عين صفرا فقال له «هل تعرف يا صديقي المسكين ماذا ينتظرك في عين صفرا؟ انها الجحيم عينه. انك لن تستطيع شيئاً لكنك سوف تعتبر دائماً مسؤولاً. انني اشفق عليك».

بعد رحلة طويلة وصل إلى عين صفرا «عاصمة وهران» (الآن عنابه) الصحراوية، تسترخي وحيدة معزولة في واد من الرمال بين تلك المرتفعات الرتيبة وبين الأتون الصحراوي إلى الجنوب، انها «مدينة صغيرة صحراوية جداً عند سفح تلة ذهبية اللون، ترتفع فيها المآذن المقدسة وتكثر فيها الحدائق الزرقاء الداكنة». بعد ذلك، الصحراء.

لكن في هذه الصحراء سوف يجد لايوتيه، الذي رقي إلى رتبة جنرال، سعادته! ان بعض الناس لا تستطيع ان تعيش الا حيث يهلك الآخرون. وقد كان لايوتيه سعيداً في الصحراء كما كان سعيداً من قبل في غابات تونكين واحراجها. والسبب انه وحيد وسيد المكان. فقد كان جونارت، الرجل الوحيد الأرفع رتبة منه، بعيداً في مدينة الجزائر بينما كان هو يملك وحيداً هذه المجموعة من الواحات والجرود الصحراوية. وسرعان ما عرف نقاط الضعف عند العرب وكيف يحاول استمالتهم «انهم اناس فخورون بأجدادهم يحبون النبلاء» ولذا فقد دهشوا عندما عرفوا «ان السيف الذي احمله ورثته عن جدي الذي كان جنرالاً في جيش نابوليون».

ويقول لايوتيه إن هذا الأمر ساعده ايضاً عندما نقل إلى المغرب حاكماً عاماً فيما بعد «فقد كان العرب يعجبون كثيراً بهذا الفارس الذي يرتدي عباءة سوداء مقصبة بالذهب كلما قام بزيارة السلطان».

وكان لايوتيه، بالنسبة إلى المنطق الفرنسي، رجلاً واقعياً يعيش في الحاضر. فقد جاء إلى المغرب ومعه بضعة مبادئ عامة تكونت لديه في الهند الصينية وفي جنوب وهران، لكنه ايضاً كان مستعداً لأن يرمي هذه المبادئ بعيداً اذا ما تعارضت مع الوقائع المستجدة. وكان يردد دائماً ان «الإنسان يحكم الطبيعة فقط باطاعتها». وعلى الرغم من خلفيته السياسية والعسكرية والعائلية فقد كان يجعل من الماضي «فقط امثولة لما هو الآن».

بهذه القناعات انتقل من عين صفرا لكي يصبح حاكماً عاماً على شرق المغرب. وفي هذه الأثناء حدث أمران بالنسبة اليه: الأول انه تزوج من ارملة كولونيل آخر والثاني ان طلائع الحرب العالمية الأولى بدأت في الظهور، وفي ١١ تموز/يوليو رمت السفينة الحربية «بانزر» مرساتها في اغادير كتحد للسلطة الفرنسية على المغرب، لقد كان الصراع الألماني - الفرنسي على المغرب يشبه إلى حد بعيد الصراع الفرنسي - البريطاني في سورية ولبنان ولكن المسألة ما لبثت ان حسمت موقتاً عندما استطاعت فرنسا ان توقع معاهدة حماية مع السلطان.

إلا انه فيما كان الفريقان يحتفلان بالمعاهدة اندلعت في مدينة فاس حركة تمرد واسعة وارتد الجنود المغاربة الذين كانوا يعرفون «بالطابور» ضد مدربيهم الفرنسيين فقطعوا رؤوسهم ثم راحوا ينهبون المدينة مخزناً مخزناً. واشتد الأمر على السلطان عندما لجأ نحو ١٠ آلاف يهودي إلى قصره. وقام رأي يقول بقصف فاس ورأي آخر بمهادنتها. وفي باريس عقد رئيس الحكومة ريمون بواريه اجتماعاً مع وزير الحربية ميللران وبقية الوزراء قطعه، كالعادة، غداء فخم. واقترح البعض عدم ارسال جنرال إلى المغرب كمقيم عام هناك وكان الرئيس فاليير من هذا الرأي، لكن فريقاً آخر تذرع بتردي الأوضاع في فاس فاستسلم فاليير للنقاش معلناً انه اختار لايوتيه للمهمة.

استقل لايوتيه الباخرة إلى الجزائر من جديد لكي يجتمع من هناك إلى المسؤولين الذين خلفوه. وكان عليه في اي حال ان يعمل بالتنسيق معهم، لأن جزءاً من مملكته، شرق المغرب، تفصله عن مدينة فاس مقاطعة «تازه» التي لم يستطع الفرنسيون اخضاعها، وبالتالي لا يمكن الوصول اليها الا من الأراضي الجزائرية.

من هناك اتجه لايوتيه إلى الدار البيضاء حيث جمعته الصدف التاريخية بجنرال آخر من جنرالات الشرق، لكنه كان لا يزال آنذاك برتبة كولونيل: غورو!

وسأله لايوتيه فوراً: ماذا تفعل هنا؟

– «لا شيء، سيدي الجنرال. لقد وصلت إلى هنا مع كتيبة استعمارية لكي نحل محل القناصة. وها أنا انتظر المزيد من الأوامر».

ورد لايوتيه فوراً: «من الآن فصاعداً سوف تكون معي، وسوف تكون مسؤولاً عن فرقة الحرس وانني اترك لك ان تضع كل الترتيبات لحملتي على فاس». ومن هناك انطلق الاثنان، على الخيل، إلى الرباط.

وعلى أبواب المدينة التقى اثنين من الفرنسيين القادمين من فاس فأعطياه لوحة عما يجري في المدينة وأبلغاه ان القبائل التي سمعت بما جرى تنزل من الجبال واحدة بعد الأخرى! في هذه الأثناء خطرت له فكرة الحصار.

وخلال يومين وصلت قافلة المقيم العام إلى مكناس. وجاء اليه بعض الضباط يعتذرون لأنهم لم يطلقوا مدافع التحية «ان المدينة هائجة ولا نستطيع ان نخسر قذيفة واحدة. والثورة العامة في البلاد قد تبدأ بين لحظة ولحظة».

على بعد ساعتين من فاس جاء اليه ضابط الاستخبارات في المدينة القومندان دو لاموشار وسأله لايوتيه:

– كيف الأمور هناك؟

– على اسوأ ما يمكن ان تكون، ولو انك تأخرت إلى غد لما كان باستطاعتك ان تدخل المدينة. كل القبائل تنزل اليها ولا شك في اننا سوف نحاصر. ان الضباط هنا يسبحون في بحر التفاؤل، لكن من جهتي فأنا اخشى الأسوأ.

وبعد ذلك بساعة رأى الموكب عاصفة من الغبار. وكان ذلك الجنرال موانييه.

وقال لايوتيه: صباح الخير يا موانييه. لقد سمعت ان الأمور ليست على ما يرام.

وأجاب موانييه متعجباً:

– ليست على ما يرام؟ من قال ذلك؟ انني طبعاً سعيد بمجيئك، لكن من الناحية العسكرية تمت تسوية كل شيء.

وسرعان ما بدت لهم قباب المدينة وأسوارها. وكان بين المستقبلين المسيو ريغينو، المقيم السابق. ولم يضع لايوتيه الكثير من الوقت بل راح يعلق اوسمته استعداداً لمقابلة السلطان، وتقدم منه احد ضباطه القدامى، الجنرال بورلار وقال له: «لقد فات الأوان يا سيدي الجنرال، فلو انك جئت إلى هنا قبل أسبوع لكانت اساليبك الذكية قد نفعت... اما الآن فقد فات الأوان».

قال بورلار ذلك ثم أجهش بالبكاء، لكن لايوتيه اعتمر القبعة الامبريالية وخرج وسط اصوات الرصاص التي تسمع من بعيد! وسأل غورو أحد المرافقين ما هي هذه الأصوات فقال هذا: «لا شيء انهم يسرقون بعض المشمش».

اقامت الجالية الفرنسية في تلك الليلة حفلة راقصة تكريماً للمقيم العام الجديد. ونحو منتصف الليل سمعت أصوات رصاص في الحديقة، فالتفت غورو إلى ذلك الرجل وقال: «هل هم لصوص المشمش من جديد؟»

لقد كان الهجوم على وشك ان يبدأ، وها هو الجيش الفرنسي المستعمر يجد نفسه محاصراً في مدينة من الأزقة الضيقة ونحو ٩٠ ألف نسمة. وكان من الغباء العسكري طبعاً ان يخوض العسكريون القتال داخل المدينة بل كان عليهم ان يخرجوا منها ثم يرتدون إلى الدفاع. لكن كيف؟ لقد كان في قلب المدينة أيضاً مستشفى عسكري مليء بالمرضى، كذلك كان لايوتيه يخشى ان يقدم أحد على فتح أبواب السجون، اما المصدر الأكبر للخوف فكان من الثكنات العسكرية المليئة بالقوات التابعة للسلطان.

فوق هذا وذاك كان هناك نحو ٤ آلاف فرنسي في مدينة من ٩٠ ألف فاسي.

لكن لايوتيه قرر الا ييأس من «اسلوبه». وتحت دوي الرصاص دعا إلى اجتماع للعلماء والشرفاء وقال أهل فاس إنهم أيضاً مع السلام، فهم التجار الذين يملكون المخازن التي تنهب، ولكن اي سلام؟ لقد فات الأوان.

واخذت الثورة تشتعل. وكان باستطاعة المقيم العام ان يشاهد من على شرفته كيف تتم محاصرة الكتائب الفرنسية الواحدة بعد الأخرى لترغم بعدها على الانسحاب. وقرر لايوتيه ان المستشفى هو نقطة الدفاع الأخيرة فأمر بالدفاع عنها وباحراق مقر المقيم العام لدى اخلائه. ودخل لايوتيه يتناول طعام العشاء مع ضباطه. لقد عرف ان كل شيء قد انتهى. وتطلع إلى أحد ضباطه الذي يقرأ الشعر وقال:

– اقرأ علينا يا دروان شيئاً من شعرك وشيئاً من شعر «فينيي»! وفيما راح دروان يقرأ الشعر دخل عليهم المقيم السابق: ريغينو طاب مساؤكم ايها السادة!

لكن لايوتيه عرف انه جاء للاختلاء به فقام عن الطاولة. وعندما اغلقا باب الغرفة المجاورة قال ريغينو: إن الحالة خطيرة جداً، اليس كذلك؟ ثم عاد هذا الديبلوماسي إلى الابتسام كأن شيئاً لم يكن، اما لايوتيه الذي كان قد مضى عليه يومان دون نوم فاستأذن لكي يدخل إلى فراشه ولو من أجل ساعة واحدة.

لكنه عندما استيقظ وجد ان الشمس قد طلعت. واكتشف ان التعب جعله ينام عشر ساعات متواصلة، غير انه ذهل عندما سمع الهدوء يلف المدينة. واستدعى ضباطه على

الفور فشرحوا له ان «معجزة» قد حصلت. ذلك ان انسحاب الفرنسيين من المدينة مكّن المدفعية من قصف المقاتلين. واستطاع كولونيل يعرف المدينة جيداً ويدعى مازيليه ان يتسلل إلى شمال المدينة ويقصف المقاتلين من هناك. لكن هذه لم تكن طبعاً نهاية كل شيء. وعندما امكن التجول في المدينة في الصباح تبين ان ضابطاً وأربعين من رجاله قتلوا في موقع واحد.

في أي حال، كان لا بد من جبهتين بالنسبة إلى لايوتيه: الأولى سياسية، والثانية عسكرية. وقد أوكل الجانب السياسي إلى غورو، فعمد هذا إلى الدوران مع بعض الرجال حول المدينة والهى بذلك المقاتلين الامر الذي سمح للحامية بتلقي بعض المؤن والبريد. وقد كتب لايوتيه إلى صديقه الكابتن دو مون يشرح له ما حدث فقال إن السبب الرئيسي كان استعباد عدد كبير من العمال وتسخير عدد آخر، ولاحظ ان الطبقة الوسطى في فاس كانت متضررة هي أيضاً، ثم يضيف «لكن السلطات العسكرية لم تر شيئاً من هذا، فقد عاملت الجميع سواسية. وهناك عائلات معروفة شعرت بأنها مهملة ومهانة فأخذت تهاجر إلى طنجة بعيداً عن دوافع الألم هنا».

في تلك الرسالة أيضاً نرى سطراً غير مألوف اطلاقاً حين يعدد لايوتيه المساعدات التي تلقاها من ضباطه ومن بعض الفئات... «وأيضاً من القنصلية الفرنسية التي قدمت اليّ مساعدات واخلاصاً جماً. لقد جهلت السلطات العسكرية أيضاً هذا المصدر الأساسي للمعلومات! وانني اجتمع كل يوم إلى وجهاء المدينة واصغي إلى شكاويهم وغالباً ما اقرهم على ما يقولون. والحقيقة انني من خلال هؤلاء فقط بدأت استطيع اقامة بعض العلاقات مع القبائل، وبفضل هؤلاء توافر لغورو الآن بعض الوطنيين الذين يرافقون الطابور الذي يقوده».

غير ان فاس ليست المغرب كله، يقر لايوتيه. ويتذمر من ان الرحلة إلى الدار البيضاء تستغرق أسبوعاً كاملاً في حين ان هناك زعماء كثيرين لا بد من مقابلتهم: الجلاوي وسي عيسى بن عمر ومتوغوي وغيرهم.

ثمة مشكلة رئيسية أخرى أمام لايوتيه: السلطان مولاي حافظ! فقد كان الجنرال يعتمد على هيبة السلطان لتهدئة خواطر الثوار. لكن مولاي حافظ كان يريد الاستقالة. فقد كان رجلاً ذكياً ويعرف انه في موقع متناقض تماماً. بالحقيقة انه وصل إلى السلطة كرمز للمقاومة ضد الأوروبيين ولذا كان صعباً عليه الاقرار بأنه سلطان لمحمية. وقد شعر السلطان بالقلق من حركات التمرد في الأشهر الماضية كما انه كان يخشى ان يقتل على يد الجنرال موانييه. والآن لم يكن يريد شيئاً سوى التقاعد. خذوا السلطة واعطوني التقاعد. ولكي يقبل بتوقيع معاهدة الحماية اشترط قبل كل شيء ان يسمح له بالانتقال من فاس إلى الرباط. اما الناس فلم تر في هذا التصرف سوى رضوخ للفرنسيين واستزلام لهم. «انه اسيرهم». هكذا سرت الشائعة.

إلى ذلك، كان السلطان يعرف الوضع الدولي تماماً كما كان يعرف متاعب فرنسا الداخلية. لديه جهاز اعلامي كفؤ يترجم له كل يوم صحيفتي «لو ماتان» و «لو تون». وعشية مغادرته قال له لايوتيه: «سوف نطلعك على التطورات برقياً»، فرد السلطان عن طريق مترجمه: «ان جلالته يبلغك امتنانه لكنه يفضل ان يتلقى الأنباء من طريق وكالة هافاس».

في باريس كانت الكي دورسيه ترتعد من تخلي السلطان عن العرش... ليس من اجله طبعاً بل لأن عدداً من الدول الأوروبية لم يكن قد اعترف بالمحمية بعد، غير ان لايوتيه كان قد هلك من محاولات الاقناع وكان يعرف ان قرار السلطان نهائي! اذن، المشكلة التالية هي موضوع الخلافة، فقد كان السلطان يريد الخلافة لأحد من ابنائه لكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب صغر سنهم، وبالتالي الخوف من ان يسيطر «الوزير الأول» على الحاكم الصغير. وهكذا التفت إلى شقيقه، عبد العزيز الذي كان آنذاك في طنجة ومولاي يوسف الذي كان في السابق حاكماً على فاس. ومع ان مولاي يوسف كان محترماً من الجميع فان المأخذ عليه كان «ضعفه» في مواجهة القبائل، غير ان الاختيار وقع عليه.

لحظة اتخاذ القرار اراد الفرنسيون ان يغادر السلطان البلاد على الفور، لكن الرجل الصلب اراد شيئاً آخر: ان يبقى في البلاد ثم ان يؤدي فريضة الحج إلى مكة المكرمة ويعود بعدها إلى الرباط! وفي محاولة لاقناعه اقام له لايوتيه في العاشر من آب/ أغسطس مأدبة عشاء حافلة جداً. وتلك الليلة قال السلطان للجنرال ان فرنسا اخطأت حين طلبت توقيع معاهدة محمية مع المغرب فالانكليز في مصر لم يتفوهوا بمثل هذه الكلمة مع انهم يمارسون «الحماية»، وكتب لايوتيه فيما بعد يقول ان الرجل كان في منتهى الذكاء والحنكة.

في اليوم التالي تعمد السلطان ان يدمر اعصاب الفرنسيين وأعصاب وزرائه المستعجلين على ذهابه. وبين القصر والميناء تردد غير مرة ثم اقدم. وفي نهاية الأمر عندما صعد إلى سلم البارجة «دو شايلا» اعطى رسالة التخلي إلى وزيره الأول... فكاد لايوتيه ينهار من الانفراج!

وتسلم الوزير الأول مولاي حافظ المقري الرسالة وقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم وله وحده المجد. فلتحل بركة الله على الرسول وسلالته، إلى خادمنا الحبيب ومستشارنا الأفضل الوزير الأول الحاج محمد المقري كان الله معه...».

منها ينتقل السلطان إلى تعليل الاستقالة بالأسباب الصحية: «لقد اخترنا ان نترك العرش والصولجان لأسباب تتعلق بصحتنا الجسمانية... وانني ادعو للمسلمين ان يختار الله لهم حاكماً يكون ذا فائدة لهم».

ووجه السطان إلى لايوتيه الرسالة التالية:

«المجد له تعالى وحده.

«لا امبراطورية دائمة سوى امبراطوريته،

«اننا نتسقط دائماً اخبارك ونأمل ان تظل بصحة طيبة.

«اننا نحب ان نعلن لفخامتكم ان جلالتنا الشريفية راضية في القلب ومرتاحة في البال وان لمن دواعي سرور جلالتنا ان فخامتكم تستحقون الاطراء لما لقيناه منكم اخيراً من ود وكياسة مما يحملنا على شكركم الآن ودائماً (...) وإذا كان الشعب قد اختار شقيقنا مولاي يوسف لأن يتسلم دفة القيادة فلا مانع لدينا.

«اننا نأمل ان يختار الله تعالى رجلاً يجمع في قلبه الخير للمنتخبين ولعامة الناس معاً!».

مرحلة جديدة تبدأ في صيف العام ١٩١٢: جديدة في تاريخ المغرب وفي حياة لايوتيه أيضاً.

فالسلطان الجديد، مولاي يوسف، لم يكن معروفاً كثيراً في انحاء البلاد وبالتالي كان محدود السلطة، فيما كانت تقوم في الجنوب ثورة أخرى ضد الفرنسيين، لقد كانت مأساة لايوتيه في الرباط «مثل قبطان يعطى قيادة سفينة غارقة».

في اي حال لم يكن حول ذلك القبطان سوى قلة من الرجال. لم يكن هناك مدير لشؤون المال. لم يكن هناك مدير للأشغال العامة، وكان مقر المقيم العام، الذي هو القنصلية الألمانية السابقة، رمزاً لحالة المسكنة الفرنسية آنذاك. وعندما اقام ذات مساء حفلة لتكريم الرئيس الجديد لمحكمة التمييز هبت عاصفة اقتلعت الخيمة الإضافية التي اقامها وأرغمت الناس على العودة إلى بيوتهم فوق البغال.

لكن لايوتيه، بديبلوماسيته لا بعسكريته، سوف يغير الكثير خلال عامين. وعندما اعلنت الحرب في العام ١٩١٤ كان مطمئناً لدرجة انه استطاع ان يرسل معظم قواته إلى القتال من دون ان يخشى خسارة المغرب.

غير ان هذا «الانتصار» لم يكن على المغربيين وحدهم بل على الغريم الآخر، باريس، فقد كانت الكي دورسيه العدو الأول لكل مقيم عام. وكان لايوتيه بالذات يحلم منذ طفولته بأن يكون حاكماً مطلقاً في اي مكان. وها هو الآن في الرباط، يخاطب الرباط «من فوق»، من خلال السلطان. وهكذا ظلت الأمور بالنسبة اليه من العام ١٩١٣ إلى العام ١٩٢٥، رجلاً يخلط بين الديكتاتورية والديبلوماسية، بين الانجاز والتعسف، بين الاستعمار والبناء.

لكن لعل أكثر صفاته اهمية كانت طاقته على العمل. طاقة طاغية قتلت كل شيء فيه حتى الحاجة إلى النوم. ويتحدث أحد ضباطه في مذكراته عن يوم رهيب في المغرب ترأس لايوتيه خلاله مجلس الحرب ثم مجالس الوجهاء وقطع مئات الكيلومترات يجتمع إلى القبائل. ثم عاد يملي البرقيات إلى باريس حتى الثانية صباحاً، وأخيراً، في نهاية ذلك الليل، القصير، نادى لايوتيه الضابط المسكين فهرع هذا اليه مسرعاً: ما الخطب يا سيدي الجنرال؟

الخطب؟ اجاب لايوتيه: الا ترى انني مصاب بالضجر؟!

هذا الرجل يحفظ له الفرنسيون أيضاً انه بعد ثلاثة عشر عاماً من الحكم المطلق في بلد بعيد، عاد إلى بلاده وهو أكثر فقراً مما كان يوم غادرها. وثمة قيم كثيرة حاول ان يمارسها. وغالباً ما كان يتفقد الرباط أو فاس في الليل وهو على جواد، لا يرافقه سوى مترجم، يسأل الناس والتجار عن احوالهم. وكان يحاول دائماً – كما تقول الرواية الفرنسية على الأقل – الا يغذي الانطباع بأنه في بلد مستعمر فكان يظهر كل احترام للدين الاسلامي وللمؤسسات والقادة والباشاوات. وقد حفظ جيداً ما قاله له القنصل غايار: «عندما اخاطب فلاحاً مغربياً فانني اخاطبه مثل فلاح فرنسي وعندما اخاطب بورجوازياً مغربياً فانني اخاطبه مثل بورجوازي فرنسي».

وبقدر ما كان يطمح إلى فرض الثقافة الفرنسية على المملكة حاول أيضاً ان يحترم كل تقليد وتراث، وخصوصاً في الهندسة المعمارية. وكان شعاره الدائم «ان العنصرين الأساسيين في كل مستعمرة هما: حرية التجارة وغياب الشرطة».

ويروي غليوم دو تاردي كيف كشف لايوتيه مرة عن عواطفه تجاه باريس «كان يقوم في أحد الأيام بزيارة مركز فرنسي صغير. وقد اعجب كثيراً بذكاء الدليل الشاب الذي كان يرافقه. ونظر لايوتيه إلى مساعده وقال: إنه لشاب ممتاز. يجب ان نعينه مراقباً مالياً! فرد المساعد: مستحيل سيدي الجنرال، انه يافع جداً ولا خبرة له، وانت تعرف القوانين! وانفجر الجنرال قائلاً: اذن، يجب ان تترك هذه الطاقة المتحركة تدفن في مركز صغير. يا للسخف. كأنما لدينا رجال كثيرون. ومن اين تأتي هذه القوانين؟ من باريس طبعاً! لكن ما قد يصح بالنسبة إلى باريس والوزراء النائمين نحتقره نحن هنا حيث يجب ان نبتدع كل شيء. اني لا أعرف كيف تؤمن ذلك لكن هذا الشاب يجب ان يعين مراقباً على الفور».

كان لايوتيه يتقدم وكذلك كانت الحرب. وعندما ساءت الأمور بالنسبة إلى باريس اخذت هذه تبحث عن وزير جديد للحربية، وصدر مقال في صحيفة «الصامد» يقول إن اثنين من الفرنسيين على الأقل قد اثبتا مهارة في التنظيم: ادوار هريو كرئيس لبلدية ليون ولايوتيه في المغرب. وكان هذا رأي الحكومة أيضاً التي ابرقت إلى لايوتيه في هذا الوقت تستدعيه.

غير ان الأمور في المغرب كانت أيضاً تتخذ منحى جديداً. فقد استغل الألمان حركة التمرد في الجنوب وانزلوا بعض الغواصات على الأطلسي. وعندما تلقى هو برقية الكي دورسيه كان قد ارسل بدوره برقية تقول: «إن الوضع في المغرب خطر». وتحدث عن احتمالين، الأول ان يقصف الألمان الدار البيضاء والرباط «في اي وقت الآن وقد يترك ذلك اثاراً سيئة في الوضع الداخلي». والاحتمال الثاني ان يعمد الألمان إلى انزال قواتهم في مقاطعة قائد الحركة (الهبا) والتحريض على حملة ضد الفرنسيين تبدأ في الجنوب.

في ضوء ذلك، بماذا يرد لايوتيه على البرقية الآتية من الحكومة؟ لا شك في ان العرض مغر. وقد كان يطمح منذ زمن ان يلعب دوراً مهماً في تاريخ فرنسا. لكن هل هذا الوقت المناسب لعودته؟ هل يستطيع ان يفرض ارادته على الأئتلاف الحاكم او ان يحقق الانتصار المنشود وقد انهارت جبهة الشرق بسقوط رومانيا واليونان؟ وهكذا، ابرق إلى حكومته يبلغها انه في تصرفها لكن يجب ان تدرس قرارها في ضوء الوضع في المغرب. وردت الخارجية ببرقية صباح اليوم التالي: ماذا لو تم تعيين غورو خلفاً لك هناك؟

غورو؟ انه الرجل المناسب تماماً، لكن يجب ان انتظر وصوله إلى هنا لكي لا يحدث خلل في القيادة!

في هذا الوقت كان غورو يقود الجيش الرابع في «شامبانيا». وقد اعتذر طويلاً عن قبول المنصب الجديد. وفي ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٦ تلقى لايوتيه بلاغاً رسمياً بتشكيل الحكومة الجديدة.

رئيس الحكومة وزير الخارجية: بريان.

العدل والتوجيه العام: فيفياني.

المال: ريبو.

الداخيلة: مالفي.

الحربية: لايوتيه.

البحرية: الاميرال لاكاز.

الاقتصاد الوطني، التجارة، الصناعة، الزراعة: كليمنتل.

النقل والمؤن العسكرية والمدنية: هريو.

المستعمرات: دوميرغ.

الذخيرة والصناعة الحربية: البير توماس.

تظهر هذه اللائحة كيف كانت تشكل الحكومات زمن الحرب. لكن لايوتيه غضب من امرين، الأول انه لاحظ ان وزارة الحرب قد فككت والثاني ان قرار تعيين غورو لم يلحظ انه «مقيم عام مؤقت» فقط. وكتب إلى بريان يعترض على الأمرين فرد هذا يعتذر عن الاضطرار بالنسبة إلى الأمر الأول، اما غورو فهو مقيم موقت لا أكثر.

كانت وزارة الحربية سلسلة من المرارات بالنسبة إلى لايوتيه. فالحلفاء كانوا يطعنون بعضهم بعضاً، والتنسيق بينهم كان غائباً. وعندما ذهب مع بريان لحضور مؤتمر روما الشهير في العام ١٩١٧ تبين له أكثر فأكثر مدى التفكك وخصوصاً مدى اليأس من وزارته. فقد اصرّ منذ بداية الحرب على قيادة واحدة لجميع الجيوش الحليفة، لكن ها هو بعد ثلاث سنوات يرى تلك القيادة في ايدي مجموعة من المدنيين والعسكريين الذين لا يجمع شيء بينهم. وقد اختلف بصورة خاصة مع رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج حول الصلاحيات الواجب اعطاؤها إلى الجنرال ساراي، قائد حملة سالونيكا آنذاك (المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان فيما بعد) وكانت علاقة لايوتيه بساراي سيئة جداً قبل الحرب لكنه كوزير للحربية اعطاه كل الدعم الذي يريد. وعندما استدعى المؤتمر الجنرال ساراي إلى روما اتجه لايوتيه نحوه مباشرة، وأمسك به من ذراعه قائلاً: «تستطيع الاعتماد عليّ. قل لي ما تحتاج وسوف ابذل جهدي». وقد كتب ساراي عن خصمه السابق قائلاً: «لقد كان الجنرال لايوتيه قائداً وحتى رفيقاً بالنسبة الي». اما بالنسبة إلى المؤتمر نفسه فقال «يقول البلاغ الرسمي ان ثمة اتفاقاً تاماً بين الحلفاء. ليس هناك من اتفاق. ولا قرارات هناك. لا شيء سوى الكلام والمزيد منه».

بعد فترة وجيزة استقال لايوتيه وسط جلسة برلمانية عاصفة وعاد الى منزله في شارع بونابرت. وكانت تلك أيضاً رصاصة الرحمة بالنسبة إلى حكومة بريان الهزيلة فقد انهارت بعد الاستقالة بيومين.

واستدعاه رئيس الحكومة الجديد، المسيو بيو لكي يسأله عن مشاريعه للمستقبل، فقال لايوتيه: لا شيء. انني انوي الذهاب إلى فيشي لبعض العلاج (من الكبد) وبعدها اعود إلى الجبهة!

وسأله بيو: وماذا عن المغرب؟ الا تنوي استئناف مهمتك هناك؟

عاد لايوتيه إلى المغرب، الذي سيدخله التاريخ الفرنسي. وقد بقي هناك حتى العام ١٩٢٥، ويوم عاد إلى فرنسا، لم يجد احداً في استقباله. انها عادة فرنسا مع جنرالاتها.

من يربح الجو يربح الأرض أيضاً

كان هناك ايضا جنرالات في الجو!

فالارض لم تكن وحدها تشتعل في الحربين، بل كان قد اطل في السماء في الحرب العالمية الاولى جسم غريب اسمه الطائرة، وها هو الان، في الحرب العالمية الثانية يتحول الى اسراب من الطائرات تملأ الاجواء ازيزا وتقرر، الساحة بعيداً، من هو المنتصر على الارض وكيف.

وكانت ارض المعركة تبدو مختلفة من فوق عما يراها الناس من تحت، تماما مثل روما القديمة. فالدبابة لم تكن ترى اكثر من مسافة مئة متر والجنود المشاة لم يكونوا يرون اكثر من انوفهم وخنادقهم ورؤوس بنادقهم. اما تلك الطائرات الحديثة العهد ، الكثيرة الضجيج فقد كان في امكانها ان ترى امامها مدّاً منبسطاً على مدى الفي ميل.

ذلك كان حوض المتوسط، من اقصاه الى اقصاه، او من بدايته الى نهايته. وفي حزيران/يونيو من العام ١٩٤٠ كان كل هذا الحوض يستحم تحت شمس دافئة وفي مياه عميقة كثيفة الزرقة: من الجزائر الى لبنان، وثمة منطقة واحدة كان يربط بينها رذاذ المتوسط او موج الاطلسي - او العكس - حيث تتداخل مياه المحيطين في مضائق تصغر او تكبر وتنتهي في حوض واحد في مساحة تمتد من المغرب العربي الى سواحل فرنسا واسبانيا ومن ثم الى الساحل الايطالي الطويل، واذ يضيق هذا الممر المائي ثانية فانه يمّر عند رأس البر التونسي ثم يمتد الى صقلية حيث تنفتح هذا القنال المثلثة على المتوسط الارحب: الى الجنوب، تضرب الامواج برتابة عجيبة سواحل افريقيا السفلى، والى الشمال تتكئ ايطاليا على جبال البانيا عبر مضائق اورتانتو. واذا نظرت شرقا رأيت خورا من المياه يربط بين رأس البر اليوناني والجزء الليبي من افريقيا عند منبسطات بنغازي. وعلى النصف الشمالي من المتوسط تقع سواحل يونانية اخرى وسواحل تركية امتدادا حتى الجزر الايجيه فبوابة الدردنيل المحروسة مثل قصر، وتمضي جنوبا فترى المتوسط يتسع ويستطيل عند بلاد المشرق

حيث ترتفع سطوح القرميد الحمراء في بيروت وتبدو من البعيد بساتين البرتقال في صيدا وصور. وعند الزاوية القصية منه تلتقي افريقيا وآسيا في مجاهل سيناء حيث تربض على مقربة منها مدينة بورسعيد حارسة تلك القناة التي تربط الشرق بالغرب، وعلى مسافة قليلة من هناك كانت الاسكندرية، تلك المدينة التي تشبه في مطلها على البحر الازرق، شيئا من الريو دو جانيرو.

هذه كانت صورة الارض، صورة هذه البقعة الجميلة من الارض كما تبدو من الجو، لكن من بين زرقة المياه وسطوح القرميد الاحمر كانت تبدو ايضا اعلام فرنسا واعلام بريطانيا فيما كانت الحرب تزحف ببطء على الساحل الايطالي! لم تكن الحرب قد وصلت بعد الى حوض المتوسط، بل كانت لاتزال على بعد ٤٠٠ ميل حيث الفرق الفرنسية المتعثرة تقف في مواجهة الالمان من الحدود الشرقية بين البلدين حتى القنال الانكليزي. وكان الزحف الألماني الهادر قد اطاح بالنروج وتخطى هولندا. واخذ الفرنسيون يتراجعون بينما كان الانكليز يحاولون التقاط انفاسهم بعد هزيمة دانكرك. لكن قلب البريطانيين كان ايضا على الامبراطورية وليس فقط على بريطانيا، وكانت عيونهم على المتوسط وقناة السويس ومصر، تلك البوابة المهمة الى مصر، بل اكثر من ذلك، البوابة المهمة الى النفط في العراق وايران.

لكن لكي تقطع بريطانيا الطريق على الزاحفين نحو الامبراطورية كانت بحاجة ماسة الى ... ايطاليا! غير ان ايطاليا، بدهائها التاريخي المعروف، كانت قد حزرت ثلاث مرات في السنوات التسعين الماضية من سيكون المنتصر في الحرب.. ووقفت الى جانبه، وفي حزيران/يونيو ١٩٤٠ لم يكن صعبا على ايطاليا ان تحزر من هو الرابح، فالفرنسيون كانوا يقفون على شفير الهزيمة، وهذا الامر سوف يسهل على الايطاليين الوصول الى نيس والسافوي وكورسيكا. غير ان احلام ايطاليا كانت اكبر من ذلك بكثير: لقد كانت تريد امبراطورية!

فالحبشة لم تكن كافية بالنسبة اليها. ومصر كانت اقليما رائعا يمكن ان يسد الفراغ بين صحراء ليبيا والمرتفعات الايطالية في شرق افريقيا. لقد كانت المكاسب واضحة بالنسبة الى روما اما الخسائر فلا اهمية لها.

ومع اقتراب نهاية حزيران/يونيو كان الدوتشي موسوليني قد اتخذ قراره وها هو ظل ايطاليا الطويل يخيم الان على كل المتوسط.

في الجانب الاخر، عند البوابة الغربية للمتوسط، كان البريطانيون يحكمون قبضتهم على جبل طارق. وكان الجنود الانكليز يختبئون وراء مدافعهم او يزرعون شوارع تلك الصخرة المعلقة في البحر. من على هذه الصخرة كان الانكليز يراقبون كل شيء ويصل مدى

انظارهم عبر الاندلس المتعبة بالحرب الاهلية، لكن في البعيد كانوا مطمئنين الى وجود العلم الفرنسي المثلث على ساحل الجزائر.

من الجو يبدو لك ان المتوسط آخذ في الاتساع. وعلى بعد ٢٠٠ ميل خلف جبل طارق يتصل سطح المياه الاسبانية من جديد بالحوض الغربي للمتوسط، وكانت كل هذه الفسحات المائية الواقعة بين ايطاليا واسبانيا، في ايدي الحلفاء. اذ من الجهة الشمالية كانت تمتد فرنسا على ساحل المتوسط الشمالي، من جبال البيرينه الى جبال الالب ثم تواجه الجزائر عبر ٤٠٠ ميل من المياه. وكانت السفن المبحرة جنوبا تتجه بامان من مرسيليا الى قناطر الجزائر البيضاء محتمية بالساحل الجزائري. لكن المياه كانت تضيق حين تصل الى الكثبان الاولى في ارض تونس. والحقيقة ان سردينيا لم تكن تبعد اكثر من مئة ميل عن حافة افريقيا. وكان الساحل التونسي الآمن يواجه صقلية على مدى ٨٠ ميلا وبالتالي كان واضحا انه بامكان القادة السياسيين في ايطاليا ان يقطعوا المتوسط الى نصفين.

لا نزال، اذن، نتطلع من الجو!

وسوف نرى هنا حقيقة اخرى في هذا الحوض الكبير: انها مالطة التي تقع على بعد ٦٠ ميلا من ايطاليا وعلى بعد ٨٠٠ ميل من اقرب قاعدة بريطانية. كانت الجزيرة تبدو حقا مثل مدينة البندقية وهي تستحم مثل غيرها في دفء المتوسط، لكنها كانت ايضا في منتصف الطريق بين جبل طارق وبورسعيد بالنسبة الى البريطانيين. والذي يستطيع ان يحض مالطا ضد الهجوم يستطيع ايضا ان يعرقل تحرك القوات الايطالية من القارة الاوروبية الى طرابلس (ليبيا). لكن البريطانيين الكثيري الحذر عمدوا الى سحب قواتهم الى الاسكندرية، كما انهم تمنعوا عن استخدام مالطا حتى كقاعدة جدية، بسبب قربها من البر الايطالي. وهذا الحذر جعل مسألة الدفاع عن مالطا، بدورها ، قضية صعبة، لأنه لم يكن من الممكن ايصال المؤن اليها الا بحرا. فاذا استطاع الانكليز البقاء في مالطا امكن ايضا ابقاءها كبوابة الى الشرق لكن ما ان تخلوا عنها بسبب قربها من ايطاليا حتى اصبحت مثل محطة مهجورة على طريق مهجور.

كانت الطريق البحرية الى السويس تمر بصقلية. وكان ذلك يعني ان قوافل الحلفاء سوف تكون تحت رحمة الايطاليين ايضا. وقد كانت تلك بالتالي العلة الكبرى في قناة السويس، اي مسألة الوصول الى القناة نفسها عبر المضيق الصقلي وعلى مدى قريب من المقاتلات الايطالية الرابضة على الشواطئ! اذن، لم يتغير شيء. العامل الجغرافي لايزال هو الاهم كما قال لنا البروفسور هولاند روز في كتابه «المتوسط في الحروب القديمة ١٩٣٣» لقد كانت المواقع الايطالية تسيطر تماما على جانبي الطريق البحري المؤدي الى المتوسط. ففي هذه المرحلة كان جزء كبير من المغرب العربي في يد فرنسا لكن الساحل كله من

طرابلس الى حدود مصر كان في يد ايطاليا... وكان موسوليني يحلم باكمال الطريق حتى السويس.

فالواقع ان الساحل الجنوبي من قلب المتوسط كان ليبيا. وكان المؤرخ الاول هيرودوتوس قد حذر قبل مئات السنين «من ان ارض ليبيا لا يمكن مقارنتها باوروبا او آسيا» ولذلك يصعب على الغزاة احتلالها. وها هي ولاية طرابلس الآن في ايدي الايطاليين الذين كانوا احتلوها في العام ١٩١١. وقد رفع الحاكم الايطالي فوق مكتبه في طرابلس شعار لا حدود للامبراطورية الرومانية، لكن الحقيقة انه من الناحية الاستراتيجية كانت حدود ليبيا الاساسية بالنسبة الى الحلفاء: البحر وتونس ومصر، اما حدودها الاخرى مع الصحراء والسودان فلم تكن مهمة كثيرا لخلوها التام من المياه. وهكذا وزع المارشال الايطالي «غرازياني» ما يملك من الاسلاك الشائكة في وجه البريطانيين على الحدود مع مصر. اما مصر نفسها فكانت بالنسبة الى الانكليز كل شيء في المنطقة. بل ان اهميتها كانت واحدة بالنسبة الى الشرق والغرب معا. فهي تقع «على معابر طرقات عدة في البر والبحر» فتشكل مدخلا الى اوروبا في المتوسط، وتشكل مدخلا الى المحيط الهندي من البحر الاحمر، تماما مثل مضيق الدانوب بالنسبة الى الحرب بين فرنسا والنمسا.

بكلام آخر ، كانت السيطرة السياسية على مصر تعني السيطرة على الشرق. اذ من اجل الوصول الى الهند لا بد من ان تنتظر في مصر اولا بعض الشيء. وقد كان هذا حلم نابوليون من قبل في العام ١٧٩٨، غير ان الانكليز دمروا له الحلم عندما دمروا اسطوله في معركة النيل. ولم ينس الانكليز تلك الايام الدرامية حين اخذ نلسون يبحث عن اسطول نابوليون في عرض المتوسط، وبالتالي فان مصر سوف تظل بالنسبة اليهم نقطة حيوية جدا من الناحية الاستراتيجية.

وكان امن مصر احد الهواجس الرئيسية لرجال السياسة البريطانيين في القرن التاسع عشر. انها، اي مصر، حارس الطريق الامين الى الهند. وكان هناك في الواقع طريقان امام بريطانيا الى «جوهرة التاج» : الاول هو الطريق البحري الطويل عبر جنوب الاطلسي ثم على طول الساحل الافريقي وصولا الى المحيط الهندي بالابحار حول رأس الرجاء الصالح. اما الطريق الثاني والاقصر مسافة فكان عبر المتوسط والبحر الاحمر مرورا بقناة السويس.

لذلك كانت مصر ذات اهمية خاصة بالنسبة الى بريطانيا. ومع ان الانكليز كانوا ينفون تكرارا انهم ينوون ضم مصر غير ان احد وزراء الملكة فيكتوريا كتب ذات مرة يقول «إننا لا نريد مصر لانفسنا. لكن مصر بالنسبة الينا محطة حيوية مثل خانات المسافرين على الطريق: فيها نستريح وفيها نأكل وفيها نعيد اسراج الجياد». واذا كان اللورد بالمرستون قد رفض «ضم» مصر فإنه وجميع من خلفه كانوا واضحين في انهم لا يريدون ايضا لمصر ان

تقع في يد اي قوة اخرى. وقد اصبح شعارا غير مكتوب لدى الانكليز انه لن يسمح لأي دولة بالسيطرة على هذه «المنارة» الواقعة في منتصف الطريق، ومن هنا كان بالمرستون اول من وقف ضد المشروع الفرنسي لشق القناة بين السويس وبورسعيد لأنه اعتقد ان فرنسا ستسيطر انذاك على «طريق الاتصالات بين انكلترا والهند البريطانية». وانها ستقيم بين سورية ومصر حاجزا مائيا تدعمه بالدفاعات العسكرية، وسوف تصبح القناة فيما بعد جزءا من حياة الانكليز وخرافة من اساطيرهم، لدرجة ان احد قادة السلاح الجوي البريطاني اعلن ان «مفتاح الامبراطورية هو المتوسط... لسبب بسيط وهو انه يؤدي الى القناة».

لقد كتب هيرودوتس قديما ان مصر هي بلد التناقضات وبالتالي فان الموقت سرعان ما يصبح دائما، وهكذا كانت الحال بالنسبة الى اول فرقة «استطلاعية» ذهبت الى مصر في العام ١٨٨٢، اذ سرعان ما حول الجنود البريطانيون القاهرة والاسكندرية الى موطن لهم. ومنذ ذلك الوقت كان في صلب الاستراتيجية البريطانية ان تظل دفاعات وادي النيل في منتهى القوة. فتلك المنطقة لم تكن تغطي فقط الطريق القصير الى الهند بل تشمل ايضا الممر الطويل الى «الكاب» عبر افريقيا. وكان اول امتحان دخلت فيه بريطانيا حول القناة في الحرب العالمية الاولى عندما دافعت عن مصر ضد هجمات الاتراك، لكن الوضع سوف يكون مختلفا الان وقد كثر المهاجمون والطامعون كما يقول فيليب غوديلا في كتابه «درس في القوة الجوية».

مع قدوم الحرب العالمية الثانية لم تفقد مصر شيئا من اهميتها الاستراتيجية بل العكس. انها الآن تحرس شيئا اكثر اهمية بكثير من الطريق الى الهند: النفط! فالحرب تعتمد قبل اي شيء اخر على الحركة. وفي السنوات الاخيرة صارت كل حركة تقريبا تعتمد على النفط. لا طائرة تستطيع ان تحلق، لا مدرعة تستطيع ان تسير ولا باخرة تستطيع ان تبحر من دون نفط. والافتقار الى النفط يمكن ان يشل تماما السلاح الجوي لأي بلد وان يشل الجيش ويعيق تحرك اي اسطول. وبما انه لا يمكن الانتصار في الحروب بواسطة الدبابات المعطلة او الطائرات المشلولة فقد اصبح الوصول الى النفط الان مشكلة عسكرية من الدرجة الاولى. وهذه المشكلة كانت تواجه بريطانيا بالذات. ذلك ان خمسة اسداس ما يستهلكه العالم من النفط كان ينتج خلف الاطلسي، ونصف هذه الكمية كانت تأتي من روسيا ورومانيا اللتين يصعب الوصول اليهما. وبالتالي كان لا بد لبريطانيا من ان تحصل على النفط من العراق وايران.

بكلام اخر كانت المنطقة الممتدة من الموصل الى الخليج العربي شيئا بالغ الحيوية بالنسبة الى دولة تعتمد على السلاح الجوي تماما كما كانت السويس مهمة بحرياً. وكما كانت البحرية البريطانية متمحورة ذات مرحلة حول مالطا ها هو السلاح الجوي البريطاني يتركز

في مصر ويقيم منشآت جوية في العراق. غير ان الدفاع عن العراق ضد عدو اوروبي لم يكن يبدأ في آسيا لأنه لا يمكن لأي مهاجم الوصول الى هناك مرة واحدة. اذ كان للدفاع عن العراق (بالنسبة الى بريطانيا) لا بد من صمود عسكري في سورية وفلسطين. ومن اجل النجاح في بلدان المشرق لا بد من النجاح اولا في مصر. ولم تكن بغداد تبعد عن القاهرة اكثر من ٨٠٠ ميل.

كانت بريطانيا تحكم القبضة العسكرية جيدا على مصر، وكانت تأمن جانب الصحراء في سيناء لأنها تسيطر على فلسطين، لكن الى الغرب، وعلى بعد ٣٠٠ ميل من الاسكندرية كانت الحدود المصرية تحاذي ليبيا، اي الاحتلال الايطالي.

لقد كانت «الصحراء الغربية» اكثر الاراضي صعوبة واستحالة، لكن من اجل الدفاع عن مصر لا بد للمعركة من ان تجري هناك اذا ما شن الايطاليون هجومهم من ليبيا. وكان ثمة خوف ايضا من ان يصل الايطاليون الى كينيا بسبب تعزيزاتهم وحشودهم في الحبشة واريتريا.

بكلام اخر كان لا بد للانكليز من المحافظة على وادي النيل بأي ثمن على الرغم من المشاكل الكبيرة التي تعترض ذلك. ولم يكن الخوف من الناحية البحرية كبيرا لأن الاسطول الايطالي لم يكن مشهورا بتفوقه الشديد. غير ان السلاح الجوي الايطالي بعكس ذلك، كان وافر العدد وكثير الفعالية. ولقد وضعت الجغرافيا السياسية الايطاليين على جانبي النيل. اذ كان بامكانهم الزحف برا من ليبيا على مصر او من اريتريا على السودان. وبالتالي كان الانكليز في وضع لا يحسدون عليه لأن وصول المؤن والتعزيزات اليهم سيكون شبه مستحيل. اذ مع توقف عملية الابحار الحليف تقريبا في المتوسط لم يبق امام البوارج البريطانية من ممر بحري سوى الطريق الطويلة حول رأس الرجاء الصالح، وحتى عن تلك الطريق كان هناك خطر شديد اذا ما استغل الايطاليون الفرصة تماما وعمدوا الى اغلاق البحر الاحمر، وكان بامكان السفن الحليفة عبور باب المندب لكن المضيق لم يكن يزيد عرضه على ٢٠ ميلا. ومع ان هذا المضيق كان بحراسة القوات الفرنسية المتمركزة في جيبوتي والقوات البريطانية في عدن إلا أن الطائرات الايطالية كانت على بعد بضعة اميال فقط في اريتريا.

اذن، كان الخطر على مصر واضحا امام اي خريطة مرسومة من الجو: فالطائرات الايطالية تستطيع، اذا استخدمت بفعالية، ان تغلق قناة صقلية والبحر الاحمر امام الملاحة البريطانية. واذا حدث ذلك لن يعود بالامكان نقل المؤن والتعزيزات الى مصر، وبالتالي فان سقوطها سيصبح حتميا. بل إن السلاح الجوي الايطالي، اذا اراد، او اذا استطاع، كان يمكنه ان يسوي المسألة العسكرية كلها بعزل وادي النيل. ولكي يتجنب البريطانيون مثل

هذه الهزيمة، لا بد لهم من تعزيزات جوية عاجلة. لكن كيف يمكن لهذه التعزيزات ان تصل؟

ما دامت فرنسا قادرة على البقاء في الحرب كان يمكن نقل تلك الطائرات عبر الاجواء الفرنسية وحتى مالطا، لكن عندما تصل هذه الطائرات الى مالطا او حافة تونس سيظل فاصلا بينها وبين مصر نصف المتوسط على الاقل والعرض الليبي! وكانت بريطانيا قد شعرت في الواقع قبل سنوات بمشكلة التعزيزات الجوية الى مصر حين اخذت علاقتها مع ايطاليا تتدهور. وخطرت للانكليز غير مرة فكرة نقل هذه الطائرات في اجواء افريقيا لكن شواطئ ساحل الذهب (غانا الآن) كانت تبعد ٢٠٠ ميل عن وادي النيل.

... لكن كان لا بد من المحافظة على مصر! فالزاوية الجنوبية - الشرقية كانت شديدة الاهمية بالنسبة الى الحلفاء. وكانت القوات الفرنسية يومها تجمّع في سورية ولبنان، والسفن الحربية البريطانية ترسو في حيفا في ظل جبل الكرمل، وكان الاسطول الحليف في الاسكندرية يؤمن سلامة المشرق. كان كل شيء مهيأ ولم يبق سوى ان تبدأ لعبة الحرب. وكان بعض اللاعبين، مثل تركيا، قد خرجوا من الحرب، اما اليونان وجزرها وصولا حتى كريت فكانت محيّدة، ومن السماء في العام ١٩٤٠ بدأ كل شيء على الارض قلقا: زرقة المتوسط، كثبان الرمل البنية اللون، والرجال الذين جلسوا ينتظرون بصمت قرب مدافعهم.

***

هكذا كان يبدو هذا «البساط» الحربي الذي سوف تدور حوله اضخم المعارك في الحرب العالمية الثانية، وكما كان هناك جنرالات على الارض هكذا ايضا كان هناك ضباط وجنود في «السماء» لكن المعارك الجوية في ذلك العصر لم تكن تنطبق عليها شروط الميدان. ففي الجو - ايام تلك الطائرات - لم تكن هناك خطط ومخططات بل كان العنصر الاول هو شجاعة الطيار ومقدرته، كل ما عليك هو ان ترمي شابا شجاعا الى الجو وتتركه لحظه ومقدرته. انها، اي المعارك الجوية «دورة الفروسية القاتلة» كما قال رايلي وهو يصف المعركة في سماء لندن. وعن هؤلاء الطيارين ايضا قيل «لم يحدث في تاريخ النزاع البشري ان شعر مثل هذا العدد الكبير من الناس انه مدين لمثل هذا العدد القليل».

استقبل العلم العسكري هذا القادم الجديد في بادئ الامر بشيء من رباطة الجأش لأنه ظهر اولا في صورة منطاد، لكن ايضا منذ العام ١٦٧٠ تكهن احد الايطاليين بالكثير من الحماس بأنه ذات يوم سوف تنفجر حرب بين السفن الطائرة تكون قادرة على تدمير المدن وخطوط الملاحة. وفي العام ١٧٨٣ حلق في سماء فرساي منطاد يحمل نعجة ودجاجة وبطة، فقيل يومها ان هذا الاختراع الجديد لن يفيد العسكريين في اكثر من عمليات الاستطلاع. وبالفعل استخدمت المناطيد لهذا الغرض على نطاق ضيق في الجمهورية الاولى

كما عرض على نابوليون مشروع يقضي بغزو انكلترا في مجموعة مناطيد يحمل كل منها الف رجل و٢٥ حصانا ومدفعين! لكن نابوليون هز كتفيه ضاحكا.

الا ان فكرة المهاجمة من الجو ظلت تحاصر الجميع، بل إن البندقية هوجمت من الجو عندما اسقطت عليها المناطيد النمساوية كميات مختلفة من القنابل. واستخدمت المناطيد ايضا في الحرب الاهلية الاميركية وفي الحرب الالمانية - الفرنسية وفي حروب الباراغواي. وفي العام ١٨٩٠ عمد البريطانيون الى تشكيل فرقة خاصة للمناطيد بعدما نجحوا في استخدامها في السودان وبتسوانا لاند.

غير ان استخدام الاجواء ظل محصورا الى حد بعيد بعمليات الاستطلاع. ويقول و. رايلي في كتابه «الحرب في الاجواء - ١٩٢٢» انه عندما حلقت اول «طائرة» في بريطانيا بسرعة ٤٠ ميلا علق احدهم قائلا «كيف يمكن لنا ان نستطلع الاشياء وهذه الالة الشيطانية تحلق بمثل هذه السرعة العجيبة». لكن في العام ١٩١١ كانت «فرقة جوية» تلحق بالقوات البريطانية للقيام بالمهمات الاستطلاعية، ويبدو ان فرنسا طبقت القاعدة نفسها كما يفهم من كتاب «تحولات الحرب - ١٩١١» للكاتب الفرنسي كولان. والحقيقة ان مؤتمر السلام الشهير في لاهاي اصدر بيانا يمنع فيه «اسقاط المتفجرات من المناطيد او غيرها من الوسائل المشابهة». الا ان الايطاليين كانوا في العام ١٩١١ اول من استخدم الطائرات للاستطلاع والقصف معا وذلك ضد الاتراك في طرابلس، ومن دون ان يكون باستطاعة هؤلاء الرد عليهم.

وهكذا بدأت التجارب في هذا الحقل تأخذ ابعادا اخرى. وكان الرواد يتساقطون باعداد كبيرة الامر الذي حمل رايلي على القول «إن اولئك الرجال الذين استطلعوا الجو وسيطروا عليه في القرن العشرين هم ورثة اولئك الذين اكتشفوا اميركا وسيطروا عليها في القرن السادس عشر». ولن تمضي سنوات طويلة قبل ان يصبح الجو سلاحا اخر، ليس بأهمية الجيوش فحسب، بل اكثر اهمية منها ايضا.

***

منتصف العاشر من حزيران/يونيو ١٩٤٠ دخلت ايطاليا الحرب ضد الحلفاء. ولم يكن الحدث مفاجئا. فالكلام الصادر عن روما منذ فترة لا يخفي عواطفها تجاه دول المحور، وكان الحلفاء يستعدون لمواجهة مثل هذا التطور، وقد عقد البريطانيون والفرنسيون اجتماعات عدة حول الموضوع في فلسطين وسورية، وذهب ضباط بريطانيون الى القيادة الفرنسية في تونس والجزائر وحتى الى الدار البيضاء من اجل التنسيق بين الفريقين. وبما انه كان هناك خوف من ان تهدد ايطاليا الطرق الجوية عبر افريقيا فقد عقد الحلفاء دراسات على الطبيعة في التشاد ايضا. واتجه التفكير بادئ الامر الى ان تقوم القوات الحليفة في

المشرق بعمل عسكري ما بقيادة الجنرال ويغان في بيروت وراح الفرنسيون يحلمون بالوصول الى المناطق التي توقفوا عندها في الحرب العالمية الاولى، غير ان الحقائق كانت قد تغيرت كثيرا الآن، ولذا اكتفي بالمنطقي من الاحلام، اي ان يسعى الاسطول الفرنسي الى تدمير الجزء الاكبر من الاسطول الايطالي وبالتالي يحافظون على الوضع في المتوسط غرب صقلية، في حين يسيطر الاسطول البريطاني في الاسكندرية على الطرق البحرية الشرقية. وكانت لدى الحلفاء آنذاك اسباب تدعوهم للافتراض بأنه في مواجهة التحدي الايطالي، تستطيع القوة البحرية الحليفة ان تبقي على الخط البحري مفتوحا من والى قناة السويس. وكذلك يمكن ايصال التعزيزات الى مالطا، جوا او بحرا، من المستعمرات الفرنسية القريبة، في حين يؤمن الفرنسيون حراسة بوابات البحر الاحمر من جيبوتي. اما برا فكان لا يزال منطقيا ان يقوم الفرنسيون بهجوم على ليبيا من الغرب، مع ان قوات فرنسية كثيرة كانت قد سحبت الى فرنسا. وكانت طرابلس تقع في مرمى المدافع الفرنسية الرابضة في مطارات تونس، بل إن ثلثي الاراضي الايطاليةكان يمكن قصفها من «افريقيا الشمالية»، كذلك بقي عدد كبير من الطائرات الايطالية في ايطاليا للمساعدة في حماية القواعد والموانئ والمدن هناك. غير ان غزو القوات الفرنسية لولاية طرابلس كان شديد الاحتمال لدرجة انه كان هاجس الايطاليين اكثر مما كان هاجس الحلفاء، ولذا تجمعت قوات غرازياني في الغرب لمواجهة مثل هذا الزحف. وكانت القوات الايطالية في وضع لا تحسد عليه لأنها كانت مهددة ايضا بغزو بريطاني من الشرق، من مصر، وبالتالي لم يكن سهلا على الايطاليين الصمود على جبهتين صحراويتين يفصل بينهما ٢٠٠٠ ميل، مع ان سلاحهم الجوي كان اقوى من سلاح اعدائهم.

هذه الفرضيات الجميلة كانت مفتوحة امام الحلفاء حين بدأت الحرب ضد ايطاليا، لكن الاحداث التي تسارعت في اوروبا غيرت كل شيء، فالمقاومة الفرنسية على الجبهة الالمانية كانت تضعف بسرعة. واستدعى الجنرال ويغان من بيروت على وجه السرعة لكي يرث هزيمة كبرى في بلاده. وغادرت الحكومة الفرنسية باريس الى مدينة «توروني» لكي تمضي اسبوعا من المداولات هناك حيث ابرق رئيس الوزراء الى تشرشل مقترحا القبول بهدنة مع المانيا كما ارسل النداء بعد الاخر الى الرئيس الاميركي روزفلت. وما هي إلاّ أيام الا واختار المارشال بيتان الاستسلام لالمانيا معلنا ان بريطانيا سوف تذبح في نهاية الامر مثل دجاجة.

في مثل هذا الجو لم يكن ممكنا بالطبع استخدام القوات الفرنسية لمهاجمة الايطاليين. لكن الكارثة التي احاقت بالحلفاء في القارة الاوروبية لم تكن تمنعهم من التحرك في المتوسط. وهكذا اقتحمت البوارج الفرنسية المتمركزة في الاسكندرية بحر ايجه في حين راح اسطول فرنسي - بريطاني يقصف تلال «البردية». وبدأت الحرب الجوية فورا بغارات متلاحقة على الاهداف الايطالية قامت بها طائرات من مصر والسودان وكينيا، ورد

الايطاليون بقصف جيبوتي والسلوم ومرسى مطروح. لكن ذلك الهجوم الموعود على ليبيا لم ير النور لأنه بعد اسبوع واحد كان المارشال بيتان يعلن الهدنة مع الالمان. وفي المغرب قبل الجنرال الفرنسي «توغيس» الهدنة مترددا، اما في بيروت فقد اكد الجنرال ميتلهاوزر للجنرال الانكليزي ويفل «عزمه على مواصلة الكفاح». وكان هذا الامر مهما طبعا لأن الجيش الفرنسي في المشرق كان يسيطر على منطقة حيوية جدا بالنسبة الى الدفاع عن مصر والعراق. ومن جهة اخرى اعلن الجنرال لوجنتيوم في جيبوتي ان القوات الفرنسية هناك ستظل تقاتل الى جانب الحلفاء.

كان المارشال بيتان في باريس قد قبل بوقف القتال في جميع الاراضي الفرنسية والمستعمرات والمحميات والدول الواقعة تحت الانتداب، كما وافق على تجريد جميع القوات الفرنسية وتفكيكها. غير انه كان باستطاعة القادة الفرنسيين في كل منطقة، ان يعصوا تلك الاوامر اذا شاءوا، الا ان معظمهم لن يفعل. فقد شملت رغبة بيتان في الاستسلام معظم الجنرالات. وسرعان ما اعاد الى الالمان ٤٠٠ طيار كانوا قد وقعوا اسرى في ايدي البريطانيين. ثم سارع اميرال البحرية، دارلان، الى انزال العلم عن اساطيله، وتبعه الجنرال توغيس في مراكش ثم ميتلهاوزر في بيروت ولو بعد تردد، اما لوجنتيوم فما لبث هو ايضا ان خضع لروح الاستسلام التي عمت ضباطه في جيبوتي. وفر عدد قليل من الفرنسيين الاشراف الى المقاطعات البريطانية لمتابعة القتال، غير ان وجه الحرب كله قد تغير بالاستسلامات التي اعلنت في ٢٢ و٢٤ حزيران/يونيو.

بدت ثمار ما فعله بيتان بكل وضوح على الخريطة. ذلك ان الغاء البحرية الفرنسية كلها بجرة قلم من رجل عجوز قد غيرت نحو الاسوأ الميزان العسكري كله في المتوسط. وكان على الانكليز ان يواجهوا الموقف بتلك القوى البحرية الموجودة في الاسكندرية وتلك التي ستتوافر لهم في جبل طارق فيما بعد. غير انه بين هاتين النقطتين كانت تمتد مسافة قدرها ٢٠٠٠ ميل ليس فيها ميناء صديقا واحدا سوى فاليتا. وعلى الشاطئ الجنوبي للمتوسط اصبحت الف ميل من السواحل بين ليلة وضحاها في عهدة حياد مشكوك في امره. واصبحت لندن تخشى الآن ان اي قافلة بحرية لها لن تستطيع عبور المتوسط من دون عملية حربية.

مع حلول العام ١٩٤١ اخذت الحرب البحرية تصبح ايضا حرب مطارات. واغلق المتوسط امام الملاحة العادية بسبب وجود طائرات «المحور» في مطارات ومهابط خاصة في سردينيا وليبيا وصقلية. وصارت التعزيزات والمؤن المرسلة الى مصر تنقل الآن حول رأس الرجاء الصالح وعبر مضائق البحر الاحمر حيث تكون اكثر فاكثر عرضة للطائرات الايطالية المتمركزة في اريتريا. وبالتالي فان الطريق البحرية الى الهند قد استطالت تلقائيا بنحو ٤ آلاف ميل والى سنغافورة بنحو ٣ آلاف ميل.

لذلك وامام هذه الخريطة المعقدة.. كان لا بد من دور للطيران. وقد كان ذلك الدور كبيرا ورئيسيا في الشرق عند الانكليز وعند الالمان ناهيك طبعا بالفرنسيين والايطاليين، لكن ما دام لا بد من اختيار جنرال واحد كمثال فالارجح ان مارشال سلاح الجو البريطاني اللورد تيدر هو ... الافضل!

من هو تيدر؟

بعد نهاية الحرب الثانية قال احد المراسلين الحربيين المشهورين في برنامج اذاعي إن تيدر «لم يملك في اي وقت تلك الصفات المتعارف عليها في قائد حربي. وقد كان اسلوبه في العمل اسلوب رجل علم لا رجل عسكري. وكانت مقدرته الحقيقية كرجل اكاديمي متفوق دائما خلف مكتبه حيث يخطط للانتصار على عدوه».

ومثل الكثيرين من ابناء جيله لم يكن تيدر يحلم في بداية الامر بالانضمام الى الجندية، لكن مع اندلاع الحرب الاولى كان لا بد من البزة العسكرية. اما انضمامه الى السلاح الجوي او «الفصائل الملكية الطائرة» في العام ١٩١٥ فقد كان بمحض الصدقة وذلك لأنه كان يعاني من نقص جسماني بسيط. وبعد انتهاء الحرب الاولى لم يخرج الى الحياة المدنية بل اختار البقاء في الثكنة، متنقلا في مناصب مختلفة بين تركيا والشرق الاقصى.

كان يحب ان يظل في الخارج بعيدا عن مناورات «الوايتهول» ومؤامراتها. لكن في العام ١٩٣٨ استدعي الى وزارة الطيران لكي يعين مديرا للابحاث والتنمية. وقد اصبح هذا المنصب المهم اكثر اهمية مع اندلاع الحرب في العام ١٩٣٩.

ذلك ان الكثير من انتصار او فشل السلاح الجوي كان يتوقف على قرارات تلك المديرية. وكان تيدر يعرف الطائرة الجيدة من الطائرة غير الفعالة ولذا كان عليه باستمرار ان يواجه تشرشل ووزير الطيران (١٩٤٠ - ١٩٤١) اللورد بيفر بروك اللذين كانا يعجبان بالبهلوانيات اكثر من الفعالية الحقيقية. وقد ظل تشرشل كذلك طوال فترة الحرب وغالبا ما كان يشير الى تلك الطائرات على انها «العابه».

بعد قليل من اشتعال الحرب سيصبح تيدر واحدا من جنرالات الشرق... ولكن بالصدفة!

كان قائد السلاح الجوي البريطاني في الشرق الاوسط العام ١٩٤٠ هو مارشال الجو لونغمور، وفي اواخر ذلك العام طلب ان يعين تيدر نائبا له لكن الحكومة رفضت ذلك وبعثت اليه بضابط اخر، غير ان طائرة الضابط البديل اسقطت وهي في الطريق الى القاهرة وهكذا عاد المنصب تلقائيا الى تيدر.

وشد تيدر حزامه وتوجه الى القاهرة لكي يلعب «الدور الجوي الاكثر اهمية في الحرب

العالمية الثانية» كما يقول لنا المارشال الجوي كريستوفر فوكسلي نوريس. فالمعارك التي جرت في الشرق الاوسط هي التي اثبتت ان القوة الجوية ليست مجرد قوة مساندة للقوى البرية وانما هي القوة الحاسمة.

وعندما وصل تيدر الى القاهرة في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤١ كانت معنويات القوات البريطانية قد عادت الى الارتفاع. فالبحرية حسمت الميزان لصالحها بعد الغارات الجوية التي قامت بها طائرات البوارج على مدينة تارانتو والجيش كان قد صد الهجمات الايطالية على القواعد في مصر وحقق مكاسب ميدانية عديدة، اما السلاح الجوي فقد استطاع، على الرغم من اهتراء بعض الطائرات، ان يصد السلاح الجوي الايطالي في الصحراء الغربية والحبشة، لكن هذه الانتصارات كانت ابعد من ان تكون هي الانتصار النهائي. اذ على الرغم مما حدث في تارانتو ومن ثم تدعيم الوضع في مالطا فان الممرات البحرية عبر المتوسط ظلت محفوفة بالمخاطر. وكانت معظم القوات والتعزيزات لا تزال تصل الى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح. وكانت الطائرات تنقل مفككة الى نيجيريا حيث يعاد تجميعها ومن هناك تطير الى القاهرة.

شعر تيدر بسعادة حقيقية وهو يتسلم منصبه وتكليفه بالاشراف على العمليات في الصحراء الغربية ومصر. واذ خبر أول مرة القتال الجوي هناك اعتراه فرح حقيقي فكتب يقول «إنه اجمل اسبوع بالنسبة الي طوال الخدمة العسكرية. ومن الصعب علي ان اشرح ذلك الشعور الذي خامرني وانا في الصحراء ولست ادري ما اذا كان السبب هو ذلك الجو النقي اللماع ام الشعور المعنوي لدى رجالنا». وفي مقاطع اخرى من مذكراته يعرب عن اعجاب شديد برجال الميدان والجو معا: «لقد امضيت اربع ساعات اتحدث الى رجالنا من البريطانيين والاوستراليين والنيوزيلنديين والروديسيين، وفي نهاية الامر رحنا نغني، انهم يثيرون الاعجاب حقا، كيف ينتقلون من حملة الى اخرى الى ثالثة وفي ظروف صعبة بل مستحيلة».

غير انه بقدر ما كان معجبا بالرجال بقدر ما كان قلقا بسبب الطائرات نفسها. وكان يشعر انها رديئة الصيانة ومتخلفة عن غيرها. وفي حين استطاعت البحرية البريطانية في الشرق الاوسط ان تبعد نفسها عن مناورات السياسيين ونفوذهم لأن قيادتها كانت في الاسكندرية، فان الجيش والسلاح الجوي ظلا خاضعين للنفوذ السياسي الى حد بعيد. لكن تيدر استطاع ان يقيم علاقات حسنة مع القائد العام الجنرال «ويفل» وكذلك مع خلفه «اوكينلك» مع انه كان يتضايق من عناد الاثنين وترددهما، كما كان يشعر ان الكثيرين من الضباط المحيطين بهما هم دون المستوى المطلوب.

كانت الغيوم تتلبد اكثر فاكثر في سماء الشرق الاوسط. ومع حلول كانون الثاني/يناير

١٩٤١ وصلت طلائع السرب الالماني العاشر الى صقلية بعدما رأى الالمان ان حلفاءهم الايطاليين يعانون من نواقص كثيرة فهبوا الى تعديل الميزان. وقد اثرت هذه الخطوة في الوضع البحري اكثر من تأثيرها في الوضع الجوي نفسه اذ ازدادت المخاطر على القوافل البحرية. وصارت الآن المحافظة على مالطا مسألة حياة او موت بالنسبة الى الحلفاء، وكذلك المحافظة على تلك القواعد التي احتلها الانكليز في برقة (بنغازي).

العالمية الثانية» كما يقول لنا المارشال الجوي كريستوفر فوكسلي نوريس. فالمعارك التي جرت في الشرق الاوسط هي التي اثبتت ان القوة الجوية ليست مجرد قوة مساندة للقوى البرية وانما هي القوة الحاسمة.

وعندما وصل تيدر الى القاهرة في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤١ كانت معنويات القوات البريطانية قد عادت الى الارتفاع. فالبحرية حسمت الميزان لصالحها بعد الغارات الجوية التي قامت بها طائرات البوارج على مدينة تارانتو والجيش كان قد صد الهجمات الايطالية على القواعد في مصر وحقق مكاسب ميدانية عديدة، اما السلاح الجوي فقد استطاع، على الرغم من اهتراء بعض الطائرات، ان يصد السلاح الجوي الايطالي في الصحراء الغربية والحبشة، لكن هذه الانتصارات كانت ابعد من ان تكون هي الانتصار النهائي. اذ على الرغم مما حدث في تارانتو ومن ثم تدعيم الوضع في مالطا فان الممرات البحرية عبر المتوسط ظلت محفوفة بالمخاطر. وكانت معظم القوات والتعزيزات لا تزال تصل الى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح. وكانت الطائرات تنقل مفككة الى نيجيريا حيث يعاد تجميعها ومن هناك تطير الى القاهرة.

شعر تيدر بسعادة حقيقية وهو يتسلم منصبه وتكليفه بالاشراف على العمليات في الصحراء الغربية ومصر. واذ خبر أول مرة القتال الجوي هناك اعتراه فرح حقيقي فكتب يقول «إنه اجمل اسبوع بالنسبة الي طوال الخدمة العسكرية. ومن الصعب علي ان اشرح ذلك الشعور الذي خامرني وانا في الصحراء ولست ادري ما اذا كان السبب هو ذلك الجو النقي اللماع ام الشعور المعنوي لدى رجالنا». وفي مقاطع اخرى من مذكراته يعرب عن اعجاب شديد برجال الميدان والجو معا: «لقد امضيت اربع ساعات اتحدث الى رجالنا من البريطانيين والاوستراليين والنيوزيلنديين والروديسيين، وفي نهاية الامر رحنا نغني، انهم يثيرون الاعجاب حقا، كيف ينتقلون من حملة الى اخرى الى ثالثة وفي ظروف صعبة بل مستحيلة».

غير انه بقدر ما كان معجبا بالرجال بقدر ما كان قلقا بسبب الطائرات نفسها. وكان يشعر انها رديئة الصيانة ومتخلفة عن غيرها. وفي حين استطاعت البحرية البريطانية في الشرق الاوسط ان تبعد نفسها عن مناورات السياسيين ونفوذهم لأن قيادتها كانت في الاسكندرية، فان الجيش والسلاح الجوي ظلا خاضعين للنفوذ السياسي الى حد بعيد. لكن تيدر استطاع ان يقيم علاقات حسنة مع القائد العام الجنرال «ويفل» وكذلك مع خلفه «اوكينلك» مع انه كان يتضايق من عناد الاثنين وترددهما، كما كان يشعر ان الكثيرين من الضباط المحيطين بهما هم دون المستوى المطلوب.

كانت الغيوم تتلبد اكثر فاكثر في سماء الشرق الاوسط. ومع حلول كانون الثاني/يناير

١٩٤١ وصلت طلائع السرب الالماني العاشر الى صقلية بعدما رأى الالمان ان حلفاءهم الايطاليين يعانون من نواقص كثيرة فهبوا الى تعديل الميزان. وقد اثرت هذه الخطوة في الوضع البحري اكثر من تأثيرها في الوضع الجوي نفسه اذ ازدادت المخاطر على القوافل البحرية. وصارت الآن المحافظة على مالطا مسألة حياة او موت بالنسبة الى الحلفاء، وكذلك المحافظة على تلك القواعد التي احتلها الانكليز في برقة (بنغازي).

المراجع

المراجع العربية

البرت حوراني، سورية ولبنان، لندن، ١٩٤٦.
جورج انطونيوس، اليقظة العربية.
عباس عبد الحليم، فتاة من فلسطين، عمان، ١٩٤٩.
عباس مكي، المسألة السودانية، لندن، ١٩٥٢.
عبدالفتاح ابراهيم السيد بدور، العلاقات المصرية السودانية، لاهاي، ١٩٦٠.
مجيد خدوري، العراق المستقل ١٩٣٢ ـ ١٩٥٨، لندن، ١٩٦٠.
ـ مذكرات الملك عبدالله، نيويورك، ١٩٥٠.

المراجع الاجنبية

Barrès, M. *Une enquête au pays du levant,* Paris, 1923.
Berque, J. *L'Egypte, Impérialisme et révolution,* Paris, 1967.
Carver, M. *El Alamein,* B. T. Batsford Ltd, London.
Carver, M, *Tobruck,* B. T. Batsford Ltd, London.
Catroux, G. *Deux missions en Moyen-Orient,* 1919 - 22, Librairie Plon, Paris.
Eisenmenger, V. *Archduke Francis Ferdinand,* Selwyn and Blount Ltd, 1928.
Fabre Luce, *A. Deuil au levant,* Paris, 1950.
Fisher, S. N. *The Middle East: A History,* Routledge and Kegan Paul Ltd, London.
Froembgen, H. *Kemal Ataturk,* jarrolds Publishers Ltd, London.
Gardner, B. *Allenby of Arabia,* New York, 1966.
De Gaulle, C. *War Memories* 1940-46, A de Capo.
George, L. *Memoirs of the Peace Conference.*

Guedalla, P. *Middle East 1940-42; Study in Air Power,* Hodder and Stought-on, London.
Holt, P.M.A *Modern History of the Sudan,* London, 1961.
Lapierre, J. *Le mandat français en Syrie*, Paris, 1936.
Lenckzowski, G. *The Middle East in World affairs,* Cornell University Press.
Leslie, S. *Mark Sykes: His Life and Letters,* Cassell & Co. Ltd, London, 1923.
Maurois, A. *Marshall Lyautey,* The Bodley Head Ltd, London.
Mockeller, A. *Our Enemies the French,* Leo Cooper, London.
Montgomery, B. *Memoirs,* Collins, 1958.
Morgan-Jones, J. F. *La fin du mandat français en Syrie et au Liban,* Paris, 1938.
Noves, M. I. *Italian Foreign Policy* 1918-32, London, 1932.
Sachar, H. M. *Europe Leaves the Middle East* 1936-54 Alfred A. Knopf, New York.
Sachar, H. M. *The Emergence of the Middle East 1914-24,* Alfred A. Knopf, New York.
Schmidt, H.W. *With Rommel in the Desert*, London 1951.
Spears, E. *Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon 1941-44,* Archon Books.
Villari, L. *Italian Foreign Policy Under Mussolini,* New York, 1956.
Wavell, A. *Allenby: A Study in Greatness,* George G. Harrap & Co. Ltd, London.
Weygand, H. *Idéal vécu,* Falmmarion, Paris.
— *La campagne du général de Falkenhaym en Palestine, Larcher,* Paris.
— *Background of the Middle East,* Cornell University Press.

المحتويات

قيل في الكاتب

«إذا كانت المعرفة هي ثروة الفقراء فإن سمير عطاالله مليونير ثقافي أو هو من أصحاب أكبر الثروات المعرفية في العالم العربي».

عبدالله باجبير
(الشرق الأوسط)

«ليس هناك بين الكتاب اللبنانيين من يجيد كتابة ما هو فيه من الصباح الى المساء مثل سمير عطاالله».

ياسين رفاعية (الظهيرة)

«ومما يزيد في تقريب الكتاب أسلوب سمير عطاالله».

محمد علي فرحات (الحياة)

«سمير عطاالله سرق الكلمات التي كنت سأقولها وصبّها في قالبه الاستثنائي الخاص المستعصي على التقليد».

غادة السمان (الحوادث)

«وفي لبنان تتوقع كل شيء وأي شيء على حد تعبير الكاتب اللبناني الكبير سمير عطاالله».

احسان بكر (الاهرام)

«الكاتب الممتاز قارىء ممتاز أولاً. الزميل الأديب سمير عطاالله هو من هذا الصنف بامتياز».

حافظ محفوظ (الحوادث)

«اذا كنت تريد متابعة تحليل سياسي عربي مكتوب برزانة وعمق. فاقرأ سمير عطاالله. واذا كنت تريد خبيراً في السياسة الدولية يعرف الدول الكبرى مثل كفه والقرى الصغيرة في مجاهل العلم بأزقتها، فاقصد سمير عطاالله. وإذا كنت تريد أن تقرأ نثراً عربياً أقرب الى الشعر ووصفاً واقعياً أقرب الى الخيال وأدب الرحلات وقد صيغ بأسلوب أقرب إلى القصة، فتابع سمير عطاالله».

رؤوف شحوري (الصياد)

الفصول الرئيسية من أدوار أولئك العسكريين الأوروبيين الذين جاؤوا إلى العالم العربي حكاماً ومندوبين سامين في المرحلة الواقعة ما بين الحربين العالميتين. وقد اختار الكاتب من كل جنرال دوره الأول في حياته وحياة المنطقة: اللنبي ومعركة القدس، غورو واستقلال لبنان، روميل ومعركة العلمين، أتاتورك والذهاب من حلب إلى السلطة، لايوتيه ومعركة الجزائر إلخ.

وفي مقدمة مسهبة تكاد تكون كتاباً بحد ذاته، روى سمير عطاالله قصة «الشرق الأوسط» ومراحل تكوّن المنطقة بين ١٩١٤ و١٩٤٥، وتوقف طويلاً عند أسباب وتواريخ ومعاني استخدام تعبير «الشرق الأوسط» بدلاً من الشرق الأدنى.

«جنرالات الشرق» حكايات سياسية ترسم عبر أشخاصها حكاية منطقة بكاملها وحقبة بأسرها.

«على رغم غزارة انتاجه اليومي والأسبوعي يفاجئنا سمير عطاالله بين الآونة والأخرى بكتاب ليغني المكتبة ويزيدنا علماً، وكأنه جواهرجي بارع في فن الصياغة».

عرفان نظام الدين (الحياة)

ISBN 1 85516 594 5

